



نحو النص ذي الجملة الواحدة:

دراسة تطبيقية في مجمع الأمثال للميداني



محمود قدوم



نحو النص ذي الجملة الواحدة:

دراسة تطبيقية في هجمع الأمثال للميداني

تأليف

محمود قدوم



نحو النص ذي الجملة الواحدة: دراسة تطبيقية في مجمع الأمثال للميداني

محمود قدوم

الرياض، ١٤٤٦هـ

البريد الإلكتروني: nashr@ksaa.gov.sa

ح / مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، ١٤٤٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

٣٥٣ ص، ١٧ × ٢٤ سم - (الرسائل الجامعية ١)

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٤٧٢-١٨-٧

١- نحو النص ذي الجملة الواحدة: دراسة تطبيقية في مجمع

الأمثال للميداني أ. العنوان

رقم الإيداع: ١٤٤٦/٤٢٥١

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٤٧٢-١٨-٧

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو نقله في أي شكل أو وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أم يدوية، بما في ذلك جميع أنواع تصوير المستندات بالنسخ، أو التسجيل أو التخزين، أو أنظمة الاسترجاع، دون إذن خطي من المجمع بذلك.

(صدر هذا الكتاب عن مركز الملك عبدالله للتخطيط والسياسات اللغوية، والذي جرى دمجها في مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية).

هذه الطبعة إهداء من المجمع، ولا يُسمح بنشرها ورقياً، أو تداولها تجارياً

أطلق مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية ضمن أعماله وبرامجه مشروع: (المسار البحثي العالمي المتخصص)؛ لتلبية الحاجات العلميّة، وإثراء المحتوى العلمي ذي العلاقة بمجالات اهتمام المجمع، ودعم الإنتاج العلمي المتميّز وتشجيعه، ويضم المشروع مجالات بحثية متنوعة، ومن أبرزها: (دراسات التّراث اللّغوي العربي وتحقيقه، والدّراسات حول المعجم، وقضايا الهوية اللّغوية، ومكانة العربيّة وتعزيزها، واللسانيّات، والتخطيط والسياسة اللّغوية، والترجمة، والتّعريب، وتعليم اللّغة العربية للتّاطقين بها وبغيرها، والدّراسات البيئيّة).

وصدر عن المشروع مجموعة من الإصدارات العلمية القيمة (جزء منها-ومن بينها هذا الكتاب- صدر عن مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز للتخطيط والسياسات اللّغوية والذي جرى دمجها في مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية). ويسعد المجمع بدعوة المختصين، والباحثين، والمؤسسات العلميّة إلى المشاركة في مسار البحث والنشر العلمي، والمساهمة في إثرائه، ويمكن التواصل مع المجمع لمسار البحث والنشر عبر البريد الشبكي: (nashr@ksaa.gov.sa) .

والله ولي التوفيق

هذا العمل في أصله هو أطروحة تقدّم بها صاحبها لنيل درجة الدكتوراة في اللغة العربيّة وآدابها من الجامعة الأردنيّة، في تاريخ: ٢٧ ربيع الثاني، ١٤٣٥هـ، الموافق ٢٧ / ٢ / ٢٠١٤م، بإشراف الأستاذ الدكتور نهاد الموسى والدكتورة خلود العموش، وعضويّة الأساتذة: الدكتور محمد القضاة، والدكتور جعفر عبابنة، والدكتور وليد العناقي.

الإهداء

أسعى إلى التقاط العبارات فتحرقني الكلمات، فلا أصابعي تجود ولا فكري يتوقف؛ لذا سأكتفي بالبده:

إلى والديَّ الكريمين أمل الوجود وبحر العطاء والجود، ودرة التاج في رأسي: ﴿رَبِّ اَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ سورة الإسراء، من آية ٢٤، والدي الذي علّمني أنّ الحياة حقّ ندافع عنه، ومبدأ نلتزم به، وغاية مثلى نسعى إلى تحقيقها... ووالدي قبلة السماء على جبين الأرض، وقبلتي التي كلّما أرادوا أن يحولوني عنها يَمُمْتُ وجهي شطرها... التي أسعدتني ولم تسعد، وزرعت ولم تحصد، غفر الله لها، وأنزل عليها شآبيب مغفرته.

وأثني بوقفة احترام خاص، وثناء جليل وإقرار بالعرفان إلى حُمة نفسي، رموز الوفاء الصادق، وعنوان المشاركة المثالي، وآيات الإخلاص المتفاني، إخوتي الأعزاء؛ تقديرًا مني لصبرهم وتحملهم المشاق والمتاعب عني.

ولا أنسى دفاء الأخوة، ونبع الصداقة، إلى الرسائل التي ستبقى رموزًا خالدة في الذكر، الذين قضيت معهم أيام شبابي الأولى بأفراحها ومعاناتها، إخلاصًا لذكريات رائعة، وأملًا بأيام قادمة -ياذن الله- أجمل... أصحابي.

وإلى عصفورتي التي ركبت هواها كلّما حطّت، تطير..

وحدها التي نسجت حروف اسمها وسيرتها من نور،
ووحدها التي جعلتني قنوعاً بما في يدي من أصابع.
ومع كلَّ خَفَقَةِ قلبٍ يعظم افتخاري بكلِّ مَنْ قَدَّمَ لهذه الدراسة يدًا؛ سواء كان ذلك برأيه أم
بتوجيهه أم بالإحالة والدلالة على كتاب أو بحث، أم بإرشاد لفكرة أم بلفت النظر إلى فائتة.
وأعتذر لكلِّ من لم أذكر فأنا كالمنكر لنفسه المغلوب على حسِّه وحسِّه.
وإلى كلِّ مَنْ فَرَّطَ في جنبه - عَفْوَاً أو عَمْدًا - في سبيل إنجاز هذه الدراسة، فتلذَّذ بالغفران،
ولهج بالمساحة؛ فَمَنْ اغْتَابَ خَرَقَ، وَمَنْ اسْتَغْفَرَ رَقَعَ.
أهدي هذه الرسالة فأنا لا أملك إلا حبي ودعائي وهذه الكلمات وبعضاً من الذكريات



شكر وعرفان

أمّا الشكر فلهّ أولاً وآخرًا، عدد ما احتوى هذا البحث من حروف وكلمات، فما سطرْتُ كلمة فيه إلا بتيسيره، وما اهتديتُ إلى فكرة جديدة إلا بتدبيره وتقديره، والصلاة والسلام على نبيّه القائل: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»^(١)، وبعد،

فإنّي لستُ أدّعي أنّي بكلماتي المتواضعة هذه سأؤيّي المتفضّلين عليّ حقوقهم، أو أرُدّ لأصحاب الجميل جميلهم؛ إذ ما هي إلا كلمات متصاغرة أمام أفضال جمّة، وأوّل من أذكر أستاذيّ الفاضلَيْن المشرفَيْن على هذه الرسالة؛ الأستاذ الدكتور نهاد الموسى راعي تلعات العلم، وجامع أشتات الفكر والحلم، رأس المؤلّفين في زمانه، والمصنّفين بحكم أقرانه؛ برّا بعلمه الواسع، وأستاذيّته الرائدة، وما قدّمه من توجيهات سديدة مخلصة، وآراء منهجيّة بناءة.

ثمّ أمّا أنتِ أمّ مالك الدكتورة خلود العموش سيدتي ومعلّمتي، فما أقولُ فيكِ والصمتُ عن وصفكِ أبلغُ فيه.. صمّتُ فنازعنتي إلى وصفكِ نفسي.

كيف لا، وهي التي أنعم الله عليّ بها منذ بنائي العلمي الأوّل في قاعة الدرس الجامعي، فأغدقت عليّ بموفور عطائها، وتعهّدتي بالدرس والبحث إلى أن غرست في نفسي حبّ

١ - مسند أحمد بن حنبل، ح ٧٩٢٦.

العلم، والنظر إلى مستجدّاته في حقل اللغة والنحو، مع احترام رفيع للتراث وما جاء فيه، والإفادة الحقيقيّة منه؛ فالدعاء موصول لها؛ فكلّ ذرة علم فيّ مرهونة بفضيلها، ويجمل بي أن أقول: للفضل اسمٌ آخر... يُدعى «خلود». سيّدتي ومعلّمتي، أحسن الله إليك.

هذان مشرفيّ أنعم بهما خُلُقًا وإشرافًا

فلساني يعيا وقلمي يحفّ قبل أن أفيهما حقّهما من الشكر والعرفان
ويسرّني أن أتقدّم بشكر نبيل لمركز الملك عبد الله لخدمة اللغة العربيّة؛ رئيسًا ومعاونين
وعاملين لتفضّله بقبول نشر هذه الدراسة، والله أسأل أن يظلّ هذا المركز رافدًا من روافد
العلم والمعرفة، وأن يهيئ للعاملين فيه أسباب السداد والرشاد
وإلى كلّ من شملني بسؤال مخلص، مشفوعًا بتمنيات صادقة



فهرس المحتويات

٥	الإهداء
٧	شكر وعرفان
٩	فهرس المحتويات
١٣	فهرس الأشكال
١٥	مقدمة
٢٧	تمهيد في حدّ المصطلح
٢٩	أولاً: الجملة
٤٠	ثانياً: النص
٤٨	ثالثاً: نحو النص
٦١	رابعاً: الأمثال العربيّة: مجمع الميداني نموذجاً
٧٧	الفصل الأول: النص ذو الجملة الواحدة: حدّه وخصائصه ونحوه

٧٨	أولاً: هل يمكن أن يتشكّل النص من جملة واحدة؟
٨٣	ثانياً: النص ذو الجملة الواحدة: حدّه وخصائصه
١١٥	ثالثاً: الفرق بين الجملة في حدّها النحوي والنص ذي الجملة الواحدة
١٢٥	رابعاً: النحو الذي يصلح لدراسة النص ذي الجملة الواحدة
١٣٠	خامساً: نماذج من النصوص ذوات الجملة الواحدة في التراث العربي
١٣٥	الفصل الثاني: النص ذو الجملة الواحدة في سياقه التواصلّي
١٣٧	أولاً: المرسل وآليات الإنتاج
١٥٥	ثانياً: إنتاج (النص / المثل)
١٧٨	ثالثاً: آليات التلقّي
١٨٥	رابعاً: الغرض
١٩٤	خامساً: جامعو الأمثال وآليات الإنتاج والتلقّي
٢٠٥	الفصل الثالث: نحو النص ذي الجملة الواحدة: أمثال الميداني نموذجاً
٢٠٧	أولاً: النص ذو الجملة الواحدة ومقولات التماسك النصّي
٢٢٧	ثانياً: البنى النصيّة في النص ذي الجملة الواحدة
٢٢٧	أ- البنية الكلّيّة الكبرى في النص ذي الجملة الواحدة
٢٣٧	ب- البنية العليا للنص ذي الجملة الواحدة
٢٣٩	ج- البنية التركيبيّة للنص ذي الجملة الواحدة
٢٦٢	ثالثاً: إعادة بناء النص
٢٧٩	رابعاً: الحذف في النص ذي الجملة الواحدة
٢٩٣	خامساً: البنية الإحاليّة في النص ذي الجملة الواحدة

٣١٠	سادسًا: آليات التأويل في المثل
٣١٥	- الخاتمة
٣٢٥	- المصادر والمراجع



فهرس الأشكال

١٣٧	شكل رقم (١)
١٤٤	شكل رقم (٢)
١٤٩	شكل رقم (٣)
١٧٦	شكل رقم (٤)
٢١٣	شكل رقم (٥)
٢٢١	شكل رقم (٦)
٢٤٥	شكل رقم (٧)
٢٩٨	شكل رقم (٨)
٣٠٦	شكل رقم (٩)



مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الهادي الأمين، وبعد،
فيُعدّ نحو النص -مصطلحاً ومنهجاً- حقلاً جديداً من حقول المعرفة في الدرس اللغوي
الذي اصطلح على تسميته (لسانيات النص)، والغرض منه توسيع دائرة النحو المعرفية
والانتقال به إلى ما فوق الجملة من مقطع وفقرة، وصولاً إلى نظرة شاملة للنص، وتطويره
بما يناسب اللسانيات الحديثة وتحليل الخطاب.

وفي هذا العلم، تحوّل اللسانيون من التعامل مع الجملة على أنها بنية مستقلة إلى معالجة
الكيان اللغوي الأوسع وهو النص، واتّجهوا نحو الاهتمام به واتخاذ موضوعاً للدراسة؛
فتناولوه بالوصف والتحليل، وبحثوا علاقته بالاتصال اللغوي، وأثره في علاقات النص
الداخلية والخارجية.

وكان الهدف من ذلك أن تُصاغ نظرية نصية عامة تشكّل أساساً لوصف الأشكال النصية
المتباينة وعلاقاتها المتبادلة، تنظر إلى النص كلّ، فلا تقف عند بنائه التركيبي إلا بقدر ما يؤثر
هذا الركن البنائي في حركة النص الكلية.

وإذا كان إنتاج النص وتلقّيه يُعدّان من النشاط المعقّد للغة فقد مضى علماء لغة النص
يجربون نماذج مختلفة لوصف النصوص وتحليلها، برصد السمات القارّة في النصوص كلّها،
التي تجعل هذا التركيب اللغوي يُسمّى «نصّاً»، ورأوا أنّ النصّ قد يتألف من جملة واحدة،

وقد يأتلف من عدد كبير من الجمل؛ فالحجم أو الطول عندهم ليسا من السمات التي تصنع «نصيّة» النص.

وركّز «نحو النص» في بحثه لنصيّة النص على التماسك النصّي، وهو قائم على علاقات اتساق بين الوسائل اللغويّة التي تصل بين العناصر المكوّنة للنص، وعلى علاقات انسجام تشمل العلاقات المعنويّة الظاهرة والمخفيّة والمعطيات المشكلة لإطار تلقي النص. والناظر في الدراسات التي اشتغلت على هذا العلم يلحظ أنّ النصّ متعدّد الجمل قد ظفر بعدد من الدراسات التي تناولته، وسعت إلى أن تُقعد نحوه وتستقري سماته، لكنّ النصّ ذا الجملة الواحدة لم يظفر بأيّ دراسة عربيّة، وأشير إليه إشارات عابرة عند بعض الدارسين، مع أنّ أمثله موجودة في الموروث العربي، ومن ذلك نصوص الأمثال، والتوقيعات، وغيرها.

وتسعى هذه الدراسة إلى أن تستقري نحو النصّ ذي الجملة الواحدة، وأن تصف كيف استطاعت جملة واحدة أن تتمثّل سمات النصّ -من اكتمال وإغلاق وتماسك وغيرها- وأن تحتزن بنيته الكبرى بجلاء، وكيف تفاعلت مع المتلقّي ليلتقط مفاتيح النصّ بأبعاده المختلفة.

وقد وقع اختياري على هذا الموضوع؛ لأنني رأيت أنّ هذا العلم (نحو النص) لما ينضج؛ فهو بحاجة إلى مزيد من الإيضاح برسم ملامحه وبيان مقولاته وقواعده، من هنا أردت المشاركة فيه، ودخوله من باب قراءة التليد بالجديد في معالجة تطبيقية تكشف لنا ما في تراثنا، وما حمّله من فكر لعلمائنا من محطات نستضيء بها، فوقع اختياري على دراسة النصّ ذي الجملة الواحدة، متّخذاً من الأمثال الدالّة على ذلك في مجمع الأمثال للميداني نموذجاً. ولعلّ أكبر ما سوّغ لي اختيار نصوص الأمثال للتطبيق عليها أنّها تمثل نموذجاً واضحاً لكيفيّة تبلور النصّ في جملة واحدة، تعبّر عن معناه، وتكشف عن مغزاه، كما أنّ أغلب الدراسات التي عُنيّت بدراسة الأمثال العربيّة ارتبطت -إلى حدّ بعيد- بما عُرف عن المثل من تصوّر في كتب النقد والبلاغة وعلوم القرآن والحديث، وما ثبت له من معنى لغوي واصطلاحي، جعل المشابهة من أهمّ معانيه، وبها يُقصد، مثلاً تضاء المساحة البلاغيّة التي يقوم عليها جسراً بين واقعتين: قديمة غائبة وأخرى راهنة؛ بهدف التبصير والعظة، أمّا ما تكتنزه هذه البنية اللغويّة (جملة المثل) من اختزال وتكثيف وبلاغة... بحيث تعبّر هذه الجملة عن نصّ مكتمل أو نصوص مكتملة، فلم يكن همّ تلك الدراسات.

ويعدّ مجمع الأمثال للميداني من أبرز الكتب التي تمثل جمع العرب للأمثال، ويتميّز عن غيره باشماله على أمثال المولدين، واتفق العلماء والمؤرخون على أنّه فريد في نوعه، ووُصف بأنّه كتاب لم يُعمل في بابهِ مثله قط^(١).

وتناولت هذه الدراسة فضاء إنتاج المثل، ورصدت مظاهره التعبيرية، وهذا أيضًا إجراء منهجي لفتح المجال الضيق الذي حُدّد -غالبًا- أمام الدراسات السابقة التي تناولت المثل بوصفه جنسًا أدبيًا بصيغة المثل نفسها؛ أي بالشكل التركيبي السطحي للمثل بغض النظر عن تفاعلاته في السياقات التواصلية الحاضرة للمواقف التي يُستعمل فيها، لتتوجّه إلى ملاحظة نص المثل ضمن فضاء أوسع هو السياق، بما ينطوي عليه من وحدات حكاية وتفسيرية واستشهادية، وبما يسعى إلى تحقيقه من أهداف وعظية أو تعليمية أو ترويحية تكون ملتحمة مع بعضها.

وقدّمت هذه الدراسة أيضًا وصفًا لنص الجملة الواحدة ومقولات التماسك النصّي، من حيث: البنى النصّية في النص ذي الجملة الواحدة، التي تتضمّن البنية الكلية الكبرى، والبنية العليا، والبنية التركيبية، والبنية الإحالية في النص ذي الجملة الواحدة، إضافة إلى آليات التأويل في نحو النص ذي الجملة الواحدة.

لهذا فقد سارت هذه الدراسة مع نصوص الأمثال في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، جاء توزيعها على النحو الآتي:

التمهيد واشتمل على أربع قضايا أساسية؛ قرأت القضية الأولى مفهوم الجملة في الدرس اللغوي القديم والحديث، وتوقّفت القضية الثانية عند النص، متتبّعة لمفهومه ومعناه في التراث العربي والغربي قديمًا، ثم في الدرس اللغوي الحديث، وانبرت القضية الثالثة لمعالجة نحو النص كما ظهر في إشارات علماء النحو والبلاغة والقرآن في التراث العربي، ثم توقّفت عند جهود نحاة النص في العصر الحديث، وتوقّفت القضية الرابعة عند مفهوم المثل، والفرق بينه وبين الحكمة، ومجمع الأمثال للميداني.

والفصل الأول، وهو بعنوان: "النص ذو الجملة الواحدة: حدّه وخصائصه ونحوه"، واشتمل على خمس قضايا؛ اهتمّت القضية الأولى بالإجابة عن سؤال: هل يمكن أن يتشكّل

١- العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٧٩، ج ٢، ص ٥٨.

النص من جملة واحدة؟، وعُنيَت القضية الثانية بوضع حدّ للنص ذي الجملة الواحدة وبيان أهمّ خصائصه، وسعت القضية الثالثة إلى تحديد الفرق بين الجملة في حدّها النحوي والنص ذي الجملة الواحدة، وخصّصت القضية الرابعة للنحو الذي يصلح لدراسة النص ذي الجملة الواحدة، أمّا القضية الخامسة في هذا الفصل فتوقّفت عند نماذج من النصوص ذوات الجملة الواحدة في التراث العربي؛ وتشمل: الأحاديث النبويّة الشريفة، وأقوال الصحابة والمشاهير، والتوقعات.

وأما الفصل الثاني فجاء بعنوان: "النص ذو الجملة الواحدة في سياقه التواصلّي"، واشتمل على أربع قضايا، هي: المرسل وآليّات الإنتاج، وإنتاج (النص / المثل)، وآليّات التلقّي، والغرض، وجامعو الأمثال وآليّات الإنتاج والتلقّي: قراءة في ضوء نحو النص: الميداني نموذجًا.

وأما الفصل الثالث فهو بعنوان: "نحو النص ذي الجملة الواحدة: أمثال الميداني نموذجًا"، واشتمل على سبع قضايا، هي: النص ذو الجملة الواحدة ومقولات التماسك النصّي، والبنى النصيّة في النص ذي الجملة الواحدة، والبنية الكلّيّة الكبرى في النص ذي الجملة الواحدة، وإعادة بناء النص، والحذف في النص ذي الجملة الواحدة، والبنية الإحاليّة في النص ذي الجملة الواحدة، وآليّات التأويل في المثل.

وأما الخاتمة فجمعت جملة من النتائج المستخلصة من الدراسة.

واسترشدت الدراسة ببعض الدراسات السابقة ذات العلاقة بموضوع الدراسة مثل^(١):

١-تطور أدوات الاتساق النحوي والمعجمي في الخطاب الشعري العربي «عبد الوهاب البياتي نموذجًا»، أطروحة دكتوراة غير منشورة، أعدّها محمد أبو عيد في جامعة اليرموك، إربد، الأردن، عام ٢٠٠١.

سعت هذه الدراسة معالجة الاتساق النحوي والمعجمي في الخطاب الشعري العربي الحديث، متخذة من شعر عبد الوهاب البياتي نموذجًا للتطبيق عليه، وقد جاءت هذه الدراسة في ثلاثة فصول، عرضت في الأوّل الإطار النظري للاتساق، فسعت إلى أن تستشرّف في التراث وأن تحدّد عند المُحدّثين، وفي الثاني كان التطبيق على شعر البياتي بواسطة الاتساق النحوي، لإظهار الأدوات الاتساقية النحوية عند البياتي وصفًا وإحصاء، أمّا الفصل الثالث فكان

١- تمّ ترتيب الدراسات تاريخيًا.

بعنوان الاتساق المعجمي في شعر البياتي، وفيه رصد عناصر الاتساق المعجمية في بعض قصائد البياتي.

٢- نحو النص: اتجاه جديد في الدرس النحوي، وهو كتاب صادر عن مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، لأحمد عفيفي، عام ٢٠٠١.

قام هذا الكتاب على ركيزتين أساسيتين، هما:

أ- أن هذا العلم (نحو النص) هو نتاج تفاعل مجموعة من العلوم المتنوعة، بعضها لغوي وبعضها الآخر غير لغوي.

ب- أن نحو النص جاء تطويراً لبحوث لغوية مكثفة قامت بها المدارس اللغوية الأوروبية والأمريكية لمدة طويلة.

وقسم بحثه على ستة مباحث، جعل المبحث الأول مدخلاً تعريفياً لبعض المصطلحات مثل: (الجملة، والنص، ونحو النص)، وتحدث في المبحث الثاني عن الحاجة إلى نحو النص، إذ ذكر له ست فوائد تستطيع أن تغير رؤية الدارسين بخصوص بعض المفاهيم اللغوية التقليدية السائدة، وتكلم في مبحثه الثالث على علاقة السياق بنحو النص، ولا سيما السياق اللغوي وارتباطه بالتحليل النصي، وتحدث في المبحث الرابع عن الحاجة إلى النمطين؛ نحو الجملة ونحو النص، ثم رأى أن قواعد نحو الجملة هي المؤسسة لنحو النص فضلاً عن زيادة قواعد أخرى جديدة بناء على تحديد أهدافه، أما المبحث الخامس فقد خصصه للملامح الاتفاق والاختلاف بين نحو الجملة ونحو النص، وذكر المبادئ العامة الحاكمة للنمطين وعنى بها خصائص كل من النحويين، ثم رأى أن ثمة صفتين يشترك فيهما النحوان هما: السبك والحبك، وأفرد مبحثه السادس لهذين المعيارين: السبك والحبك.

٣- نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، وهو كتاب صادر عن دار ذات السلاسل، الكويت، لمصطفى النحاس، عام ٢٠٠١، بدأ الباحث بمدخل تناول فيه مفهوم النص والفرق بينه وبين نحو الجملة، ثم عرض لجهود القدماء في الكشف عن وسائل الربط النحوي في النصوص، وجعلهم على قسمين؛ الأول: جهود النحاة والبلاغيين والمفسرين، والثاني: جهود اللغويين المحدثين في الاتجاه إلى نحو النص، ثم أقام صلة بين النحو النصي والتحليل اللغوي للأدب، ثم عرض لوسائل الربط من إحالات وعطف وحذوفات... الخ، ورأى موضوع الخطاب من خلال مفهومين:

الأول: هو بنية كليّة ترتبط بها أجزاء الخطاب، ويصل المتلقي إليها في عمليّات متنوّعة من الحذف والاختزال إذ هي ليست شيئاً معطى، وإنّما هي مفهوم مجرد.

الثاني: أنّ البنيات الكليّة للخطاب تتجلى عبر الشواهد اللغويّة، ثم جاء بنماذج من المظاهر النحويّة النصيّة في الدراسات النقدية المعاصرة.

٤- التماسك النصّي في اللغتين «العربيّة والإنجليزيّة»: دراسة تقابليّة في الربط النحوي، وهي أطروحة دكتوراة، أعدها في جامعة اليرموك يوسف عليان سنة ٢٠٠٢م، وقدم فيها الباحث مدخلاً تاريخيّاً للنص، وعلم اللغة، وفقه اللغة، والبلاغة، ونشأة اللسانيّات النصيّة الحديثة، والتداخل المعرفي في اللسانيّات النصيّة، والنظريات اللغوية الحديثة، ومصطلحي: الخطاب والنصّ، ومعايير النصيّة، والروابط النصيّة، والتماسك النصّي عند بعض المُحدّثين الغربيين والعرب.

وقارنت بين المؤنّلف والمؤنّلف بين اللغتين العربيّة والإنجليزيّة، وكانت المقارنة في مباحث الإحالة والحذف والاستبدال والوصل، وطبقت على نصوص معينة مختارة.

٥- نحو النصّ: دراسة تطبيقية «سورة البقرة نموذجاً»، وهي أطروحة دكتوراة أعدها عمر أبو خرمة سنة ٢٠٠٢م، في جامعة اليرموك، وتناول فيها مفهوم النصّ، والصلة بين نحو النصّ والتراث العربيّ والحاضر الغربي، وطبّق مقولات نحو النصّ على سورة البقرة ساعياً إلى إيجاد القوانين أو المبادئ أو الطرق التي تسمح للوحدات النصيّة الصغرى بالترابط فيما بينها.

٦- نحو النصّ، نقد النظرية وبناء أخرى، وهو كتاب صادر عن دار عالم الكتب الحديث، إربد، لعمر أبو خرمة، عام ٢٠٠٤.

هدف الباحث من كتابه إلى إقامة مفهوم جديد لنظرية النص على مستويّين: تنظيري وتطبيقي، وسار في منهجه على فصلين: جعل الفصل الأول في ثلاث مقدمات؛ الأولى: في مفهوم النص عند الباحثين العرب المعاصرين وعند الغربيين، والثانية: في التراث العربي ونحو النص، وعرض فيه أبرز الجهود العربيّة في هذا المجال، والثالثة: في الحاضر الغربي ونحو النص وعرض فيه أبرز الجهود النحويّة النصيّة عندهم لكن من وجهة نظر عربيّة، أما الفصل الثاني فجعله للتطبيق انطلاقاً من النص وصولاً إلى الفقرة.

٧- التماسك النصّي: دراسة تطبيقية في نهج البلاغة، وهي أطروحة دكتوراة، أعدها عيسى الوداعي في الجامعة الأردنية سنة ٢٠٠٥م، وقد تحدّثت عن أسباب الانتقال من نحو الجملة

إلى نحو النصّ، واختلاف النصّيين في القواعد النحوية التي يمكنها وصف النصّ، وتحديد مصطلح التماسك، وقسمت مستويات التماسك إلى أربعة: المعجمي، والنحوي، والدلالي، والتداولي، وطبقت على بعض نصوص نهج البلاغة، وركزت الحديث على التماسك الشكلي والتماسك الداخلي.

٨- الإحالة في النصّ القرآني، وهي رسالة ماجستير أعدها ياسين بني ياسين سنة ٢٠٠٦ في جامعة اليرموك، تناولت موضوع الإحالة في النصّ القرآني، بوصفه خاصية لغوية تمتلكها أبنية النصّ، وعرضت لمظاهر الإحالة في النصّ القرآني، بالوقوف على أشكال الإحالة فيه، وعلى الوظائف التي تؤديها الإحالة، وقدمت فيها مظاهر الإحالة التي يعتقد أنها تتحكم في سير الفعل الإحالي في النصّ القرآني.

وعرضت الدراسة لمفهوم الإحالة في الدرس اللغوي، وأنواع الإحالة والمعايير التي روعيت في تصنيفها، ثم طبقت ذلك على النصّ القرآني، وسعت إلى تبيان وظائف الإحالة في تشكيل النصّ القرآني واتساقه وتنظيمه وأثرها في تحقيق النصّية.

٩- الترابط النصّي بين الشعر والنثر: نصوص الشيخ عبد الله بن علي الخليلي أنموذجاً/ دراسة تحليلية مقارنة، زاهر الداودي، وهو كتاب صادر عن دار جرير للنشر في عمان ٢٠٠٨، وقد عالج فيها مفاهيم «نحو النصّ» ومبادئه واتجاهاته الأساسية، مركّزا على علاقات الترابط النصّي، وأردف ذلك بتطبيقات على نصوص شعرية ونثرية للشيخ الخليلي، فقابل بينها ودرس تماسكها النحوي والمعجمي والصوتي، وسعى إلى أن يوازن فيها بين الشعر والنثر، وهي دراسة جادة، ولكنها كانت محصورة بنصوص معينة لشخص واحد في حقبة زمنية محددة.

١٠- دراسات الجملة العربية ولسانيات النصّ، وهي رسالة ماجستير، أعدها خالد العدواني سنة ٢٠٠٨ في جامعة حلب، وعرضت هذه الدراسة لمفهوم الجملة وأقسامها عند النحاة العرب، وتحدثت عن الجملة من حيث الشكل، والمقصد، واحتمال الصدق والكذب، والتركيب والبساطة، والتصرف وعدمه، والإعراب وعدمه، والجمل التي لها محل والتي لا محل لها.

ثم تحدثت الدراسة عن الوحدة المدروسة في لسانيات النصّ ومفهومها، ومفهوم النصّ من حيث مكوناته الجملية، والترابط، والسياق، وفعل الكتابة، والإنتاجية الأدبية، ومستويات التحليل النصّي، والقضايا الأساسية في الدرس اللسانيّ النصّي، ومن حيث الموضوع، والغاية، والمنهج، ولم يكن في هذه الرسالة بعد تطبيق يثري هذه الطروحات النظرية.

١١- الدرس النحوي النصّي في كتب إعجاز القرآن الكريم، وهو كتاب صادر عن مكتبة الآداب، القاهرة. للباحث أشرف عبد البديع عبد الكريم، عام ٢٠٠٨. ضمّ هذا الكتاب إطاراً علمياً وفصولاً أربعة، جعل في الإطار العام الموضوع وأسباب اختياره والهدف من البحث... الخ، وتحدث في الفصل الأول عن اتجاهات البحث في التراث محلاً بإيجاز ما بها من قضايا نصيّة، وموضحاً المعايير الحاكمة والهابكة لكل تيار من التيارات التراثيّة، وفي الفصل الثاني عرض لمعايير النص عند الباحثين في الإعجاز القرآني، أمّا الفصل الثالث فتكلم فيه على المفاهيم والتصورات الأساسيّة المكوّنة للإعجاز القرآني وعلاقتها بنحو النص، وفي الفصل الرابع أورد ملاحظات حول بعض المعايير النصيّة عند الباحثين في الإعجاز.

١٢- نحو النص بين الأصالة والحداثة، وهو كتاب صادر عن مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة. للباحث أحمد محمد عبد الراضي، عام ٢٠٠٨. كان غرض الباحث من كتابه هذا دراسة نحو النص في ضوء التراث العربي، وعليه فقد اقتضى منهجه أن يكون في تسعة مباحث وخاتمة؛ كان المبحث الأول في مفهوم نحو النص ونشأته، وعنّون المبحث الثاني «بين نحو الجملة ونحو النص»، وتحدث في المبحث الثالث عن الحاجة إلى نحو الجملة والنص معاً، أما المبحث الرابع فكان في مكوّنات النص وأشكاله، وتكلم في المبحث الخامس على التحليل النصي، وخصّص المبحث السادس للحديث عن معايير نحو النص، وجعل المبحث السابع لوسائل التماسك النصّي، وذكر في المبحث الثامن الأصول التراثيّة في الدراسات النصيّة، أما المبحث التاسع فخصّصه لأسس التحليل النصّي عند القدماء.

١٣- نظام الربط في النصّ العربيّ لجمعة الحُبّاص وهو كتاب صادر عن دار كنوز المعرفة العلميّة للنشر والتوزيع في عمان سنة ٢٠٠٨، وقد تحدث عن صورة أنماط الروابط وأدواتها لدى النحاة القدماء، واستقرى أنماط الروابط وأدواتها في الاستعمال الجاري في قصص القرآن الكريم وبعض القصص العربيّة القديمة والحديثة، وقابل بين الصورة النظرية لأنماط الروابط وأدواتها في كتب التراث النحوي وصورتها في الاستعمال في شكل جداول إحصائية.

١٤- الملامح الكبرى لنظام النصّ: سورة الزلزلة نموذجاً، وهو بحث مُحكَّم لخلود العموش، نُشر في المجلة الأردنيّة في اللغة العربيّة وآدابها، سنة ٢٠٠٨، وقد سعت فيه الباحثة إلى أن

تجيب عن سؤالين: هل يمكن أن نصف نظامًا للنص يشبه في وضوحه وتفصيله نظام الجملة في العربية؟ وما الملامح الكبرى لهذا النظام؟ وفي سبيل ذلك حدّدت مصطلح «نظام النصّ»، واستعرضت النماذج المختلفة التي قدّمها الباحثون العرب والغربيون لدراسة هذا النظام.

وخلّصت الباحثة إلى أنه يمكن وضع نظام واضح للنص، لكنه لا يشبه في وضوحه وتفصيله نظام الجملة؛ ذلك لأنّ كثيرًا من جوانبه تتغلّت على التعقيد الصارم الدقيق، وخصوصًا في المستويين: الدلالي والتداولي، ورأت أن الملامح الكبرى لنظام النصّ تشكل من الجوانب التركيبية والدلالية والتداولية، وطبّقت ذلك على سورة الزلزلة.

١٥- أثر عناصر الاتساق في تماسك النصّ: سورة يوسف مثلاً؛ وهي دراسة أعدها محمود الهواوشة، وصدرت في كتاب عن دار عماد الدين للنشر والتوزيع في عمان سنة ٢٠٠٩. وقد تناولت الدراسة أثر عناصر الاتساق اللفظية في تماسك النصّ، وأجراها على سورة يوسف، وحدّدت الدراسة في عناصر الاتساق اللفظية المتعارف عليها في أهم مراجع الدراسة حصراً للموضوع عن التشعب، وقدّم لها بطروحات «نحو النصّ» النظرية، ومفهوم الاتساق وعناصره، ثم حلّل سورة يوسف وفقاً لعناصر الاتساق اللفظية، ثم أبرّر أهم النتائج التي انتهت إليها الدراسة وألحق بها تعريفاً بأهم مصطلحات الدراسة.

١٦- نحو النصّ: إطار نظري ودراسات تطبيقية، وهو كتاب صادر عن دار عالم الكتب الحديث، إربد. للباحث عثمان أبو زنيد، عام ٢٠٠٩، وقد بحث الدارس فيه علم النصّ مفهوماً، وتعريفاتٍ، وعرف بنحو النصّ، ومهامّه، وأهم المحاولات التي رتبت خطواته وبيّنت أركانه، وعلاقاته بالبحث اللغوي الجُملي، ووضع إطاراً للمعالجة النصّية ابتداءً من الوحدات الوظيفية الشاملة، وانتهاءً بعلاقات «نحو النصّ» التي تحكم النصّ وترتّب علاقاته، وقام بتطبيق معطيات «نحو النصّ» على خطب عمر بن الخطاب ووصاياه ورسائله للولاء.

١٧- نحو النصّ: نظرية وتطبيق: سورة آل عمران أنموذجاً، للباحث رافد حميد خلف، وهي أطروحة دكتوراة قدّمت لمجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية جامعة الأنبار، العراق، ٢٠١١، وقد جعل البحث في تمهيد وأربعة فصول وخاتمة، تحدث في التمهيد عن نشأة نحو النصّ بصورة مقتضبة، وأشار في الفصل الأول إلى مفهوم النحو في لسانيات النصّ؛ إذ إن له مفهوماً خاصاً يختلف عمّا هو متعارف عليه في الدراسات التقليدية، ثم تكلم على النصّ

لغة واصطلاحاً عند العرب القدماء والمُحدّثين وعند الغربيين، ثم عن الدرس النحوي بين نحو الجملة ونحو النص.

وفي الفصل الثاني تحدث عما يقارب مفهوم النصّية عند العرب ويوحى إليها، مبيناً أنّ العرب القدامى وإن لم يعنوا بمثل هذه الدراسات إلا أنّ لهم مشاركات فيها من خلال النص الشعري، وخصّص الفصل الثالث لمعياري السبّك والحبك؛ وذلك لأنّهما يُعدّان من أهم معايير النصّية، وكان الفصل الرابع تكملة لبقية المعايير النصّية، وهي: القصديّة، والمقبوليّة، والمقاميّة، والتناصيّة، والإعلاميّة، وذكر الباحث في الخاتمة أبرز النتائج التي توصل إليها.

١٨- الأنساق الثقافيّة في مجمع الأمثال للميداني: دراسة تحليليّة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن ٢٠١٢، تقدّم بها إبراهيم الزهراني.

سعت هذه الدراسة لقراءة الأنساق الثقافيّة بكلّ وجوها في مجمع الأمثال للميداني، وذلك في أربعة فصول، درس الفصل الأول رواية المثل وشفاهيته، وتدوين المثل بدءاً من عصر ما قبل الإسلام، وتوجّه الفصل الثاني لدراسة الأنساق الإنسانيّة والحيوانيّة والزمكانيّة، ودرس الفصل الثالث شعريّة المثل وجماليّته من ناحيتين؛ الأولى: تركيبيّة، والثانية: تصويريّة.

١٩- نحو النصّ الشعري: دراسة تطبيقيّة على رثاء المدن في الشعر العربي، أطروحة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنيّة، تقدّم بها عثمان أبو زنيد، عام ٢٠١٢.

جاءت الدراسة في خمسة فصول: أمّا الفصل الأوّل فنظري بعنوان: «نحو النصّ الشعري»: المنهج والإطار النظري، وبحث في الفضاء المعرفي لنحو النصّ، وعرض لمقاربات البحث اللسانيّ في «نحو النصّ الشعري» ومرجعيات النظر ومنهجية القراءة والفضاء النصّي الشعري، والعلاقة بين «نحو النصّ الشعري» والإبداع الشعري، وإطلالة على رثاء المدن في الشعر العربيّ من حيث كينونة الظاهرة وسيرورة الشعر.

أمّا الفصول الأربعة الباقية فطبّق في كلّ واحد منها نحو النصّ الشعريّ على كلّ عصر من الأعصر: الجاهلي، والعباسي، والأندلسي، والحديث، من حيث نحو النصّ الشعريّ العام، والبنى النصّية الكبرى التي انتظمها «نحو النصّ الشعريّ»، والبنى النصّية الصغرى - وصفاً وتحليلاً، ووصف البنى النصّية الصغرى في المستوى التركيبيّ عبر: إيجاد التابع المنظم للجمل التي شكلت البنى النصّية الظاهرة أو المضمّنة أو المحذوفة، ودراسة النظام الداخليّ لعلاقات الربط داخل مكوّنات البنية النصّية على امتداد النصّ، ودراسة علاقات الترابط والارتباط بين البنى النصّية الشعريّة الصغرى، والبنى الزمانيّة ومكوناتها الإجماليّة،

ووسائل الاتساق الإحاليّة؛ الضميريّة والإشاريّة، ووسائل الاتساق المعجميّة؛ كالتكرار والمصاحبة المعجميّة والألفاظ المعبّرة عن علاقات التضمّن، وأثر «نحو النصّ الشعريّ» على انسجام الخطاب.

وتختلف هذه الدراسات عن دراستي في جانبين، هما:

١- أنّ الدراسات السابقة تتناول نحو النصّ متعدّد الجمل، سواء في القرآن الكريم، أم في الخطب، أم في الشعر، أمّا دراستي فتختص بنحو النصّ ذي الجملة الواحدة.

٢- أنّ دراستي اتخذت من نصوص الأمثال في مجمع الميداني نموذجاً للتطبيق^(١)، وهذا ما لم أجده في أي دراسة سابقة في هذا المجال؛ أقصد بهذا: في ضوء نحو النصّ.

وبعد،

فإنّه لا يمكن الادّعاء بتكامل هذه الدراسة من حيث منهج البحث وخطّته وتطبيقاته والنتائج التي انتهى إليها؛ لإيماني أنّ موضوع هذه الأطروحة هو بمنزلة وضع لبنة فيما أظنه مشروعاً لـ «نحو النصّ العربي»؛ سعياً لصياغة نظريّة عامّة تشكّل أساساً لوصف الأشكال النصيّة المتباينة وعلاقاتها المتبادلة، وسعياً لوضع منهجيّة قرائيّة تتعرّف كيفية انتظام اللغة داخل الفضاءات النصيّة، وكيفية تحقق نصيّتها على اختلاف أجناسها الأدبيّة، وما قدّمته في الدراسة النصيّة للمثل ذي الجملة الواحدة في مجمع الأمثال للميداني ليس إلا محاولة متواضعة للمساهمة في بناء هيكل نحو النصّ، الذي أتمنى أن يقوى أساسه بمزيد من الدراسات العلميّة الجادّة التي تثري البحث العلميّ والباحثين.

كما أرجو أن أكون قد قدّمت في هذه الدراسة بعض ما أصبو إليه في خدمة العربيّة وتراثها، والله أسأل أن يجعل هذا العمل في سبيل الحقّ مناراً، وفي طريق العلم علماً، وأن يهدي به السالكين، ويضيء به طريق الباحثين.

اللهمّ اجعله خالصاً لوجهك الكريم، وتقبّله في صالح أعمالنا، واجعله ذخراً لمعادنا.

والحمد لله ربّ العالمين...



١- اعتمدتُ في هذه الدراسة على نسخة مجمع الأمثال للميداني، أحمد بن محمد (٥١٨هـ)، التي حقّقها محمد أبو الفضل إبراهيم، وصدرت عن المكتبة العصريّة في بيروت عام ٢٠٠٩.

تمهيد في حدّ المصطلح

أولاً: الجملة

ثانياً: النص

ثالثاً: نحو النص

رابعاً: الأمثال العربيّة: مجمع الميداني نموذجاً

أولاً: الجملة

١ - مفهوم «الجملة» في الدرس اللغوي القديم:

حظي مصطلح «الجملة» بعناية الدارسين والباحثين قديماً^(١) وحديثاً^(٢)؛ وذلك لأهميتها في وصف التراكيب وسلاسل الكلام الذي يصدر عن المتكلمين، وقد تأخر -نسبياً- ظهور مفهوم هذا المصطلح بالمعنى الاصطلاحي الذي استقرّ عليه؛ فلم أجده في بواكير الدراسات اللغوية والنحوية عند العرب.

والجملة في اللغة «واحدة الجُمْل، وأَجْمَلَ الشيءَ جَمَعَهُ عن تفرقة... والجملة جماعة كل شيء بكماله»^(٣)، وقد تطور مصطلح «الجملة» عند النحاة مع تطور الدرس النحوي، فقد بدأ ظهوره في تسمية بعض كتب النحو بـ «الجُمْل»، لكنّ ذلك كان أقرب إلى المعنى اللغوي للجملة، مثل كتاب «الجُمْل في النحو»^(٤) المنسوب إلى الخليل بن أحمد (١٧٤هـ)، فمن يرجع إليه يجد أنه أراد بالجملة جماعات الوجوه الإعرابية، كوجوه النصب، أو الرفع، أو الخفض، وجماعات الحروف في النحو كالباءات واللامات والفاءات...، مأخوذ من المعنى اللغوي للجملة كما تقدّم، وعليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً

١ - ينظر: المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ)، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٤، ج ٤، ص ١٢٣. ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل النحوي البغدادي (٣١٦هـ)، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٣، ١٩٨٨، ج ١، ص ٦٤. ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي (٣٩٢هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٨٦، ج ١، ص ١٧. ابن هشام، جمال الدين، عبد الله بن يوسف الأنصاري (٧٦١هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ٢٠٠٥، ج ٢، ص ٤٥.

٢ - ينظر: محمد إبراهيم عبادة، الجملة العربية: دراسة لغوية نحوية، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٤. محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦. فاضل السامرائي، الجملة العربية: تأليفها وأقسامها، منشورات المجمع العلمي العراقي، ١٩٩٨. رابح بو معزة، الجملة والوحدة الإسنادية في النحو العربي، مؤسسة رسلان، دمشق، ٢٠٠٨.

٣ - الشلوين، أبو علي محمد بن عمر (٦٤٥هـ)، التوطئة، تحقيق يوسف أحمد المطوع، دار التراث العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١١٦.

٤ - الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٧٤هـ)، الجمل في النحو، تحقيق فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥.

وَاحِدَةً ﴿سورة الفرقان، آية ٣٢﴾، وكذلك كان القصد من تسمية كتاب «الجمل في النحو» للزجاجي (٣٣٧هـ)^(١)، وكتاب «الجمل» لعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)^(٢)؛ إذ قدّم كلّ منهما ملخصات لأهم أبواب النحو ومسائله، جامعين كلّ ما يشترك في وجه من وجوه النحو في باب هو جملة ذلك الوجه.

ولعلّ أوّل مَنْ استخدم «الجملة» في النحو يريد بها المعنى الاصطلاحي، هو الفراء (٢٠٧هـ) في كتابه «معاني القرآن» في غير مَوْضِع، ومن ذلك قوله معلقاً على قول الله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ سورة الأعراف، آية ١٩٣، قال الفراء: «فيه شيء يرفعُ (سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ)، لا يظهر مع الاستفهام، ولو قلت: سواء عليكم صمتكم ودعاؤكم؛ تبين الرفع الذي في الجملة»^(٣).

واستعمله المبرّد (٢٨٥هـ) بهذا المعنى؛ إذ قال: «والأفعال مع فاعليها جُمْلٌ»^(٤)، بل إنّهُ ألمَح إلى تعريف الجملة وبيان نوعيّها: الاسميّة، والفعليّة، في مَوْضِع آخر، فقال: «وإنّما كان الفاعل رفعاً لأنّه هو والفعل جملةٌ يحسن عليها السكوت، وتجب بها الفائدة للمخاطب؛ فالفاعل والفعل بمنزلة الابتداء والخبر، إذا قلت: قام زيد؛ فهو بمنزلة قولك: القائم زيد»^(٥)، ويُستنتج من كلامه أمور:

- الأصل في الجمل الابتداء والخبر، فما جاء بمنزلته فهو جملة (كالفعل والفاعل).
- شرط الجملة عنده أن يحسن عليها السكوت، ويقصد بذلك الفائدة، وتُفهم من الأمثلة شرط الاكتمال التركيبي أي اتّلافها من مسند ومسند إليه.
- أنّ المتلقّي هو المعنيّ مباشرة بتقرير حصول الفائدة من عدمها «وتجب بها الفائدة للمخاطب». وهذه الإشارة مهمة جداً في نظري، وهي تتقاطع مع ما قرّره (براون

١- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق النهاوندي (٣٣٧ هـ)، الجمل في النحو، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤.

٢- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١ هـ)، الجمل في النحو، شرح يسرى عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

٣- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (٢٠٧ هـ)، معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار، محمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣، ج ٢، ص ١٩٥.

٤- المبرّد، المقتضب، ج ٤، ص ١٢٣.

٥- المرجع السابق، ج ١، ص ٨.

ويول) في حديثهما عن أثر المتلقي بالحكم على تركيب لغوي ما بالنصيّة أو عدمها^(١). وحاكى ابن السراج (٣١٦هـ) في أصوله، المبرد، فقال: «والجمل المفيدة على ضربين: إما فعل وفاعل، وإما مبتدأ وخبر»^(٢)، وقال في مَوْضِع آخر منه: «اعلم أنّ أصول الكلام جملتان: فعلٌ وفاعلٌ، ومبتدأٌ وخبرٌ»^(٣). فكان كلامه تعزيزًا وترسيخًا لمصطلح الجملة.

كذلك كان كلام الزجاجي (٣٣٧هـ) في كتابه «الجمل»، حين ذكر خبر كان، فقال: «تقول: كان زيد أبوه منطلق، ف (زيد) اسم كان، وأبوه رفع بالابتداء، ومنطلق خبره، والجملة خبر كان»^(٤)، غير أنّه وسابقه لم يفرّدوا للجملة بابًا باسمها، أو درسًا نحويًا منفصلاً لها.

ولمّا جاء أبو علي الفارسي (٣٧٧هـ) كان مصطلح «الجملة» قد شاع لدى النحاة، فأفرد له بابًا في «المسائل العسكرية» وسماه بـ: «هذا باب ما ائتلف من هذه الألفاظ الثلاثة - الاسم والفعل والحرف - كان كلامًا مستقلًا، وهو ما يسمّيه أهل العربية الجمل»^(٥)، واللافت عنده إضافة عنصر «الاستقلالية» لشروط التركيب الذي يُسمّى «جملة»، وبعده استقر المعنى العام لمصطلح «الجملة» لدى النحاة، ولعلّ الرّماني (٣٨٤هـ) أوّل من حدّها بصورة صريحة، فقال: «الجملة هي المبنية من موضوع ومحمول للفائدة»^(٦)، ويُفهم من هذا أنّ الجملة تركيب يستلزم عنصرين، هما: الموضوع، أي المحكوم عليه، والمحمول، أي المحكوم به، وهذا التركيب بعنصره لا بد أن يحقق الفائدة منه^(٧).

١ - ينظر: براون ويول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٧، ص ١٤.

٢ - ابن السراج، الأصول في النحو، ج ١، ص ٦٤.

٣ - المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٧٦.

٤ - الزجاجي، الجمل في النحو، مرجع سابق، ص ٤٢.

٥ - الفارسي، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (٣٧٧هـ)، المسائل العسكرية، تحقيق علي المنصوري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٢، ص ٦٣.

٦ - الرّماني، أبو الحسن علي بن عيسى (٣٨٤هـ)، رسالتان في اللغة: منازل الحروف، الحدود، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، ١٩٨٤، ص ٦٣.

٧ - ينظر: علي أبو المكارم، مقومات الجملة العربية، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٢٠.

وهذا الحدّ فيه أمور:

- ١- أن الجملة بناءً، ولذا فلا بدّ فيه من الاتساق.
- ٢- الجملة -كمًّا- تأتلف من ركنين: الموضوع والمحمول.
- ٣- الفائدة شرط الجملة.

ولم يُعَنَّ هؤلاء النحاة بالتفريق بين الجملة والكلام، وإنّ دلّ كلام بعضهم على شيء من ذلك؛ فإنّه جاء عَرَضًا دون تفصيل. وتُعدّ إضافة ابن جنّي (٣٩٢هـ) في هذا الشأن علامة فارقة؛ فقد أورد تعريفًا ساوياً فيه بين الجملة والكلام، فقال: «أمّا الكلام: فكلّ لفظ مستقلّ بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذي يسمّيه النحويّون: الجمل»^(١)، وحدّها في موضع آخر بقوله: «كلّ لفظ مستقلّ بنفسه مفيد لمعناه»^(٢)، وأوضح هذا الحدّ بقوله: «كلّ لفظ استقلّ بنفسه وجنّيت منه ثمرة معناه هو الكلام»^(٣)، وعطف في موضع آخر بقوله: «وهي في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها المستغنية عن غيرها، وهي التي يسمّيها أهل هذه الصناعة الجمل على اختلاف تراكيبها»^(٤)؛ لأنّ القول قد يكون كلمة أو اعتقادًا أو رأيًا....

ويوافقه في هذا الرأي عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) بقوله: «اعلم أنّ الواحد من الاسم والفعل والحرف يُسمى كلمة، فإذا اتتلف منها اثنان فأفاد نحو (خرج زيد) يُسمى كلامًا، ويُسمى جملة»^(٥) فسوّى بينهما، ويوحى كلامه بأصغر شكل للجملة، وهو ما اتتلف من مسند ومسند إليه، وقد ذكرها في كتبه بشيء من التفصيل^(٦)، ووافقه في ذلك جمع من النحاة كالحريرى (٥١٦هـ)^(٧)،

١- ابن جنّي، الخصائص، ج ١، ص ١٧.

٢- المرجع السابق، ج ١، ص ١٩.

٣- نفسه، ج ١، ص ١٧.

٤- ابن جنّي، الخصائص، ج ١، ص ٣٢.

٥- الجرجاني، الجمل، ص ٢٧.

٦- الجرجاني، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٢، ص ١١.

٧- ينظر: الحريري، أبو محمد القاسم بن علي البصري (٥١٦هـ)، شرح ملحّة الإعراب، تحقيق فائز فارس، دار الأمل، إربد، ١٩٩١، ص ٣.

والزنجشري (٥٣٨هـ)^(١)، وابن الخشاب (٥٦٧هـ)^(٢)، وأبي البقاء العكبري (٦١٦هـ)^(٣).

ويرى ابن يعيش (٦٤٣هـ) أنّ فكرة الإسناد مقيّدة بتحقيق الفائدة، يقول: «وتركيب الإسناد أن تركّب كلمة مع كلمة تُنسب إحداها إلى الأخرى... على السبيل الذي به يحسن موقع الخبر وتمام الفائدة»^(٤).

فلما جاء ابن مالك (٦٧٢هـ) فرّق بين الجملة والكلام، فعرّف الكلام بقوله: «الكلام ما تضمّن من الكلم إسناداً مفيداً مقصوداً لذاته»^(٥)، فخرج بقوله (لذاته) ما هو مقصود لغيره كجملة الصلة والمضاف إليها^(٦) «ومثلها الجملة الخبرية والحالية والنعتية»^(٧)، وهذه جميعاً من الجمل، فدلّ ذلك على أنّ الجملة عنده أعمّ من الكلام؛ لأنّه يجب أن يكون مقصوداً لذاته، وليست هي كذلك.

وكان الرضيّ الأستراباذي (٦٨٦هـ) أكثر تصرّيحاً بذلك فقال: «والفرق بين الجملة والكلام: أنّ الجملة ما تضمّن الإسناد الأصليّ، سواء كانت مقصودة لذاتها أم لا... والكلام ما تضمّن الإسناد الأصليّ وكان مقصوداً لذاته، فكلّ كلام جملة ولا

١ - الزنجشري، محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت، ط ٢، د.ت، ص ٦.

٢ - ابن الخشاب، عبد الله بن أحمد (٥٦٧هـ)، المرتجل، تحقيق علي حيدر، دار الحكمة، دمشق، ١٩٧٢، ص ٢٨، ٣٤٠.

٣ - العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (٦١٦هـ)، مسائل خلافة في النحو، تحقيق محمد خير الحلواني، دار الشرق العربي، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣١.

٤ - ابن يعيش، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي الموصلي (٦٤٣هـ)، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، ٢٠٠٢، ج ١، ص ٧٢.

٥ - ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله (٦٧٢هـ)، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣.

٦ - ينظر: ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله (٦٧٢هـ)، شرح التسهيل، تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد المختون، هجر للطباعة والنشر، مصر، ١٩٩٠، ج ١، ص ٧.

٧ - الصبان، محمد بن علي (١٢٠٦هـ)، حاشية الصبان، تحقيق طه عبد الرؤوف سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، ج ١، ص ٥٨.

ينعكس»^(١)، وقد استعمل لفظ (الأصلي) ليخرج بذلك إسناد المصدر، واسمي الفاعل والمفعول، والصفة المشبهة، والظرف، فإنها مع ما أسندت إليه ليست بكلام^(٢)، وأراد بذلك الإضافة.

وسار ابن هشام (٧٦١هـ) على نهجها (ابن مالك والأستراباذي)، ومثل لذلك بقوله: جملة الشرط، وجملة الجواب، وجملة الصلة، فهذه كلها جمل ولكنها غير مفيدة مستقلة بذاتها، فلا تكون كلاماً لأن شرطه أن يكون مفيداً^(٣). فالكلام عند ابن هشام هو الذي يحقق فائدة يحسن السكوت عليها، أمّا الجملة فما تشكّل من مسند ومسند إليه، وقد لا تعبّر الجملة عن فائدة أو معنى مثل جملة الشرط، وجملة الجواب، وجملة الصلة، وبهذا يظهر أن الجملة والكلام عند ابن هشام ليسا مترادفين، وأن الجملة أعم من الكلام.

ونحا السيوطي (٩١١هـ) نحو ابن هشام، بيد أنه أورد رأياً للكافيجي^(٤) يتنصر فيه للمذهب الأول (أي تسمية جملة الشرط، وجملة الجواب، وجملة الصلة، بالجملة)؛ معللاً تسمية الواقعة شرطاً أو صلة وأمثالها جملة على سبيل المجاز، وأنه سبقه إلى ذلك ناظر الجيش^(٥)، واحتجّ بالعلة نفسها^(٦)، ولا تبدو حجة الأخيرين قوية أمام

١ - الرضي، محمد بن الحسن الرضي الأستراباذي (٦٨٦هـ)، شرح الرضي على الكافية، تحقيق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قارونس، بنغازي، ليبيا، ط ٢، ١٩٩٦، ج ١، ص ٣٣.

٢ - ينظر: المرجع السابق، ج ١، ص ٣٢.

٣ - ينظر: ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ج ٢، ص ٣٧.

٤ - هو محيي الدين، أبو عبد الله، محمد بن سليمان بن سعد الرومي البرعمي الحنفي المعروف بالكافيجي (٧٨٨هـ - ٨٧٩هـ)، كان عالماً بأصول اللغة والنحو والكلام والمنطق... والمعقولات كلها، وأكثر تصانيفه مختصرات، وأهمها شرح قواعد الإعراب لابن هشام. ينظر: السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن ابن أبي بكر (٩١١هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩، ج ١، ص ١١٧.

٥ - محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش (٦٩٧هـ - ٧٧٨هـ)، عالم بالعربية، من تلاميذ أبي حيان، شرح التلخيص والتسهيل، ينظر: السيوطي، بغية الوعاة، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

٦ - ينظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد العال سالم، دار البحوث العلمية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ج ١، ص ٤٩ - ٥٠.

رأي ابن مالك ومن تبعه من النحاة؛ لأنّ ما لا يحتاج إلى تأويل أقوى مما يحتاج إلى تأويل، وعليه فإنّ عدم تأويل الأمر بالمجاز أولى وأقوى، فتكون بذلك الجملة أعم من الكلام.
وأخلص ممّا سبق إلى:

- ١- أنّ مصطلح «الجملة» قد تأخّر نسبيّاً في الدرس النحوي العربي.
 - ٢- اختلاف النحاة في حدّ الجملة؛ فجعله بعضهم مساوياً للكلام، وقرّ بعضهم بين حدّ الجملة وحدّ الكلام، فجعل شرط الكلام الإفادة، وشرط الجملة الإسناد.
- ويتبنّى الباحث حدّ ابن جنّي للجملة: «كلّ لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه»^(١)؛ إذ جمع خصائص الجملة عمومًا، وهي الاستقلاليّة والإفادة، وهي تأتلف من بنية إسناد واحدة -على الأقل-؛ فالذين جعلوا الجملة هي المؤلّفة من الفعل والفاعل أو المبتدأ والخبر استندوا على معيار كمّي فقط؛ وذلك لرصد تحولات الأبنية والتركيب في الكلام، لكنّ واقع الاستعمال لا يعبأ إلا بالتركيب التي تتسم بالفائدة، وهذا أكثر ما ينطبق على النص ذي الجملة الواحدة، في الأمثال العربية.

٢- مفهوم الجملة في الدرس اللغوي الحديث:

تأثر بعض المُحدّثين في تعريفهم للجملة بآراء القدماء، كما هو الحال عند مهدي المخزومي، الذي يرى أنّ الجملة: «إنّما تقوم على أساس من إسناد يؤدّي إلى إحداث فكرة تامة»^(٢)، ويبدو تأثر المخزومي بتعريف ابن يعيش للجملة؛ إذ قيّد ركني الإسناد بالفائدة، ولذلك فإنّ المخزومي يرفض بعض التركيب جملاً، وإن أفادت فائدة تامة؛ لأنّها فقدت عنصر الإسناد، كما هو الحال في النداء، كقولك: يا عبد الله. فهذا لا يعدو «أن يكون أداة للتنبيه، ولفت نظر المنادي»^(٣)، وأخالفه في هذا؛ فالأداة (يا) وفقاً للنحاة

١- السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج ١، ص ١٩.

٢- مهدي المخزومي، في النحو العربي: نقد وتوجيه، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤م، ص ٥٣. وينظر كذلك: خليل عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها؛ إذ يقول في تعريفه للجملة: «والذي نرتضيه هو ما يرتضيه الزمخشري وابن يعيش حدّاً للكلام، حدّاً للجملة»، خليل عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، عالم المعرفة، جدة، ط ١، ١٩٨٤، ص ٧٧-٧٨.

٣- مهدي المخزومي، في النحو العربي، ص ٥٤.

قد نابت عن الفعل (أنادي أو أدعو)؛ فهي مؤتلفة من فعل وفاعل، والمنادى هو مفعول به في المعنى^(١).

ويضيف المخزومي إلى ركني الإسناد في الجملة ركنًا ثالثًا، وهو العلاقة الذهنية التي تربط بين المسند والمسند إليه، وبذلك تصبح الجملة عنده مكونة من ثلاثة أركان، هي: المسند والمسند إليه، ونسبة المسند إلى المسند إليه، أو العلاقة بينهما^(٢)، ولا أرى ضرورة لهذه الإضافة؛ فالإسناد لا يتحصّل إلا بوجود علاقة بين المسند والمسند إليه؛ فالإسناد هو الإخبار^(٣).

ثم تتابعت التعريفات التي جاءت لتوضّح معنى الجملة، ولتشكّل في الآن نفسه مجموعة من الاتجاهات والمفاهيم تظهر فيما يأتي: «الجملة عبارة عن فكرة تامة»، أو «تتابع من عناصر القول ينتهي بسكّنة»^(٤)، أو «نمط تركيبى ذو مكوّنات شكلية خاصة»^(٥)، وهي «سلسلة من المفردات النحوية المختارة، تُضمّ في وحدة»، أو «وحدة نحوية بين الأجزاء المكوّنة لأيّ حدود وتوابع توزيعية»^(٦)، أو «وحدة مجردة تؤسّس لكي تقدّم بيانًا عن الاطرادات التوزيعية لمكوّناتها»^(٧)، والجملة: «بناء لغوي مباشر أو غير مباشر بالنسبة لمسند إليه واحد أو متعدّد»^(٨)، وهي: «الوحدة التي تقدّم معنى كاملاً في ذاته»، أو «ملفوظ متصل عناصره بمحمول أو أكثر بينهما ترابط»^(٩)، وهي: «الوحدة الكبرى للوصف اللغوي»^(١٠) كما ذهب إلى ذلك (جون ليونز).

١- ينظر: ابن يعيش، شرح المفصل، ج ١، ص ١٢٧.

٢- ينظر: مهدي المخزومي، في النحو العربي، ص ٥٤.

٣- ينظر: ابن هشام الأنصاري، عبدالله بن يوسف (ت ٧٦١هـ)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ط ١، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٢٢.

٤- أورد هذه التعريفات الثلاثة روبرت بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م، ص ٨٨.

٥- أورد هذه التعريفات الثلاثة مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، لوندجان، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٤٨.

٦- جوزيف ميشال، دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٤٠.

٧- جون كوين، بناء لغة الشعر، ترجمة أحمد درويش، دار المعارف، مصر، ١٩٩٣م، ص ٢٢.

٨- بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٨٨.

والمُتأمل في هذه التعريفات يجد أنّ ثمة أموراً أساسية اعتمدها العلماء المُحدّثون في تبين حدّ الجملة وتوضيح مفهومها، وهي: الإسناد، والإفادة، والاستقلال، والترابط. والإسناد هو نسبة فعل مبني للمعلوم إلى فاعل، أو نسبة فعل مبني للمجهول إلى نائب فاعل، أو نسبة خبر إلى مبتدأ أو (ما أصله مبتدأ)؛ فهو ارتباط بين مكونين لغويين يشير أحدهما إلى مضمون، أو حدث، أو حال، أو وضع (إخبار)، ويسميه النحاة المسند، ويشير الآخر إلى مشارك إيجابي أو سلبي، ويُسمى المسند إليه، وبهما يتشكل مضمون الخطاب^(١)، ويطلق الوظيفيون عليه «الجملة»^(٢)، ويُفهم من التعريفات السابقة أنّ الجملة قد تأتلف من بنية إسنادية واحدة أو أكثر.

والإسناد هو أساس بناء الجملة؛ ذلك أنّ إقامة حدّ الجملة على الإسناد الأصلي مفيد في تحليلها ودراسة العلاقات بين عناصرها؛ لأنّه يقيّمها على أساس نحوي ثابت^(٣)؛ بوصفها بنية تركيبية أو نواة (من المسند والمسند إليه) ضمن بنية أكبر تتشكل وتتكون بسبب ما يطرأ عليها من حالات تركيبية تكون الكلام، وبذا تكون هذه البنية هي وحدة الكلام وقاعدة الحديث^(٤).

أمّا الإفادة في الجملة فتعني أنّ تنجز الجملة في سياق معيّن، وتدل على فائدة تامة في ذلك السياق^(٥)، وهذا ما أشار إليه النحاة عندما قالوا: فائدة يحسن السكوت عليها، وهذا يرتبط بالمتلقي إلى حدّ كبير؛ لما يتحصل عليه من إخبار، وإذا ما تحقق الإسناد والفائدة فلا بد من الاستقلال للجملة، فلا تدخل في علاقة تركيبية لتركيب آخر، وثمة جمل مستقلة تركيبياً وأخرى غير مستقلة، كجملة الحال والصلة وغيرها، وهذا كلّ لا بد له من أن يتحقق الترابط فيه، تركيبياً ودلالياً؛ حتى تتحقق الفائدة المقصودة، يقول الجرجاني: «فالألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّاً كيف جاء واتفق

- ١ - ينظر: أندري مارتينييه، مبادئ اللسانيات، ترجمة أحمد الحلو، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٤م، ص ١٢٣.
- ٢ - ينظر: أحمد المتوكل، الجملة المركبة في اللغة العربية، منشورات عكاظ، ١٩٨٧م، ص ٢٧.
- ٣ - ينظر: محمد الحلواني، مفهوم الجملة في اللسانيات والنحو، مجلة المناهل، ع ٢٦، الرباط، ١٩٨٣م، ص ٢١٤.
- ٤ - ينظر: عبد الحميد السيد، دراسات في اللسانيات العربية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٣م، ص ٤٥.
- ٥ - ينظر: المنصف عاشور، بنية الجملة العربية، منشورات كلية الآداب، منوبة - تونس، ١٩٩١م، ص ٤١.

وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصه أفاد ما أفاد، وبسقه المخصوص أبان المراد... أخرجته من كمال البيان إلى مجال الهذيان^(١)؛ فالكم لا يصنع تأليفاً وإنما هو السياق الذي يصنع الفائدة. فالجملة هي ما تضمّت نواة إسناديّة واحدة؛ ذلك أنّ النواة الإسناديّة (المسند والمُسند إليه) هي الوحدة التركيبيّة الدلاليّة الصغرى في بناء الجملة العربيّة، وبها يتمّ أساس بناء الفكرة التي تؤدّيها الجملة، وعلى أساسها تُضبط عمليّات التوسيع، وإعادة التوزيع، والحذف والإضمار في الجملة^(٢).

ويرى البنيويون وفي مقدمتهم (بلومفيد) أنّ الجملة هي الصيغة اللسانيّة المستقلة، بحيث تؤديّ وظيفتها دون توقف على صيغة تركيبيّة تشملها، معتمدين على شكل الجملة في توضيح حدّها، ثم ربطوا الملفوظ الأدنى بتوافر النواة الإسناديّة، وذلك عند سعيهم تحديد عناصر الجملة^(٣)، كما طوّرت المدرسة السلوكيّة مفهوم العلاقات السياقيّة عند (سوسير) إلى منهج التحليل إلى المكوّنات المباشرة، الذي تعامل مع السلسلة المنطوقة على أنّها مؤلفة من مكوّنين متلازمين يمكن تحليل كلّ منهما إلى مكوّنين متلازمين جديدين، وهكذا حتى الوصول إلى وحدات لا يمكن تحليلها، والوحدات الأخيرة هي الوحدات التي تتألف منها اللغة^(٤).

وتُقسم الجملة عند الأزهر الزناد إلى نوعين^(٥):

أ- جملة نظام: وهو شكل الجملة المجرد الذي يتولّد عنه جميع أشكال الجمل الممكنة، وهو ما اتّكأ عليه النحاة التوليديون التحويليون، وهذا التناول يعطي الجملة معنى استقلاليّاً

١- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١ هـ)، أسرار البلاغة، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ص ٢٠.

٢- ينظر: صالح أبو صيني، نظام الإسناد في الجملة العربيّة، أطلس للدراسات، عمان - الأردن، مجلد ٢، عدد ١، ٢٠٠٧ م، ص ١٣٣.

٣- ينظر: محمد الحلواني، مفهوم الجملة في اللسانيات والنحو، ص ٢٠١-٢٠٤.

٤- ينظر: نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، دار البشير للنشر والتوزيع، الأردن، ط ٢، ١٩٨٧، ص ٢٩-٣٣.

٥- ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص: بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٣، ص ١٤.

بعيداً عن السياق، ولهذا النوع من الجمل مجموعة من النظم الحاكمة لطبيعة علاقة أجزاء هذه الجملة المستقلة، حيث «أوجد النظام اللغوي عدداً من وسائل الترابط في الجملة، بعضها يعتمد على الفهم والإدراك الخفي للعلاقات، وبعضها الآخر يعتمد على الوسائل اللغوية المحسوسة»^(١).

ب- جملة نصية: وهي جملة تتسم بالتواصل مع جملة أخرى؛ إذ يحتويها نص ما، أو هي المنجزة فعلاً في مقام، ولها مدلولها داخل السياق؛ نتيجة ملاسبات لا يمكن حصرها، ويترتب على هذه الملاسبات الفهم والإفهام، وهذا النوع من الجمل لا يُفهم إلا بإدماجه في نظام الجمل، فيعطي دلالة عبر الاتساق والانسجام^(٢).

ولا يشير الدارسون إلى مصطلح الجملة/ النص من قريب أو بعيد. وقد وجد الباحث أنّ حدّ مصطفى حميدة للجملة يقترب كثيراً من فهم ابن جني للجملة الذي أورده قبلاً؛ فهو يحدّها بقوله: «الجملة وحدة تركيبية تؤدّي معنى دلاليّاً واحداً، واستقلالها فكرة نسبية تحكمها علاقات الارتباط والربط والانفصال في السياق»^(٣)؛ إذ يجمع فيه بين الفائدة والاستقلالية الدلالية، مع ارتباطها بالسياق؛ لأنّ الجملة جزء من النسيج العام في بنية النص الكلية، ويزيد على ابن جني في أنّه ربط بين الجملة والسياق؛ فالجملة لا يمكن الوقوف على دلالتها وعلاقاتها إلا بواسطة السياق.



١ - محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، ص ٧٤.

٢ - ينظر: محمد مفتاح، ديناميّة النص: تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٠م، ص ٣١.

٣ - مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، ص ١٤٨.

ثانياً: النص

١ - مفهوم النص في الدرس اللغوي القديم في التراث العربي والغربي:

لم يجد الباحث مصطلح «النص» بمفهومه الحديث في التراث العربي بوضوح إلا عبر التأويل، ولذلك ألقى دلالة مادة «ن. ص. ص» بعيدة عن الدلالة المستحدثة في الدراسات الأدبية، فقد وردت في المعاجم العربية بمعنى: الرفع، والإظهار، والثبات، والاستقصاء، ومنتهى الشيء بمعنى الإدراك والغاية، والإسناد، والتوقيف، والتعيين^(١).

وسعى بعض الباحثين الربط بين هذه المعاني اللغوية للفظ «نص» ومعناها الحديث، فذهب بعضهم إلى أن «الرفع والإظهار يعنيان أن المتحدث أو الكاتب لا بد من رفعه وإظهار نصه؛ كي يدركه المتلقي المستمع أو القارئ»، وكذلك ضمّ الشيء، فنلاحظ أن النص - في كثير من تعريفاته - هو ضمّ الجملة إلى الجملة بالعديد من الروابط، وكون النص أقصى الشيء ومنتهاه، هو تمثيل لكونه أكبر وحدة لغوية يمكن الوصول إليها^(٢).

وقال آخرون إنه «بالتقاء هذه المعاني جميعها ينبغي أن يكون المفهوم الأساسي لأي نص، أنه وسيلة لنقل الأفكار والمفاهيم إلى الآخرين، فهو ينقل شيئاً ما إلى المخاطب، وهو ليس هدفاً في حد ذاته، وإنما هو طريق للخطاب»^(٣).

أمّا مفهوم مصطلح النص في تراثنا العربي فقد كان محصوراً بما استنبطه الأصوليون وفهموه من معاني متعددة، هي: كلّ ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب والسنة، سواء كان ظاهراً أم

١ - ينظر: الخليل الفراهيدي، العين، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥ م، مادة (نصص). وابن منظور، محمد بن مكرم، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الإفريقي (٧١١هـ)، لسان العرب، مادة (نصص). والفيروزآبادي، مجد الدين، أبو الطاهر، محمد بن يعقوب (٨١٧هـ)، القاموس المحيط، مادة (نصص). وإبراهيم مصطفى وآخرون - المعجم الوسيط، مادة (نصص).

٢ - صبحي الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٢٨.

٣ - أحمد غيفي، نحو النص: اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١، ص ٢٠.

نصًا أم مفسرًا حقيقة أم مجازًا عامًا أم خاصًا، وهو المستغنى فيه بالتنزيل عن التأويل، وهو ما لا يتطرق إليه احتمال أصلاً، لا على قرب ولا على بعد^(١).
أما في التراث الغربي فيظهر الأصل اللاتيني لكلمة «نص» في اللغات الأوروبية، أن كلمتي: «Texte»، و«Text» مشتقتان من «Textus» بمعنى النسيج «Tissu»^(٢)؛ فالأصل اللاتيني يحيل إلى النسيج ويوحي بالجهود والقصد، ولعله يوحي أيضًا بالاكتمال والاستواء، ثم ألا يعني النسيج بمعناه الواسع الإنشاء والتنسيق في ضم الشتات والتنضيد؟^(٣)، ولعل هذا يحيل في بعض وجوهه إلى معنى «الائتلاف» الذي استعمله النحاة العرب القدامى في حدهم للجملة والكلام، وكذلك معنى «البناء» في الحد ذاته عندهم.
كما يحيل الأصل في اللغة العربية إلى الاستواء والكمال، وإلى النسيج أيضًا، ورغم أن ابن منظور في مادة (نصص) لم يشر إلى ذلك، ولكن مادة (ن. س. ج) تحيل إلى ذلك «نسيج: النسيج ضم الشيء إلى الشيء، هذا هو الأصل... والريح تَنْسِجُ الماء إذا ضربت مَتْنَهُ فانتسجت له طرائق كالحُبْك. ونسجت الريح الربو إذا تعاورته ريحان طولًا وعرضًا»^(٤)، وبمقارنة ما ورد في العربية واللاتينية، فإن النص في اللغة يؤدي معنى بلوغ الغاية والاكتمال في الصنع.

٢- مفهوم النص في الدرس اللغوي الحديث:

حظي مصطلح «النص» وما يتصل به من مفاهيم باهتمام الدارسين المحدثين، ووُضعت في هذا الموضوع دراسات كثيرة، إلا أنها لم تتفق على حد ثابت لمصطلح النص، فظل السؤال الذي تركّزت حوله جهود الدارسين بحثًا عن إجابته: ما الذي يصنع النص؟ أو ما الذي يجعل الكلام نصًا؟ وتعددت الإجابات التي أسفرت عنها الدراسات بتعدد مناهج النظر لدى أصحابها، وكان «الترابط» أو «التماسك» من أهم الخصائص التي

١ - ينظر: التهانوي، محمد بن علي (١١٥٨هـ)، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي درحروج، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦، ج ٣، ص ١٣٠٥. وعبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، دار الزهراء للنشر والتوزيع، ط ١، ص ١٤٤ - ١٥٠.

2 - Dictionnaire Quillet de la langue française, (Q-Z) Librairie Aristide Quillet, Paris, 1983.

٣ - أحمد الحذيري، من النص إلى الجنس الأدبي، الفكر العربي المعاصر، ١٩٨٨، ع: ١٠٠-١٠١، ص ٤١.

٤ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (نسيج).

ذكرها أولئك الدارسون؛ حيث أجمعوا على ضرورة وجوده فيما يُمكن تسميته نصًّا. ويمثل علم النص مجالاً معرفياً في العلوم الإنسانية، وقد أثار مصطلح «النص» إشكالية نقدية في الدراسات الأدبية الحديثة، أدت إلى اختلاف في منهج البحث وتباين في تحديد مفهوم «النص» وسماته، ممّا جعل البحث النصّي صعباً يتطلب دراية واسعة بمناهله المعرفية التي صدر منها وعنهما.

ولذلك أضحى مصطلح «النص» من المصطلحات الغامضة أو المعقدة، بل قد تجد لدى باحث واحد بعينه، عددًا من التعريفات، ويختلف محتوى أو عناصر كل تعريف عن الآخر^(١)، وقد ذكر صبحي الفقي السرواء عدم استقرار مفاهيم النص فيما يأتي^(٢):

١- التماس بين هذا العلم وغيره من العلوم، لكنه رأى أنّ هذا السبب أصبح ركناً أساسياً في الدراسة النصّية.

٢- تعدّد معايير هذا التعريف، هل هي معايير شكلية، أم معايير دلالية، أم شكلية ودلالية معاً؟.

٣- عدم اكتمال تطوّر نحويات النص؛ لأنّ ذلك يعني عدم اكتمال العلم.

وتشكل فكرة النسق اللغوي التي جاء بها (سوسير) مدخلاً لفهم طبيعة النص، مفاده أن النسق يحتفظ ببنية منظمة، ولكن تتغيّر ملامحه وفق المستجدات التي لا يفتأ يتكيّف معها^(٣)، كما أن النسق الفردي يتألف من وحدات لغوية صغرى، تكتسب معناها وأهميتها من علاقاتها النسقية، أي إنّ النص ذو بنية منظمة، ولكنه يتشكل بحسب موضوعه وسياقه^(٤)، وهذا يشير إلى أهمية وحدة النص؛ فلا يمكن تفكيكه ثم النظر إلى أجزائه على أنّها نص، وهذا ما أشار إليه (فوسلر) حين أنكر تحليل النص إلى أجزاء، وجعله صورة تتحقّق في الروح، ولا سبيل إلى معرفته إلا بها^(٥)، فأوجز بذلك نظرة البنيوية إلى النص، وهذا يفسر

١- ينظر: عزة شبل محمد، علم لغة النص، النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، ط٢، ٢٠٠٩، ص ١١٥.

٢- ينظر: صبحي الفقي، علم اللغة النصي، ج١، ص ٢٧.

٣- ينظر: عبد العزيز حمودة، المايا المحدبة: من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع ٢٣٢، ١٩٩٨، ص ١٩٣-١٩٤.

٤- ينظر: المرجع السابق، ص ١٩٥.

٥- ينظر: لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب (بحث في فلسفة اللغة والأستطيقا)، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ومكتبة لبنان، القاهرة/ بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص ١٠١.

تكرار لفظة «نسيج» في كثير من تعريفات اللغويين له^(١)؛ وذلك لأنّ النسيج لا يمكن تفكيكه إلى مجموعة الخيوط المكوّنة له، ولا مساواته بها.

وقد سعى باحثان لسانيّان فرنسيّان -هما (روبير لافون) و(فرانسواز مادريه)- لتتبّع مصطلح النص منذ نشأته، واستعمالاته في العصور المختلفة، فوقفا على جهود (سوسير)، ثم استعرضا جهود (سبترز)، و(ريفاتير)، و(كريستيفا)، و(رولان بارت)، و(جاكبسون)، خصوصاً فيما يتعلق بحديثه عن علاقة النص بالتواصل، وأوضحا تطور مفهوم هذا المصطلح لدى أولئك الدارسين^(٢)، وهي دراسة تكشف أبعاداً مختلفة لتطور هذا المصطلح وآفاق رؤيته، كما يقدّم المعجم الموسوعي للسميائية مجموعة من التعريفات الخاصة بهذا المصطلح^(٣)، منها ما هو عام، ومنها ما هو خاص بهذا الناقد أو ذاك، وتظهر تعريفات مصطلح النص، على اختلاف مصادرها، درجة التباين العالية في هذا المجال، ممّا يعكس توجهات معرفيّة ونظرية مختلفة^(٤).

وأخذت الدراسات اللسانية بعد ذلك تعيد النظر في طروحاتها النظرية، ولا سيّما بعد أن ضاقت بإغفال منزلة القول المنجز، وإقصاء المعنى والسياق، فتجاوزت الإغراق في التجريد واتجهت إلى المعطيات التداولية، وأدخلت النص والخطاب ضمن دراساتها في سياق متصل بعلوم أخرى كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والتاريخ وغيرها.

١ - ينظر: Barthes (Roland), The pleasure of text, translated from French by Richard Miller, Jonathan Cape, London, 1976, P. 103. Beaugrand & Dressler - An Introduction of Text linguistics, 4th Edition, London, & New York, Longman linguistics library, 1988, P. 80. Edward Said - The world, The text and the critic, 1st Edition, Harvard University press, 1983, P. 22. محمد مفتاح، المفاهيم معالم: نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ١٩٩٩، ص ١٦. الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١٢.

٢ - ينظر: سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي: النص - السياق، بيروت - الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٩، ص ١٥.

٣ - ينظر: Encyclopedic dictionary of Semiotics, General editor, Thomas sebeok Mouton, 1986, Tom «2» P. 1080

٤ - ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٥، ص ١٨.

وتشعبت هذه الدراسات وأخذت اتجاهاتها أشكالا متعددة؛ فصار تحديد مفهوم النص يستوعب علامات فارقة برصد كمّ غير محدود من التعريفات التي طرحتها الاتجاهات المختلفة^(١)، وصولاً إلى ما يُحدّد النصّ به، «فالنص جملة، أو متوالية من الجمل...»^(٢)، وهو «إنجاز اعتمد في توليده على فعل لساني وعمل لغوي»^(٣)، وهو «وحدة لغويّة في طور الاستعمال»^(٤)، أو «مظهر دلالي يتم من خلاله إنتاج المعنى لدى المتلقي»^(٥)، وهو «كلّ مترابط يؤدي الفصل بين أجزائه إلى خلل في معناه»^(٦)، وهو أيضاً «كلّ خطاب تمّ تشيئته بواسطة الكتابة»^(٧)، وهو «شكل مغلق له بداية ونهاية»^(٨)، ومن تعريفاته أيضاً أنّه «نظام من الإشارات... لا يعترف إلا بترتيبه الخاص»^(٩)، و«نظام من القواعد المحدودة العدد يقوم عليها أدأؤه»^(١٠)، و«جهاز ينظمه تماسك لغوي خاص»^(١١)، ويبيّن (هاليداي) ورقية حسن

١- سعيد بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والإجراءات، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، ١٩٩٧، ص ١٩٢. قاسم المومني، علاقة النص بصاحبه: دراسة في نقود عبد القاهر الجرجاني الشعرية، عالم الفكر، ٢٥ (٣)، ١٩٩٧، ص ١١٨.

٢- ينظر تعريف (برينكر) في: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٧، وينظر تعريفات (شميت) و(هارفيج) و(هارتمان) في المرجع نفسه، ص ١٠٨-١٠٩.

٣- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٢، ص ١٨، ١٢٠.

4- Halliday (M.A.K) & R. Hassan- Language, Context and Text: Aspects of Language In a Social- semiotic perspective. 2nd ed. Oxford University Press, London, 1989, P. 37
Halliday & Hassan - Cohesion in English language, Longman, London, 1976, P. 8 وينظر

٥- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص ٣١.

٦- سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٨.

٧- ينظر تعريف (بول ريكور) في: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٦٤، ١٩٩٢، ص ٢١٩.

٨- عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط ١، ١٩٨٣، ص ١٨.

٩- فريدناند دي سوسير، علم اللغة العام، تعريب صالح القرمادي وزميله، ط ١، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٥، ص ٤٣.

10- P.5 Chomsky (Noam), Syntactic Structures, Paris, Mouton, 1981,

١١- عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ص ٧٣.

أنّ النص «وحدة دلالية، وليست الجمل إلا الوسيلة التي يتحقّق بها النص»^(١)؛ فكلّ متتالية من الجمل تشكل نصّاً، شريطة أن يكون بين هذه الجمل علاقات، أو على الأصح أن يكون بين عناصر هذه الجمل علاقات، ويرى لوتمان أن النص يعتمد على مكوّنات متعدّدة، هي^(٢):

التعبير: (الكل) ويقصد الجانب اللغوي.

والتحديد: أي إنّ النصّ يحتوي على دلالة غير قابلة للتجزئة.

والخاصية البنيويّة: أي إنّ النص لا يمثل مجرد متوالية من مجموعة علامات تقع بين حدّين فاصلين فحسب، بل إنّ التنظيم الداخلي لازم للنص.

ويعرّف الأزهر الزناد النصّ بأنّه: «نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض، هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كلّ واحد، هو ما نطلق عليه مصطلح «نص»^(٣).

وعرّف (بيوجراند) النصّ بأنّه: «حدث اتصالي تتحقّق نصيّته إذا اجتمعت له سبعة معايير، وهي: الربط، والتماسك، والقصدية، والمقبولية، والإخبارية، والموقفية، والتناص»^(٤)، فإذا ما تحققت هذه المعايير أصبحت كفاءة النصّ عالية، الأمر الذي يسهل عملية الاتصال من جهة، ويحقّق التأثير المطلوب بقوة وقّعه عند مستقبله من جهة أخرى.

ولهذا قال صلاح فضل: «علينا أن نبني مفهوم النص من جملة المقاربات التي قدّمت له في البحوث البنيويّة والسيميولوجيّة الحديثة، دون الاكتفاء بالتحديدات اللغويّة المباشرة؛ لأنّها تقتصر على مراعاة مستوى واحد للخطاب، هو السطح اللغوي بكيّنونته الدلاليّة»^(٥).

ولذلك رأى فضل أنّ تعريف (جوليا كريستيفا) للنص «جهاز عبر لغوي يعيد توزيع نظام اللغة بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية، مشيراً إلى بيانات مباشرة، تربطها بأنماط مختلفة من الأقوال السابقة والمتزامنة معها»^(٦)، على تشابهه قد ظفر باهتمام خاص لأنّه

- ١- محمد خطّابي، لسانيّات النص، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١، ص١٣.
- ٢- ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص١١٦-١١٧.
- ٣- الأزهر الزناد، نسيج النص، ص١٢.
- ٤- بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص١٠٣-١٠٦.
- ٥- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص٢١١.
- ٦- جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ١٩٩٧، ص٢١.

«أكثر من مجرد خطاب أو قول؛ إذ إنه موضوع لعديد من الممارسات السيميولوجية التي يعتد بها على أساس أنها ظاهرة غير لغوية، بمعنى أنها مكونة بفضل اللغة لكنها غير قابلة للانحصار في مقولاتها»^(١).

ويظهر مما سبق أن الاتفاق على مفهوم محدد للنص أمر لا يمكن الوصول إليه؛ إذ «يجب أن يوضع في الاعتبار أن مسألة وجود تعريف جامع مانع للنص، مسألة غير منطقية من جهة التصور اللغوي، ويؤكد ذلك الاختلاف بين علماء اللغة الذين ينتمون إلى مدارس لغوية مختلفة، حول حدود المصطلحات التي تركز عليها بحوثهم...، ومع ذلك يظل الوصول إلى تعريف يضم أكبر عدد من الملامح الفارقة للنص فكرة طموحاً، نتوسل إليها بمناقشة عدد لا بأس به من التعريفات التي طرحها أهم ممثلي هذا الاتجاه الجديد»^(٢).

وقد تتبع خلود العموش تعريفات هذا المصطلح في بعض دراساتها، وسعت إلى أن تخلص إلى ما يُحدّد به النص فقالت: «هو كلام متصل ذو وحدة جلية تنطوي على بداية ونهاية، ويتسم بالتناسك والترابط، ويتسق مع سياق ثقافي عام أنتج فيه، وينسجم مع سياق خاص يتعلق بالعلاقات القائمة بين القارئ والواقع بواسطة اللغة، وبين بداية النص ونهايته مراحل من النمو القائم على التفاعل الداخلي الذي يؤدي به إلى تحقيق وظيفته المتمثلة في خلق التواصل بين النص ومتلقيه»^(٣).

ولعلّ بعض ما جاء سابقاً جدير بإعادة مناقشته بصورة واضحة على شكل أسئلة محدّدة هي:

- ١- هل النص وحدة دلالية أم نحوية؟
 - ٢- ما معنى أن النص «كُلٌّ»؟
 - ٣- ما معنى أن النص «مغلق» و«مكتمل»؟
 - ٤- هل يمكن أن يكون النص جملة واحدة؟
- وفي جواب هذه الأسئلة فإنني أقول بصورة أولية: إن النص وحدة نحوية؛ فهو وإن كان من أكثر المناشط المعقّدة للغة فإنّه موضوع النحو الرئيس؛ فالنحو كما يفهمه الجرجاني:

١- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢١٢.

٢- سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٧.

٣- خلود العموش، الخطاب القرآني، ص ٢٢.

«تعليق الكلم بعضها ببعض»^(١)، والدلالة لا تنفصل عن هذه الفكرة، فهي جزء لا يتجزأ من النحو.

أما كلفة النص فمعناها أنك لا تستطيع فهم أجزائه وعلائقها إلا عبر بنية كلفة جامعة، وهذه الكلفة متصلة بسياق هذا النص؛ فمتى وجد سياق كلي جامع وجد النص، ولا ريب أن هذا مرتبط بالمتلقي وقدرته على الحكم بأن ما يواجهه من شكل لغوي يمثل كلاً واحداً مؤلفاً^(٢).

أما الاكتمال عند علماء النص فهو الاكتمال النحوي والاكتمال الدلالي^(٣)، وهو يضمن سمتين أخريين من سمات النص، هما: الاستقلالية والإغلاق^(٤)، وتعني الاستقلالية أن لا ينضوي النص تحت وحدة أكبر منه، أما الإغلاق فيعني أن النص «له بداية ونهاية»^(٥)، وهذا يتصل بالبنية التركيبية التي لا تفتقر إلى تركيب آخر يتممها؛ فهي مكتملة على صعيد الجمل، وعلى صعيد البنية الزمانية وترتب أحداث النص.

ويقفهم من تعريفات العلماء المحدثين أن النص قد يكون جملة واحدة، وقد يكون متوالية من الجمل؛ فلا تتوقف النصية على صيغة تركيبية محددة (جملة/ متوالية جمل)، وإنما على الإغلاق والاكتمال والترابط والانسجام؛ فالنص لا يمثل مجرد متوالية من مجموعة علامات تقع بين حدين فاصلين وحسب؛ بل إن التنظيم الداخلي لازم للنص.



١ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني، جدة، ط٣، ١٩٩٢، ص٤.

٢ - ينظر: براون ويول، تحليل الخطاب، ص١٤.

٣ - ينظر: Lozano, George, Discourse, Analysis, London, 1987, p19.

٤ - ينظر: سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص٩٣.

٥ - ينظر: منذر عياشي، الكتابة الثانية: فاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص١١٨.

ثالثاً: نحو النص

طرح الباحثون الغربيون سؤالاً كبيراً في غمرة اهتمامهم اللافت بالنص في الدراسات المعاصرة مفاده: أيّ نحو هو الذي يصلح لوصف النصوص؟ وهل دراسة «النص» هي جزء من اللسانيّات؟

ومردّ هذا السؤال أنّهم كانوا يعدّون «الجملة» -ومنذ وقت بعيد- هي أكبر وحدة للوصف اللغوي^(١)؛ فالنص بهذا يخرج عن حدود اللسانيّات؛ ولا ريب أنّ هذا السؤال له وجاهته الكبيرة؛ فإنتاج النص وتلقّيه يعدّان من المناشط المعقّدة للغة، ولذا وجد الباحث من شكّك في بواكير القرن الماضي بإمكانية بناء نحو للنص، ورأى بعضهم أنّ النص «مظهر من الاستعمال اللغوي غير قابل للتحديد»^(٢)، لكنّ علماء لغة النص في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي تجاوزوا هذا التشكيك، ومضوا يجربون نماذج مختلفة لتحليل والوصف. والناظر في هذه الجهود -الغربية منها والعربية على السواء- يلاحظ أنّ الذي شغل أولئك العلماء سؤالاً، لعلّ الإجابة عنهما هي نفسها الإجابة عن سؤال: «هل يمكن بناء نظام للنص يطرد في النصوص كلّها؟»:

الأوّل: أيّ «نحو» هو الذي يصلح لمعالجة النصوص؟ هل يمكن أن يقوم «نحو الجملة» بهذه المهّمة؟

الثاني: هل يصدق «نحو النص» على أيّ نص؟ وبمعنى آخر: هل يتّسم هذا النحو بالمعيارية؟ كان من الطبيعي -بادئ الأمر- أن يتجه علماء النص لنحو الجملة، وأن يستخدموا نهجاً مماثلاً للنهج الذي اتبع في وصف الجملة^(٣)، لكنّ هذا المسعى لم يحقّق المطلوب، فقد كان من العسير على أدوات نحو الجملة أن تتسع لوصف هذه الوحدة (النص) التي تتشكل من أجزاء مختلفة، تترابط أفقياً على المستوى النحوي، لكنّها من جهة أخرى تترابط رأسياً عبر آفاق الجانب الدلالي، كما تربط أبنيتها علاقات يتّمي الكثير منها إلى المستوى التداولي،

١- ينظر: بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٨٨.

٢- ينظر: Bloomfield، Leonard، linguistics، 3rd edition، Newyork، 1950، p. 13.

٣- ينظر حول هذه المحاولات: مازن الوعر، الاتجاهات اللسانية المعاصرة ودورها في الدراسات الأسلوبية، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٢، العدد الثالث والرابع، ١٩٩٤، ص ١٧٣-١٨٠.

كما أن وصف نحو للنص يقتضي الوقوف على خليط متنوع من العلوم، يتجاوز بعضها النظام اللغوي، ولذا بدأ (فان ديك) (Van Dijk) يوسع في بحوثه حول النص المفردات المتعلقة بالإدراك، وتخزين البيانات، والذاكرة، وسبل الاسترجاع، وعدّها جزءاً رئيساً في نحو النص^(١).

يتجه علماء النص لنحو الجملة؛ يقول (بارت) (Barthes) إن النص «لا ينتمي للنظام اللغوي، لكنّه على علاقة وشيجة معه»^(٢)، ممّا يجعل مهمّة نحوي النص معقدة للغاية. إنّ التحديات السابقة دفعت الباحثين في علم النص باتجاهين: الأوّل منها سعى إلى توسيع معطيات نحو الجملة وتصوره ليشمل النصوص، والثاني سار باتجاه بناء نحو جديد للنص، يفترق عن نحو الجملة في الغاية والأدوات^(٣)، وهذا التوجه هو الأكثر شيوعاً، وإليه تنتمي معظم النماذج المقدّمة، ورفع بعضهم هذه المقولة شعاراً: «إن أي نحو للجملة لا يمكن أن يكون له جدوى إلا إذا كان جزءاً من نحو الخطاب»^(٤).

١ - نحو النص في التراث العربي:

تصدر هذه الدراسة عن فكرة مفادها أنّ النحو بمعناه الشامل عند العرب يتّسع ليشمل وصف النصوص، ويمكن رؤية هذا بوضوح برصد بيانهم لمجال هذا العلم وطبيعته، وتحديد لغاياته ووظيفته؛ فالنحو عندهم «انتحاء سمت كلام العرب»^(٥)، فمجال هذا العلم دراسة نظام كلام العرب، وكلام العرب قد يكون جملة أو عبارة أو نصّاً، بل إنّ النصوص والخطابات ستكون المجال الأوسع؛ ذلك أن الناس في اللغة التواصلية يستعملون متواليات متصلة من الجمل، أو يستعملون نصوصاً، وخطابات مكتملة، ويشير كثيرٌ من

١ - ينظر: Van Dijk, Text & context, Longman, London, 1977, P.44.

٢ - رولان بارت، نظرية النص، ترجمة محمد خيرى البقاعي، مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت، ١٩٨٨، ص ٩١.

٣ - ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ٩٢-١٤٥.

4- Wilber Pickering, «A Frame work for Discourse Analysis», Summer Institute Linguistics, publication No. 64, 1980, p.5.

٥ - ابن جني، الخصائص، ج ١، ص ٣٤-٣٥.

تعريفاتهم إلى أن النحو معنيّ بمعرفة أجزاء الكلام «التي ائتلف منها»^(١)، والائتلاف مكان ظهوره البين والساطع هو النصوص والخطابات أكثر منه في الجمل القصيرة المنبئة عن سياقاتها.

وفي جانب وظيفة هذا النحو وغايته، يقول ابن السراج: «النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلّمه كلام العرب»^(٢)، وأضاف ابن جنّي: «ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شدد بعضهم عنها ردّ به إليها»^(٣)؛ فوظيفة هذا النحو وغايته، أن يمتلك مستعمل اللغة كفاءة إنشاء كلام يجري على سنن العربية ونظامها، وكفاءة تصويب هذا الكلام وتدقيقه وفقاً لهذه السنن، وأضاف ابن الناظم إضافة نوعيّة لهذا، حين حدّد النحو بأنّه: «العلم بأحكام مستنبطة من استقراء كلام العرب، أعني أحكام الكلم في ذواتها، أو فيما يعرض لها بالتركيب لتأدية أصل المعاني، من الكيفية، والتقديم والتأخير؛ ليحترز بذلك عن الخطأ في فهم معاني كلامهم، وفي الحذو عليه»^(٤). فهو باستخدامه كلمتي «الحذو» و«الفهم» حدّد هدف النحو وغايته بأمرين: الأول: الاقتدار على إنتاج الكلام بتشكيلاته المختلفة، وهذه قد تكون جملة أو نصّاً، بل إن تأدية المعاني في الغالب يحتاج إلى متواليات من الجمل أو نصوص، ويحدث ذلك بوقوف منتج التشكيل الكلامي على نظام كلام العرب، وليس نظام الجملة وحسب عند العرب: تأليفاً، وترتيباً، ضمن ضابطي الصحة والمقبولية، والثاني: كفاءة فهم كلام العرب، الذي قد يكون جملة أو نصّاً، ضمن ضابطي الصحة والمقبولية أيضاً^(٥). ويلاحظ أن هاتين النقطتين تقتربان إلى درجة المطابقة مع ما حدّده (ثان ديك) من وظائف لنظام النص، بأنّه «إنتاج البنيات النصيّة

١ - ابن عصفور الحضرمي الإشبيلي، أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي، المقرّب ومعه مثل المقرّب، تحقيق ودراسة عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط ١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٨، ص ٦٧.

٢ - ابن السراج، الأصول في النحو، ج ١، ص ٣٧.

٣ - ابن جنّي، الخصائص، ج ١، ص ٣٤-٣٥.

٤ - بدر الدين بن الناظم، أبو عبد الله محمد بن جمال الدين بن مالك، شرح ابن الناظم على ألفيّة ابن مالك، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط ١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٢-٣.

٥ - ينظر: خلود العموش، الملامح الكبرى لنظام النص: سورة الزلزلة نموذجاً، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، ٤ (٢)، ٢٠٠٨، ص ٢٧٩.

في مرحلة الأداء، وإعادة إنتاجها بالفهم في مرحلة التلقي»^(١)، بل إن عبارة ابن النازم قد جاءت أكثر وفاءً ووضوحاً.

ولعل من التعريفات التي تعضد هذا الذي ذهب إليه ابن النازم، ما أورده صاحب «المستوفى في النحو» من أنّ النحو «صناعة علمية ينظر إليها أصحابها في ألفاظ كلام العرب، من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم، لتعرف النسبة بين صيغة النظم وصورة المعنى، فيتوصل بإحداها إلى الأخرى»^(٢).

فما أطلق عليه التعريف مصطلح «النظم» هو الشكل اللغوي الذي «يتألف بحسب استعمالهم» فيكون جملة، أو متوالية جمل، أو نصاً، وتجاوز صاحب التعريف به مسألة الشكل، إلى مسألة الربط بين التركيب ودلالته؛ فيتوصل من دراسة البنية التركيبية «صيغة النظم» وما يتصل بها من (صوت، وصرف، ومعجم، ونحو...) إلى المعنى، أو يبدأ بدراسة البنية الدلالية «صورة المعنى» ليفسّر بها بنية التركيب؛ فالنحو عنده مسؤول عن تحقيق كفاءتي: إنتاج الكلام وفهم دلالته، وهما العمود الرئيس لنظام النص. وهنا يتضح أنّ وضع نحو للنص هو جزء من غايات علم النحو العربي، وليس بدعاً من الأمر، فهذا النحو إنّما نشأ في ظل النصّ الكريم، وبسبب منه^(٣).

وما تميّز النحو بإضافة كلمة «النص» أي «نحو النص»، إلا لتمييزه عن مجمل الممارسات النحويّة العربيّة النظرية على أرض الواقع التي ارتبطت بالجملة وحسب.

فالنحو عند العرب - كما أفهمه - نحو واحد يتّسع لوصف الجملة والنص، ويعبّر محمد الشاوش عن عمل النحاة العرب بقوله: «والمرء لا يشعر وهو يطلع على ما وضعوا بأنه تجاه نظريتين بنيت الواحدة منهما للجملة والأخرى للنص، بل هي النظرية الواحدة بما فيها من قواعد خاصة بكل مجال، وقواعد عامة مشتركة بين المجالين، فلا فرق إلا بحسب ما يقتضيه الفرق بين الوحدات التي تجري فيها تلك القواعد والأحكام...»^(٤).

1- Van Dijk, Text & Context, p. 121.

٢- الفرخان، كمال الدين أبو سعيد بن علي بن مسعود بن محمود بن الحكم، المستوفى في النحو، تحقيق محمد بدوي، ط ١، دار الثقافة العربيّة، القاهرة، ١٩٨٧، ج ١، ص ٣.

٣- ينظر: خلود العموش، الملامح الكبرى لنظام النص، ص ٢٨٠.

٤- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تأسيس نحو النص)، جامعة منوبة، تونس، والمؤسسة العربية للتوزيع، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م، ج ٢، ص ١٢٦٧.

وإنَّ القارئ المتفحص لهذا التراث يجد أنَّ كثيرًا من مباحث الجملة في العربية يمكن أن توصف بها وحدات لغويّة أكبر منها، مثل: التركيب، والتضام، والاتساق، والمناسبة، والنظم، والسياق، والنسيج، والتلاؤم، ويتّضح ذلك في علوم العربية المختلفة، ولعلَّ أبرزها في هذا الباب:

أ- في الدرس النحوي:

حدّ النحاة القدامى علم النحو بأنّه: «انتحاء سمت كلام العرب»^(١)؛ فمجال هذا العلم دراسة نظام كلام العرب، وكلام العرب قد يكون جملة أو نصًّا، ويشير كثيرٌ من تعريفاتهم إلى أنَّ النحو معني بمعرفة أجزاء الكلام «التي ائتلف منها»^(٢)؛ والائتلاف مكان ظهوره البين هو النصوص والخطابات، أكثر منه في الجمل القصيرة المنبّئة عن سياقاتها^(٣). وما تأكيد اللغويين ضرورة معرفة الكاتب لطبائع الناس وثقافتهم، إلا صدى لمثل هذه الأقوال، ويبدو أنَّ المبرّد (٢٨٥هـ) كان يؤكّد أنَّ المفردة لا تؤدي معنى إلا إذا اتسقت مع غيرها؛ إذ يقول: «اللفظة الواحدة من الاسم والفعل لا تفيد شيئًا وإذا قرنتها بما يصلح حدث المعنى»^(٤)، كما أشار إلى الظروف المحيطة بالكلام، وما لها من تأثير في الفهم^(٥). وتتّضح معالجة ابن الأنباري (٣٢٧هـ) لارتباط الكلام من حيث النظم والبناء والتلاؤم في قوله: «إنَّ كلام العرب يصحّ بعضه بعضًا، ويرتبط أوله بآخره ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه»^(٦)، وهذا ما يؤكّده اليوم اللغويون المُحدّثون في اتساق النص، وانسجام أجزائه وتلاؤمها. ولعلَّ حديث الرماني (٣٨٦هـ) عن الحذف، واعتبار كلّ كلمة تسقط من العبارة تكون

١- ابن جني، الخصائص، ج ١، ص ٣٤-٣٥.

٢- ابن عصفور الإشبيلي، المقرب ومعه مثل المقرب، ص ٦٨.

٣- ينظر: خلود العموش، الملامح الكبرى لنظام النص، ص ٢٨٢.

٤- المبرّد، المقتضب، ج ٤، ص ١٢٦-١٢٧.

٥- ينظر: المرجع السابق، ج ٤، ص ١٢٦-١٢٧.

٦- الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم (٣٢٧هـ)، الأضداد، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، سلسلة التراث العربي، الكويت، ١٩٦٠م، ص ٢٢.

مفهومة من السياق^(١)، من الأدلة الجليّة على معرفة علماء العربية بالسياق وفهمه وإبراز أثره في تحليل الكلام.

وأدرك ابن جني (٣٩٢ هـ) «العلاقات النحويّة (الوظيفيّة) بين الكلمات التي تتخذ منها موقعًا معيّنًا في الجملة حسب قوانين اللغة، حيث كلّ كلمة في التركيب لا بد أن تكون لها وظيفة نحويّة من خلال موقعها، فهو يدرك تمامًا وجوب مراعاة القوانين النحويّة من أجل وضوح المعنى وإبانته»^(٢).

أمّا المعالجة التي تجاوزت عتبة الجملة في إطار نظريّة الإعراب، فتتمثل في مبحث (إعراب الجمل)، وإعراب الجمل كان عبارة عن إشارات متفرّقة في كتب النحو هنا أو هناك؛ بدءًا بأبي حيّان (٧٤٥ هـ) في الارتشاف^(٣)، ثم المرادي (٧٤٩ هـ) في رسالة جمل الإعراب^(٤). وأشهر من تناول إعراب الجمل هو ابن هشام (٧٦١ هـ) في مغني اللبيب^(٥)، حيث خصّص لذلك بابًا كبيرًا من كتابه مغني اللبيب.

أمّا في جانب التطبيق فقد دعا أمين الخولي إلى تجاوز مستوى الجملة إلى ما وراء الجملة في الفقرة والنص، يقول: «... فالبحث في المعاني إنّما هو بحث في طرفي الجملة -المسند والمسند إليه- وتوابعهما... ونجد أبحاث البيان لا تتجاوز دائرة الجملة أيضًا... أمّا وراء بحث الجملة فلا تجد شيئًا، بل تجد أنّ الأبحاث التي كان المرجو لها أن تتجاوز الجملة

١ - ينظر: الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (٣٨٤ هـ)، النكت في إعجاز القرآن، من كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦، ص ٧٠.

٢ - عبد الكريم مجاهد، الدلالة عند ابن جني، مجلة الدارة، السعودية، ٩(١)، ١٩٨٣، ص ١٦٩.

٣ - ينظر: أبو حيّان، أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي (٧٤٥ هـ)، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق رجب عثمان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨، ج ٣، ص ١٦١٧.

٤ - ينظر: المرادي، الحسن بن قاسم (٧٤٩ هـ)، رسالة في جمل الإعراب، تحقيق: سهير محمد خليفة، حقوق الطبع محفوظة للمحققة، ١٩٨٧، ص ٦١-١٣٢.

٥ - ينظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ج ٢، ص ٤٥. لتفصيل أكثر في البدايات الأولى للاهتمام بإعراب الجمل، ينظر: إبراهيم الخنود، الجمل المختلف في إعرابها، مجلة الدراسات اللغوية، المجلد السادس، ١٤، ٢٠٠٤م، ص ٢١. ويان منور المهدي، مبحث «إعراب الجمل» ودوره في وصف الترابط النصي سورة الجاثية نموذجًا، رسالة ماجستير، الجامعة الهاشمية، الزرقاء، الأردن، ٢٠٠٩، ص ٢٥-٦٠.

قد ردّت إليها، وألزمت حدودها فقط؛ فالبحت في الإيجاز والإطناب والمساواة مثلاً كان يصحّ فيه النظر إلى غرض الأديب كلّ، وكيف تناوله، وهل أسهب في ذلك أو أوجز... لكنّهم لم ينظروا من ذلك إلا إلى الجملة أو ما هو كالجملة وراحوا يفاضلون بين جملة (القتل أنفى للقتل)، وجملة (في القصاص حياة) (كذا) بعدّ حروفهما، فهذا التضيق في دائرة بحث البلاغة... وأمّا التحلية فبأشياء منها توسعة دائرة البحث وبسط أفقه، فلا يقتصر على الجملة... فإنّنا اليوم نمدّ البحث بعد الجملة إلى الفقرة الأدبيّة، ثمّ إلى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر. ننظر إليها نظرنا إلى كلّ متماسك، وهيكل متواصل الأجزاء، نقدّر تناسبه وجمال أجزائه، وحسن اتّلافه...»^(١).

وهذه دعوة قيّمة ومبكرة جدّاً، وقد كانت حرّية -لو وجدت من يتابعها- أن تحدث ثورة في الدرس اللساني والبلاغي في العربيّة، تنتقل به من «نحو الجملة» إلى «نحو النص»^(٢). وتبدو هذه الرؤية ناضجة، وصاحبها يُشخّص أسباب ضيق مجال الدراسة اللغويّة وعدم إتيانها بشيء ذي بال قياساً على ما يتوقع من توسيع دائرة البحث، لكنّها ذهبت أدراج الرياح.

ب- في الدرس البلاغي:

الناظر إلى البلاغة يرى أنّها السابقة التاريخيّة لعلم النص؛ إذا أخذ في الاعتبار توجهها العام المتمثل في وصف النصوص وتحديد وظائفها المتعدّدة... وكذا تتوجه إلى المستمع أو القارئ لتؤثّر فيه، وتلك العلاقات ذات خصوصيّة في البحث اللغوي النصّي. ومن ذلك الإشارات النصيّة التي ضمّنها الجاحظ (٢٥٥ هـ) كتابه (البيان والتبيين)، نحو قوله: «وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة»^(٣)، ومثل ذلك حديثه عن مناسبة الكلام

١- أمين الخولي، فن القول، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١، ١٩٤٧. ص ١٨٦، ٥٢؛ وينظر: أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، القاهرة، ط ١، ١٩٦١، ص ١٦٥-١٦٧، و ص ٢٦٦.

٢- سعد مصلوح، مشكل العلاقة بين البلاغة العربيّة والأسلوبيّات اللسانيّة، بحث منشور ضمن ندوة: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، نادي جدة الأدبي الثقافي، ١٩٩٢، ص ٨٣٩-٨٤٠.

٣- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥ م، ج ١، ص ٦٧.

للسياق غير اللغوي «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار السامعين»^(١).

وخصّص عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) أبواباً كاملة لمفهوم التضام ومقوماته^(٢)، وهو ما عرف عند علماء اللغة النصّيين بمصطلح (السبك)، من مثل: التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والحذف والإضمار، والعطف وأدواته المختلفة... إلى غير ذلك من الأبواب التي عُرِفَتْ باصطلاح المُحدِّثين، من مثل: الإحالة، والربط، والإعلامية...

ويبدو أن الزمخشري (٥٣٨ هـ) كان متأثراً بالجرجاني، لاسيما فيما يتعلق بالسياق اللغوي وغير اللغوي، وأثره في القضايا النصّية واللغوية كالتقديم والتأخير والحذف والوصل والفصل، إلى جانب نظره في وحدة التركيب وأثرها في فهم المعنى، ففي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ سورة البقرة، آية ٢، وجد الزمخشري أن نظم الآية، وضّم الألفاظ بعضها مع بعض هو الذي أظهر دلالتها، يقول: «جاء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق؛ وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض»^(٣).

ولا يبتعد ابن الأثير (٦٣٧ هـ) عن علماء العربية في النظر إلى التركيب، وفي كون الألفاظ وهي مفردة ليس لها معنى مثلما هي في التركيب أو السياق؛ «لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب ويصير له هيئة تخصّه»^(٤)؛ فالكلمات وهي مفردة لا تحتاج إلى تفسير، «وإذا نظرنا إليها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير»^(٥).

ومن أهم المباحث البلاغية التي يبرز فيها الفكر النصّي عند العرب مبحث «الفصل والوصل»^(٦).

١- الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٣٩.

٢- ينظر تفصيل ذلك عند: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٠٦، ١٤٦، ٢٢٢. وهي أبواب التقديم والتأخير، والحذف، والفصل والوصل على الترتيب.

٣- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (٥٣٨ هـ)، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨، ج ١، ص ٢١-٢٩.

٤- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد (٦٣٧ هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٥٩، ج ١، ص ١١٦.

٥- المرجع السابق، ج ١، ص ١١٦.

٦- ينظر آراء البلاغيين حول هذا المبحث عند: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٦٤. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٢٢٢.

ج- في علوم القرآن:

ولعل التفكير النصي عند علماء العربية بلغ ذروته عند من ألفوا في علوم القرآن؛ ذلك أن القرآن الكريم نص متكامل، لغة، ونظمًا، ودلالة، وبلاغة، يأخذ بعضه بعضًا، فيه التماسك والالتحام، وقوة السبك، فأبرزوا التماسك الصوتي والصرفي، والنحوي، والمعجمي، والدلالي، وكذلك التماسك النصي، كما أكدوا المناسبة بين الحروف في الكلمة الواحدة، وكلمات الجملة الواحدة، وجملة النص الواحد ونصوص القرآن كله^(١).

ومن أبرز الإشارات في ذلك ما ورد عند الزركشي (٧٩٤هـ) والسيوطي بعده (٩١١هـ)، وإن كانت أقوال الأخير هي تكرار لأقوال الأول، فقد بحث هذان العالمان تحت مصطلح (المناسبة)^(٢) جلّ مفاسل التحليل النصي بالمعنى الحديث، وإن كان علم المناسبة قد عمل به قبلهما.

ولعلي لا أبالغ إن قلت إن البدء كان «النص» وليس الجملة؛ لكنهم لما عسر عليهم وصف النص ابتداءً بدأوا بالجملة، ولذلك وُجد «علم المعاني»، أو إن شئت «علم معاني النحو» الذي كان الجرجاني رائده، يسعى إلى أن يستأنف البحث باتجاه النص؛ فهو الحلقة المستأنفة في علم النحو - كما أراه - ولكن النحاة بعد الجرجاني لم يستكملوا البناء، إلا ما أراه عند ابن هشام في «مغني اللبيب» الذي أعدّه دراسة رائدة في وصف النصوص؛ إذ بدأ كتابه بالمفردات ثم جعل القسم الثاني للجمل، وتوجّه بمبحث «إعراب الجمل» الذي يعدّ منظومة متسقة في وصف الترابط النصي^(٣).

٢- نحو النص في الدرس اللغوي الحديث:

إن أي نحو للجملة لا يمكن أن يكون له جدوى إلا إذا كان جزءًا من نحو الخطاب، ونحو

١- ينظر: صبحي الفقي، علم اللغة النصي، ج ١، ص ٥٠.

٢- ينظر: الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ج ١، ص ٣٧. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، بيروت، ١٩٩٧، ج ٢، ص ١٠٨.

٣- ينظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ج ٢، ص ٤٥. وإبراهيم الحنود، الجمل المختلف في إعرابها، ص ٢١. ويهان منور المهدي، مبحث «إعراب الجمل» ودوره في وصف الترابط النصي، ص ٢٥-٦٠.

النص في العربية يندرج تحت حدّ علم النحو بمعناه الواسع، الذي يعني انتحاء سمت كلام العرب، وكلام العرب قد يكون جملة أو عبارة أو نصّاً.

أمّا نحو النص كما استقر في الدرس اللغوي الحديث فهو فرعٌ من اللسانيات يدرُس النصّ بوصفه الوحدة اللغويّة الكبرى، ويبيّن جوانب عديدة فيه منها: التماسك والترابط ووسائله، وأنواعه، والإحالة أو المرجعيّة وأنواعها، والسياق النصّي وأثر المشاركين في النص عند إنتاجه وتلقّيه سواء كان منطوقاً أم مكتوباً^(١). وهو علمٌ بمبادئ وأصولٍ يُعرَفُ بها تماسكُ النص انسجماً واتساقاً، وغرضه معرفة مدى تحقّق نصيّة النص، وتمكين قائله من السير على قواعده^(٢)؛ «فالنصوص تجري وفقاً لنظام سديد»^(٣)، كما يقول (فاينريش).

ونحو النص كذلك، هو العلم الذي يمكنك من كفاءة إنتاج النصوص المختلفة، متفقة مع سياقاتها المتعدّدة، وكذلك مهارة فهم النصوص، والوصول إلى دلالتها عبر وصف نظامها، الذي ائتلف على نحو مخصوص ليؤدّي هذه الدلالة.

وهو كذلك العلم الذي يدرس أي ظاهرة نصيّة وفقاً لعلاقة النص بالسياق، من مثل: مجموعة الظواهر التي درسها (هاليداي) للوصول إلى الخواص الأسلوبية للنصوص الأدبيّة، ومنها دراسة أطوال الجمل في النص وعلاقتها بالسياق، وغيرها من الظواهر. فهو منهج من مناهج التحليل اللغوي، يستشرف المعنى الكلّي للنص، ويحلّل الأجزاء والمكوّنات في ضوء النظرة الكلية الشموليّة للنص؛ فالمعنى في نحو النص يتحدّد من النص لا من الجملة، ويمكن لمحلل النص تفسير جملة ما بجملة لاحقة لها أو سابقة عليها، من منطلق القول بكلية النص، وقد ارتبط نحو النص منذ نشأته ارتباطاً وثيقاً بتحليل الخطاب، والنظر إلى النص على أنّه بنية كليّة لا على أنه جمل فرعيّة، وقد تطور النحو بظهوره من نحو

١ - ينظر: صبحي الفقي، علم اللغة النصي، ص ٣٦. وثان ديك، علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١، ص ٤٨؛ وثان ديك، النص والسياق: استقصاء للبحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، = ط ١، ٢٠٠٠، ص ١٢-١٣. ومحمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ص ٢١٠، ص ١٢٦٢-١٢٦٤. وسعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٣٣-١٣٤.

٢ - ينظر: عثمان أبو زنيد، نحو النص: إطار نظري ودراسات تطبيقية، عالم الكتب الحديث، إربد، ط ١، ٢٠١٠، ص ٣١.

٣ - سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٩٢.

يحلل الجملة إلى نحو يحلل النص، فيتعامل معه بوصفه جملاً وسياقات، وظروفاً وفضاءات، تتعالتق فيها المعاني وتترابط بما قبلها وما بعدها، فهو الأكثر اتصالاً بمجال تحليل النص. وكان نحو النص إفرازاً حتمياً لمجموعة من التحوّلات المعرفيّة والمنهجية التي جدّت في نظرية اللغة، وأصولها، ومستوياتها ووظائفها، والفلسفة العلميّة الكامنة وراءها، وقد بدأ هذا الإفراز يتشكّل منهجياً مع الدراسات التي توغلت في التنظيم الداخلي للنصوص، ولا سيّما دراسات (هارفنج) و(إيزنبرغ) ورقية حسن التي ظهرت سنة ١٩٦٨م؛ إذ سعى الأوّل إلى وصف التنظيم الداخلي للنص، واعتنى الثاني بالبحث في العوامل المتحكّمة في اختيارات صاحب النص، وعلاقات المجاورة بين الجمل، وجعلت الثالثة بحثها الموسوم بـ «علاقات التماسك النحويّة في الإنجليزيّة المكتوبة والمنطوقة» منصباً على كشف علاقات الاتساق داخل النصوص، ومعرفة القواعد النحويّة التي تنظم النص^(١).

ويعد (ثان ديك) من أبرز الداعين إلى إقامة نحو النص؛ إذ سعى إلى إقامة تصوّر متكامل حول هذا العلم، حيث ظهر كتابه (بعض مظاهر أنحاء النص) عام ١٩٧٢م، اعترض فيه على النحو التقليدي ودعا إلى اتباع طرق جديدة في تحليل النص، والتعامل معه على أنّه بنية كبرى، وتحديد القواعد التي تحكم بنية المعنى الكلّي للنص^(٢).

مهامّ نحو النص:

يحدّد نحو النص لنفسه هدفاً رئيساً وهو «وصف الأبنية النصيّة ودراستها، وتحليل المظاهر المتنوّعة لأشكال التواصل النصّي»^(٣)، ولكن الاتساع المعرفي الذي يختصّ به يجعل أداء مهمّته لا يعرف الاجتزاء، ولا يتوقف عند حد، وإنّما ينتقل من مستوى إلى مستوى آخر، وفي إطار وحدة كليّة، وفي صورة منظمة، بحيث يعالج ظواهر نصيّة مختلفة مثل: علاقات التماسك النحوي النصّي، وأبنية التطابق والتراكيب المحوريّة، وحالات الحذف، والجمل المفسّرة، والتحويل إلى الضمير، والتنويعات التركيبيّة وتوزيعاتها في نصوص فرديّة، وغيرها من

١- ينظر: إبراهيم خليل، الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ١٢٩-١٣٠، ص ١٣٥.

٢- ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ٢١٩.

٣- أحمد عفيفي، نحو النص، ص ٣١.

الظواهر التركيبية التي تخرج عن إطار الجملة المفردة، التي لا يمكن تفسيرها تفسيرًا كاملاً دقيقاً إلا من وحدة النص الكلية^(١).

ويروم نحو النص أن يقدم تفسيراً مقنعاً لكثير من الظواهر التي توصف بالشذوذ في قواعد اللغة، ويمكن أن يكون معيناً على تفسيرها تفسيراً مقنعاً^(٢)؛ لأنّ نحو النص ينظر إلى النصّ كلّ، ولا يقف عند بنائه التركيبي إلا بقدر ما يؤثر هذا الركن البنائي في النصّ الكلي؛ لذلك يسعى نحو النصّ إلى إبراز الطبيعة الكلية للنصوص بواسطة الوصف والتحليل وربط ذلك بالحاجات الاجتماعية^(٣)، واتفقت آراء مجموعة ممّن عاجلوا النصّ على أنّ وظائف «نحو النصّ» ومهمّاته تنحصر في أمرين هما: الوصف النصّي؛ والتحليل النصّي^(٤).

ويشمل الوصف والتحليل مختلف العلاقات الداخلية والخارجية للنصّ بأبنيته ومستوياته المختلفة، وشرح المظاهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة، وبيان التأثيرات التي تحدثها النصوص على المتلقين^(٥)، كما يشملان وصف الجوانب المختلفة لأشكال الاستعمال اللغوي وأشكال الاتصال وكيفية قيام النصّ بوظائفه^(٦).

فمهام نحو النص تتجاوز المهمة التقليدية لعلم اللغة، ولا تقتصر مهامه على مجرد تنظيم الحقائق اللغوية فحسب، ولا تقف عند المستويات اللغوية، الصوتية والصرفية والدلالية بواسطة وصف ظواهر كلّ مستوى وتحليلها، وإنّما تعدّته إلى الاهتمام بالاتصال اللغوي

- ١ - ينظر: محمد العبد، اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٨٩، ص ٣٣.
- ٢ - ينظر: سعد مصلوح، العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، بحث منشور ضمن «دراسات مهداة إلى ذكرى عبد السلام هارون»، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٩٠، ص ٤١٦.
- ٣ - ينظر: هاينه من وفيهفجر، مدخل إلى علم اللغة النصّي، ترجمة فالح بن شبيب العجمي، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٩٩٩، ص ٣.
- ٤ - ينظر: صبحي الفقي، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، ج ١، ص ٥٥.
- ٥ - ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٣١٨-٣١٩، وجيل عبد المجيد حسين، (٢٠٠٣). علم النص: أسسه المعرفية وتحليلاته النقدية. مجلة عالم الفكر، ٢(٣٢)، ١٤٩-١٥٠.
- ٦ - ينظر: ثنان ديك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ص ١١؛ ونور الدين السّد، مفارقة الخطاب الأدبي للمرجع، المؤتمر العلمي الثالث (تحليل الخطاب العربي)، جامعة فيلادلفيا، جرش، (١٠-١٢ أيار ١٩٩٧)، ص ٢٩٧.

وأطرافه وشروطه وقواعده وخواصّه وآثاره، وأشكال التفاعل ومستويات الاستخدام وأوجه التأثير التي تحققها الأشكال النصيّة في المتلقي، وأنواع المتلقين وصور التلقي وانفتاح النص وتعدد قراءاته^(١)، فهو يهدف إلى صياغة نظريّة نصيّة عامة تشكل الأساس لوصف شامل للأشكال النصيّة المتباينة وعلاقاتها المتبادلة يسهم مع النظرية اللغويّة في تشكيل نظريّة عامة للاتصال الفعلي الذي يحدث عبر النص^(٢).

ومع ذلك فما زال نحو النص «مفتقرًا إلى إثبات هويته بشكل نهائي، وتحديد ملامح صورته إذا قيس بالعلوم الأخرى، أو قيس ببقية فروع علم اللغة ذات التاريخ الطويل؛ لأنّ نحو النص يتطور بسرعة، لم يستقر بعد على شكل نهائي، كما أنّه علم بيني بامتياز، ولهذا فإنّ حصر موضوعاته بشكل نهائي جامع مانع فوق إمكان الباحث؛ نظرًا لهذا التطور السريع المتلاحق، علاوة على اختلاف المناهج والمدارس اللغويّة التي تشكل عدم استقرار لموضوعاته بشكل نهائي، لذلك فإنّ كثيرًا من نظرات هذا الاتجاه وتحليلاته لمّا تستقر»^(٣).



١ - ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٦٢-١٦٣.

٢ - ينظر: سعيد بحيري، اتجاهات لغوية معاصرة في تحليل النص، مجلة علامات في النقد، ١٠ (٣٨)، ص ١٤٦.

٣ - المرجع السابق، ص ١٦١.

رابعاً: الأمثال العربية: مجمع الميداني نموذجاً

تشكل الأمثال بنمطها اللغوي الشفاهي العفوي أبسط أشكال التعبير الأدبية الفنية، وأوجزها عند معظم الشعوب، وتعكس مشاعر الناس، وأفكارهم وتصوراتهم لحياتهم، وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، ومعظم مظاهر نشاطات حياتهم الأخرى، وتعبّر عنها بصورة حيّة، تصدر عن مختلف مستويات الجماعات الإنسانية بكافة المعايير التصنيفية لمستويات البشر على اختلاف حضاراتهم^(١).

ولأهمية هذه الأمثال، عُني العلماء المسلمون بجمعها، وتدوينها، ونسبتها إلى قائلها إن توثقوا من ذلك، وإيراد القصص والأخبار التي تعين على فهمها، منذ زمن مبكر، حيث شكلت هذه العناية بالأمثال بداية حركة جمع اللغة وتدوينها، فُرِيت الأمثال ضمن أيام العرب، وأشعارها، وأخبار فرسانها، وأجوادها، وعُقدت لها مجالس العلم والدُّرس، وتُنوِّلت بالشرح، والتفسير؛ لبعد العهد ما بين مضرها وموردها، وشكلت مادة أدبيّة خصبة، كما تبوّأت مكاناً مرموقاً في أدب المسامرة منذ بداية العصر الأموي، فجمعت بين الوعظ، والتهذيب، والمتعة، كما جمعت بين الخيال الشعبي، والأخبار الحقيقية، ممّا شكل مادة أدبيّة محبّبة للنفس^(٢).

١- معنى المثل في اللغة والاصطلاح:

أ- في اللغة:

ذكر اللغويون للفظ المثل معاني متعدّدة لعلّ أبرزها:

١- السَّبه، ويرى الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) أنّ المثل بهذا المعنى يشمل المشابهة في أمور متعددة هي: الجوهر، والكيفيّة، والكميّة، والقدر، والمساحة^(٣).

١- ينظر: رودلف زهايم، الأمثال العربية القديمة، ترجمة رمضان عبد التواب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤، ص ٧-١٣. عفيف عبد الرحمن، الأمثال العربية القديمة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، ع ١٠، مجلد ٣، ١٩٨٣، ١٢-١٣.

٢- ينظر: زهايم، الأمثال العربية القديمة، ص ٧١-١٠٠. عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية القديمة: دراسة تاريخيّة تحليليّة، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٨٨، ٣٩-٧٤.

٣- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (ت ٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى بابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٦٢.

٢- المثل، والنظير، والتسوية، والمساكلة، والمماثلة، قال الزمخشري: «والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير»^(١).

٣- الصفة، وذهب إلى ذلك أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ)، وأيده يونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ)، والثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) وبها فسر الأخير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ سورة محمد، آية ١٥، وذهب إلى ذلك الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) أيضًا^(٢) ومثلها: هو الخبر عنها.

٤- المثل، والحذو، والشاهد، والانتصاب، فكل ما كان شاخصاً لأمر ما، كان مثلاً له، وعلمًا يعرف به، فكأنه مائل بين اليدين، ومنتصب أمام العين^(٣). ويؤيد هذه المعاني الأصمعي (ت ٢١٦ هـ)^(٤)، والمبرد (ت ٢٨٥ هـ)^(٥)، وابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ)^(٦)، وهذا المعنى يرجح اشتقاق لفظة المثل المادي الحسي، فيمكن إرجاع معنى المادة حسياً إلى البروز والشخص؛ إذ قالوا مَثَلٌ وَمَثَلٌ أَي قام منتصباً، ويرى ذلك (فلايشر)^(٧)، ومصدر هذا الرأي ما نقله الميداني (ت ٥١٨ هـ) عن أحد العلماء قوله: «سُمِّيَتِ الحِكمُ القَائِمُ صدقُها في العقول أمثالاً لا انتصاب صورها في العقول، مشتقة من المثل الذي هو الانتصاب»^(٨)، ويميل عبد المجيد عابدين إلى اشتقاق المثل من التمثال اعتماداً على قول الجوهري (ت ٣٩٨ هـ) «مثلت له كذا تمثيلاً، إذا صوّرت له مثاله بالكتابة وغيرها»^(٩)، وذلك من قبيل اشتقاق أسماء المعاني من

١- الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، المقدمة، ج ١، ص ٥٠.

٢- ينظر: مادة (مثل) في تهذيب اللغة للأزهري، ولسان العرب لابن منظور.

٣- ينظر: مادة (مثل) في الصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور.

٤- الأصمعي، الأضداد، نشر أوغست هفنز، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢، ص ٣١.

٥- المبرد، المقتضب، ج ٣، ص ٢٥٥.

٦- ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢، ج ١، ص ٢٨٠.

٧- ينظر: زهايم، الأمثال العربية القديمة، ص ٢٢.

٨- ينظر: الميداني، مجمع الأمثال، المقدمة، ص ١١-١٢.

٩- ينظر: عبد المجيد عابدين، الأمثال في النثر العربي القديم، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١-٥.

أسماء الأعيان؛ لأنّه يعيد إلى الأذهان معنى الشخوص والانتصاب، وبذلك يجمع المثل إلى معانيه المثل والمثول، والتصوير معاً^(١).

ويتّضح من ذلك أنّ مادة (مثل) تدور حول الشبه والنظير والمماثلة ومناظرة الشيء للشيء، وذكر جواد علي أنّ كلمة (المثل) من المماثلة، وهو: «الشيء المثل لشيء يشابهه، والشيء الذي يُضرب لشيء مثلاً، فيُجعل مثله، والأصل فيه التشبيه»^(٢).

ب- المثل في الاصطلاح:

التفت ابن السكيت (ت ٢٤٣ هـ) في تعريفه للمثل إلى مضرب المثل، ومخالفة لفظه له، واتحادهما في المعنى، فقال: «المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ»^(٣). أمّا المبرّد (ت ٢٨٥ هـ) فقد التفت في تعريفه للمثل إلى وجه المشابهة بين الحالين، مع ملاحظة السيرورة، فقال: «هو قول سائر يُشَبَّه به حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه... فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول... فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد»^(٤).

١- ينظر: محمد جابر الفياض، الأمثال في القرآن الكريم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨، ص ٤٨-٥١.

٢- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٩، ج ٨، ص ٣٥٤. وورد في محيط المحيط لبطرس البستاني عن المثل قوله: «ويُطلق في اصطلاح العلماء على الجزئي الذي يُذكر لإيضاح القاعدة وإيصاله إلى فهم المستفيد، كما يقال: الفاعل كذا، ومثاله زيدٌ، من: قام زيدٌ. وهو أعمُّ من الشاهد الذي يُستشهد به في إثبات القاعدة. ويُطلق عند الصرفيين على لفظ يكون فائزاً وأوَّ كوعد، ويُسمّى مثلاً واوياً. أو ياءً، كيسر، ويُسمّى مثلاً يائياً. وقد يراد بالمثال الصيغة. يقال: أمثلة الماضي، وأمثلة المضارع، أي: صيغهما... والمثالة: الحصة من الكتاب يتعلمها الدارس ويسمّعها لأستاذة دفعة واحدة... والمثل عند الفقهاء، ما يوجد له مثل في الأسواق بلا تفاوت بين أجزائه... والتماثل والمماثلة عند الحسابيين: كون العددين متساويين، كأربعة وأربعة... والمماثلة عند البديعيين: قسم من الموازنة، والتماثل عندهم قسم من السجع. والتمثيل عند المنطقيين هو المؤلف من قضايا تشتمل على بيان مشاركة جزئيٍّ لجزئيٍّ في علة حكم؛ ليثبت ذلك في ذلك الجزئي، ويسميه الفقهاء قياساً... وعند أهل البيان يطلق على المجاز المركب وعلى التشبيه». بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧ م، مادة: مثل، ٨٢٨-٨٢٩.

٣- ينظر: الميداني، مجمع الأمثال، المقدمة، ص ١١.

٤- ينظر: المرجع السابق، ص ١١. والمثل في الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٤٠٧٠)، ج ٣، ص ٢٧٧-٢٧٨.

ويشير الفارابي (ت ٣٥٠ هـ) في ديوان الأدب إلى أنّ «المثل ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتدلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء، فاستدروا به الممتنع من الدرّ، وتوصلوا به إلى المطالب القصيّة، وتفرّجوا به من الكُرب المكربة، وهو من أبلغ الحكمة؛ لأنّ الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصّر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة»^(١). ويظهر من هذا النص أنّ الفارابي يعمد في تحديد المثل، إلى اتّفاق عامة الناس وخاصتهم عليه، وبما كان في الإجماع والاتفاق على الشيء دلالة على الرضا به، وقد زاد في وضوح التعريف إضافة المعنى إلى اللفظ، ولذلك نال المثل عنده منزلة سنّية حتى أصبح موضع الكلام، ومُتداول اللفظ في حالات الفرح والترح.

كما أنّ هذا التعريف يشير إلى مسألة «الإجماع» على الأمثال، بوصفها وسيلة تعبيرية عن أشياء لا يُعبّر عنها مباشرة إلا بصعوبة بالغة، ناهيك عن أنّ الفارابي يلتفت إلى التأثير النفسي الفعّال للأمثال؛ فهي متنفس معاناة الشعوب التي تعكس حاجات الأفراد الشخصية في دلالة اجتماعية إنسانية شاملة.

وهكذا أجد الفارابي قد استدل على قيمة المثل الفنيّة والاجتماعيّة بالإجماع العام بين الناس -العامة والخاصة- على حسنه وضرورة تداوله، وإمكانية التعبير به عن أشياء، لا يُعبّر عنها بطريق مباشر، ويوضح أنّ المثل يعبر عن حاجة شخصية في ثوب إنساني عام، ثم يشير إلى ضرورة الاستحسان العام الذي تلقاه الأمثال بين الناس.

ويؤكد المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) جملة من خصائص المثل الأدبية بقوله في كتابه شرح الفصيح: «المثل جملة من القول، مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها، فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنتقل كما وردت فيه إلى كلّ ما يصح قصده بها، من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعمّا يوحيه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب وإن جُهلّت أسبابها التي خرجت عنها»^(٢).

ففي هذا التعريف توضيح لحقيقة المثل؛ فهو قول موجز يُضرب في حالات مشابهة لمورده الأصلي وإن جهل أصله، ولا يُغيّر لفظه في أية حالة من حالات استعماله.

١ - الفارابي، أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم، ديوان الأدب، تحقيق أحمد مختار عمر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٧٦، ج ١، ص ٧٤.

٢ - السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ٤٨٦.

ويبرز الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) سمة المشابهة بين مورد المثل ومضربه، فيقول: «المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في آخر، بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره، نحو قولهم: «الصيف ضيَّعتِ اللبن»^(١)؛ فإنَّ هذا القول يشبه قولك: «أهملت وقت الإمكان أمرك».

ويظهر من التعريفات السابقة أنَّ العلماء القدامى حدّدوا أهمّ ركائز المثل في الاصطلاح الأدبي بإيجاز اللفظ، وكثافة الدلالة، والمضرب، والمورد، والثبات على الحكاية في استعماله وعدم تغييره، ثم السيرورة والانتشار بين الناس من جيل إلى جيل، ومن مكان إلى آخر. فالمثل عندهم عبارة موجزة شائعة، مركزة الدلالة، تشي بمهارة الصنعة الأدبية، المتسمة بالخبرة والندرة أو الغرابة، ذات معنى حاد، يلتصق بظروف الناس، وحياتهم المتكررة^(٢)، وقد لاحظ الباحثون أهميّة الصورة المجازيّة في مدلولات المثل؛ فربطوا بينها وبين بعض معاني اللفظ في اللغة.

ويمكن تلخيص أبرز السمات الواردة في حدّ المثل، في الآتي:

١- إيجاز العبارة، وتكثيف المعنى، إضافة إلى الندرة والغرابة.
٢- المورد، ويمثل إصابة الدلالة في تصوير جانب من خبرات الحياة الواقعية أو المتخيلة المتكررة الحدوث، وهي الحالة التي نفترض أنَّ المثل قد انبثق عنها للمرة الأولى، وتمثل فيما يرافق التراث المثلي من حكايات وأخبار وأحاديث وغيرها، تسعى إلى تفسير انبثاق المثل للمرة الأولى، وعلى الأرجح فإنَّ هذا الأدب المرافق لنصوص الأمثال قد أورد معها على سبيل المشاكلة والاتفاق، وذلك لغايات تهذيبية أو تعليمية أو تفسيرية أو اجتماعية أو غير ذلك.

٣- المضرب، ويتجلى بوجود علاقة المشابهة القائمة على الاستعارة أو الكناية أو التشبيه بين حالة المورد وحالة المضرب، بإسقاط تجربة سابقة على تجربة لاحقة.

٤- السيرورة والتداول بين الناس بوصف المثل فنّاً شفاهياً من ضروب التراث الشعبي الجماعي، تتناقله الألسن عبر الأجيال في الأزمنة والأمكنة.

١- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٤٦٢. والمثل في مجمع الأمثال للميداني، رقم المثل (٢٧٢٥)، ج ٢، ص ٣٥٨.

٢- ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ٤، ص ٣٩.

٥- الثبات في صياغته، وعدم تغيير لفظه أو تركيبه الموضوع له، ونقله على الحكاية كما أرسل عند المورد.

٦- علاقة المشابهة أو التمثيل بين المورد والمضرب.
ولا يكاد المُحدِّثون الذين عُنوا بدراسة المثل يُختلفون مع القدماء في مفهوم المثل، فمثلاً يقول اميل يعقوب: «المثل هو عبارة موجزة بليغة شائعة الاستعمال، يتوارثها الخلف عن السلف، تمتاز بالإيجاز وصحة المعنى وسهولة اللغة وجمال جرسها»^(١).
أمّا عبد المجيد قطامش، فيعرّف المثل بقوله: «هو ذلك الفن من الكلام الذي يتمييز بخصائص ومقومات تجعله جنساً من الأجناس الأدبية، قائماً بذاته، وقسماً للشعر والخطابة والقصة والمقالة والرسالة والمقامة»^(٢).

ج- الفرق بين المثل والحكمة:

يلحظ الناظر في الكتب التي تناولت المثل العربي تداخل حدود المثل بحدود الحكمة إلى حدّ صار معه التمييز بينهما أمراً شائكاً، فقد استخدم معنى المثل ليدلّ على معنى الحكمة، مثلما استخدم معنى الحكمة ليدلّ على معنى المثل، كما أنّ هناك الكثير من المصنّفات جمعت بين المثل والحكمة بين دفتيّها، غير آبهة بإثبات الفروق - وإن دقّت - بين المثل والحكمة^(٣)، ومن هنا تجد الدراسة أن التمييز بين المثل والحكمة أمر لا بد منه.

وعلى الرغم من أن كلاً من عبد المجيد عابدين ورودلف زهايم حاولا التفريق بين المثل والحكمة، إلا أنّهما لم يقفا على فروق جوهرية بينهما، بل إنّهما في كلّ مرة كانا يذكران نقاط التلاقي بينهما، بدل أن يميّزا أحدهما عن الآخر^(٤).

وقدم محمد توفيق أبو علي محاولة جادة للكشف عن الفروق بين المثل والحكمة، فبعد أن

١- توفيق أبو علي، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص ٤١.

٢- عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، ص ١١.

٣- ينظر: رودلف زهايم، الأمثال العربية القديمة، ص ٣٢، وعبد المجيد عابدين، الأمثال في النثر العربي القديم، ص ٩-٤، وأحمد الحذيري، التمييز بين المثل والحكمة في كتب الأمثال القديمة عند العرب، حوليات الجامعة التونسية، ع ٣٢، ١٩٩٠، ص ١٠٩-١٣٤.

٤- ينظر: رودلف زهايم، الأمثال العربية القديمة، ص ٣٢-٣٤، وعبد المجيد عابدين، الأمثال في النثر العربي القديم، ص ٣-٤.

عرّف الحكمة بأنها «عصارة خبرة في الحياة وفهم أسرارها تند عن ذكي فطن»^(١)، عمد إلى الكشف عن الفروق بينها وبين المثل، فوجد أن الحكمة تختلف عن المثل في أنها أكثر تجريدًا منه؛ لأنها تصدر عن فكر فلسفي، وتنشأ عن إعمال الفكر، والتعمق في درس الحياة، واستكناه أسرارها^(٢)، والحكمة تهدف إلى الوعظ والتنبيه والإعلام، فهي تحديد شرط سلوكي وقيمة أخلاقية، على حين أن المثل يقصد للاحتجاج به^(٣).

وتفترق الحكمة عن المثل في نسبة شيوعها وانتشارها؛ فالحكمة تمتاز بالطابع الشخصي والعناية الأسلوبية المتعمدة، على حين أن المثل يغلب عليه طابع الذبوع، ويكون مطبوعاً بالطابع الجماعي^(٤)، والمثل ناتج عن تجربة أو موقف مر به شخص، فأطلق عبارة تصبح مثلاً يشار بها إلى تلك الحادثة، والحكمة قد تصدر دون تجريب واقعي، فهي تحدد شرطاً سلوكياً وقيمة أخلاقية^(٥).

وتنبه الحذيري إلى إمكان التمييز بين المثل والحكمة بالنظر إلى الهدف الذي يُقصد من الكلام الذي يُورد، فيرى أن المنفعة المبتغاة من الكلام هي المعيار الكفيل بالتفريق بين الحكمة وسائر فنون النشر لا سيما المثل^(٦)، كما أنه يتخذ من عدم إمكان فهم المثل خارج سياقه علامة فارقة بينه وبين الحكمة^(٧)؛ فالحكمة لا تحتاج إلى سياق خارجي يوضحها ويقربها من الذهن، على حين أن المثل لا بد من ارتباطه بسياقه الخارجي (مضرب المثل)، حتى يفهم ويدرك القصد منه. ويرى عبد المجيد قطامش أن الفرق بين المثل والحكمة يتمثل في الآتي^(٨):

١- المثل يقوم على تشبيه مضربه بمورده، أما الحكمة فتهم بإصابة المعنى بصورة مجردة دون اهتمام بجانب التشبيه، بل تحرص على الوصول إلى الحقيقة.

١- ينظر: محمد توفيق أبو علي، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، ص ٤٨.

٢- ينظر: المرجع السابق، ص ٤٨.

٣- ينظر: نفسه، ص ٤٨.

٤- ينظر: نفسه، ص ٤٨.

٥- ينظر: نفسه، ص ٤٨.

٦- ينظر: أحمد الحذيري، التمييز بين المثل والحكمة في كتب الأمثال القديمة عند العرب، ص ١٢٣.

٧- ينظر: المرجع السابق، ص ١٣٢.

٨- ينظر: عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص ١٨-١٩.

٢- المثل دائماً موجز، والحكمة قد تكون طويلة، ولكنها عند ذلك لا تنتشر غالباً، وإنما تجدها في بطون الكتب.

٣- الهدف من المثل الاحتجاج به في مواقف متنوعة تشابه الحادثة التي قيل فيها ابتداءً؛ والحكمة تهدف إلى التنبيه والوعظ، فهي مزيج من عقل وشعور ومن موضوعية في أساس الفكرة وانطلاقها من واقع محسوس، وذاتية في إخراجها بصورتها.

٤- المثل يمكن أن يصدره أي شخص مهما اختلف عمره، أو مكانته الاجتماعية وقدرته الفكرية، وسواء أكان كبيراً أم صغيراً أم أحمق...، أمّا الحكمة فإنّها لا تصدر إلا عن حكيم أو فيلسوف لما لديه من قدرة على التعبير التجريدي، والتأمل الفلسفي في أمور الحياة.

٢- أهمية الأمثال:

للأمثال مكانة مهمة في الأدب؛ نظراً لما لها من وقع عجيب في الآذان، وتأثير في النفوس والقلوب، فهي تقرب المعاني إلى الذهن، وتعطي السامع الصورة بأقصر لفظ وأحسنه، وسأذكر بعض ما قيل فيها لتتضح أغراضها وأهدافها وخصائصها، وما حظيت به من منزلة رفيعة.

فقد عدّها ابن المقفع (ت ١٤٣ هـ) أوضح في الخطاب، وأبين في المعنى، فقال: «إن جعل الكلام مثلاً كان ذلك أوضح للمنطق، وأبين في المعنى، وأتق للسمع، وأوسع لشعوب الكلام»^(١).

ووصف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) الأمثال في مقدّمة كتابه بقوله: «هذا كتاب الأمثال، وهي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق، بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خصال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه»^(٢).

ووافقه على هذه السمات البلاغية في المثل معاصره إبراهيم النظم (ت ٢٣١ هـ)، الذي

١- ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٧.

٢- أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمثال، تحقيق عبد المجيد قطامش دار المأمون للتراث، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣٤.

عدّ المثل نهاية البلاغة، فقال: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة»^(١). وتضمني الأمثال على الكلام روعة وجمالاً، وتُكسبه بريقاً وقبولاً فتجعله يُصافح المسامع ويُلامس القلوب، ويقع من النفوس موقعاً كريماً، وقد فطن إلى ذلك بعض العلماء والأدباء، يقول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ): «وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع، ومدار العلم على الشاهد والمثل»^(٢)، ويقول ابن عبد ربّه (ت ٣٢٨ هـ): «الأمثال هي وشيء الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني، تختيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كلّ زمان، وعلى كلّ لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء سيرها، ولا عمّ عمومها»^(٣).

- ١- الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٦.
 - ٢- الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٠.
 - ٣- ينظر: ابن عبد ربّه، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦ ج ٣، ص ٧.
- ولتتبع أهمية الأمثال ينظر: ابن وهب الكاتب، أبو الحسين إسحق بن إبراهيم، (ت في ق ٤ هـ) البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٧، ص ١٤٥-١٤٦. وحمزة الأصفهاني، (ت ٣٥١ هـ)، الدرة الفاخرة، مكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٥٥. وأبو هلال العسكري، (ت ٣٩٥ هـ)، جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٩٦٤، ج ١، ص ٤-٨. وابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس، (ت ٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٩، ج ٥، ص ٢٩٦. والثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، (ت ٤٢٩ هـ)، التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١، ج ١، ص ٣-٤. وابن رشيق الفيرواني، (ت ٤٥٦ هـ)، العمدة، ج ١، ص ٢٨٠. والراغب الأصفهاني، (ت ٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، ص ٤٦٢. والزنجشيري، (ت ٥٣٨ هـ)، المستقصى في الأمثال، المقدمة، ج ١، صفحة ب. والرازي، فخر الدين محمد بن عمر، (ت ٦٠٦ هـ)، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٥، مجلد ١، ج ١، ص ٣١٢. وابن الأثير، المثل السائر، ج ١، ص ٦٣. والبيضاوي، عبد الله بن عمر، (ت ٦٨٥ هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ج ١، ص ٣٩. وابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي أيوب، (ت ٧٥١ هـ)، أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، القاهرة، ١٩٦٩، ج ١، ص ٢٩١. وأبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، (ت ٧٥٤ هـ)، البحر المحيط، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨ هـ، ج ١، ص ٧٤. وأبو البقاء الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني، (ت ١٠٩٥ هـ)، الكليات، =

وأما الباحثون المُحدّثون فقد ركزوا على أهميّة الأمثال في دراسة حياة الأمم؛ لكونها تنبع من تجربة الشعب واحتياجاته، يقول أحمد أمين: «الأمثال نوع من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ، وحسن التشبيه وجودة الكناية»^(١)، ويقول في موضع آخر: «أمثال كلّ أمة مصدر للمؤرّخ والأخلاقي والاجتماعي، يستطيعون منها أن يعرفوا كثيرًا من أهداف الأمم، وعاداتها ونظرتها إلى الحياة؛ لأنّ الأمثال عادة وليدة البيئة التي نشأت فيها، ومزية الأمثال أنّها تنبع من كلّ طبقات الشعب»^(٢).

وعن مكانة المثل بوصفه أسلوبًا متميِّزًا وعنصرًا مهمًّا في إبراز المعاني الخفيّة في صور جليّة حيّة تعمل على إيصال المعنى، يقول محمد رشيد رضا: «وذلك أنّ المعاني الكلّية تعرض للذهن مجملّة مبهمّة، فيصعب عليه أن يحيط بها، وينفذ فيها فيستخرج سرّها، والمثل هو الذي يفصّل إجمالها ويوضّح إسهامها، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها، ومشكاة الهداية ونبراسها»^(٣).

ويرى إبراهيم السامرائي «أنّ للأمثال قوّة على البقاء؛ لأنّها عصارة تجارب إنسانية فهي تزرع بالحياة التي عمرت بها على مرّ العصور، ولما كانت الأمثال لونًا من ألوان الحياة، فلا بد لها من مقوّمات تجعل لها القدرة على المحافظة على كيانها، ومن هذه المقوّمات، استعملها بين الخاصة والعامة، وتداولها في كلّ لسان، ذلك التداول الذي أكسبها بقاء، وأمّدها بحياة عبر الأيام»^(٤). وربّما كانت تلك الأسباب وغيرها من الأسباب الأخرى، وراء الاهتمام بالأمثال بوصفها نمطًا من أنماط النثر المتميِّزة في الجاهليّة، وعدّها مصدرًا من مصادر دراسة الأدب الجاهلي، فهي إذا ما قورنت بالشعر الجاهلي كانت أقلّ عرضة للتحوير والتغيير، فضلًا عن أنّها لا تقدم لمجهوليّة قائلها -أحيانًا- مادة مغرية للانتحال^(٥).

= تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٢، ج ٤، ص ٢٦٨. والحسن اليوسي، (ت ١١٠٢ هـ)، زهر الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق قصي الحسين، دار الهلال، بيروت، ٢٠٠٣، ج ١، ص ٣٤.

١ - أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٦١.

٢ - ينظر: المرجع السابق، ص ٦١.

٣ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ١٩٩٠، ج ١، ص ٢٣٧.

٤ - إبراهيم السامرائي، في الأمثال العربية، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٧٠، ص ١٤٣.

٥ - ينظر: عز الدين إساعيل، المكونات الأولى للثقافة العربية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ص =

ولعلّ في ذلك ما يسمح للأمثال أن تكون الأوفر حظاً من النماذج النثرية الأخرى في الاستشهاد النحوي بها، فكانت «النموذج النثري الوحيد الذي اطمأنوا إليه في صحة الاستشهاد»^(١). ناهيك عن أنّ البنية التركيبية المثلّية لا تخضع لما يخضع له النص الشعري من أحكام الأوزان والقافية وتفعيلات الإيقاع الشعري، وهو ما يمكن أن يؤدي بناظم الشعر إلى أن يبتعد عن لغة العرب العادية إلى لغة خاصّة تفرضها عليه ضرورة نظم الشعر. غير أنّ الذي يؤخذ على النحاة في ذلك استشهادهم الذي يكاد يكون خجولاً ببعض الأمثال التي جيء بمعظمها لخروجها عمّا يقتضيه الأصل النحوي وقياسه، «فتكاد الدراسات النحويّة قديمها وحديثها تتناسى تماماً ما في المثل العربي من مسائل نحويّة مختلفة باستثناء تلك الأمثال التي تدور في بعض مظانّ النحو القديمة»^(٢)، يضاف إلى ذلك «فرضهم القواعد التي استخلصوها من الشعر على النثر، بالرغم من الاختلاف الكبير بين لغة الشعر ولغة النثر؛ لاختلاف سياقات ومقتضيات كلّ منهما»^(٣).

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ إزاء الموقف السلبي من الأمثال، بل تجاوز ذلك إلى وصف الأمثال بالكنز الهزيل بحسب رؤية (بلاشير) لها^(٤)، وأضاف عليه (رودلف زهايم) قائلاً: «إذا نظرنا في النهاية إلى تراث الأمثال عموماً... لا ينتظر أن نعثر على مادة جديدة هامة، في الأمثال القديمة، في الكتب الضائعة المؤلفة في هذا الفن»^(٥). ويكفيني مؤونة الرد على ذلك قول الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ): «إنّ للأمثال مكاناً راسخاً في الأدب العربي، وكما أنّ عامة الناس يستعملونها في أثناء كلامهم على ما تقتضي الأحوال، كذلك الأدباء والكتّاب يستعملون الأمثال في إنشائهم ورسائلهم فيكون لها تأثير بليغ في النفوس»^(٦).

=٨٧. وصفاء خلوصي، دراسة في الأمثال العربية القديمة، مجلة الأستاذ، مجلد ٤، ع ١-٢، ١٩٦٧، بغداد، ص ٧٨.

١ - مهدي المخزومي، الخليل بن أحمد الفراهيدي: أعماله ومنهجه، مطبعة الزهراء، بغداد، ص ٧٩.

٢ - عبد الفتاح الحموز، الحذف في المثل العربي، دار عمّار للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٨٤، ص ٥.

٣ - المرجع السابق، ص ٥.

٤ - بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٣، ج ٣، ص ٤٤١.

٥ - زهايم، الأمثال العربية القديمة، ص ٢١٩.

٦ - الزمخشري، المستقصى في أمثال العرب، ج ١، ص ٤.

ولا يخفى على أحد أن هذه المكانة الراسخة للمثل، ما كانت لتكون لولا البنية التركيبية التي انمازت بها هذه الأمثال، والتي فرضتها السليقة البدوية والبساطة اللغوية للمحيط السائد آنذاك.

ولما كان للأمثال العربية هذه الأهمية، فإنها تكاد تظهر في معظم مصادر التراث العربي، ككتب التفسير، والمعاجم اللغوية، وأمهات الأدب والمسامرات والأخلاق، وكتب اللغة والنحو، وكتب الحكمة والفلسفة والطبائع، والتاريخ والسير، وكتب البلاغة والموسوعات الثقافية، إضافة إلى مصنفات الأمثال، وقد عني علماء الأدب واللغة والتفسير عند العرب منذ وقت مبكر بجمعها وتصنيفها وتبويبها وشرحها، وجعلوا منها مادة تأديبية وتعليمية وتربوية، وزينوا بها آدابهم ودعموا أقوالهم، وعللوا أفعالهم، بحيث بقيت تلك الأمثال والحكم حية في تراثهم الكتابي والشفاهي^(١)، فلم تقتصر عنايتهم على الأمثال القديمة وحسب، بل قاموا في الفترات اللاحقة بتدوين الأمثال المولدة، وإضافتها في مواضعها من كتب الأمثال والأدب كما فعل الميداني (ت ٥١٨ هـ)، مما يعكس مدى وعيهم بأهمية هذا الجنس الأدبي، الذي يمثل صفوة اللغة المحكية العفوية، وما يحويه من خبرة الحواس والشعور والعقل، فيجمع في ثناياه بين الحقيقة الفطرية، والمعرفة المكتسبة، مما يسعف في إضاءة بعض جوانب حضارة العرب وتطور فكرهم، ويكشف عن بعض جوانب فلسفة حياتهم الأولى البدائية، وثقافتهم الشفاهية وتطورها في المراحل اللاحقة^(٢).

٣- مجمع الأمثال للميداني:

أولاً: التعريف بالمصنف (الميداني)^(٣):

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الفضل الميداني النيسابوري. لُقّب بالميداني

١- ينظر: عفيف عبد الرحمن، الأمثال العربية القديمة، ص ١٣.

٢- ينظر: زهايم، الأمثال العربية القديمة، ص ٤٢.

٣- ينظر في ترجمته: القفطي، علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦، ج ١، ص ١٥٦. وياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار المستشرق، بيروت، ١٩٢٢، ج ٢، ص ٥١١. ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٧٨، ج ١، ص ١٤٨. والصفدي، صلاح الدين خليل ابن أبيك، الوافي بالوفيات، باعتناء مجموعة محققين، فرانزشتايز، فيسبادن، ١٩٨١، ج ٧، ص ٣٢٧.

النيسابوري نسبة إلى ميدان زياد بن عبد الرحمن؛ وهي محلة من محال نيسابور، وقد وُلِد ونشأ وتوفي في نيسابور حاضرة خراسان الكبرى، ولم يرح هذه المدينة إلى غيرها من حواضر العلم الكثيرة في عصره.

كان أبو الفضل أديباً فاضلاً عارفاً، ونبع نبوغاً عظيماً أدهش أصحابه من الكتاب، وأتقن العربية خصوصاً اللغة وأمثال العرب، وكانت له يد باسطة في أنواع الأدب، وقد سمع الحديث وقام بروايته.

تلمذ الميداني على بعض أعلام عصره، ومنهم أبو الحسن الواحدي، صاحب التفسير المشهور الذي اختصّ بصحبته، فأخذ عنه وسمع التفسير منه، وقرأ النحو عليه، ثم قرأ على غيره أمثال يعقوب بن أحمد النيسابوري، وكتب عن الإمام أبي الحسين علي بن فضال المجاشعي النحوي.

اشتهر الميداني في عصره وبعد عصره بالعلم والأدب، وكانت له منزلة عظيمة عند العلماء، يؤخذ هذا مما كتبه عنه كتب التراجم من صفات الإكبار والإجلال مما يدل على منزلته العلمية العالية، ومن ذلك ما قاله ياقوت في حقه: «هو أديب فاضل وعالم لغوي»^(١).

ويظهر مما سبق أن الميداني قد حظي بمكانة سامية، واشتغل بعلوم عديدة من علوم اللغة؛ فدوّن الكتب المفيدة في علم النحو والصرف، والأمثال العربية، وقد اشتهر عند العلماء عامة بالتصانيف الحسان المفيدة، وقد تقدّم على من سبقه بترتيبه وتنظيمه للمصنّفات، وكان يستدرك على المصنّفين الذين تقدّموا عليه في التصنيف والتأليف، وفي هذا دالة نباهة وعلم تميّز بها عن غيره.

توفي الميداني -رحمه الله- نهار الأربعاء الواقع في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٥١٨ هـ، ودُفن في مقبرة ميدان.

وقد أثنى الميداني المكتبة العربية بجملة تصانيفه، التي أوردها القفطي وياقوت الحموي والصفدي، وهي^(٢): الأنموذج في النحو، وقد نُشر في إستانبول سنة ١٢٩٩ هـ،

١- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٢، ص ٥١١. وينظر: القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج ١، ص ١٥٦. وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٤٨. والذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٠، ج ١٩، ص ٤٨٩. والصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٧، ص ٣٢٧. والسيوطي، بغية الوعاة، ج ١، ص ٣٥٦. والزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٦، ٢٠٠٥، ج ٥، ص ٢٢٥.

٢- القفطي، إنباه الرواة، ج ١، ص ١٥٧. وياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٢، ص ٥١١. والصفدي،

والسامي في الأسامي، وهو معجم في الفقه والأحياء والآثار العلوية والآثار السفلية للكلمات العربية. وشرح المفضليات، والمصادر، ونزهة الطرف في علم الصرف، وهو كتاب مطبوع نُشر في القاهرة سنة ١٩٩٣ م، ومجمع الأمثال. وأضاف بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) إلى تصانيف الميداني^(١): كتاب الهادي للشادي، وهو كتاب في النحو مع تعليقات وشروح بالفارسية، وبحث عن بناء الجمع والحروف، ورسائل نحوية صغيرة، وتفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين، وطُبع غير طبعة في القاهرة وببيروت، وقيد الأوابد من الفوائد.

وأثنى القفطي على كتب الميداني، فقال: «الإمام أستاذنا، صدر الأفاضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني، صدر الفضلاء، وقدوة الأدباء، قد صاحب الفضل في أيام نَقْد زاده، وفني عتاده، وضاعت عدته، وبطلت أهبته، فقوّم سناد العلوم بعدما غيّرتها الأيام بصروفها، ووضع أنامل الأفاضل على خطوطها وحروفها، ولم يخلق الله تعالى فاضلاً في عصره إلا وهو في مآدبه أدبه ضيف»^(٢).

ثانياً: التعريف بالمصنّف (مجمع الأمثال) أ- موضوعه:

مجمع الأمثال هو أهم كتب الميداني وعليه تنبني شهرته، ويرتبط به اسمه كثيراً حتى إذا ما ذكره مترجموه قالوا: صاحب (الأمثال)^(٣)، أو صاحب (كتاب الأمثال)^(٤)؛ تمييزاً له عن غيره وتعريفاً له بكتابه الشهير، وفي مجمع الأمثال أودع الميداني معرفته وعلمه الغزير في اللغة والأدب، وأظهر شخصيته العلمية المتميزة. اكتسب مجمع الأمثال إعجاب الناس، فوصف بأنه كتاب لم يعمل في بابيه مثله قط، وهو

=الوافي بالوفيات، ج ٧، ص ٣٢٦.

١ - ينظر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية رمضان عبد التواب، راجع الترجمة، يعقوب بكر، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ج ٥، ص ٢١٤.

٢ - القفطي، إنباه الرواة، ج ١، ص ١٥٧.

٣ - ينظر: السيوطي، بغية الوعاة، ج ١، ص ٢٥٤.

٤ - ينظر: القفطي، إنباه الرواة، ج ١، ص ١٥٧.

جدير بهذا الوصف الفريد؛ لاحتوائه من الأمثال القديمة ما لم يحوهِ كتاب غيره، قال ياقوت الحموي: «له -أي الميداني- من التصانيف: كتاب (جامع الأمثال)، جيد بالغ»^(١). وقال ابن خلكان: «أتقن فنّ العربية خصوصاً اللغة وأمثال العرب، وله فيها التصانيف المفيدة، منها كتاب (الأمثال) المنسوب إليه، ولم يُعمل مثله في باب»^(٢).

يضمّ مجمع الأمثال ثلاثين باباً، أورد في الأبواب الثمانية والعشرين الأولى منها الأمثال بتفاسيرها، مرتّبة حسب أوائلها على حروف المعجم الثمانية والعشرين، بادئاً في كلّ باب بالأمثال العربيّة، ومعقّبا بالأمثال التي على وزن «أفعل» من هذا الباب، وخاتماً بالأمثال المولّدة تحت عنوان «المولّدون».

وفي الباب التاسع والعشرين سرد أسماء أيام العرب في الجاهليّة والإسلام، وفي الباب الثلاثين ذكر شذرات كريمة من كلام النبي ﷺ، وكلام صحابته -رضوان الله عليهم-.

ب- منهج الميداني في مجمعه:

بيّن الميداني منهجه في جمع الأمثال وعرضها وتفسيرها في مقدمة الكتاب، وأشار إلى أهميّة الأمثال، ومنزلتها العظيمة، ووعورة مسالك البحث عنها وجمعها فقال: «ولهذا السبب خفي أثرها، وظهر أقلّها، وبطن أكثرها، ومن حام حول حماها؛ ورام قطف جناها، علم أن دون الوصول إليها خرط القتاد، وأن لا وقوف عليها إلا للكامل العتاد، كالسلف الماضين الذين نظموا من شملها ما تشّتت، وجمعوا من أمرها ما تفرّق، فلم يُبقوا في قوس الإحسان منزعاً»^(٣). وانبرى بعد ذلك يبيّن منهجه في إيراد الأمثال قائلاً: «وجعلت الكتاب على نظام حروف المعجم في أوائلها؛ ليسهل طريق الطلب على متناولها... وأفتتح كلّ باب بما في كتاب أبي عبيد أو غيره، ثم أعقبه بما على (أفعل) من ذلك الباب، ثم أمثال المولّدين، حتى آتي على الأبواب الثمانية والعشرين على هذا النسق... وجعلت الباب التاسع والعشرين في أسماء أيام العرب دون الوقائع، وجعلت الباب الثلاثين في بُدّ من كلام النبي ﷺ، وكلام خلفائه الراشدين -رضي الله تعالى عنهم- أجمعين، ممّا ينخرط في سلك المواعظ والحكم والآداب»^(٤).

١- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٢، ص ٥١١.

٢- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٤٨.

٣- الميداني، مجمع الأمثال، المقدمة، ص ٨-٩.

٤- المرجع السابق، المقدمة، ص ١١.

وبعد، فكتاب مجمع الأمثال للميداني استحوذ منذ تأليفه على إعجاب الناس، وما يزال يستحوذ على هذا الإعجاب حتى هذا اليوم؛ لاستيعابه الأمثال العربيّة القديمة، وتدوينه لطائفة كبيرة من الأمثال المولّدة، ولإيجازه وحُسن تصنيفه، وقد أشاد به كلّ من ترجم للميداني، فهذا ابن خلّكان يقول: «وله فيها التصانيف المفيدة منها كتاب مجمع الأمثال المنسوب إليه، ولم يُعمل مثله في بابهِ»^(١).



١ - ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٤٨.

الفصل الأول

النص ذو الجملة الواحدة: حدّه وخصائصه ونحوه

أولاً: هل يمكن أن يتشكّل النص من جملة واحدة؟

ثانياً: النص ذو الجملة الواحدة: حدّه وخصائصه ونحوه

ثالثاً: الفرق بين الجملة في حدّها النحوي والنص ذي الجملة الواحدة

رابعاً: النحو الذي يصلح لدراسة النص ذي الجملة الواحدة

خامساً: نماذج من النصوص ذوات الجملة الواحدة في التراث العربي

أولاً: هل يمكن أن يتشكل النص من جملة واحدة؟

أظهرت التعريفات السابقة، في إطارها النظري المحض أنّ النص قد يكون ذا جملة واحدة، وقد يأتلف من متوالية من الجمل، ومع ذلك فهناك مَنْ نفى إمكانية وجود نص ذي جملة واحدة، ومنهم (بتوفي) الذي عدّ النص «الوحدة اللغوية التي تتكوّن من أكثر من جملة واحدة»^(١)، ولا يشاركه في هذا كثير من علماء النص الذين نصّوا على أنّ النصّ ما ائتلف من متوالية من الجمل؛ ومن ذلك تعريف (برينكر): «النص جملة، أو متوالية من الجمل...»^(٢)، ويذهب الأزهر الزناد إلى أنّ النص «قد يكون جملة، أو متوالية من الجمل»^(٣)، وتستخدم كلمة (نص) في اللسانيّات -حسبما يذكر (هالداي) ورقية حسن- لتشير إلى أنّ «أي مقطع -منطوق أو مكتوب، وأياً كان طوله- يشكّل كلاً متّحداً»^(٤)، ويتّصل بالكلية وحدة الموضوع ووحدة المقصد.

والنص هو وحدة دلالية، أو هو اللغة التي تؤدّي وظيفة في بعض السياقات، وهذه الوحدة ليست شكلاً لكنّها معنى؛ لأنّ النص يتصل بالعبرة أو الجملة بالإدراك لا بالحجم^(٥)؛ فلم يعد مهماً لدى اللسانيّين والسيمائيّين أن يكون النص مقيداً بطول محدّد، إنّما اشترطوا اكتمال دلالته^(٦).

لذا يعلن (ثمان ديك) رفضه فكرة تقييد النص بطول معيّن؛ إذ يرى أنّ النص يمكن أن يركّب من جملة واحدة، أو من كلمة واحدة، كما يمكن أن يكون عملاً روائياً طويلاً^(٧).

١ - محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ج ١، ص ٨٣.

٢ - ينظر تعريف (برينكر) في: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٧، وينظر تعريفات (شميت) و(هارفيج) و(هارتمان) في المرجع نفسه، ص ١٠٨-١٠٩.

٣ - الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١٥.

4- Halliday & ruqaiya Hassan, Cohesion in English Language, P. 22 .

٥ - ينظر: صبحي الفقي، علم اللغة النصي، ج ١، ص ٢٩-٣٠.

٦ - ينظر: جوليا كريستيفا، علم النص، ص ٢١.

٧ - ينظر: عمر عبد الواحد، التعلّق النصي، دار الهدى للنشر، المنيا، مصر، ط ١، ٢٠٠٣، ص ١٢-١٣. وينظر أيضاً: محمود طلحة، التداولية وتحليل الخطاب: نحو تحليل جديد لجنس المقامة في الأدب العربي، بحث منشور ضمن كتاب «التداوليات وتحليل الخطاب»، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٤، ص ٢١٠.

ويرى (هلمسلايف) أن العلامة اللغوية لا تتحدد أبعادها بمنظور مناسب، ولذا تعدّ كلمة واحدة، مثل: «نار»، نصّاً يقابل عملاً روائياً ضخماً^(١).

والنص «شكل مغلق له بداية ونهاية»^(٢)، أو كما تصفه (كريستيفا) «هو القول اللغوي المكثفي بذاته، والمكتمل في دلالاته»^(٣)؛ فأبرز خصائص النص «الاكتمال وليس الطول أو الحجم»، كما يقول (هلمسلايف)^(٤)؛ فقد يكون النص جملة أو كتاباً كاملاً، ولكنّه لا يعد نصّاً حتى يكون مكتملاً، ويقصد به الاكتمال الدلالي، ويتحقّق جزء من الاكتمال بأن يكون للنص بداية ونهاية، كما يشترط فيه الاستقلالية بمعنى أنّه لا ينضوي تحت وحدة لغوية أخرى، وهو بهذا مكثف بذاته، يلاحظ هذا في تعريف (لوزانو) للنص: «هو القول اللغوي المكثفي بذاته والمكتمل في دلالاته، وما لا يحقّق هذا الشرط، مهما كان طوله، لا يعد نصّاً»^(٥).

وينقل الفقي عن (هاليداي) ورقية حسن، قولهما: «النص هو وحدة اللغة المستعملة، وليس محدّداً بحجمه...»^(٦)، وفي موضع آخر: «نحن نستطيع تحديد النص، بطريقة مبسطة بالقول: إنّ اللغة الوظيفية. ونعني بالوظيفي -ببساطة- اللغة التي تفعل أو تؤدي بعض الوظائف في بعض السياقات»^(٧).

يتضح من كلام (هاليداي) ورقية حسن أن النص قد يكون كلمة واحدة، إذا جاءت في سياق تواصل و سياق يفسرها، ويمكن أن يكون جملة واحدة، ويمكن أن يكون متوالية من الجمل، وقد جاءت هذه المعاني والأفكار عند (درسلر)؛ إذ يقول: «إنّ النص هو القول اللغوي المكثفي بذاته والمكتمل بدلالاته»^(٨)، وهذا ما يؤيده الباحث؛ لأنّ الحكم بنصية

١ - ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ٢٣٢.

٢ - سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص ٩٣.

٣ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٩٥.

٤ - ينظر: المرجع السابق، ص ٢٩٨.

5- Lozano George, Discourse Analysis, London, 1987, P. 19

٦ - سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ٢٩.

٧ - صبحي الفقي، علم اللغة النصي، ج ١، ص ٣٠.

٨ - سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٤.

النص لا يقتصر على ما هو مكتوب أو منطوق، بل لا بد من مراعاة المقام وسياق الحال، وبذا فإن النص قد يكون جملة، وليس فقط متتالية من الجمل.

بل ذهب (بيوجراند) إلى أن النص إذا وجدت فيه خصيصة الاتصال، فهو نص سواء أكان كلمة أم جملة واحدة من الأجزاء؛ إذ قال: «لا نستطيع أن نتناول النصوص من خلال وصفها بأنها وحدات أكبر من الجمل، أو بأنها جمل متوالية في سياق؛ ذلك بأن الخاصية الأولى للنصوص من باب أولى هي كونها ترد في الاتصال، ولربما يأتي أحد النصوص على صورة كلمة واحدة، أو جملة واحدة، أو مجموعة من الأجزاء...»^(١)، وهذا يرد على كل من يذهب إلى أن «النص تتابع مترابط من الجمل، ويستنتج من ذلك أن الجملة بوصفها جزءاً صغيراً ترمز إلى النص، ويمكن تحديد هذا الجزء بوضع نقطة أو علامة استفهام، أو علامة تعجب، ثم يمكن بعد ذلك وصفها على أنها وحدة مستقلة نسبياً»^(٢).

ولذلك أبدى أحمد عفيفي كثيراً من الحذر أمام ما ورد عند سعد مصلوح في قوله: «أما النص فليس إلا سلسلة من الجمل، كل منها يفيد السامع فائدة يحسن السكوت عليها، وهو مجرد حاصل جمع للجمل أو لنماذج الجمل الداخلة في تشكيله»، وقال معقّباً على التعريف: «فقد فقدت الجمل داخل هذا التعريف خاصية الاتصال، أو خاصية ارتباطها بسياق خطابي»^(٣). فالنص ليس «مجموعة جمل فقط؛ لأن النص يمكن أن يكون منطوقاً أو مكتوباً، نثراً أو شعراً، حواراً أو مونولوجاً، يمكن أن يكون أي شيء من مثل واحد حتى مسرحية بأكملها، من نداء استغاثة حتى مجموع المناقشة الحاصلة طوال يوم في لقاء هيئة، والنصية تميز النص عما ليس نصّاً؛ فالنصية تحقق للنص وحدته الشاملة، ولكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تسهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة»^(٤).

وليس شرطاً لتصبح الكلمة أو الكلام نصّاً، أن يكون طويلاً أو قصيراً، فليس هناك معيار لطول النص؛ فالكلمة أو الكلام إن تحققت فيه شروط النص أو بعض شروطه، ولاسيما

١- بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٦٤.

٢- سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١١١.

٣- أحمد عفيفي، نحو النص، ص ٢٥.

٤- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، ١٩٩٧، ص ٧٠.

التماسك أو الترابط النصي، صار نصًّا، ولو كان مكوّنًا من جملة واحدة، أو أقل من جملة ملفوظة أو مكتوبة، ما دام هذا النص -مهما صغر- قد حمل دلالة مقصودة من المتكلم في سياق ما، وأدى وظيفته في التواصل بين المتكلم والمستقبل؛ فالنص يمكن أن يكون كلمة واحدة، ويمكن أن يكون أيضًا جملة واحدة، ويمكن أن يكون امتدادًا من جمل كثيرة. ولا يمكن أن نعدّ الجملة الواحدة نصًّا إلا إذا توفر السياق الذي يوضح كلّ منهما، وكوّن النص كلمة واحدة أو جملة واحدة أكدّه علماء آخرون غير (هاليدي) ورقية حسن^(١).

ومن المنطقي ألا تعد الكلمة أو الجملة نصًّا إلا بإدراك المتلقي السياق المحيط بها، وإنتاج المتلقي نفسه المسكوت عنه من النص المحذوف من السياق؛ فكلمة مثل «عاجل» -التي تظهر على شاشات التلفاز عند الإعلان عن نبأ أو خبر- تعدّ نصًّا بإدراك المتلقي السياق المحيط، وما لم يُذكر من النص، أو سُكت عنه اختصارًا أو اكتفاء بعلم المخاطب؛ فالمتلقي يُدرك من السياق -وهو هنا الهيئة التي تظهر على الشاشة مصاحبة لهذه الكلمة- أنّ الكلمة واردة في نصّ سكت عنه اختصارًا وجذبًا للانتباه، وهو: «هذا خبر عاجل»، أو «جاءنا خبر عاجل»، ولو أنّ المتلقي لم يدرك ذلك لما كان لهذه الكلمة قيمة في النص، ولم تكن أكثر من كلمة معجمية.

بل إنّ الإشارة في حدّ ذاتها وسيلة من وسائل التعبير قد تُعدّ نصًّا بالاعتبارات نفسها التي ينبغي توافرها في الكلمة لتعد نصًّا، إضافة إلى كون هذه الإشارة مفيدة الدلالة المقصودة من المشير، ومفهومة من المتلقي.

كما يلاحظ أنّ (كريستال وهايته من وفيهيجر) لم يقصرا تعريف النص على كونه منظوقًا أو مكتوبًا، وإنّما أدخلوا أصنافًا أخرى تشمل علامات الطريق والمحادثات، والتقارير الإخبارية والصور الرمزية، والقصائد والإعلانات... وغيرها^(٢). ويررّان إدخال هذه الأصناف تحت مفهوم النص اعتمادًا على وظيفة النص الرئيسة؛ وهي الوظيفة التواصلية (Communicative Function) التي تُعرف بسمات مثل الاتساق (Cohesion)، والانسجام (Coherence)، والإخبارية (Informativeness)، وهذه السمات هي التي توفر تحديد الكيفية التي تنشئ وحدة النصية أو النسيج^(٣).

١ - صبحي الفقي، علم اللغة النصي، ج ١، ص ٣١.

٢ - See Crystal; S.V (text); p.p ٣٥٠.. وينظر: فيهيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص ٤.

3- See Crystal; S.V (text); p.p. 350.

والتواصلية ليست الوظيفة الوحيدة للنص، وإنّما على النص أن يتّسم بسمات أخرى، وهذا ما جعل (جون لاينز) يعترض على التعريف التقليدي للنص بكونه سلسلة من الجمل المتتابعة وظيفتها التواصل، ويرى أنّ هذا التعريف غير مرض وعاجز عن توضيح الوحدات التي يتكوّن منها النص، سواء أكانت جملاً أم غير جمل «وليست مجرد وحدات متصلة مع بعضها في سلسلة، إنّما ينبغي ربطها بطريقة مناسبة من حيث السياق»^(١).

فالنص -وبحسب مفهوم (لاينز)- لا يكون نصّاً إلا بوجود علاقات داخلية تنتظم فيها متواليات الجمل، وهذه العلاقات هي التماسك والترابط، وعلاقات خارجية يحكمها السياق. ويخلص إلى أنّ كلاً من النص والسياق يتّم كلّ منهما الآخر، ويفترض مسبقاً كلّ منهما الآخر، وتعدّ النصوص «مكوّنات للسياقات التي تظهر فيها، أمّا السياقات فيتم تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بوساطة النصوص التي يستخدمها المتحدّثون والكتاب في مواقف معيّنة»^(٢).

إنّ فكرة (جملة النص) التي جاء بها (جون لاينز)، تمثّل خطوة متقدّمة في الربط بين مفهوم الجملة ومفهوم النص، ومن ثمّ نحو الجملة ونحو النص؛ ذلك أنّ بعض الجمل كالأمثال تمثّل نصّاً كاملاً، كما أنّ دراسة الجمل مقترنة بسياقاتها، وهو ما تمثله جملة النص، يعدّ من أهمّ دعائم نحو النص.

ف«إذا كانت (الجملة) وحدة نحويّة، فإنّ (النص) ليس وحدة نحويّة أوسع، أو مجرد مجموع جمل، أو جملة كبرى، وإنّما هو وحدة من نوع مختلف، وحدة دلالية، الوحدة التي لها معنى في سياق»^(٣)؛ فالنص كما يرى (بيوجراند) يتميز بقيمته الاتصالية، و«قد يتجسّد كوحدة دلالية في جملة واحدة، وفي أقل من جملة أحياناً كما هو الحال في التنبيهات، والعناوين، والإعلانات التي تتكون غالباً من مجرد حرف واسم، مثل (للبيع) أو (للتدخين) وغيرها وبالمثل لا يوجد حد أعلى لطول النص، فقد يكون كتاباً كاملاً»^(٤)، وبذلك تتجاوز الجملة

١- جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية، ط ١، بغداد، ١٩٨٧، ص ٢١٨-٢١٩.

٢- المرجع السابق، ص ٢١٥.

٣- جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ص ٦٨.

٤- يوسف نور عوض، نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمين، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٩٠.

المنعزلة ذات الوجود المنطقي انعزاليّتها لتتجه نحو الاتصالية؛ فالنص كلّ وحدة كلاميّة تخدم غرضًا اتصاليًا.

ويؤكد (بيوجراند) أهميّة السياق للنص «إذ ينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه (حدوث موقف Situation of Occurrence) تتفاعل فيه مجموعة من المراكز، والتوقعات، والمعارف، وهذه البيئة الشاسعة تسمّى سياق الموقف (Context)»^(١).

والباحث يذهب في هذه المسألة مع (هلمسلايف)^(٢) من العلماء الغربيين، ومع الأزهر الزناد^(٣) من العلماء العرب إلى أنّ الحجم أو الطول ليسا من الخصائص التي تجعل الملفوظ نصًّا؛ ومن ثمّ فيمكن أن يكون النص جملة واحدة أو جملاً متعددة متى توافرت خصائص النصوص فيه، التي سأعرضها كما درسها علماء النص، وأسعى في هذا الفصل إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ١- هل نصيّة النص ذي الجملة الواحدة تختلف عن نصيّة النص ذي الجُمْل المتعدّدة؟
- ٢- إذا اختلف النص من جملة واحدة فهل يمكن معالجته في فضاء نحو الجملة، أم لا بد من معالجته في فضاء نحو النص؟
- ٣- ما الفرق بين «الجملة» كما حدّدها النحاة والجملة/ النص التي هي موضوع هذه الدراسة؟
- ٤- بصورة أجلى: ما مقوّمات الجملة التي تكون نصًّا؟

ثانيًا: النص ذو الجملة الواحدة: حدّه وخصائصه:

١- حدّ النص ذي الجملة الواحدة:

ينبثق هذا العنوان من فرضيّة أساسيّة هي أنّ النصّ الجملة تتوافر فيه كلّ خصائص النصوص ذوات الجمل المتعدّدة، ومن ثمّ فخصائصه هي نفسها خصائص كلّ نص آخر، لذلك يتبنّى صبحي الفقي تعريف (بيوجراند) النص بأنّه: «حدث تواصل يُلزم لكونه نصًّا أن تتوافر له سبعة معايير إذا تحلف واحد منها تنتزع منه صفة النصيّة.

١- بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٩١.

٢- ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ٢٣٢.

٣- ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١٥.

وهذه المعايير هي: السبك، والحبك، والقصدية، والمقبولية، والإعلامية، والموقفية، والتناص^(١).

هذه المعايير تتناول في مجملها المرسل والمستقبل والنص من جوانبه المحتملة جميعها، ولا يمكن لواحد من هذه المعايير أن يفهم دون أربعة عوامل مجتمعة هي: اللغة، والعقل، والمجتمع، والإجراء، هذه العوامل الأربعة تتخلل المعايير السبعة، ومن ثم تتخلل النص، ولها علاقة أيضًا بالمنشئ والمستقبل، ولذلك يمكن تصنيف هذه المعايير إلى:

أ- ما يتصل بالنص في ذاته، وهما معيارا: السبك والحبك.

ب- ما يتصل بمستعملي النص سواء أكان المستعمل منتجًا أم متلقيًا؛ وذلك يتمثل في معياري: القصد والقبول.

ج- ما يتصل بالسياق المادي والثقافي المحيط بالنص، ويقصد به معايير: الإعلام، والموقف، والتناص^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن تحقق النصية لا يلزم تحقق المعايير السبعة في كل نص؛ إذ يمكن أن تشكل نصوص بأقل قدر من هذه المعايير، ولكن بوجودها جميعًا يتحقق ما يسمى بالاكتمال النصي، ولعل أهم المعايير التي تحقق نصية النص هي: الربط، والتماسك، والقصدية والموقفية^(٣).

وأخلص مما سبق إلى أن حد النص ذي الجملة الواحدة، هو: وحدة تركيبية كلية تألف في بنيتها السطحية الماثلة من جملة واحدة، وتتضمن بنية دلالية كلية واحدة قائمة على الاتساق والانسجام مع السياق الذي أنتجت فيه، وبين البنية السطحية وبنيتها الكبرى الكلية مراحل من النمو والتفاعل الداخلي القائم على العلاقات بين المرسل والمتلقي والواقع عبر اللغة، وهذا التفاعل يؤدي به إلى تحقيق وظيفته المتمثلة في خلق التواصل بين النص ومتلقيه، وهي عبر الكلية والانسجام والتفاعل تتجاوز حدودها النحوية الماثلة إلى وصف موقف تواصل كامل.

١- صبحي الفقي، علم اللغة النصي، ج ١، ص ٣٣-٣٤.

٢- ينظر: سعد مصلوح: نحو أجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية، مقال بمجلة فصول، المجلد العاشر، العددان الأول والثاني، يوليو ١٩٩١م، ص ١٥٤.

٣- ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٤٦. واتجاهات لغوية معاصرة، ص ١٦٩-١٧٠.

فالتكوين النصّي لا يقوم على مكوّنات التركيب وحدها، بل على نسق متكامل من اللغة والواقع؛ يمثل هذا النسق مزيجًا من مستويات التحقق اللساني والتصورات التي تنظم العالم النصّي فتصهر البنية والدلالة حول موضوع الكلام. فالمهمُّ أن تؤدي الصيغة النصّية المنظوقة أو المكتوبة (النصّ) - طالت أو قصرت - دلالة يُمكن للمتلقّي أن يفهمها فهماً صحيحاً من السّياق، ويدرك وسائل التّرابط فيها، ولن يتأتّى ذلك إلّا إذا كان النصُّ نسيجاً محكماً بناؤه.

وهذا التجانس والتماسك لا يقوم في النصّ إلّا إذا ربطت بين وحداته علاقات اتساق داخلية مرتبطة بسياق تواصلي معيّن ذي موضوع ما، وغرض محدّد، وهذه العلاقات تخضع للمعارف التي يستلزمها إنتاج النصّ وللدوال المعبرة عنه، ولمخزون المتكلم المعرفي، وما يفترضه هذا المتكلم حول مخزون المتلقي المعلوماتي.

ويجمل الإنباه إلى أنّ النقاد العرب القدامى كانوا على وعي بمعياري النصّية الأساسيين، الذي يُعنى أحدهما بالناحية الشكلية للخطاب أو النصّ، ويُعنى الآخر بالناحية الدلالية، فضلاً عن دعوتهم إلى وجوب الانسجام بين الناحيتين الشكلية والدلالية^(١)، ويمكن أن يستدل على ذلك، بما ورد عن ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢ هـ) في مَعْرِض كلامه على المعاني والألفاظ؛ إذ يقول: «للمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض»^(٢)، ويقول في مَوْضِع آخر: «الكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه، كما قال بعض الحكماء: للكلام جسد وروح، فجسده النطق وروحه معناه»^(٣).

ورأت اللسانيّات النصّية أنّ الصفة الأساسية القارّة في النصّ هي صفة الاطراد أو الاستمرارية، وهي صفة تعني التواصل والتتابع والترابط بين الأجزاء المكوّنة للنصّ^(٤)، الذي يعدّ وحدة كبرى شاملة، لا تضمّها وحدة أكبر منها، تتشكل من أجزاء مختلفة، تقع من الناحية النحويّة على مستوى أفقي، ومن الناحية الدلالية على مستوى رأسي، ويتكوّن

١ - ينظر: محمد العبد، حبك النص: منظورات من التراث العربي، مجلة فصول، ع ٥٩، ٢٠٠٢، ص ٦٢.

٢ - ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري، ومحمد زغلول سلوم، ص ٨.

٣ - المرجع السابق، ص ١٦.

٤ - ينظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصّية، ص ٧٦.

المستوى الأول من وحدات نصية صغرى تربط بينها علاقات نحوية، ويتكوّن المستوى الثاني، من تصوّرات كلية تربط بينها علاقات التماسك الدلالية المنطقية^(١). لقد عُني نحاة النص بدراسة الظواهر النصية التي تتجاوز وصف الأبنية اللغوية إلى العناية بالجوانب الدلالية والتواصلية في النص كلّ؛ ذلك أنّ «النص لا يُجيز وجوداً مستقلاً لعناصره؛ إذ لا تكون القيم الجزئية ذات اعتبار كبير إلا باشتراكها في القيمة الكبرى المتكوّنة من ذلك التكوين الأكبر»^(٢).

وفي إطار هذه المعالجة التركيبية فإنّ البحث سيعمد إلى الكشف عن وسائل الاتساق الموجودة في النص، بواسطة النظر إلى بنية النص من الداخل والخارج، وهذا يقتضي وصفاً وتحليلاً للنظام الذي تأتلف فيه البنى النصية؛ ووصف علاقة الأبنية السطحية بسياقها، ووصف العملية التواصلية التي تمثّلها هذه الأبنية، لكنني سأبدأ أولاً بتطبيق معايير النصية جميعها على النص ذي الجملة الواحدة لأرصد مجالي الاتفاق والافتراق بينهما، مع وضع فرضية أساس هي: أنّ النص ذا الجملة الواحدة تتوافر فيه كلّ خصائص النصوص الأخرى غير أنّ الشكل النحوي المائل له على السطح هو جملة واحدة.

٢- خصائص النص ذي الجملة الواحدة:

أ- المعايير التي تتصل بالنص في ذاته: الاتساق والانسجام:

أولاً: معيار الاتساق^(٣):

١- ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٨.

٢- المرجع السابق، ص ٣٩-٤٠.

٣- تجدر الإشارة إلى تعدّد المصطلحات العربية الدالة على هذا المفهوم؛ فمنها: الاتساق: وأبرز من استخدمه من الباحثين العرب محمد خطابي، وذلك في كتابه (لسانيات النص)، ص ٥. والسبك: وقد استخدمه عدد من الباحثين، منهم تمام حسان، وذلك في ترجمته لكتاب (روبرت بيوجراند) (النص والخطاب والإجراء)، ص ١٠٣، وسعد مصلوح في مقالته (نحو أجرومية للنص الشعري)، ص ١٥٤. والتماسك: وقد استخدمه عدد من الباحثين، منهم منذر عياشي، وذلك في ترجمته لكتاب (أوزوالد ديكر و جان ماري سشايغر) (القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان) منشورات جامعة البحرين، البحرين، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٨٢٤، وفالح بن شبيب العجمي، وذلك في ترجمته لكتاب (مدخل إلى علم اللغة النصي) لفولفجانج هاينه من وديتر فيهفجر، ص ١٠٣. والانسجام: وقد استخدمه أحمد مداس =

يتعامل نحو النص مع النص على أنه وحدة كليّة؛ لذلك ركزت بحوثه على الأسباب التي تؤدي إلى تماسكه وتلاحم أجزائه، واشتغلت بتحديد وسائل اتساقه وآليات انسجامه، ومعايير نصيّة النصوص.

ويعد الاتساق أحد المصطلحات المحوريّة في الدراسات التي تندرج في مجال لسانيات النص؛ إذ يندر أن تجد باحثاً في هذا المجال، لم يعط لهذا المصطلح اهتمامه، فهو أحد المفاهيم الرئيسيّة في لسانيات النص، وهو يخص التماسك على المستوى البنائي الشكلي^(١).

واستعمل هذا المصطلح عند اللغويين «للإشارة إلى خاصيّة الوحدات الكبرى من (المورفيم) لتماسك معاً في بنى أكبر، مثال ذلك؛ (الأداة + الاسم)؛ ففي هذا الاستعمال تعمل مجموعة من الكلمات كمكوّن للوحدة الكبرى، كما يمكن أن يوصف بأنّه انسجام داخلي»^(٢).

ويعرّفه محمد خطابي بأنّه: «ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص/ خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغويّة (الشكليّة) التي تصل بين العناصر المكوّنة لجزء من خطاب أو خطاب برمتّه»^(٣)، ومما هو واضح أنّ هذا التماسك لا يقتصر على أمر محدد بذاته، وإنّما يتكون من مجموعة من أدوات الترابط النحوي والمعجمي التي تعد مكوّنات فعالة في تحقيق الجانب الاتساقية؛ إذ لا يمكن أن يطلق على نص ما أنّه متسق إلا إذا تحقق وجود مجموعة من الروابط التي تعمل على تماسكه.

والاتساق مصطلح يشير إلى «الأدوات التي تؤسّس العلاقات المتبادلة بين التراكيب

=في كتابه (لسانيات النص: نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري)، جدارا للكتاب العالمي، ودار الكتاب الحديث، إربد، ط ١، ٢٠٠٧، ص ٨٣، والربط النحوي: وقد استخدمه سعيد بحيري في كتابه (علم لغة النص)، ص ١٤٥. والتضام: وقد استخدمه الباحثان إلهام أبوغزالة وعلي خليل حمد في كتابهما المشترك (مدخل إلى علم لغة النص: تطبيقات لنظرية روبرت بيوجراند وولفانج دريسلر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٩، ص ١١. ممّا يدل على وجود تباين كبير بين الباحثين العرب في ترجمة المصطلح الأجنبي (Cohesion)، والحقيقة أنّ هذا التباين يعكس الفوضى التي يعاني منها المصطلح اللساني عامة في البلاد العربيّة.

١ - ينظر: ديكرو، أوزوالد، وجان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ص ١٦.

2 - Crystal; s.v- Cohesion p.p. 61

٣ - محمد خطابي، لسانيات النص، ص ٥.

الضمن جملة بين الجمل»^(١)، وهذه العلاقات هي روابط لغوية شكلية تسهم في اتساق النص وتماسك بنائه، وتكوّن شبكة نصية تُعين على تفسير النص وفهمه^(٢). ويرى كلّ من (هاليداي) ورقية حسن أن مفهوم الاتساق «مفهوم دلالي، يحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص التي تحدده كنص»^(٣)، إلا أنّ محمد خطابي رأى أنّ الاتساق «لا يقتصر على الجانب الدلالي فحسب، وإنما يجري على مستويات أخرى كالنحو والمعجم، حيث تنقل المعاني من النظام الدلالي إلى مفردات في النظام النحوي والمعجمي، ثم إلى أصوات أو كتابة في النظام الصوتي والمكتوب»^(٤)، خصوصاً وأنّ «علم اللغة المعاصر جعل الشرط الجوهرى للنص أن يكون كلاً موحداً منتظماً في وحدة دلالية، لا تجميعاً محضاً بين جمل يعوزها الترابط الدلالي، سواء في ذلك أن يكون نصاً منطوقاً أم مكتوباً، قصيراً أم طويلاً»^(٥). ويذهب (بيوجراند) إلى أنّ الاتساق «يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية في صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق، بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي، وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط»^(٦)، ويعرف أيضاً بالربط الرصفي أو التضام، وهو موضوع الدلالة النحوية التي «تُعنى بكيفية انتفاع الناس من الأنماط والتتابعات الشكلية في استعمال المعرفة والمعنى ونقلهما وتذكرهما، فملاحظة تتابع ما لاسم وفعل يمكن أن يثير توقّعاً هو أنّ فاعلاً وحدثاً قد جرى التعبير عنهما»^(٧)، وعليه «فالدلالة النحوية أكثر اتساقاً بالتنظيم الرصفي النظامي من النحو الدلالي؛ فالحدث مثلاً يمكن أن يتصل بفاعل أو زمن أو مكان

١ - جون ماري سشاييفر، النص ضمن كتاب العلاماتية وعلم النص، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، والدار البيضاء، المغرب، ط ١، ٢٠٠٤، ص ١٣٢.

٢ - ينظر: محمد حماسة عبد اللطيف، الإبداع الموازي، التحليل النصي الشعر، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٤٥.

3- Haliday (M.A.K) and Hassan (R): Cohesion in English, P4.

٤ - محمد خطابي، لسانيات النص، ص ١٥.

٥ - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٨٩.

٦ - بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٣.

٧ - المرجع السابق، ص ٨٤. وقد ميّز بيوجراند بين النحو والدلالة، فقال: «النحو: يختص بالصور المجردة للجمل التي تشترطها قواعد اللغة، بقطع النظر عن سياق الموقف، والدلالة تختص بالعلاقات بين العلامات والرموز وما تشير إليه أو تعنيه. بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٨٣-٨٤.

أو سبب وهلم جرا، على حين تكون حالات التوالى المختلفة ممكنة في التعبير بالنسبة لقواعد ليس لها رتبة ثابتة»^(١).

ويرى سعد مصلوح أنّ الاتّساق، ويطلق عليه (السبك): «يختص بالوسائل التي تتحقق بها خاصية الاستمرارية في ظاهر النص»، ويبيّن معنى ظاهر النص بقوله: «الأحداث اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني التي نخطّها أو نراها بما هي كم متصل على صفحة الورق، وهذه الأحداث أو المكوّنات ينتظم بعضها مع بعض تبعاً للمعاني النحوية، ولكنها لا تشكل نصّاً إلا إذا تحقّق لها من وسائل السبك ما يجعل النص محتفظاً بكيونته واستمراريته»^(٢). وهو من أبرز معايير النصيّة وأكثرها شيوعاً في النصوص، وخاصة أنّه يشترك مع بعض قواعد الجملة ويتجاوزها من أجل وصف عام لظاهر النص، فيستقي من المستوى المعجمي ما يتصل بالبنية المجردة للنص، ويأخذ من النحو ما يتعلق بما يفوق الجملة ولا يغفل عن الدلالة بصفته ناتجاً للمستويات الأخرى، وبكلام آخر فإنّ الاتّساق يعني «الكيفية التي يتمّ بها ربط العناصر اللغوية على مستوى البنية السطحية في النص، بحيث يؤدي السابق منها إلى اللاحق»^(٣).

ويصل المتلقّي إلى فهم النص بواسطة اكتشافه للعلاقات التي تربط أجزاء النص بعضها مع بعض؛ فطريقة فهم النص هي انعكاس للتفاعل الذي يحصل بين المتلقّي والنص، فتنهض من النص وحدات لغوية تمثّل قيماً دلالية متحرّرة من ثبات المدلول، تفتح إمكانيات النص للمتلقّي ليؤسّس منها أبعاداً دلالية تُستنبط من النص، وتُضيف إليه شيئاً جديداً مع كلّ قراءة له. والعلاقات التي تربط أجزاء النص متعدّدة تلتقي في بعض مفاهيمها بما اصطُلح عليه «التماسك»؛ فالنص يحوي علاقات داخلية وأخرى خارجية مرتبطة بالسياق، وهذه وتلك تحقّقان التماسك النصي^(٤)، ووسائل التماسك النصّي كثيرة يمكن أن تُقسّم إلى قسمين^(٥):

١ - بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٨٥.

٢ - سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري، ص ١٥٤.

٣ - ليندة قياس، لسانيات النص النظرية والتطبيق: مقامات الهمداني أنموذجاً، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٢٣.

٤ - ينظر: صبحي الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج ١، ص ١٠٧.

٥ - ينظر: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٧.

١- وسائل تماسك داخلية، مثل: العطف والفصل والوصل، وأدوات التعريف والتنكير، والأسماء الموصولة... وهذه كلها تقتصر وظيفتها على إحداث التماسك الداخلي في النص.
٢- وسائل تماسك خارجية، مثل: المرجعيات والإحالة والإشارة، وهذه تُسهم في الربط بين ما يوجد داخل النص، وما يتصل به من خارجه.

وعلى هذا الأساس فإنّ الاتساق يقوم على ملاحظة وسائل التماسك والتلاحم بين العناصر المشكلة لنص ما، من بدايته إلى نهايته برصد الضمائر، والإحالات، والإشارات، والحذف، والتكرار والعطف؛ للقول إنّ النص يشكل كلاً واحداً.

كما أنّ الاتساق بنية تظهر فوق سطح النص، تتمثل في مجموعة من الروابط والوسائل الشكلية؛ النحوية والمعجمية، تقوم بربط جمل النص حتى يصبح بناءً نصياً متماسكاً لا نصاً ضعيفاً رخوياً. وينقل سعد مصلوح عن (بيوجراند) و(دريسler) أنّ «الاعتماد النحوي»، «يأتي في مستويات صوتية وصرفية وتركيبية ومعجمية ودلالية، كما يتخذ أشكالاً من التكرار الخالص، والتكرار الجزئي، وشبه التكرار، وتوازي المباني، وتوازي التعبيرين والإسقاط، والاستبدال، وعلاقات الزمن، وأدوات الربط بأنواعها المختلفة»^(١)، وبهذا الشأن أوضح صلاح فضل شيئاً مهماً، وهو أنّ التماسك (الاتساق) يمثل خصيصة نحوية للخطاب، تعتمد على علاقة كلّ جملة بالجملة الأخرى، وهو ينشأ غالباً عن طريق الأدوات التي تظهر في النص مباشرة، كأدوات العطف، والوصل، والترقيم، وأسماء الإشارة، وأدوات التعريف، والأسماء الموصولة، وغيرها^(٢).

وقد ذكر (هاليداي) ورقية حسن في كتابهما: «Cohesion in English» أنّ جزءاً من الاتساق يتحقّق بالنحو، وجزءاً آخر بالمفردات، وعليه فقد أشارا إلى أنّ الاتساق ينقسم إلى قسمين هما: الاتساق النحوي والاتساق المعجمي^(٣)، وأضاف بعض الباحثين قسماً ثالثاً هو الاتساق الصوتي^(٤).

لذا ستقسم وسائل الاتساق النصّي إلى ثلاثة أنواع، هي:

-
- ١- سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري، ص ١٥٧.
 - ٢- ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٦١.
 - ٣- ينظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص ٧٧.
 - ٤- ينظر: حسام أحمد فرج، نظرية علم النص: رؤية منهجية في بناء النص التراثي، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٨٣، ١١٦.

أ- الاتساق النحوي.

ب- الاتساق المعجمي.

ج- الاتساق الصوتي.

أولاً: الاتساق النحوي:

يعدّ الاتساق النحوي المظهر الأول من مظاهر الاتساق في النص، ويتحقّق بواسطة الوسائل اللغويّة التي تربط عناصر النص، وهذا ما دعا بعض الباحثين إلى أن يقصر علم النحو على دراسة الوسائل اللغويّة المتحقّقة نصيّاً والعلاقات بينهما^(١)، وأوضح محمد خطابي فكرة التماسك النصّي بالإشارة إلى أدوات الاتساق التي تحدث عنها كلّ من (هاليداي) ورقية حسن، وأبرزها: الإحالة، والحذف، والعطف^(٢).

وهذه الوسائل اللغويّة من شأنها أن تحقّق الاتساق التركيبي والدلالي بين عناصر النص، والاتساق هو نتيجة حتمية لوضوح الدلالة لدى منتج النص، وهو لا يتحقّق بوجود عنصر واحد من عناصره، وإنّما بورود العنصر في سياق العناصر المتعلّقة^(٣)، ويعدّ الاتساق شرطاً ضرورياً وكافياً للتفريق بين ما هو نص وما هو غير ذلك.

وتشكّل كلّ متتالية من الجمل نصّاً شريطة أن تكون هناك علاقات بين عناصر هذه الجمل، وهذه العلاقات إمّا أن تكون قبليّة أو بعديّة، أو لفظيّة أو بيانيّة^(٤)، وهذه المتتاليات الجمليّة هي مادة النص شريطة أن تكون ذات دلالة نحويّة ومعجميّة سياقيّة مرتبطة بالدلالة الجامعة للنص^(٥)؛ فالاتساق النصّي هو خاصيّة جدليّة تبادليّة بين اللفظ والمعنى.

والنص المتكامل قد يحتمل الإطالة وتباعد الأجزاء، ولكن حتى يبقى هذا النص مترابطاً متّسقاً، سعت اللغة إلى أن تقدم أدوات لتحقق تماسك أجزاء النص وترابطها: اللفظيّة

١ - ينظر: زتسيسلاف وأورزنيك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمه وعلّق عليه، سعيد بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط٢، ٢٠١٠، ص ٦٩.

٢ - ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص ١٦-٢٤.

٣ - ينظر: زتسيسلاف وأورزنيك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ص ٦٠.

٤ - ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١٢٣.

٥ - ينظر: فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصّي، ص ٢٧.

والبيانّة، فلكي يحقق أيّ نص نصيّة لا بد له أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغويّة التي تخلق النصيّة بحيث تسهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة، ومنها:

أولاً: الإحالة

تعد الإحالة مادة أوليّة يتكئ عليها محلل النص كي يُثبت مدى اتساق النص الذي يدرسه، وهي من أهمّ الأدوات التي تحقق ذلك، «وتتوفر كلّ لغة طبيعيّة على عناصر تملك خاصيّة الإحالة»^(١)، يقول (جون لير) في سياق حديثه عن المفهوم التقليدي للإحالة: «إنّما العلاقة القائمة بين الأسماء ومسمّياتها»^(٢)؛ إذ إنّ الأسماء تحيل إلى المسمّيات، وعرفها (بيوجراند) بأنّها «العلاقة بين العبارات والأشياء والأحداث والمواقف في العالم الذي يُدّل عليه بالعبارات ذات الطابع البدائي في نص ما»^(٣).

وهي من أكثر وسائل الاتساق تداولاً على ألسنة الناس نزوعاً للاقتصاد في الكلام، وعزوفاً عن التكرار، وحدّ العناصر الإحاليّة «قسم من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلة» بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب؛ فشرط وجودها هو النص، وهي تقوم على مبدأ التماثل»^(٤).

والترابط الإحالي في الأصل ربط دلالي، لكنّه يحدث عبر التركيب، ويمدّ جسور الاتصال بين الأجزاء المتباعدة في النص؛ فهو لا يخضع لقيود نحويّة، وإنّما يخضع لقيد دلالي، وهو وجوب تطابق الخصائص الدلاليّة بين العنصر المُحيل والعنصر المحال إليه، وهي علاقات ربط تُسهم في تشكيل وحدة النص وانتظام العناصر المكوّنة لعالم النص»^(٥).

والإحالة عمليّة تربط بين الجمل والعبارات والنصوص، كما تربط بين البنى النصيّة الصغرى بعضها مع بعض لتجعلها تتعلّق فيما بينها لتنتج نصّاً مترابطاً؛ «النص الممتلك للعناصر الإحاليّة بعنصرين ضروريّين محال ومحال إليه، وكلاهما يمتلك نفوذاً داخل

١ - محمد خطابي، لسانيات النص، ص ١٧.

٢ - ينظر: براون ويول، تحليل الخطاب، ص ٣٦.

٣ - بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٣٢٠.

٤ - الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١١٨.

٥ - ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص ١٧.

النص، وتحديدتهما موكول إلى ثقافة المتلقي، وسياق النص»^(١)؛ فإنّ المحيل يمثل نقطة انطلاق عملية الربط الإحالي، وهو دائماً عنصر سياقي ذو طبيعة لغوية، أمّا المحال عليه فهو نقطة وصول عملية الإحالة، وقد يكون عنصراً لغوياً مثل المحيل، أو عنصراً غير لغوي من عناصر المقام.

ولمّا كانت عناصر الإحالة روابط بين العبارات فيما بينها من جهة وبين العبارات والأشياء والمواقف في العالم الخارجي من جهة أخرى، كان طبيعياً أن تُقسم إلى قسمين رئيسين: نصية ومقامية^(٢).

١- الإحالة النصية: هي إحالة عنصر لغوي على عنصر آخر داخل النص، ويكون هذا العنصر سابقاً أو لاحقاً^(٣)، وهي تُسهم في ربط أجزاء الخطاب وأفكاره ربطاً تحقق بتفسير المضمرات، وإيضاح المبهمات عبر إرجاعها إلى عناصرها الإشارية المختزنة في ذهن المتلقي، أو المثبتة في نص الخطاب، وهنا تبرز مهمة المتلقي في الحكم على اتساق الخطاب من عدمه، عبر إعمال ذهنه في معرفة العنصر الإشاري، واعتماد الذاكرة في استرجاع المعلومات المختزنة من الخطاب وربطها بما عوضها من عناصر إحالية.

وتنقسم الإحالة النصية إلى قسمين^(٤):

أ- الإحالة إلى سابق: وتعدّ أكثر أنواع الإحالة دوراً في الكلام، وهي «استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سابقة في النص أو المحادثة»^(٥)؛ فهي إذاً تعود على مفسّر سبق التلفظ به، وقد لاقى هذا النوع من الإحالة اهتماماً كبيراً عند النحاة العرب، وذلك عندما اشترطوا رجوع الضمير المطابق للاسم إذا كان بين الجملتين رابط^(٦)، واشترطوا أيضاً عودة الضمير على مرجع واحد سابق له لأن هذا

١ - فتحي الخوالدة، تحليل الخطاب الشعري: ثنائية الاتساق والانسجام، أزمة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٦، ص ٤٥.

٢ - ينظر: محمد خطاي، لسانيات النص، ص ١٧.

٣ - ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١٢٠. ونعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، عالم الكتب الحديث، إربد، ط١، ٢٠٠٩، ص ٨١-٨٢.

٤ - ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١١٨.

٥ - صبحي الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج ١، ص ٣٨.

٦ - ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٢٨١.

هو الأقرب في الكلام؛ وذلك لأنّ الضمائر كلّها لا تخلو من إبهام وغموض سواء للمتكلّم أم للمخاطب أم للغائب، وعليه فلا بد لها من شيء يزيل إبهامها ويفسّر غموضها^(١)، كما في إحالة اسم الإشارة (أولئك) إلى المبتدأ (الذين) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ سورة الأعراف، آية ٣٦.

ب- الإحالة إلى لاحق: وهي: «استعمال كلمة أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى أو عبارة أخرى سوف تستعمل لاحقاً في النص أو المحادثة»^(٢)؛ فهي إذاً تعود على عنصر إشاري مذكور بعدها في النص ولاحق عليها، وأبرز أبواب النحو العربي توضيحاً لها «ضمير الشأن»^(٣)، ومثاله قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص، آية ١؛ فالضمير «هو» وهو ضمير الشأن يحيل إلى لفظ الجلالة (الله).

٢- الإحالة المقاميّة: وتسمّى أيضاً الإحالة إلى خارج النص، أو الإحالة إلى غير مذكور كما يسميها تمام حسان ترجمة لمصطلح (بيوجراند) (Exphoric Reference)، وهي ترجع إلى أمور تستنبط من الموقف لا من عبارات تشترك معها في الإحالة في النص نفسه أو الخطاب^(٤)، وهي: «الإتيان بالضمير للدلالة على أمر ما غير مذكور في النص مطلقاً، غير أنّه يمكن التعرف عليه من سياق الموقف»^(٥)، أو هي: «إحالة عنصر لغوي إحالي على عنصر إشاري غير لغوي موجود في المقام الخارجي»^(٦)، وبذلك فإنّ هذا النوع من الإحالة يمكن أن يُحدث نوعاً من التفاعل بين النص والخطاب والموقف السياقي.

ومن الجدير بالإشارة أنّ قضية الإحالة وردت عند النحويين العرب بالاعتماد على «تصنيف الألفاظ إلى ألفاظ غير مبهمة، وهي الألفاظ التي لها دلالة وتحيل بمفردها إلى خارجها في الواقع، وألفاظ مبهمة، ولكنك لا تعرف لها خارجاً إلا متى توفر مفسّرها، وهذا المفسّر

١- ينظر: عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩، ج ١، ص ١١٩.

٢- صبحي الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج ١، ص ٤٠.

٣- المرجع السابق، ج ١، ص ٤٠.

٤- ينظر: بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٣٣٢.

٥- أحمد عفيفي، نحو النص، ص ١٢١.

٦- الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١١٩.

قد يكون مقامياً وقد يكون مقالياً^(١)؛ فباجتماع هذه العناصر المقاميّة والمقالية «تقوم شبكة من العلاقات الإحالية بين العناصر المتباعدة في فضاء النص، فتجتمع في كلّ واحد عناصره متناغمة، وتختصر الوحدات الإحالية العناصر الإشارية وتجنّب مستعملها إعادتها وتكرارها»^(٢).

وفي ضوء هذا الفهم، سيُكشف عن خيوط هذه الشبكة في النص، بواسطة وسائل الاتساق الإحالية الآتية:

١- الضمائر: وتقسّم إلى^(٣):

- أ- منفصلة؛ مثل: أنا، أنت، أنتم، هو، هي...
ب- متصلة؛ ومنها ما هو متصل بالفعل، مثل: كتبت، كتبت، كتبنا...، ومنها ما هو متصل بالاسم، مثل: كتابك، كتابكم...، ومنها ما هو متصل بالحرف، مثل: إني، إنك، إنكم...
٢- ألفاظ الإشارة: ويقصد بها أسماء الإشارة المكانية والزمانية، والظروف الدالة على الاتجاه، والعناصر المعجمية التي تقوم بعمل الإشارة؛ مثل: هذا، هذه، هذان، ذلك، تلك، أمس، الآن، غداً، هنا، هناك، شرقاً، غرباً، أمام، قدام، خلف...
ثانياً: العطف

لعلّ تصوّر القائم على أنّ النص: «عبارة عن جمل أو متتاليات متعاقبة خطياً، ولكي تدرك كوحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة متنوعة تصل بين أجزاء النص»^(٤)، يعطي إشارة واضحة إلى أهمية العطف في بناء اتساق النص وتماسكه.

وللعطف أهمية كبرى في وصل المعاني بعضها ببعض، وربط أجزاء الكلام، وتحقيق الفائدة منه، ولولاه لاحتاج المتكلّم إلى ذكر أشياء يتعذّر معها ائتلاف أجزاء القول ومعاملته كلّاً موحّداً، كما أنّ الاستغناء عن العطف يؤدي إلى الاستغناء عن كثير من الظواهر اللغوية

١- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ص ١٢٥.

٢- الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١٢١.

٣- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، ص ١٨.

٤- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ٣، ص ١٨٣.

الأخرى مثل الحذف والاختصار، ومن ثم لا يتأتى الإيجاز الذي يعدّ ركنًا أساسيًا من أركان البلاغة.

وأثر العطف لا ينحصر في تحقيق التماسك على مستوى الجزء من الكلام، وإنما يتوزع على مختلف المستويات؛ فأحيانًا يكون على مستوى الألفاظ، وأحيانًا على مستوى الجملة، وأحيانًا على مستوى الجمل، وأحيانًا على مستوى الفقرات، وأحيانًا على مستوى النصوص.

ثالثًا: الحذف:

يميل الناس في كلامهم إلى الاقتصاد والإيجاز، وخاصة إذا لم يؤثر ذلك على وضوح رسائلهم وبلوغ مقاصدهم، ويلجؤون في جُلِّ ذلك إلى الحذف بوصفه وسيلة لتجنب التكرار، وملاذًا لإخفاء الأسرار، ولا يحدث الحذف إلا إذا دلَّ على العنصر المحذوف قرائن لغوية أو مقامية تساعد على معرفته، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته^(١).

فالحذف عملية لغوية تُستبعد بموجبها بعض العبارات من الظهور على سطح الكلام، ويؤدي السياق فيها مهمة جلية؛ إذ لا يمكن أن يُحذف شيء من الكلام إلا إذا كانت ثمة قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه وتدل عليه.

وهذا يعني أنَّ الحذف علاقة اتساقية، تردُّ في النص على المستويين المعجمي والنحوي، يهتدي فيها المتلقي إلى عناصر غير ظاهرة ويقدرها اعتمادًا على قرائن مقالية ومقامية^(٢)، وهذا التقدير هو الذي يجلي العبارة ويوضح المعنى المقصود للمكوّن اللغوي، أمّا ما ينطق بالفعل أو يرسم بالكتابة فهو ما عُرف عند التحويلين بالتركيب الظاهري أو البنية السطحية^(٣)، وهذا «يقضي التسليم بمبدأ الأصلية والفرعية في اللغة؛ أي لا بدّ من وجود تركيب أصلي أو صيغة أصلية اعتراها الحذف أو الزيادة أو تغيير ترتيب عناصرها»^(٤).

ويكثر الحذف في النصوص دون الجمل المفصلة، وما يساعد على ذلك هو أنَّ النص بناء

١- ينظر: ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ٣٦٠.

٢- ينظر: لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ص ١١٢.

٣- ينظر: محمد علي الخولي، قواعد تحويلية للغة العربية، دار المريخ، الرياض، ط ١، ١٩٨١، ص ٢١-٢٢.

٤- طاهر حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط ١، ١٩٨٢، ص ١٧.

يقوم على الاتساق والانسجام، وهذان العاملان يساعدان منسج النص على الاختصار، وعدم الإحالة بذكر معلومات فائضة^(١).

ويشترط علماء اللغة القدماء والمُحدّثون ضرورة وجود الدليل على المحذوف إما من لفظه أو سياقه؛ لأنّ «الدليل يعد مرشدًا للقارئ كي يهتدي إلى إيجاد المحذوف وكيفية تقديره واختيار مكان التقدير، ومن ثم يثير لدى المتلقي الرغبة في إتمام النص بالحصول على العناصر المحذوفة، وتلك العناصر من بين المتطلبات التي تهم المتلقي»^(٢)، ولا يخفى أثر المتلقي هنا فهو يسهم في إكمال النص وملء فجواته.

وقد اشترط علماء اللغة أن لا يؤثر الحذف على المعنى فيخلّ في شرط التوصيل والإفهام؛ إذ يُعزى حُسْن العبارة في كثير من التراكيب إلى ما يعتمد إليه المتكلم من حذف لا يغمض فيه المعنى، وإنّما هو تصرف تُنفى به العبارة، وهو من جهة أخرى دليل على قوة النفس وقدرة البيان.

ثانيًا: الاتساق المعجمي:

عماد الاتساق المعجمي هو المعجم وما يقوم بين وحداته من العلاقات^(٣)؛ فكلما ازدادت الوجدتان المعجميتان قربًا في النص ازداد الاتساق الذي تحقّقانه قوّة ومتانةً، وذلك مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الوحدة المعجميّة التي تدخل في علاقة اتساقية لا تحمل في ذاتها ما يدل على قيامها بهذه المهمة أو عدم قيامها به، وإنّما يكون ذلك بحسب موقعها في النص^(٤)، ويشكّل الاتساق المعجمي مظهرًا من مظاهر اتساق النص؛ إذ يتّخذ وسائل أخرى غير الوسائل النحويّة؛ ففيه تتجدّد الكلمات المتشابهة أو المرادفة في النص فننسج خيطًا من المفردات المتشابهة تحقّق بفضل الترابط النصّي، ولعلّ من أبرز وسائل الاتساق المعجمي^(٥):

- ١ - ينظر: صلاح الدين حسنين، الدلالة والنحو، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٢٥٣.
- ٢ - صبحي الفقي، علم اللغة النصي، ج ٢، ص ٢٠٩.
- ٣ - ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ص ١٣٨.
- ٤ - ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ص ١٤٢-١٤٣. هابنه من وفيه فيجر، مدخل إلى علم اللغة النصّي، ص ٤٩-٥١.
- ٥ - ينظر: بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٣٠١-٣١٩. ومحمد خطابي، لسانيات النص، ص ٢٤-٢٥، ومحمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ص ١٤٢، وجميل عبد المجيد حسين، علم النص: أسسه المعرفيّة وتجلياته النقديّة، ص ١٤٦، وجميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة واللسانيات النصيّة، ص ٧٩-١٣٢.

أ- التكرار:

يجسد التكرار شكلاً من أشكال الاتساق المعجمي على مستوى النص، ويتمثل في تكرار لفظ أو مرادف له في الجملة، ومثال ذلك المثال الذي ذكره كل من (هاليداي) ورقية حسن: «اغسلي وانزعي نوى ست تفاحات للطبخ، ضعي التفاحات في صحن يقاوم النار»؛ فالترابط قد حدث هنا بتكرار كلمة «التفاحات»^(١).

يقول محمد خطابي عن التكرار بوصفه وسيلة من وسائل التماسك النصي: «هو شكل من أشكال الاتساق المعجمي، يتطلب إعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف، أو عنصراً مطلقاً أو اسماً عاماً»^(٢).

ولا يقف أثر التكرار على وظيفته النصية؛ إذ إنّ تداخل علوم النص مع البلاغة الجديدة، جعل للتكرار وظيفته الاتصالية الإقناعية فهو وسيلة لغوية من وسائل الحجاج، وهو بشقيه اللفظي والمعنوي يقوم بمهمته في إقناع المتلقي والتأثير فيه وقد يصل إلى الإذعان له، وذلك بشدة القرع إمّا على اللفظ أو المعنى.

ب- المصاحبة المعجمية:

هي ورود مفردات معاً على نحو مطّرد؛ أو توارد زوج من الكلمات أو أكثر بالفعل أو بالقوة نظراً لارتباطهما بهذه العلاقة أو تلك^(٣)، وتكون هذه المفردات رائزاً لدرجة الترابط الذي هيمنت عليه مقصدية المتكلم وأوضاع المخاطب، ومقتضيات الأحوال وجنس الخطاب؛ إذ غالباً ما يفرض إلحاح المتكلم على قضية ما أن تتداعى وحداته المعجمية وتسير في خطّين: أحدهما التقابل؛ مثل الليل والنهار، والضوء والظلام، والداخل والخارج، وثانيهما: التراكم والتكامل؛ مثل: الشعر والشاعر، والأب والأطفال، والطفلة والمرأة، والأكبر، والأوسط، والأصغر، والأقوى والأقبح^(٤).

وللمصاحبة المعجمية أيضاً أثر في تقريب المعنى المراد عندما يكون لبعض الألفاظ أكثر من

١- أحمد عفيفي، نحو النص، ص ١٠٦.

٢- محمد خطابي، لسانيات النص، ص ٢٤.

٣- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص ٢٥. وعبد المجيد حسين، علم النص، ص ١٤٨.

٤- ينظر: محمد مفتاح، ديناميّة النص، ص ١٦٢-١٦٣. وتحليل الخطاب الشعري، ص ٥٧-٦٨.

معنى، وهي بموقعها هذا تقوم بما يحتاجه فهم النص من قرائن مقالية وعقلية وحالية^(١)، كما أنها تفيد في فهم النص بواسطة ما سماه البلاغيون بالمشاكلة، وهي أن تقصد شيئاً بلفظ آخر؛ بمعنى أن تذكر كلمة ولكنك لا تريد معنى هذه الكلمة، وإنما تذكرها لوقوعها في مصاحبة لفظة تشبهها، مثل قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ سورة البقرة، آية ١٩٤، حيث إن رد الاعتداء لا يسمى اعتداء، ولكن الغاية البلاغية اقتضت المشاكلة^(٢).

ومهما تكن ضالة الروابط اللفظية فإنها تؤدي وظيفة مهمة في الصياغة اللفظية والترابط المعنوي؛ والروابط الدلالية تتبعها على الدوام روابط لفظية^(٣)، وهذا ما قصده (فيرث) بقوله: «إنك ستعرف الكلمة عن طريق ما يصاحبها»^(٤).

ثالثاً: الاتساق الصوتي:

توقف (بيوجراند) و(ديسلر)، في كتابهما «مدخل إلى علم لغة النص» أمام مصطلح «التنغيم» وعداه وسيلة من الوسائل الصوتية الرئيسة التي توظف مع وسائل أخرى ليتحقق مفهوم السبك النصي، وباستثناء ذلك لم يتكلم علماء لغة النص المتخصصون على عناصر صوتية أخرى، ولعل تفسير ذلك بحسب بعض الباحثين هو أنها غير موجودة في لغاتهم، أما في اللغة العربية فهي موجودة، وقد أفردت البلاغة العربية للسمع والجناس قسماً خاصاً ضمن علم البديع، ولا يخفى ما يتوافر في عناصر البديع من بعد موسيقي وصوتي يسهم في عملية تماسك النص، وعناصر البديع كلها مقصورة على اللغة العربية^(٥).

هذا هو معيار «الاتساق» كما يصفه نحاة النص، والنص ذو الجملة الواحدة لا يخرج عن هذا؛ فهو يتسم بالاتساق، والعلاقات التي تحكم بناءه لا تخرج عن العلاقات التي وضعها نحاة النص، كما سيظهر معنا في الفصلين القادمين.

- ١ - ينظر: تمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٧٣، ص ١٩١.
- ٢ - ينظر: فضل عباس، البلاغة: فنونها وأفنانها: البيان والبديع، دار الفرقان، عمان، ط ٧، ٢٠٠٠، ص ٢٩٤.
- ٣ - ينظر: أحمد الزمر، معالم أسلوبية عند ابن الأثير من كتابه (المثل السائر)، مجلة المورد، ٣٠ (٢)، ص ٣٧.
- ٤ - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط ١، ١٤٠٢ هـ، ص ١٢٠.
- ٥ - ينظر: حسام فرج، نظرية علم النص، ص ١١٧.

ثانياً: الانسجام:

ظهر مصطلح الانسجام عند الغرب بلفظ (Coherence)^(١)، ومعناه: «الالتحام، وهو يتطلب من الإجراءات ما تنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي واسترجاعه، أي إنه يُعنى بالطرق التي تكون بها مكونات العالم النصي المفاهيم والعلاقات مترابطة ومبنية بعضها على بعض»^(٢)، ويمكن تعريف «المفهوم» بأنه محتوى معرفي يمكن استرجاعه أو استثارته بقدر ما من الوحدة والاتساق في الذهن، أما «العلاقات» فهي الروابط القائمة بين المفاهيم التي تتجلى معاً في عالم النص، وتشتمل كل رابطة منها على تسمية للمفهوم الذي تتصل به^(٣).

وتعمل العلاقات على تنظيم الأحداث والوقائع داخل بنية الخطاب، وعلى هذا يكون مفهوم الترابط الذي نصّ عليه (بيوجراند) قد شمل مبدأ «الترابط» عند (غرايس)، ومضمون «التماسك» المعنوي عند (براون ويول)، و«التعلق» عند (شارول)^(٤). ويرى (ديتر فيهفيجر) و(فولفجانج هاينه من) أنّ الانسجام يتعلّق بفهم النص وقدرة المتلقي على تفسير ما كان غامضاً مبهماً، بتوظيف خبراته ومعارفه؛ إذ إنّ فهم النص يعتمد على معارف المتلقي التي يستخدمها على نحو استراتيجي^(٥). ومن ثمّ فإنّ محلّ النص -وهو يتناول الانسجام- عادة ما يلجأ إلى التأويل و«يستضيف النص ويعقد معه صلات حميمة ليتعاونوا معاً على إنجاز مهمة الفهم والتأويل»^(٦)، معتمداً على الخلفية المعرفية المتراكمة في ذاكرته؛ فمحلّ النص «لا يذهب إلى عالم النص وهو عبارة عن صحيفة بيضاء، وإنّما تكون له معلومات مخترنة في ذاكرته تسمح له بالتعميم اعتماداً على مبدأ النظر، كما تسمح له بإعادة الرأي في قياسه وتصحيح بعض أجزائه»^(٧).

١- ينظر: ديكرو، أوزوالد، وجان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ص ١٦.

٢- ينظر: جميل عبد المجيد حسين، علم النص: أسسه المعرفية وتحليلاته النقدية، ١٤٨.

٣- ينظر: إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم النص، ص ٢٧.

٤- ينظر: أحمد مداس، لسانيات النص: نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، ص ٨٣.

٥- ينظر: هاينه من، فولفجانج، وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص ١١٨.

٦- محمد مفتاح، ديناميّة النص، ص ٤٢.

٧- المرجع السابق، ص ٤٢.

ولذلك لا يمكن النظر إلى الانسجام على أنه شيء معطى وموجود في النص، بحيث يجب البحث عنه والعثور عليه، دون الاستناد إلى السياق، وقابلية المتلقي للفهم والتأويل، بل يكون تبين وسائل الانسجام بالبحث في تلك العلاقات جميعها، دون الانغماس في اللغة وحدها و«الإعلاء من فكرة الدال»^(١).

وعلى الرغم من كون الأمثال -وهي ما أبحث في انسجامه- فناً ثرياً يعتمد على المشافهة، ويُلقي أمام مستمع أو جبهة من المستمعين، فإنها غالباً ما تميل إلى التعبيرات اللغوية الدقيقة الواضحة، والبراهين والأقيسة التي تعين على عرض المعاني، وإظهارها، دون تأويل يحار فيه المتلقي^(٢)؛ ومع هذا فهي تستخدم ما تتيحه لها ظروف المشافهة من إيماءات وإشارات وتلميحات تسهم في صناعة الانسجام النصي.

وتجدر الإشارة إلى أن علماء العربية القدامى التفتوا إلى معيار الانسجام هذا، ومن ذلك أن الجاحظ استخدم مصطلح (القران) في مجال الانسجام والتأليف بين أجزاء البيت، وفيما بين الأبيات نفسها في القصيدة^(٣)، وفي تفسير مفهوم (القران) يتجلى هذا النص في كتاب البيان والتبيين: «قال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك، قال: ولم؟ قال: لأنني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه»^(٤)، وفي نص آخر بهذا المعنى أيضاً «وعاب رؤية شعر ابنه، قال: ليس لشعره قران»^(٥).

ويعمد ابن قتيبة إلى شرح ما أورده الجاحظ من أقوال رؤية المذكورة آنفاً، فيقول: «قال عبد الله بن سالم لرؤية: مت يا أبا الجحاف إذا شئت، فقال رؤية: وكيف ذلك؟ قال: رأيت اليوم ابنك عقبه ينشد شعراً له أعجبني، قال رؤية: نعم، ولكن ليس لشعره قران، يريد أنه لا يقارن البيت بشبهه، وبعض أصحابنا يقول: «قران» بالضم ولا

١ - ادith كيرزوف، عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، ترجمة جابر عصفور، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، بغداد، ط ١، ١٩٨٥، ص ٩٨.

٢ - ينظر: محمد يونس عبد العال، في الشر العربي: قضايا وفنون ونصوص، الشركة العالمية للنشر، لوندان، مصر، ط ١، ١٩٩٦، ص ٢٤.

٣ - ينظر: ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ٢، ١٩٨١، ص ١٤١.

٤ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٥٢٨.

٥ - المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢٨.

أرى الصحيح إلا الكسر وترك الهمز على ما بيّنت^(١)، ولهذا يمكن أن يعد «القران» مصطلحاً متداولاً بين النقاد، يتضمن الدلالة على مفهوم الانسجام، أو الترابط المعنوي في ذلك الوقت^(٢).

والنص ذو الجملة الواحدة يجب أن يكون منسجماً بهذا المعنى الذي ذكرت، من جهة البنية الدلالية التي يمثلها، ومن جهة الترابط المفهومي الذي يتجلى فيه، ومن جهة انسجامه مع السياق التواصلية الذي يُستعمل فيه.

٢- المعايير المتصلة بمستعملي النص: القصديّة والتقبليّة والإعلاميّة: أولاً: القصديّة:

تعد القصديّة من المقوّمات الأساسيّة للنص؛ باعتبار أنّ لكل منتج خطاب غاية يسعى إلى بلوغها، أو نيّة يريد تجسيدها، ويستمد مفهوم القصد شرعيّة وجوده في الدراسات اللسانية، قديمها وحديثها، من أنّ كلّ فعل كلامي يفترض فيه وجود نيّة للتوصيل والإبلاغ؛ ف«لا يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد»^(٣)، كما أنّه لا غنى لأية تشكيلة لغويّة يُراد اغتنامها في التفاعل الاتصالي عن توافر القصد^(٤).

ولمّا كان النص مظهرًا من مظاهر السلوك اللغوي، وشكلاً من أشكال اللغة، فإنّه يحتوي لا محالة على قصد معيّن، وتكمن أهميّة القصد في أنّه يمثل جزءاً مهماً من دلالة الخطاب أو النص، بل لا يكتسب النص دلالة إلا بفعل قصد المتكلم^(٥).

ويرى (بيوجراند) أنّ القصد على المستوى النصّي «يتضمّن موقف منشئ النص من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصّاً أو خطاباً يتمتع بالسبك والالتحام، وأنّ مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطّة معيّنة للوصول

١ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤، ج ١، ص ٣٤.

٢ - ينظر: ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ص ١٤١.

٣ - محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٨٩.

٤ - ينظر: إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم النص، ص ١٥٢.

٥ - ينظر: محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، منشورات الاختلاف، الجزائر، والدار العربيّة للعلوم، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٩٦.

إلى غاية بعينها»^(١)، وعدّ (بيوجراند) و(دريسلر) الاتّساق والانسجام من الأفكار التي تشير إلى عمليّات متجهة صوب مادة النص، وثمة أفكار تشير إلى مستعمل النص، وهي ذات تأثير في نشاط الاتصال، وأطلقا على المعيار الثالث من معايير النصيّة اسم «القصدية»، وموضوع هذا المعيار يتركز في تحقيق مقاصد منتج النص^(٢).

ومعنى هذا أنّ للقصد تأثيراً في بنية النص وأسلوبه؛ لذلك فإنّ الكاتب يبني نصّه بناءً معيّناً، ويختار لذلك الوسائل اللغويّة الملائمة بما من شأنه أن يضمن تحقيق قصده، ويستشهد (بيوجراند) على ذلك بالصحفي الذي يختار لمقاله شكلاً متميزاً من أجل شدّ انتباه القارئ^(٣).

ويرى (ميخائيل باختين) أنّ النص يتحدّد «بعاملين يجعلان منه نصّاً: النية (العزم)، وتنفيذ هذه النية، وهما يتفاعلان بشكل ديناميكي، وينعكس صراعهما على النص من خلال عمليّة تجاذب طويلة»^(٤)، ولا شك في أنّ ثمة معنى أوسع للقصدية وهو «جميع الطرق التي يتخذها منتج النص في استغلال النصوص من أجل متابعة مقاصدهم وتحقيقها»^(٥).

وما أستشفّه من الآراء السابقة هو أنّ تجسيد القصد أو النية يقتضي وضع خطة معيّنة تجعل النص يتسم بالترابط والاتساق، ويسير باتجاه غاية محدّدة.

وقد عبّر النقاد والبلاغيون العرب القدماء عن (القصد) بألفاظ كثيرة، منها: «الغرض» و«الحاجة»، و«المراد»، و«الفائدة»، وغيرها، بل ربّما كان لفظ البلاغة لديهم يراد به أحياناً المقصد، وربما كان المراد من قولنا علم البلاغة، علم المقاصد^(٦)، وتتجلّى العناية بمبدأ القصد في كثير من الأقوال الواردة في المصنّفات القديمة، منها ما يذكره الجاحظ عن قائل

١ - ينظر: بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٣.

٢ - ينظر: إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم النص، ص ٣٠.

٣ - ينظر: محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص، ص ٩٧.

٤ - المرجع السابق، ص ٩٧.

٥ - إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم النص، ص ١٥٧.

٦ - ينظر: مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، سلسلة عالم المعرفة، (١٩٥)، ١٩٩٥، ص ١١.

الشعر، أنّه إذا لم يقصد إلى الشعر، فلا يعد قوله شعراً، فيقول: «ولو أنّ رجلاً من الباعة صاح: من يشتري باذنجان؟، لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات، وكيف يكون هذا شعراً، وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟، ومثل هذا المقدار من الوزن قد تهيأ في جميع الكلام، وإذا جاء بالمقدار الذي يعلم أنّه من نتاج الشعر، والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً»^(١).

ويرى عبد القاهر الجرجاني أنّ توافر القصد في الخطاب يُعد من الأمور البديهية، ويفهم هذا من قوله: «وكان ممّا يُعلم بدائه المعقول أنّ الناس إنّما يكلم بعضهم بعضاً؛ ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده»^(٢).

ولعلّ هذا المعيار من أهمّ خصائص النصيّة المتّصلة بالنص ذي الجملة الواحدة؛ فالجملة الواحدة لا يمكن أن تتحوّل إلى نص إلا عبر مفتاح القصدية من المرسل الذي يقصد برسالته اللغوية أن تكون نصّاً وعبر الغرض الذي يريده منها، وعبر سياق التواصل الذي يجعل من هذا المقصد واقعاً حياً يتجلّى في النص فيفهمه المتلقّي عبر هذا المقصد، وأيّ جملة، مهما كانت، لا يمكن أن تكون نصّاً إلا عبر مقصد المرسل، وأيّ متوالية جمل مهما طالت لا يمكن أن تكون نصّاً إلا عبر مقصد المرسل.

ثانياً: التقبيلية:

يتعلق هذا المعيار بـ «موقف المتلقّي من قبول النص»^(٣). والمراد بـ «التقبيلية»، هو: «تقبيلية المستقبل للنص بوصفه متضامّاً متقارناً ذا نفع للمستقبل، أو ذا صلة به»^(٤)، وهذا يعني أنّ فكرة التقبيلية تتجه صوب المخاطب، «أي اكتسابه معرفة جديدة أو قيامه بالتعاون لتحقيق خطة ما، ويستجيب هذا الاتجاه لعوامل من مثل نوع النص، والمقام الثقافي والاجتماعي، ومرغوبة الأهداف»^(٥)، وتتضافر هذه العوامل

١- الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٨٩.

٢- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٥٣٠.

٣- ينظر: صبحي الفقي، علم اللغة النصّي، ج ١، ص ٣٣.

٤- إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم النص، ص ١٢.

٥- المرجع السابق، ص ٣١.

بحسب نسبة توافرها في النص لحمل المتلقي على قبول النص^(١)، وقد سعى بعض الباحثين إلى جمع تلك العوامل المؤثرة في المتلقي، ولعل أبرزها^(٢):

- معرفة المتلقي بنوع النص، ومعرفة من هو المنتج.
- معرفة المتلقي لقصد المنتج، أي دلالة النص العامة التي وسّمها (فنان ديك) بـ «البنية الكبرى».

- تعتمد نسبة قبول النص على مدى أهمية النص بالنسبة إلى متلقيه.
- تعتمد نسبة قبول النص على الخلفيات الفكرية والأيدولوجية التي يتمتع بها مستقبل النص.

- تعتمد نسبة قبول النص على الخصائص النفسية التي يتمتع بها المتلقي؛ ذلك بأن الحالة النفسية تؤثر في الحالة الذهنية.

لهذا كلّ يحظى السياق بشكله العام بمكانة مهمة في التقبليّة؛ إذ «يساعد على الحكم بالقبول أو عدمه، بواسطة مجموعة القواعد الحاكمة التي يشير إليها (جون ليونز)؛ إذ إنّ نظرية السياق عنده لا تعد الجملة كاملة المعنى إلا إذا صيغت طبقاً لقواعد النحو، وراعت توافق الوقوع بين مفردات الجملة، وتقبلها أبناء اللغة وفسروها تفسيراً ملائماً، وهو ما أطلق عليه اسم التقبليّة»^(٣).

وقد أولى النقاد والبلاغيّون العرب القدامى هذا المعيار عناية كبيرة في وقت مبكر من نشاطهم النقدي، ويأتي هذا الاهتمام من اهتمام الشعراء والخطباء أنفسهم منذ العصر الجاهلي، بأن يقع كلامهم موقع القبول الحسن من السامع، ومن ذلك ما ذهب إليه ابن طباطبا أنّ الشعراء في عصره بحاجة إلى أن يتوثقوا من جودة أشعارهم وسلامتها من العيوب قبل إظهارها للمتلقين، وما ذلك إلا لأنّ الشعراء قبلهم قد سبقوهم إلى كلّ معنى بديع، ولفظ فصيح، «فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك، ولا يربى عليها، لم يتلقّ بالقبول، وكان كالمطرح المملول»^(٤).

١ - ينظر: عزة شبل محمد، علم لغة النص: النظرية والتطبيق، ص ٣٥.

٢ - ينظر: حسام أحمد فرج، نظرية علم النص، ص ٥٥-٥٦.

٣ - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص ٧٧. أحمد عفيفي، نحو النص، ص ٨٩.

٤ - ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ٩.

وإنَّ الجملة الواحدة تتحوّل إلى نص إذا تقبّلها المتلقّي على أنّها كذلك؛ فالمتلقّي هو الذي يحكم على جملة ما أنّها نص أو غير نص.

ثالثاً: الإعلامية:

هي المعيار الخامس من معايير النصيّة، وترجمها بعض الباحثين العرب إلى «الإخباريّة»^(١)، وبعضهم إلى «المعلوميّة»^(٢)، أي ما نحصل عليه من معلومات يتضمّنهما النص في الحكم، وعرفها (بيوجراند) بأنّها: «العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصيّة، أو الوقائع في عالم نصّي، في مقابلة البدائل الممكنة؛ فالإعلاميّة تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل، وعند الاختيار الفعلي لبديل من خارج الاحتمال، ومع ذلك نجد لكلّ نص إعلاميّة صغرى على الأقل تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع»^(٣)، ولذا فإنّ مصطلح «الإعلاميّة» لا يدلّ على المعلومات التي تشكل محتوى الاتصال، بل يدلّ على ناحية الجدّة والتنوع الذي توصف به المعلومات في بعض المواقف^(٤)، وعلى غرار ذلك، نقل عن (بيوجراند) و(دريسلر) أنّ الإعلاميّة «تتضمن على عامل الجدّة»^(٥)، وحدّدا موضوعها بـ «مدى التوقع الذي تحظى به وقائع النص المعروض في مقابل عدم التوقع، أو المعلوم في مقابل المجهول»^(٦).

وهي العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصيّة، أو الوقائع في عالم نصّي في مقابلة البدائل الممكنة؛ فالإعلاميّة تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل وعند الاختيار الفعلي لبديل من خارج الاحتمال، ومع ذلك نجد لكلّ نص إعلاميّة صغرى على الأقل تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع»^(٧)، ومعنى ذلك أنّه «كلما

١- ينظر: أحمد عفيفي، نحو النص، ص ٨٦.

٢- ينظر: المرجع السابق، ص ٨٦.

٣- بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٥.

٤- ينظر: المرجع السابق، ص ٢٤٩.

٥- إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم النص، ص ١٢.

٦- المرجع السابق، ص ١٢، ص ٣٢-٣٣.

٧- ينظر: بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٥. وقد أسهب بيوجراند في الحديث عن الإعلاميّة بواسطة المفردات الآتية: تعديل النظريّة الإعلاميّة ص ٢٤٩، والإعلاميّة المبنية على الوعي الاستبطاني ص ٢٦٨، والإعلاميّة على نطاق الجملة ص ٢٧٥. ويقصد بالنظريّة الإعلاميّة أنّه على الرغم =

كان هناك ابتعاد عن التوقع، وكثرة المعتاد والمألوف، زادت الكفاءة الإعلامية في النص^(١).

ويحمل الإنباه إلى أن النقاد والبلاغيين القدامى أشاروا في مواضع متعددة إلى وجوب أن يتضمن الكلام أو الخطاب -أيًا كان نوعه- فائدة أو منفعة يروم المتكلم إيصالها إلى السامع؛ فقد جعل بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) الفائدة أو المنفعة من سمات المعنى الشريف؛ إذ يقول: «إنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»^(٢).

وقد جعل أبو هلال العسكري من «الإفهام» أساسًا يقوم عليه الخطاب؛ فهو يقول: «إذا كان موضوع الكلام على الإفهام؛ فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوق، والبدوي بكلام البدو»^(٣)، ويفهم من كلام أبي هلال المذكور آنفًا أن وظيفة الإفهام تقع على عاتق المتكلم، والفهم يقع على عاتق السامع، وكذلك قول ابن فارس الذي نقله السيوطي (ت ٩١١ هـ) في أن الخطاب إنما «يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع»^(٤).

= من شيوع الإعلام على مدى السنين لم ننظر إلى هذا المصطلح، لا من حيث كونه يدل على المعلومات التي تشكل محتوى الاتصال، بل من حيث يدل بالأحرى على ناحية الجدّة أو التنوّع الذي توصّف به المعلومات في بعض المواقف. وأمّا إعلاميّة الوعي الاستبطاني فلها أثر في سلوك التعلم؛ فعند حدوث تفاعل بين استخدام النص والقدرة الإنسانية والحالات الحيّة، يجب أن ننظر في طبيعة الوعي الاستبطاني الإنساني بصورة عامّة، فلا بد أن الناس يوزّعون انتباههم توزيعًا انتقائيًا ليلاحظوا بعض صور الوقائع والمعلومات أفضل ممّا يلاحظون البعض الآخر، ولا يمكن أن تكون درجة التوقّع بمفردها تفسيرًا لكلّ الظواهر ذات العلاقة؛ فبعض المؤثرات على الأقل يرجع إلى الطبيعة الذاتيّة للمادّة، ويعود البعض الآخر إلى المراكز العامّة لإجراء الوعي الاستبطاني، والترابط الإدراكي. وأمّا الإعلاميّة في نطاق الجملة فقد عدّ (بيوجراند) جملة الإثبات من الناحية التقليديّة عبارة خبريّة؛ لأنّ ناذجها اللغويّة جاءت من تراكيب منطقيّة ثابتة محدّدة بما لها من مسند إليه ومسند؛ إذ ينطق المتكلم بالمسند إليه ثم يقول عنه شيئًا.

١ - عزة شبل محمد، علم لغة النص: النظرية والتطبيق، ص ٦٨.

٢ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٣٦.

٣ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٧١، ص ٢٩.

٤ - السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٣٢٩.

يلحظ ممّا تقدم أن النقاد القدامى يجعلون الإفهام مقومًا من مقومات الخطاب سواء أكان خطابًا اعتياديًا أم أدبيًا، ولكنهم جعلوا ما عبروا عنه بحسن البيان أو حسن الإفهام أو حسن الإفادة، مزية من مزايا الخطاب الأدبي، وأن ذلك يرجع إلى براعة منتج الخطاب، ويعد هذا دلالة من دلالات وعيهم بالتفريق بين الخطاب العام أو الاعتيادي والخطاب الأدبي. ويمكن أن تلمس الفصل بين الخطابين أو أنهما يعدّان مستويين من الخطاب من أقوال النقاد العرب القدامى، نحو ما قاله الجاحظ: «كلام الناس في طبقات كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن والقيح والسمح، والخفيف والثقيل، وكلّ عربي وبكلّ قد تكلموا، وبكلّ قد تمادحوا وتعايوا»^(١)، فهذه هي المساحة العامّة للكلام الواقعة بين قطبي السخيف السوقي الصادر عن طبقة العامّة، والمليح الحسن الصادر عن طبقة ذوي البصر بجوهر الكلام البليغ من الكتّاب والشعراء^(٢). وإنّ النصّ ذا الجملة الواحدة يحمل قيمة معلوماتيّة من نوع ما، يمتاز بالتكثيف، ولكنّه يحمل شيئًا يجعل المتلقّي يحكم عليه بالنصيّة أو خلافها.

٣- المعايير التي تتصل بالمقام الخارجي: المقاميّة والتناصيّة: أولاً: المقاميّة:

يعدّ مفهوم «المقاميّة» جزءًا من مفهوم السياق في البحوث اللغويّة عند المُحدّثين؛ فالسياق يدلّ على معنيّين يمكن تحديدهما في أمرين، هما: السياق اللغوي، والسياق الاجتماعي؛ أي «السياق غير اللغوي»^(٣).

وتتضمّن المقاميّة «العوامل التي تجعل النصّ مرتبطًا بموقف سائد يمكن استرجاعه، ويأتي النصّ في صورة عمل يمكن له أن يراقب الموقف، وأن يغيّره»^(٤). لذا يؤكّد جلّ علماء النصّ ضرورة أن يؤخذ بعين الاعتبار البُعد التداولي للنصّ؛ وذلك

١- الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ١٤٤.

٢- ينظر: الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير البلاغي والنقدي عند العرب، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة الجزائر، ١٩٨٨، ص ٤٠.

٣- ينظر: محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٥٩.

٤- بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٤.

انطلاقاً من أنّ لكلّ نصّ رسالة معيّنة يريد الكاتب إيصالها للمتلقّي، وأنّ ذلك يحدث في ظروف معيّنة، كما يرون أيضاً أنّ أحد معايير الحكم على النصّ بالقبول، هو مدى ملاءمته للسياق الذي يرد فيه^(١).

وعليه فإنّ جانب العلاقات الداخلية للنصّ ثمة «علاقات أخرى بين النصّ ومحيطه المباشر وغير المباشر، ويؤدي الفصل بين هذه العناصر الداخلية، أو إسقاط أيّ منها، أو إغفال أيّة علاقة؛ سواء أكانت داخلية أم خارجية، إلى العجز عن إثبات الوحدة الكلية أو التماسك والانسجام الدلاليّ للنصّ»^(٢).

وقد وصف الباحثون في علم النصّ «المقاميّة» بأنّها من أهمّ المعايير التي تقوم عليها النصيّة؛ وذلك لقناعتهم «بأنّ دراسة النصّ، لن تكون كافية بالوقوف فقط عند بنيته النحويّة أو الدلاليّة الداخلية، بل لابد من دراسته على مستوى الخطاب، وهذا يعني الاهتمام ببنية السياق والعلاقات بينها وبين النصّ»^(٣).

ولابد لي من وقفة عند مفهوم «السياق» الذي أولاه اللغويون المُحدَثون اهتماماً خاصّاً؛ لأثره في تحديد دلالة الحدث الكلامي، ويُعد (فرديناند دي سوسير) من أبرز الذين أبدوا هذا الاهتمام؛ وذلك عندما بيّن أنّ الكلمة إذا وقعت في سياق ما، لا تكتسب قيمتها إلا بعلاقتها بما يسبقها أو يلحقها، أو معها في وقت واحد^(٤).

يمثّل المقام إذاً أحد المقوّمات الفاعلة في اتّساق النصّ خصوصاً من الناحية الدلاليّة، وعليه فإنّ نصيّة الخطاب لا تكتمل ولا تستقيم إلا إذا راعى صاحبه الظروف المحيطة التي سيظهر فيها النصّ؛ لذا فإنّ خطاباً يتعدّ كثيراً عن التقاليد الأدبيّة السائدة، وعن الأعراف الاجتماعيّة المتعارف عليها، لن يلقي قبولاً حسناً، ويرى (بيوجراند) أنّه «ينبغي للنصّ أن يتصل بموقف يكون فيه، تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات والتوقعات والمعارف، وهذه البيئة الشاسعة تسمّى سياق الموقف»^(٥).

١ - ينظر: محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النصّ، ص ٩٨.

٢ - سعيد بحيري، دراسات لغوية تطبيقية، ص ٧٨.

٣ - محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النصّ، ص ٩٨.

٤ - ينظر: فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ص ١٤٢.

٥ - بيوجراند، النصّ والخطاب والإجراء، ص ٩١.

وقد تطوّر مفهوم (السياق) بعد (فرديناند دي سوسير) ولاسيما عند المدرسة الاجتماعية الإنجليزيّة، التي يقف (فيرث) في مقدمتها؛ فقد نقل عنه أنّ السياق ينقسم إلى قسمين^(١) : السياق الداخلي: ويتمثل في العلاقات الصوتيّة، والصرفيّة، والنحويّة، والدلاليّة بين الكلمات في تركيب معيّن.

والسياق الخارجي: ويتمثل في السياق الاجتماعي، أو سياق الحال، وهو يشكل الإطار الخارجي للحدث الكلامي.

بناءً على ذلك، يرى (فان ديك) ضرورة أن يتسع مجال النحو ليشمل الأبعاد التداوليّة للنص^(٢)، ويقول محمد خطابي معلقاً على ذلك: «إن إضافة هذا المستوى سيمكّن من إعادة بناء جزء من المقنضيات التي تجعل الأقوال مقبولة تداولياً، وبتعبير آخر مناسبتها بالنظر إلى السياق التواصلّي الذي تنجز فيه، وهذا افتراض أول يتعلق بتوسيع مجال الوصف بإضافة مستوى ثالث وهو المستوى التداولي»^(٣).

وعلى هذا الأساس يرى (براون ويول) أنّ «على محلل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يظهر فيه الخطاب (والسياق لديهما يتشكل من المتكلم / الكاتب، والمستمع / القارئ، والزمان والمكان)؛ لأنّه يؤدي دوراً فعالاً في تأويل الخطاب بل كثيراً ما يؤدي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين»^(٤).

وقد تنبّه النقاد والبلاغيّون والمفسّرون العرب القدامى مبكراً إلى أهميّة (السياق) لفهم المعنى، فيما أطلقوا عليه «مقتضى الحال»، أو «المقام»، وبما يتفق مع كثير من ملاحظات اللسانيين المعاصرين^(٥)، كما كان (المقام) واحداً من المقوّمات الفاعلة التي اعتمد عليها النقاد والبلاغيّون والمفسّرون العرب القدامى للحكم على تماسك النص، وأصبحت «المقاميّة» أي مدى ملائمة النص للسياق الذي يرد فيه، من معايير الحكم على النص بالقبول^(٦).

١ - ينظر: حسام أحمد فرج، نظرية علم النص، ص ٢٢.

٢ - ينظر: فان ديك، علم النص، ص ١١٦.

٣ - محمد خطابي، لسانيات النص، ص ٢٩.

٤ - المرجع السابق، ص ٥٢.

٥ - ينظر: هادي نهر، علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٨، ص ٢٦٦.

٦ - ينظر: محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص، ص ٩٨.

ويلحظ إلحاح الجاحظ على السياق حين أورد صحيفة بشر بن المعتمر (٢١٠ هـ) التي نصّت على هذا المعيار، وذلك في قوله: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»^(١).

وعدّ بشر بن المعتمر من أوائل من أدرك أهمية المقام وضرورة الأخذ به؛ من أجل أن يحظى الخطاب بالفهم والقبول عند المخاطب، وهذا أمر لا يختلف عليه اثنان، بل هو ممّا يصر اللغويون المُحدّثون على مراعاته^(٢).

وقد جعل ابن طباطبا من موافقة الشعر للحال المقام التي ينشأ قول الشعر من أجلها سببًا من أسباب حسن الشعر وقبوله، يقول: «ولحسن الشعر وقبول الفهم إيّاه علة أخرى وهي موافقته للحال التي يعد معناه لها، كالمدح حال المفاخرة، وحضور من يكبت بإنشاده من الأعداء، ومن يسرّ به من الأولياء، وكالهجاء في حال مباراة المهاجي، والخط منه حيث ينكى فيه استماعه له، وكالمراثي في حال جزع المصاب، وتذكر مناقب المفقود عند تأبينه والتعزية عنه، وكالاعتذار والتنصّل من الذنب عند سلّ سخيمة المجني عليه، المعتذر إليه، وكالتحريض على القتال عند التقاء الأقران وطلب المغالبة، وكالغزل والنسيب عند شكوى العاشق، واهتياج شوقه وحنينه إلى من يهواه»^(٣).

وأشار ابن وهب الكاتب إلى أنّ وقت الخطاب، وطوله أو قصره، فضلًا عن مراعاة مستوى المخاطبين، ممّا تقع به العناية ضمن مبدأ (لكلّ مقام مقال)، وفي ذلك يقول: «أن يكون الخطيب أو المترسل عارفًا بمواقع القول، وأوقاته، واحتمال المخاطبين به، فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة فيقصر عن بلوغ الإرادة، ولا الإطالة في موضع الإيجاز، فيتجاوز في مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة، ولا يستعمل ألفاظ الخاصّة في

١ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٣١٢.

٢ - ينظر: كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩، ص ٥٧.

٣ - أبو إسحق الحصري القيرواني، جمع الجواهر في المُلح والنوادر، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٦.

مخاطبة العامة، ولا كلام الملوك مع السوق، بل يعطي لكل قوم من القول بمقدارهم، ويزنهم بوزنهم، فقد قيل (لكل مقام مقال)^(١).

ويلحظ أنّ ابن رشيق يجعل من مراعاة مقولة «لكلّ مقام مقال» من أسس التفاضل بين الشعراء، وفي هذا يقول: «فأول ما يحتاج إليه الشاعر بعد الحد الذي هو الغاية، وفيه وحده الكفاية حسن التأني والسياسة، وعلم مقاصد القول، فإن نسب ذلّ وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أقل وأوجع، وإن فخر خب ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حقّ ورجع، وليكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائناً من كان؛ ليدخل إليه من بابه ويدخله في ثيابه، وذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا»^(٢).

ويتفق السكاكيّ مع ابن رشيق فيما ذهب إليه؛ إذ يقول: «لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجدي يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكلّ لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي، ولكلّ ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر»^(٣).

يتّضح ممّا سبق أنّ النقاد والبلاغيين العرب القدامى قد وُفقوا في الاهتمام إلى فكرتيّ المقام والمقال، ومراعاة مقتضى الحال بوصفهما أساسين متميّزين من أسس تحليل المعنى، ويعدّ ما عرفه العرب قديماً من الكشف التي تمخّض عنه العقل الغربي المعاصر في دراسة اللغة^(٤).

إنّ النصّ ذا الجملة الواحدة لا يمكن أن يُفهم إلا عبر المقام الذي استعمل فيه، بل إنّّه لا قيمة له بمَعزِل عن هذا السياق.

١- ينظر: ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص ١٩٤.

٢- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج ١، ص ٢٠٨.

٣- السكاكي، أبو يعقوب محمد بن علي (ت ٦٢٦ هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وعلّق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣، ص ١٦٨.

٤- ينظر: تمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها، ص ٣٣٧.

ثانيًا: التناصيّة:

التناص: نوع من التعالق أو التبادل أو التداخل بين مختلف النصوص؛ «ففي فضاء النص تتقاطع أقوال عديدة، مأخوذة من نصوص أخرى، ممّا يجعل بعضها يقوم بتحديد البعض الآخر ونقضه»^(١)، ويشرح صلاح فضل هذا بقوله: «إنّ التناص عملية استبدال بين النصوص على المستويّين اللفظي والمعنوي معًا، بحيث يستفيد نص من نصوص سبقت»^(٢). وأمّا بالنسبة لـ (جوليا كرسيفا) فالتناص «هو ترحال للنصوص وتداخل نصي في فضاء نص معين تتقاطع وتتأني في ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى»^(٣)، وهذا يشير إلى أنّ وجود النص يعتمد على نصوص سابقة عليه وتداخلها فيه يؤدي إلى تفاعلها وتعالقها مع بعضها.

ويعرّفه (بيوجراند) بأنه «يتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة سواء بوساطة أم بغير وساطة»^(٤).

ولهذا فإنّ كلّ نصّ يمثل فضاءً تلتقي فيه نصوص عديدة بما تتضمنه من رؤى فكرية وحضارية مختلفة، يحكم الكاتب مزجها بطريقة الخاصة فيشكل نصًا منسجمًا متناسقًا. وتأتي أهمية التناص من أنّه يمثل عملية إثراء للنصوص بعضها مع بعض، بقيم دلالية وشكلية متعدّدة ومتنوّعة، كما يمثل تحررًا للمبدع نفسه من قيود الثقافة الواحدة، ومن قيد الزمان والمكان، وبذا يكون «التناص»، لا مناص منه؛ لأنّه لا فكاك للإنسان من شروطه الزمانية والمكانية، ومحتوياتها، ومن تاريخه الشخصي، أي من ذاكرته؛ فأساس إنتاج أيّ نص هو معرفة صاحبه للعالم، وهذه المعرفة ركيزة تأويل النص من قبل المتلقي»^(٥).

أقسام التناص:

قسّم الباحثون التناص أقسامًا متعدّدة؛ منها: ما يكون من غير قصد من الكاتب، وهو

- ١- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٢٨.
- ٢- ينظر: المرجع السابق، ص ١٢٨.
- ٣- ينظر: أحمد طعمة حليبي، التناص بين النظرية والتطبيق: شعر البياتي نموذجًا، الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق، ٢٠٠٧، ص ١٩.
- ٤- بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٤.
- ٥- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص ١٢٣.

الذي تتسرّب فيه إلى النص الأصلي مقتطفات من نصوص أخرى، ومنها ما يصدر عن وعي وقصد، وهو الذي يعتمد فيه الكاتب إلى الإشارة للنص المستعار إشارة واضحة، كما يُقسّم التناص إلى التناص الداخلي والتناص الخارجي؛ فالتناص الداخلي يكون مع نصوص للكاتب أو الشاعر نفسه، والتناص الخارجي مع غيرها، والجزئي والتام، على قدر الأخذ من الآخرين^(١)، ولكن أشهر أقسام التناص:

أ- التناص الشكلي: ويُسمّى أيضًا بـ «التناص المباشر»، ويعني اجتزاء قطعة من نص سابق، أو نصوص سابقة تجعلها تتلاءم مع الموقف الاتصالي الجديد وموضوع النص، وهذا هو الشكل البسيط من التناص الذي يتحقق بنقل التعبير من غير تغيير^(٢).

ب- التناص المضموني: ويُسمّى أيضًا بـ «التناص غير المباشر»، ويستنبط من النص استنباطًا، ويرجع إلى تناص الأفكار، أو المقروء الثقافي، أو الذاكرة التاريخية التي تستحضر تناصها بروحها أو بمعناها، لا بحرفيتها أو لغتها، وتفهم من تلميحات النص وإيماؤه وشفراته وترميزاته^(٣)، فتجد مثلاً شاعرًا يعيد إنتاج ما تقدّمه وما عاصره من نصوص مكتوبة وغير مكتوبة، وينتقي منها صورًا، أو موقفًا، أو تعبيرًا ذا قوّة رمزيّة، ويظهره بشكل جديد^(٤)، وقد حظي هذا اللون من التفاعل بين النصوص بدراسات موسّعة لدى النقاد والبلاغيين العرب القدامى، نحو اهتمامهم مثلاً بالسرقات الأدبيّة، والمعارضات الشعريّة، والاقتباس، والتضمين، والاستشهاد، وغيرها من المظاهر التناصيّة التراثيّة^(٥)، وقد كان موقف بعض النقاد القدامى من المظاهر التناصيّة موقفًا دقيقًا؛ فقد رأوا أنّ هذه العمليّة تحسن حين تكون بطريقة إبداعية، تعطي للنص قيمة فيّة لا يمكن الوصول إليها من دونها، فضلًا عن ذلك، فإنّها تربط النص بالمروروث الأدبي والثقافي، وتفتح حوارًا بين النصوص الأدبيّة، يؤدي في بعض الأحيان إلى تحطيم تلك الثنائيّة التي تعتمد على الفروق بين الشعر والنثر، ممّا يسمح بتداخل الأجناس^(٦).

١- ينظر: محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص، ص ١٠٢-١٠٣.

٢- ينظر: عزة شبل محمد، علم لغة النص، ص ٧٩.

٣- ينظر: المرجع السابق، ص ٧٩.

٤- ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، ص ١٣٠.

٥- ينظر: إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم النص، ص ٢١.

٦- ينظر: محمد تحريشي، أدوات النص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠، ص ٦٢.

إنَّ «التناصيّة» في نص المثل مبنية على وجود هذا الجسر من المشابهة في البنية الدلالية بين موقعيّ متباعدين في الزمان والمكان، فتتمثّل بنية المثل اللغويّة بنيةً عابرةً للزمان والمكان؛ فهو نصّ متعدّد الأصحاب، متعدّد الاستعمال، متعدّد الحالات لكنّ ثيمته الأساسيّة ثابتة.

ثالثاً: الفرق بين الجملة في حدّها النحوي والنص ذي الجملة الواحدة:

يتبيّن ممّا سبق أنّ النص الجملة تتوافر فيه كلّ خصائص النصوص ذوات الجمل المتعدّدة، وهنا أسمى إلى عقد مقارنة بين النص الجملة والجملة في حدّها النحوي: أمّا الجملة في حدّها النحوي فهي جزء وليست كلّاً؛ إذ إنّ الجملة الواحدة تكون نصّاً إذا تحوّلت إلى كلّ بنيوي موحد في مقصده ودلالته وتماسكه وأفقه التواصل.

١- الكليّة^(١) (النص كلّ):

يمتاز النص الجملة بالكليّة؛ أي إنّ كلّ بنيوي موحد، والكليّة ترد في معظم تعريفات الباحثين، وأختير تعبير (فاينريش) في هذا الأمر، يقول: «النص كلّ ترتبط أجزاؤه من جهتي التحديد والاستلزام؛ إذ يؤدّي الفصل بين الأجزاء إلى عدم وضوح النص، كما يؤدّي عزل عنصر من عناصره أو إسقاطه إلى عدم تحقيق الفهم، ويفسّر هذا بوضوح بواسطة مصطلحي (الوحدة الكليّة) و(التماسك الدلالي) للنص^(٢).

وهذا ينطبق على النص ذي الجملة الواحدة؛ فالنص الجملة كلّ بنيوي موحد، وتستخدم كلمة (نص) في اللسانيّات -حسبما يذكر (هاليداي) ورقية حسن- لتشير إلى أنّ «أي مقطع -منطوق أو مكتوب- وأياً كان طوله يشكّل كلّاً متّحداً»^(٣)، ويتّصل بالكليّة وحدة الموضوع ووحدة المقصد.

١- ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٨. يعرف (بيوجراند ودرسلر) النص بأنّه: «بنية مركبة متماسكة، تتجلّى فيها بنية ذات وحدة شاملة». وينظر إشارة (برينكر) إلى الكليّة كذلك، في: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١١١. ويشير نصر حامد أبو زيد إلى فكرة الكليّة بقوله: «النص: سلسلة من العلامات المنتظمة في نسق من العلاقات، تنتج معنى كلياً يحمل رسالة». نصر حامد أبو زيد، النص: السلطة الحقيقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٥، ص ١٥١.

٢- ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٨.

٣- ينظر: Halliday & ruqaiya Hassan, Cohesion in English Ianguage, P. 22.

٢- المدونة اللغوية:

النص مدونة كلامية قد تكون جملة، أو متوالية من الجمل، أو تتابعاً من العلامات اللغوية، أو مركبات من علامات لغوية لا تدخل تحت أي وحدة أشمل^(١)، وهذا المصطلح «مدونة كلامية» من وضع محمد مفتاح، ويستعيز به عن وصف البنية اللغوية، بمعنى أن النص مؤلف من الكلام، وليس صورة فوتوغرافية أو رسماً أو زياً، وأنه «إنجاز اعتمد في توليده على فعل لساني وعمل لغوي»^(٢)، وترى (كريستيفا) أن النص أكثر من مجرد خطاب أو قول؛ إذ إنه موضوع للعديد من الممارسات السيميولوجية التي يُعتمد بها على أساس أنها ظاهرة عبر لغوية؛ بمعنى أنها مكونة بفضل اللغة لكنها قابلة للانحصار في مقولاتها، وبهذا فإن النص جهاز عبر لغوي، يعيد توزيع نظام اللغة بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية^(٣). فالنص ذو الجملة الواحدة مؤلف في بنيته اللغوية من جملة واحدة محكومة بقواعد اللغة، ولكنها تختزن في داخلها خطاباً تواصلياً مكتملاً، ومرشحاً للتفاعل بين المرسل والمتلقي.

٣- البنية الدلالية (المعنى):

فالنص وحدة دلالية أو وحدة معنى^(٤)، وليس وحدة شكل، والنص «مظهر دلالي يتم من خلاله إنتاج المعنى من لدن المتلقي»^(٥)، ويقترح عدد من اللسانيين، ومنهم (أوزوالد ديكر) استعمال مصطلح «الدلالة» فيما يخص الجملة (دلالة الجملة)، ومصطلح «المعنى»

١ - ينظر في هذا تعريف (برينكر) عند: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٧. وينظر تعريفاً (بول ريكور) و(كريستيفا) عند: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٩٥.

٢ - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص ١٨، ١٢٠.

٣ - ينظر: Encyclopedic Dictionary of semiotics, Tom 2, P. 1080.

٤ - Halliday (M.A.K) & R. Hassan- Language, Context and Text: Aspects of Language, Oxford University Press, London, 1989, P. 37

وينظر أيضاً: Halliday (M.A.K) Ruqaiya Hassan, Cohesion in English Language, longman, London, 1976, p.8

وفي هذا الإطار أيضاً يصف (شميت) النص، بأنه: «كل تكوين لغوي منطوق من حدث اتصالي، ومحدد من جهة المضمون». وينظر تعريف (هارتمان) أيضاً الذي يشير إلى معنى مشابه، سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ٨١، و ١٠١.

٥ - سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص ٣١.

إذا تعلّق الأمر بالنص (معنى النص)^(١). والنص ذو الجملة الواحدة يتضمّن بنية دلاليّة ذات أفق واحد أو جامع واحد، أو بنية كليّة كبرى، هي التي تصنع كليّته ونظامه الخاص.

٤- النص حدث كلامي:

إنّ كلّ نص هو «حدث يقع في زمان ومكان معيّنين، وهو لا يعيد نفسه إعادة مطلقة، مثله في ذلك مثل الحدث التاريخي»^(٢)، ويعرّفه (برينكر) بقوله: «إنّه ربط أفقي أو متدرّج لأحداث كلاميّة، وهو حدث كلامي معقّد أيضًا»^(٣).
والنص ذو الجملة الواحدة يمثل حدثًا كلاميًا مكتملاً، وموقفًا لغويًا كاملاً.

٥- المقصدية:

وهو أحد المعايير السبعة التي وضعها (بيوجراند ودرسلر) للنص^(٤)، ويقصد بها أنّ الكاتب يضع نصّه ليحقّق مقصدًا معيّنًا؛ فالنص حدث تواصلي يؤدّي وظيفة إنجازيّة يقصدها المتحدّث الكاتب، ويشترط (شميت) وحدة المقصد في النص^(٥)، وتُفهم هذه المقصدية -وفقاً لـ (برينكر)- بواسطة اللغة والأحداث الكلاميّة في النص^(٦)، ويركز محمد مفتاح على عنصر المقصدية في حدّ النص في غير دراسة من دراساته^(٧)؛ فالنص هو ما قصد صاحبه أن يكون نصّاً، وهذا اعتبار مهم؛ فالجملة الواحدة تتحوّل إلى نص عبر مقصدية المرسل، وبذا تكون جملة واحدة نصّاً أو لا تكون بحسب مقصدية المرسل.

١- جان سيرفوني، الملفوظيّة، ترجمة: قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط ١، ١٩٩٨، ص ١٨.

٢- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص ١٢٠.

٣- سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠.

٤- ينظر: Beaugrand & Dressler, P. 146.

٥- ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٨.

٦- ينظر: المرجع السابق، ص ١٠٩.

٧- ينظر: محمد مفتاح في كتبه، تحليل الخطاب الشعري، ص ٣٢. ودينامية النص، ص ١٣. والمفاهيم معالم، ص ١٩. والتشابه والاختلاف: نحو منهجية شموليّة، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٩٦م، ص ٢٣.

٦- السمت الكتابي:

يبدو النص من مظهره الكتابي، أو بنيته السطحية الخطية، وهو ما يعيد -نسبياً- إلى البنية اللغوية للنص، ولهذا يعرف محمد مفتاح النص، بأنه: «مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة»^(١)، وفي موضع آخر يقول: «إن الدارس يستعين برسم الكتابة وفصائها، وهندستها في التحليل»^(٢)، وقد عبّر (بول ريكور) عن هذا السمت بقوله: «إن النص كلّ خطاب مثبت بواسطة الكتابة»^(٣)، ووصف (رولان بارت) النص بأنه «فعالية كتابية ينضوي تحتها كلّ من الكاتب والقارئ»^(٤)، والنص ذو الجملة الواحدة يبدو على السطح جملة واحدة حتى لو اختزّل أو اختزّن في بنيته السطحية هذه مئات الجمل.

٧- النص نظام:

يرى (سوسير) أنّ النص «نظام من الإشارات؛ حيث تأخذ كلّ جملة أو قطعة -كما في لعبة الشطرنج بتمثيل (سوسير)- مكانها المرسوم، وهذا النظام لا يعترف إلا بترتيبه الخاص»^(٥)، ولا تختلف وجهة (تشومسكي) في هذا؛ فهو يصف النص بأنه «نظام من القواعد المحدودة العدد، يقوم عليها أدائه»^(٦).

ويفضّل عبد السلام المسدي استخدام لفظة (الجهاز)، يقول: «النص جهاز ينظمه تماسك لغوي خاص»^(٧). ويذكر (لوتمان) التنظيم الداخلي بوصفه أهمّ مكوّنات النص، يقول: «إنّ

١ - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص ١٢٠.

٢ - المرجع السابق، ص ١٩٠. كما جعل محمد مفتاح الكتابة فيصلاً في حدّ النص في كتابه «المفاهيم معالم»، ص ٣٣. ويؤكد (هاليداي) ورقية حسن السمت الكتابي في: Cohesion in English Language، P. 22 وينظر كذلك صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٣٠٤. ويوسف حسن نوفل، نقاد النص الشعري، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ومكتبة لبنان، القاهرة/ بيروت، ١٩٩٧ ص ٩.

3- Encyclopedic Dictionary of semiotics، P. 461.

4- Ibid، p.468.

٥ - سوسير، علم اللغة العام، ص ٤٣.

6- Chomsky(Noam)، Syntactic Structures، Paris، Mouton، 1981، P. 5.

٧- عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، ص ٧٣.

النص لا يمثل مجرد متوالية من العلامات تقع بين حدّين فاصلين، بل إنّ التنظيم الداخلي يحيله إلى مستوى متراكب أفقيّاً في كلّ بنيوي موحد لازم للنص»^(١).

ويشير (فاينريش) إلى هذا المعنى، بقوله عن النص: «إنّه وحدة كليّة مترابطة الأجزاء، تتابع الجمل فيها وفق نظام، وتسهم كلّ جملة في فهم ما تليها، كما تسهم المتقدمة في فهم المتأخرة، بحيث لا يتحقّق المعنى من خلال معنى الأجزاء وحسب، بل من خلال معاني الأجزاء وتأزّرها في بنية كبرى»^(٢).

وفيما يتّصل بالنص ذي الجملة الواحدة فإنّ النظام فيه هو تكامل مقصده ومعناه والموقف التواصلّي الذي يمثّله، والخطاب فيه متكامل الأركان ومتّصل، ويحكمه نظام النصوص جميعاً.

٨- الترابط النحوي والتماسك الدلالي:

يُعرّف النص بترابط الأجزاء؛ فالجمل فيه تتابع وفق نظام خاص، وهذا التتابع يوصف بالترابط والتماسك^(٣)، ويُقصد بهما توافر مجموعة من العلاقات التي تساعد على ربط أجزاء النص معاً لتحليل الجمل المتعدّدة إلى ما يشبه أن يكون جملة واحدة متصلة الأقسام، ويتحقّق الترابط عن طريق النحو والمعجم والدلالة، أمّا التماسك فيحدث عبر العلاقات الدلالية المنطقية بين الأجزاء، كما يسهم السياق التداولي في صناعة هذا الترابط.

ويحدّد (فاينريش) وسائل ترابط الأجزاء في النص بأنّها^(٤):

أ- الربط النحوي ووسائله اللغويّة.

ب- التماسك الدلالي وأدواته.

١ - سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١١٧. وينظر تعريف (هارتمان) و(برينكر) و(هارفيج) و(شميت) حول هذا الموضوع في المرجع نفسه.

٢ - المرجع السابق، ص ١٩٢.

٣ - ينظر: Van Dijk, Text & context, Longman, London, 1977, P.16.

وينظر كذلك تعريف (برينكر) في هذا السياق، إذ يذهب إلى أنّ النص «تتابع مترابط من الجمل». كذلك تعريف (هارفيج): «النص ترابط مستمر للوحدات اللغويّة المشكّلة للنص». في: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٣، و١٠٨، على التوالي. وينظر كذلك سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص ١٦.

٤ - ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٨.

ج- السياق التركيبي وعلاقته باكتمال الأبنية.

د- السياق العام وعلاقته بالربط الداخلي.

وتقوم دراسة (هاليداي) ورقية حسن على هذا السؤال: ما الذي يجعل مجموعة من الجمل تشكّل نصّاً؟ وذكرنا في هذا الجواب، أنّ الترابط النصّي هو الذي يحدث النصيّة، وقصداً به مجموعة كبيرة من العلاقات الترابطيّة داخل النص، بعضها روابط نحويّة؛ كالأحوال، والأدوات النحويّة، والضمائر، وأدوات العطف، والروابط الزمنيّة كصيغ الأفعال، وبعضها روابط دلاليّة؛ كالترتيب المنطقي، والتكرار، والحذف، وتسلسل المعنى... وغيرها^(١).

وتبرز في الدراسات العربيّة دراسة مصطفى حميدة عن نظام الارتباط والربط في العربية، وقد وضع نظريّته بناء على نظريّة التعليق عند عبد القاهر الجرجاني^(٢)، ونقيض التماسك والترابط، هو التشتّت وعدم الاكتمال، كما يقول (رولان بارت)^(٣)، أمّا النصّ ذو الجملة الواحدة فيُبنى الترابط فيه على فهم المتلقين وتجاربهم ومعارفهم وأهدافهم، ولا يُمكن أيضاً أن أعدّ الجملة الواحدة نصّاً إلّا إذا توافر السّياق الذي يوضّح ذلك كلّهُ.

٩- التواصل والتفاعل:

وتمثّلاً عند (بيوجراند ودرسler) في حديثهما عن معايير النصيّة السبعة، بالمقبوليّة والإخباريّة^(٤)؛ فالنصّ منطوق لغوي تدعّمه تفاعلات تواصلية مختلفة بين شركاء الاتصال، وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه النصّ ذو الجملة الواحدة في الأمثال العربيّة.

١- ينظر: Halliday & ruqaiya Hassan. Cohesion in English language, P. 19.

٢- مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربيّة، درس المؤلف في تمهيد الكتاب جذور فكرة الارتباط والربط في التراث العربي بربطها بنظريّة التعليق عند عبد القاهر الجرجاني ص ٩-٧٢، وخصّص الفصل الأول لدراسة علاقات الارتباط بين المعاني من الوجهة الدلاليّة ص ٧٣-١٢٩، وعرض في الفصل الثاني لمفهوم الارتباط والربط ص ١٣٠-١٦٠، ودرس في الفصل الثالث علاقات الارتباط في تركيب الجملة العربيّة ص ١٦١-١٨٩، وتناول الفصل الرابع علاقات الربط في تركيب الجملة العربيّة ص ١٩٠-٢٠٢.

٣- ينظر: رولان بارت، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٦، ص ١٥.

٤- ينظر: Beaugrand & Dressler, P. 145.

ويذكر (فاينريش) أنه على الرغم من أن بنية النص لغوية منطوقة في المقام الأول، فإنها مرتبطة في استمرارها وتحقق دلالتها بأركان التواصل، وهي: المنتج، والمتلقي، والتفاعل بين الطرفين بواسطة عملية التلقي^(١)، كما تركّز (كريستيفا) في تعريفها على الجانب التواصلية في النص.

ويلح الذين درسوا مفهوم النص على الوظيفة التواصلية؛ فالنص يتواصل مع متلقٍ أو قارئ، بل إن ترتّب النص على شاكلة بعينها من حيث توالي الجمل وتربطها، وانسجام النص مع السياق الثقافي والمقام، ما هو إلا مراعاة لهذه الوظيفة التواصلية؛ فالنص في نظر (فان ديك) وحدة مجردة لا تتجسّد إلا بواسطة فعل التواصل^(٢).

وقد استعرض (بيوجراند ودرسلر) في كتابهما (مدخل إلى علم لغة النص) نماذج كثيرة متنوعة من النثر والشعر والسرد والقصص والإعلانات التجارية والتقارير الصحفية... للخروج بمعايير تميّز النص عن اللانص، فوجد أن التواصل مع القارئ هو أبرز هذه المعايير^(٣)، بل إن (ستانلي فش) يتجاوز ذلك إلى القول بأن «النص عملية يخلقها القارئ»^(٤). إن التواصل من أهم أركان النص ذي الجملة الواحدة؛ فعبّرهُ نُعَوّض الجمل المتعددة المتوافرة في النص ذي الجمل المتتالية، كما أن المرسل لهذا النص حين يختاره دون غيره من الخيارات فإنه يقدمه لمتلقٍ يظن أنه قادر على التقاط ثيمة النص ذي الجملة الواحدة أو بنيته الكبرى. والنص ذو الجملة الواحدة وإن بدا في بنيته السطحية جملة إلا أنه يمثل حدثاً كلامياً وخطاباً تواصلياً كاملاً، وسياقه التواصلية متعدّد الأبعاد ولا يمكن قراءته بمعزل عن هذا السياق، ولذلك لا يمكن دراسته عبر نحو الجملة أبداً، وهو يحتاج نحواً أوسع من نحو الجملة وإن كان نحو الجملة جزءاً لا يتجزأ من نحو النص لكنه وحده ليس كافياً أبداً.

١٠- الانسجام:

ويعالج الانسجام العلاقة بين عالم النص وعالم الواقع، ويُعبّر عن ذلك بعلاقة النص

١ - ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٩٤.

٢ - ينظر: Van Dijk, Text & context, Longman, London, 1977, P.78.

٣ - ينظر: Beaugrand & Dressler, P. 146.

4 - Encyclopedic Dictionary of semiotics, P. 1088.

بالسياق؛ فالنص في حالة انسجام مع السياقات التي يظهر فيها، يتسق مع سياقه العام؛ الثقافي، التاريخي... وينسجم مع سياقه الخاص المسمى بـ(المقام)، وهو السياق المباشر الذي يُولد فيه، ويتحدّد في ضوء هذا السياق معنى النص، وهذا ما جعل (جان كارون) يعرف النص بأنّه: «متتالية منسجمة من الملفوظات»^(١).

ويفسّر السياق: كيف تبدو متوالية غير متّصلة من العلامات اللغويّة، أو الجمل أو أشباه الجمل نصّاً متّسقاً مفهوماً للقارئ، كما هو الحال في وصفات الطعام، أو الإعلانات التجاريّة، أو مانشيتات الصحف، أو شعارات المجموعة العسكريّة. إنّ الانسجام في النص ذي الجملة الواحدة يوجهه قصد المرسل لهدف معين، وهو التأثير في متلقٍّ بعينه في ظروف معيّنة، وهذا القصد المعين، هو الذي يجعل المتلقّي يتلافى الخلل في البنية الظاهرة للنص.

١١ - التناص:

يتجاوز بعض الباحثين في تحديدهم للنص الإطار الشكلي إلى الامتداد الشري للنص، بتداخله مع نصوص أخرى^(٢)، فـ(درسلر) يشير إلى مصطلح التناص حين يصف النص بأنّه مركّب من نصوص متعددة^(٣)، ومُنّ أشار إلى مسألة التناص (كريستيفا) عبر تعريفها الشهير للنص؛ فهي ترى أنّ بيانات النص ترتبط بأنماط مختلفة من الأقوال، سابقة لهذا النص، أو مزامنة له، والنص بهذا يمثل عمليّات استبدال من نصوص أخرى؛ ففي فضاء هذا النص تتقاطع أقوال عديدة مأخوذة من نصوص أخرى تتشابك وتتفاعل وتتصارع، وقد يحدّد بعضها الآخر أو ينقضه، وبذا يتحوّل النص إلى وحدة أيديولوجيّة؛ فهو نظام

١ - سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص ٢٤.

٢ - وضع الناقد (جيرار جينت) كتاباً أسماه (مدخل لجامع النص)، ويقصد بجامع النص: التناص، أو الشبكة التي تتداخل فيها النصوص. ينظر: جيرار جينت، مدخل إلى النص الجامع، ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، سلسلة المعرفة الأدبية، ط ٢، ١٩٨٦، ص ٩٢ وما بعدها. ويشاطره (ليتش) في هذا، فهو يقول: «إنّ النص لا يمكن أن يكون نقيّاً ولا بريئاً؛ لأنّه في جوهره مجموعة من النصوص المتداخلة». ينظر: جاك ديشن، استيعاب النصوص وتأليفها، ترجمة هيثم لمع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩١، ص ٣٩.

٣ - ينظر: Beaugrand & Dressler, P. 94.

تلتقي في فضائه نصوص كثيرة، وثقافات متعدّدة، ومتواليات من الأقوال والأشياء المتراكمة، وهذه الوحدة الأيديولوجية هي جماع ذلك كلّ، بل إنّها تضيف: «إنّ النص عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات، وكلّ نص هو تشربّ وتحويل لنصوص أخرى»^(١). ويقترب (بارت) من تعريف (كريستيفا) حين يقول: «إنّ النص، وهو يتكوّن من نُقول متضمّنة وإشارات وأصداء للغات أخرى وثقافات عديدة، تكتمل فيه خارطة التعدد الدلالي»^(٢).

وفي نص الجملة الواحدة فإنّ التناص يبرز في صلاحيّته للاستعمال في عدد من المواقف التواصلية ذات الطبيعة المتشابهة، فيختزل النص بينيته اللغوية المختصرة ركائماً من الاستعمالات والسياقات التي سبق استعمال النص فيها.

١٢- الانغلاق والاكتمال والاستقلالية:

النص «شكل مغلق له بداية ونهاية»^(٣)، أو كما تصفه (كريستيفا) «هو القول اللغوي المكتفي بذاته، والمكتمل في دلالاته»^(٤)؛ فأبرز خصائص النص «الاكتمال وليس الطول أو الحجم»، كما يقول (هلمسلايف)^(٥)؛ فقد يكون النص جملة أو كتاباً كاملاً، ولكنّه لا يعد نصّاً حتى يكون مكتملاً، ويقصد به الاكتمال الدلالي، ويتحقّق جزء من الاكتمال بأن يكون للنص بداية ونهاية، كما يشترط فيه الاستقلالية بمعنى أنّه لا ينضوي تحت وحدة لغوية أخرى، وهو بهذا مكتفٍ بذاته، يلاحظ هذا في تعريف (لوزانو) للنص: «هو القول اللغوي المكتفي بذاته والمكتمل في دلالاته، وما لا يحقّق هذا الشرط -مهما كان طوله- لا يعد نصّاً»^(٦). ويوضّح محمد مفتاح الانغلاق بأنّه انغلاق السمة الكتابية الأيقونية للنص التي لها بداية ونهاية، ولكنّه من الناحية المعنوية توالدي، فإنّ الحدث اللغوي ليس منبثقاً من عدم، وإنّما

1- Encyclopedic Dictionary of semiotics, P. 1080.

٢- رولان بارت، درس السيميولوجيا، ص ٨٥.

٣- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص ٩٣.

٤- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٩٥.

٥- ينظر: المرجع السابق، ص ٢٩٨.

6- Lozano George, Discourse Analysis, London, 1987, P. 19

هو متولّد من أحداث تاريخيّة ونفسانيّة ولغويّة، وتتناسل منه أحداث لغويّة أخرى لاحقة له^(١).

وهذا يدل على:

الاكتمال الذي يعني ← القول اللغوي المكتفي بذاته والمكتمل في دلّالته.

أمّا الإغلاق فيعني ← أنّ له بداية ونهاية.

وأمّا الاستقلاليّة فتعني ← أنّه لا يندرج تحت وحدة أكبر منه.

وفي نصّ الجملة الواحدة فإنّ هذه السمات على درجة كبيرة من الأهميّة؛ لأنّ الحجم يتجاوز تمامًا، وتبرز فكرتان متقابلتان، هما: الكلّيّة من جهة، والإغلاق مع الاستقلاليّة والاكتمال من جهة أخرى؛ فالجملة الواحدة يمكن أن تكون نصًّا إذا كانت:

■ بنية لغويّة كليّة.

■ بنية مغلقة.

■ بنية مستقلّة.

■ بنية مكتملة.

وبذا أخلص إلى أنّ النصّ حدث كلامي أو مدوّنة كلاميّة ذات وحدة جليّة، وذات مقصديّة واضحة، وتمتاز بأنّها وحدة دلاليّة مثمرة، وهو نظام يأخذ فيه كلّ مركّب كلامي مكانه المرسوم ليشكّل كلًّا بنيويًّا موحّدًا، تترابط أجزاؤه وتتماسك عبر مجموعة من العلاقات النحويّة والدلاليّة المنطقيّة، والانسجام مع السياق العام، ومع المقام المباشر الذي تشكّل فيه، كما أنّها تتميز بالبعد الوظيفي الذي يتمثّل في وظيفتي التفاعل والتواصل عبر علاقاتها بالمتلقّي أو القارئ، وتشابك هذه الوحدة مع وحدات أخرى مشابهة فيما يعرف بالتناص، وتوصف هذه الوحدة كذلك بالانغلاق (لها بداية ونهاية) وذلك في الجانب النحوي، أمّا في جانب المعنى فالنصّ توالدي في خاطر القارئ والنقاد معًا، وتتسم بالاكتمال الدلالي، كما أنّها تتمتع بالاستقلاليّة فلا تندرج تحت وحدة أكبر منها.

فكلّ نص لا بد أن يتضمن «بنية شاملة تؤطر مفاتيح النص ومغاليقه، وتحدّد المستوى الأول والأخير له، وليس من الضرورة أن يتضمن النصّ عدة بنيات، فقد لا يشكل سوى بنية

١ - ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص ٣٤. وينظر في هذا قول منذر عياشي: «يعرف النص باستقلاليّته وانغلاقه». منذر عياشي، الكتابة الثانية، ص ١١٨.

واحدة تمثل البنية الكلية والكبرى والوحيدة للنص، ونستطيع أن نمثل لهذه الحالة بالنص الشعري القصير والخالٍ من القشور اللغوية ومن الترهل النصي^(١). وهذا هو الأساس الذي أعتدّ به في التعامل مع النص ذي الجملة الواحدة في الأمثال العربية.

رابعاً: النحو الذي يصلح لدراسة النص ذي الجملة الواحدة:

ذكر (ثمان ديك) تعريفاً لنحو النص، بأنه عبارة عن «نسق نظري من قواعد الصورة والمعنى»^(٢)، وعرفه (بيوجراند) بقوله: «هو نحو يتعالتق مع آليات التخطيط التي تحصل في الخطاب الأدبي كالاستعارة والإطناب والتكرار بأنواعه المختلفة؛ لأنّ العمل في نحو النص يعتمد أساساً على التفسير اللغوي للخطاب الأدبي، وما يكتنفه من انحرافات في المعاني الوظيفية، وما يتبع ذلك من حذفات وانزياحات يكشف عنها فضاء النص»^(٣). وقربه سعد مصلوح بقوله: «هو نمط من التحويل ذو وسائل بحثية مركبة، تمتد قدرته الشخصية إلى مستوى ما وراء الجملة، مستويات ذات طابع تدريجي يبدأ من علاقات ما بين الجمل ثم الفقرة ثم النص أو الخطاب بتمامه»^(٤)، وعرفه مصطفى النحاس بقوله: «هو النحو الذي يتخذ من النص وحدته اللغوية الكبرى للتحليل»^(٥)، ثم وضح أكثر فقال: «هو دراسة الوظيفة الدلالية لبعض العناصر النحوية، وربطها بشبكة الدلالة في النص، وذلك يتطلب إخضاع التحليل النحوي لعمليات التحليل البنيوي في الأدب، بمعنى أنّ ما يقع في النص من انحرافات أو انزياحات على المستوى الأدبي يقع أيضاً على المستوى النحوي، وهذا لا يتم جزأً وإثماً تحكمه قواعد عامة وأطر نظرية يكشف عنها النص»^(٦)، وهو بذلك

١ - صبحي الطعان، بنية النص الكبرى، مجلة عالم الفكر، مجلد ٢٣، ع ١، ١٩٩٤، ص ٤٣٦.

٢ - محمد خطابي، لسانيات النص، ص ٢٩.

٣ - مصطفى النحاس، نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، مطبعة ذات السلاسل، الكويت، ط ٢، ٢٠٠١، ص ٤.

٤ - سعد مصلوح، العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، ص ٤٠٧.

٥ - مصطفى النحاس، نحو النص، ص ٤.

٦ - المرجع السابق، ص ٤.

«يتناول كلّ أشكال الأبنية وأنواع السياقات ومستويات اللغة ودرجات الربط النحوي والتماسك الدلالي والنماذج الهيكلية المتنوعة النظرية والتطبيقية»^(١).
وبالبحث يذهب، وفقاً للاعتبارات السابقة جميعها، ووفقاً للخصائص المميزة للنصوص، إلى أنّ نحو الجملة لا يصلح لدراسة النصوص إلا بوصفه جزءاً من نحو النص، وأنّ النحو الذي يجب أن يُدرس فيه النص ذو الجملة الواحدة هو نحو النص.

الفروق بين الجملة والنص التي تجعل من نحو الجملة نحوًا لا يصلح لدراسة النص ذي الجملة الواحدة:

حرص علماء لغة النص على توضيح أهمية نحو النص، بوصفه لا يقتصر على دراسة الجملة، بل يهدف إلى دراسة الروابط بين الجمل وتتابعاتها ومظاهر انسجامها، ساعين إلى إبراز أوجه الاختلاف بين نحو الجملة ونحو النص في النقاط الآتية^(٢):

١- تنتمي الجملة إلى نظام افتراضي (النحو)، على حين يعدّ النص نظاماً واقعياً يتشكل بواسطة الانتخابات من بين مختلف الأنظمة الافتراضية؛ النحو والصرف والصوت والدلالة.

٢- تتحدّد الجملة بمعيّار أحادي (علم القواعد) من نظام معرفي وحيد (علم اللغة)، على حين تتحدّد نصيّة النص بمعايير متعددة من مختلف الأنظمة المعرفية.

٣- تكون الجملة قواعديّة أو لا تكون جملة البتّة، أمّا النص فلا تنطبق عليه معايير النصيّة بمثل هذه الحدة^(٣).

٤- يتأثر النص بالأعراف الاجتماعية والعوامل النفسية وبموقف وقوع النص بوجه خاص، على حين يضعف تأثير الجملة بهذه المؤثرات. فالوعي الاجتماعي ينطبق على الوقائع لا على أنظمة القواعد النحوية؛ إذ إنّ السمة الاجتماعية لتراكيب بعينها لا تؤثر إلا في قسط ضئيل من مجموع القواعد.

٥- يستند استغلال الجملة إلى المعرفة القواعديّة التابعة لنظام افتراضي له صفة العموميّة،

١- خلود العموش، الملامح الكبرى لنظام النص، ص ٢٨٢.

٢- ينظر: إلهام أبو غزالة، مدخل إلى علم لغة النص، ص ١٠.

٣- ينظر: بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٩٠.

أمّا استغلال النص فيستند إلى معرفة خبرات بوقائع فعلية خاصة؛ فالنص نظام فعّال، على حين أنّ الجمل عناصر من نظام افتراضي، ويوضّح (بيوجراند) المقصود بالنظام الفعّال، بأنّ النصّ تجمّع من الوظائف يوجد عن طريق عمليّات قوامها الحكم والانتقاء، اللذان يكونان بين عناصر النظام الافتراضي؛ لهذا يمكن لإنشاء النص أن يوصف بأنّه تفعيل، وهذه السمة هي المعيار الجوهريّ للتعرف على النص بهذا الوصف، ويتبع ذلك أنّ النص ليس مجرد منزلة مختلفة عن منزلة الجملة؛ فقد يكون النص أكثر من كلمة واحدة، وقد يتألف من عناصر ليس لها ما للجملة من الشروط: مثل: علامات الطريق، والإعلانات، والبرقيات... وغيرها^(١).

٦- يعد النص حدثاً يوجّه المرسل إلى المستقبل؛ لإنشاء علاقات متنوّعة، وإيصال مضامين يعينها المنشئ، ولا تقتصر على العلاقات القواعدية، على حين لا تُعنى الجملة إلا بالعلاقات القواعدية؛ ومن ثمّ فهي لا تمثّل حدثاً.

٧- تتخذ الجملة شكلها المعين وفقاً للنظام الافتراضي المعلوم، على حين تتشكّل بنية النص وفق ضوابط المشاركين والمستقبلين على حدّ سواء^(٢).

٨- إنّ قيود القواعد المفروضة على البنية التجريدية للجملة في النصّ يمكن أن يُتغلب عليها بالاعتماد على سياق الموقف؛ فالعناصر التي يمكن فهمها من الموقف مثلاً عن طريق الإدراك الحسيّ يمكن السكوت عنها أو اقتضاها بواسطة المتكلم من دون الضرر بالطاقة الاتصالية للنص، وبذا لا يكون الصواب النحوي قانوناً، بل يعدّ معياراً يُلجأ إليه عند عدم وجود قرائن محدّدة، أو هو معيار يفضّل على غيره عند تعدّد الاحتمالات.

٩- إنّ الفرق بين ما يطابق القواعد النحوية وما لا يطابقها فرق تقابليّ ثنائيّ عندما تكون ثمة قواعد دقيقة وكاملة لضبط الجمل؛ فالحكم بأنّ تركيباً ما يعدّ جملة يحدث بمقارنة هذا التركيب بالأنماط التي تسمح بها القواعد النحوية، أما الفرق بين ما يعدّ نصّاً وما لا يعدّ نصّاً فلا يحدث بمثل هذه المقارنة؛ فكون النصّ مقبولاً أو غير مقبول يعتمد على دوافع الموقف والإسهام في عملية الاتصال.

١- ينظر: بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٨٨-٩٦.

٢- ينظر: المرجع السابق، ص ٨٩-٩٠. وإلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، ص ١١.

١٠- ينبغي للنص أن يتصل بموقف تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات والتوقعات والمعارف تسمى أسباب الموقف، أمّا الجمل فلا يمكن أبدًا أن ترد من دون تكلف؛ إمّا لكونها أطول أو أعقد أو أكثر توابع، أو لكونها فارغة من المعنى أو غير ذات أثر عملي في الأداء؛ فالقواعد التجريدية لتكوين الجملة لا يمكن التقنين لطولها أو عدد مكملاتها، بحيث يتوقف بعده تتابع العناصر لتصبح الجملة جملة ذات معنى.

١١- لا يمكن النظر إلى النص على أنه مجرد صورة مكوّنة من الوحدات الصرفية أو الرموز اللغوية؛ إذ إنّ النصّ تجلّ لعمل إنسانيّ ينوي به شخص ما أن ينتج نصًّا، ويوجّه السامعين به إلى أن يبنوا عليه علاقات من أنواع مختلفة، لذا يبدو هذا التوجيه مسببًا لأعمال إجرائية؛ فالنصوص تراقب المواقف وتوجّهها وتغيّرها، وليس للجملة هذا العمل، لذا فهي ذات أثر محدود في المواقف الإنسانية؛ لأنّها تستعمل لتعريف الناس كيفية بناء العلاقات النحوية وحسب.

١٢- النصّ توالٍ من الحالات؛ كالحالة المعلوماتية، والحالة الانفعالية، والحالة الاجتماعية، وهذه الحالات عند مستعملي النصّ عرضة للتغيّر بوساطة النص، وإنتاج النصّ وفهمه يأتي في صورة توالٍ من الوقائع؛ ففي كلّ نقطة من نقاط هذا التوالٍ تطبّق الضوابط السائدة، فضوابط بدايات النصوص تختلف عن ضوابط استمرارها ونهاياتها، وفي المقابل يجري النظر إلى الجمل على أنّها عناصر من نظام ثابت متزامن، أي نظام يرى في حالة واحدة مثالية مفارقة للتطوّر.

١٣- العوامل النفسية أوثق علاقة بالنصوص منها بالجمل؛ فالجملة من حيث الصياغة الذهنية شكل استكشافي بجانب أمور أخرى تعين على الغايات الواسعة للاتصال، كالتعبير، وتذكّر المعلومات، أو السعي إلى غاية ما، أمّا حدود الجملة فتُحدد فيها بعد في أثناء اتباع النصّ، ثم يستغنى عنها في المراحل الأولى للفهم.

١٤- إنّ النصوص تشير إلى نصوص أخرى بطريقة تختلف عن اقتضاء الجمل لغيرها من الجمل الأخرى؛ إذ يعتمد متعلّمو اللغة في استعمال الجمل على معرفة القواعد من حيث هي نظام افتراضي عام، أمّا من أجل استعمال النصوص، فإنّ الناس بحاجة إلى معرفة عملية الأحداث الجارية بخصوصها وتنطبق هذه الحالة من التناص على الملخصات ومسودات الموضوعات، والاستطرادات، والإجابات، ومحاكاة النصوص.

بهذه الفوارق يسعى (بيوجراند) إلى أن ينبّه على أنّ النصّ أولى بالدراسة من الجملة؛ لأنّ الجملة غير قادرة على أن تكون حدثاً تواصلياً مكثفياً بذاته؛ إذ إنّ الجملة تستدعي جملاً أخرى وبذا تكون النصّ، ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ (بيوجراند) في إشارته إلى الجملة، إنّما قصد الجمل التي تستعمل كشواهد نحويّة، أو تلك التي لا تحمل معنى تامّاً - المجتزأة من النصّ - إذ إنّ الجمل تامة المعنى تعدّ نصوصاً لما لها من دلالة تغني السامع / القارئ عن البحث في ما وراءها لإتمام فهم الفكرة الواردة فيها، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ التحوّل عن الجملة لا يلغي وجودها؛ إذ هي المرتكز الذي يعتمد عليه النصّ، بل هي الجزء الأساس المكوّن للنصّ.

وثمة فرق آخر بين القواعد المستخدمة في نحو الجملة ونحو النصّ؛ فالقواعد في تحليل الجملة هي قواعد تركيبية - دلالية - تتّسم بالثبوت والاطراد، خلافاً للقواعد في تحليل النصّ فهي قواعد دلالية تداوليّة في المقام الأول، تعضدها القواعد التركيبية التي تمثّل الثوابت الأولية، ولذا فهي لا تتّسم في الغالب بالثبوت والاطراد.

وعليه فنحو النصّ يختلف عن نحو الجملة «من حيث إنّ المعنى في نحو الجملة لا يظهر مرتبطاً بالدلالة المطلقة للنصّ، وينحصر في نطاق دلالي ضيق منفصل، لا يمكن أن يفهم منه السياق العام للخطاب...»^(١)؛ لهذا رفض كثير من اللغويين نحو الجملة؛ لأنه «لا يقرّ للنصّ بكيونونه متميِّزة توجب معالجة تراكيبه معالجة نحويّة تستجيب لمقتضيات بنيته، وبهذا يقع النصّ خارج مجال الدرس النحوي؛ فالتحليل في نحو الجملة يبدأ باختراع الجمل، وعزلها تقريباً عن سياقها في النصّ أو الخطاب، ويصبح السلوك اللغوي مجرد تحقيق لا نهائي لعدد من نماذج الجملة، وما على النحوي إلا الكشف عن هذه النماذج، وتحديد قوانينها الحاكمة لمكوّناتها التركيبية، ليصير الكلام جميعه قيّد الضبط»^(٢).

والحقّ أنّ هذا الفصل الحادّ بين نحو الجملة ونحو النصّ لا يتناسب مع الواقع الفعلي؛ لأنّها متكاملان؛ وذلك لأنّ النصّ ما هو إلا متتالية من الجمل، فكما أنّ الفونيم وحدة الكلمة، والكلمة وحدة الجملة، فإنّ الجملة وحدة النصّ، وذلك يؤكّد أنّ توسع مجال علم اللغة ليشمل النصوص وتوظيفها في الاتصال، لا يشكك مطلقاً بأهمية الوحدات اللغوية

١ - مصطفى النحاس، نحو النصّ، ص ١١.

٢ - سعد مصلوح، العربية من نحو الجملة إلى نحو النصّ، ص ٤٠٦ - ٤٠٧.

المعزولة (الفونيمات، والمورفيمات، واللكسيمات، والمركبات الاسميّة، والجمل)^(١). بل يجب أن تستمر مثل هذه الدراسات وتقوى حتى تقوم بمهمتها في تشكيل نحو النص؛ ومن ثم لا يُسوَّغ أن تنفصم العلاقة بين نحو الجملة ونحو النص، وعليه لا بد أن يُنظر إلى دراسات نحو الجملة على أنها رافد ضروري لدراسة نحو النص، ومن ثم فهما متكاملان^(٢).

خامساً: نماذج من النصوص ذوات الجملة الواحدة في التراث العربي

يمتاز التراث العربي بوجود نماذج واضحة ومؤثرة من النصوص ذوات الجملة الواحدة، ويمكن أن أتمثل هنا بالأنواع الآتية من النصوص: الأحاديث النبويّة الشريفة، وأقوال الصحابة والمشاهير، والتوقعات.

أ- الأحاديث النبويّة:

«إنّ الحديث النبوي في الذروة من البيان، ولا يرتفع فوقه في مجال الأدب الرفيع إلا كتابُ الله بلاغةً وفصاحةً»^(٣)، وقد حوت أحاديث الرسول ﷺ صنوف البلاغة، وألوان الجمال والفصاحة، وكانت من أبرز دلائل نبوّته، وعبرّت أدقّ تعبير عن سموّ نفسه ﷺ وأبانت عن المنبع العذب الذي نهلت منه، ويتجلى هذا في عمق معانيه ﷺ وغناها بالدلالات البلاغيّة، وتكثيف المعنى في عبارات قليلة.

وهذا ما وصف الرسول ﷺ به نفسه بقوله: «بُعِثْتُ بجوامع الكلم»^(٤)، والمقصود بجوامع الكلم: الإيجاز، والإيجاز عند البلاغيين من شروط جمال الكلام وبلاغته، ومعناه: «تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى»^(٥)؛ فلا يكون في الكلام إيجاز حتى تأتي الألفاظ على قدر

١ - ينظر: فولفجانج هاينه، من ديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص ٧.

٢ - ينظر: المرجع السابق، ص ٨.

٣ - محمد الصبّاغ، الحديث النبوي: مصطلحه، بلاغته، كته، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٧٢، ص ٥١.

٤ - البخاري، محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، ترقيم وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، تقديم أحمد محمد شاكر، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٤، كتاب التعبير، باب: المفاتيح في اليد. ونص الحديث: «بُعِثْتُ بجوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرُّعب، وبيننا أنا نائمٌ أُتِيتُ بمفاتيح خزائن الأرض؛ فَوُضِعَتْ في يدي». رقم الحديث: ٦٦١١.

٥ - الرّمثاني، النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٦.

المعاني لا تزيد عنها ولا تنقص، وإنما الشرط أن يحدث ذلك من غير إخلال بالمعنى، وإلا كان الكلام تقصيراً؛ فالإيجاز بلاغة وجمال لأنّه لا يظهر فيه إخلال بالمعنى المدلول، يقول ابن رجب البغدادي: «وقد أمدّ الله - سبحانه وتعالى - رسوله ﷺ بجوامع الكلم التي جعلها رداءً لنبوّته، وعلماً لرسالته؛ لينتظم في القليل منها علم الكثير، فيسهل على السامعين حفظه ولا يؤودهم حمّله»^(١).

فمن جوامع كلامه ﷺ قوله:

- ١- «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»^(٢).
- ٢- «الْمُؤْمِنُ مِرَّةٌ الْمَوْمِنُ»^(٣).
- ٣- «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»^(٤).
- ٤- «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا»^(٥).
- ٥- «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(٦).

ب- أقوال الصحابة والمشاهير:

تتميّز المأثورات التي تفوّه بها الصحابة رضوان الله عليهم والمشاهير في التراث العربي، بالإيجاز الشديد، وتعدّ هذه العبارات «إنجازات أدبيّة راقية تستقطب جهود المبدعين،

١- ابن رجب، أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد البغدادي (٧٩٥هـ)، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٩٩١، ص ٧٦.

٢- البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب: قول النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، رقم الحديث: ٦٠٥٣.

٣- رواه أبو داود السجستاني (٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، دار الفكر، بيروت، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، د. ت، كتاب الأدب، باب: في النصيحة والحيطة للمسلم، عن أبي هريرة. برقم: ٤٩١٨.

٤- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٨٩، ج ١٠، ح (٦٠٢٤)، ص ٤٤٩.

٥- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ)، صحيح مسلم، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة عباد الرحمن، مصر، ط ٢، ٢٠٠٨، كتاب الفضائل، باب كثرة حياته ﷺ، ح (٢٣٢١)، ص ٦٥٨.

٦- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، حديث رقم ٦٤١٢، ج ١٠، ص ٤٠٨.

وجهاً بذه الألفاظ ونقاد المعاني؛ ليتدبروا معانيها أو يبرزوا معارض الاختيار أو الاستشهاد، أو ليتبعوها ويقلدوها»^(١)؛ فالتكلم في هذه النصوص من الطبقة الخاصة التي تحققت فيها شروط البيان في الإبلاغ، وهؤلاء المتكلمون هم صحابة النبي -عليه الصلاة والسلام- والأمراء والعلماء والزهاد، أو بعبارة جامعة (أصحاب البيان).

وميزة هؤلاء المتكلمين تكمن في القدرة على التأثير في المتلقي بالقدرة على تأليف الكلام، وتقديمه في السياق المناسب بأخصر عبارة وأصوب معنى، ويلحظ أيضاً على أقوال الصحابة والمشاهير اتسامها بسمو الأدب، ورفي الموضوعات، وجدية المقاصد، ومن ذلك: قول أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-: «ليست مع العزاء مُصيبة»^(٢)، وقول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: «لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له»^(٣)، و«رحم الله امرأ أهدى إليَّ عُيُوبي»^(٤)، و«من كثر ضحكك قلت هيبته»^(٥).

وقول علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: «الصبر مطية لا تكبو»^(٦)، و«لا تنظر إلى من

- ١ - بسمة عروس، التفاعل في الأجناس الأدبية، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠١٠، ص ٢٧٠.
- ٢ - الميداني، مجمع الأمثال، ج ٤، ص ٤٦، وابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي (٣٦٨-٤٦٣ هـ)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق أسامة إبراهيم، مكتبة الفاروق الحديثة، القاهرة، ٢٠٠١، ج ١، ص ٣٢٥.
- ٣ - الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر (٣٠٦-٣٨٥ هـ)، سنن الدارقطني، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٠، ج ٤، ص ٢٠٦-٢٠٧. الميداني، مجمع الأمثال، ج ٤، ص ٤٩.
- ٤ - الميداني، مجمع الأمثال، ج ٤، ص ٤٩، والغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (٤٥٠-٥٠٥ هـ)، إحياء علوم الدين، اعتنى به محمد محمد تامر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٤، ج ٣، ص ٦٤. وابن المبرد، جمال الدين يوسف بن حسن بن أحمد الدمشقي (٨٤٠-٩٠٩ هـ)، محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق عبد العزيز الفريخ، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ٢٠٠٠، ج ٢، ص ٥٩٣.
- ٥ - ابن قتيبة، عيون الأخبار، تحقيق محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥، ٢٠٠٢، ج ١، ص ٣٦٨. والطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الشامي (٢٦٠-٣٦٠ هـ)، المعجم الأوسط في الحديث النبوي الشريف، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ج ٢، ص ٣٧٠. والبيهقي، أبو بكر أحمد ابن الحسين (٣٨٤-٤٥٨ هـ)، الجامع لشعب الإيثار، تحقيق مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٣، ج ٤، ص ٢٥٧.
- ٦ - القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (٤٦٥ هـ)، الرسالة القشيرية، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٨، ص ٨٥. والزنجشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٢٤. وابن قيم الجوزية، شمس الدين =

قال، وانظر إلى ما قال»^(١)، وقول عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: «حبُّ الكفاية مفتاح المعجزة»^(٢)، وقول يحيى بن خالد: «الناس يكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون»^(٣).

ج- التوقيعات:

وهي عبارات بليغة موجزة، يكتبها الخليفة أو الوزير على ما يرد إليه من رسائل تتضمن قضية أو مسألة أو شكوى أو طلباً، ويُشترط أن يكون ملائماً للحالة أو القضية التي وقّع فيها، وتتنوع التوقيعات وفق الصور الآتية:

- ١- قد يكون التوقيع آية قرآنية تناسب الموضوع الذي تضمنه الطلب، أو اشتملت عليه القضية، من ذلك^(٤) ما كتب به عامل ارمينية إلى المهدي الخليفة العباسي يشكو إليه سوء طاعة الرعية، فوقع المهدي في خطابه قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ سورة الأعراف، آية ١٩٩، والتوقيع بألفاظ القرآن حسن في الجدل من الأمور، محظور في المزح والمطايبة^(٥).
- ٢- وقد يكون التوقيع بيت شعر، من ذلك ما كتب به قتيبة بن مسلم الباهلي إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي يتهدده بالخلع^(٦)، فوقع سليمان في كتابه^(٧):

= أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (٦٩١-٧٥٢ هـ)، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تحقيق عصام فارس الحارستاني، دار الجليل، بيروت، ١٩٩٨، ص ٧٧.

- ١- اليوسي، المحاضرات في اللغة والأدب، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٣٢.
- ٢- الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٣٩، وابن عبد ربّه، ج ٣، ص ٤، والميداني، مجمع الأمثال، ج ٤، ص ٥٥.
- ٣- ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ٢، ص ٥٢٩. وينظر الدينوري، أبو بكر أحمد بن مروان (ت ٣٣٣ هـ)، المجالسة وجواهر العلم، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٨، ص ٤٠٢.
- ٤- ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٢١٢.
- ٥- الثعالبي، تحفة الوزراء، تحقيق حبيب الراوي وابتسام الصفّار، بغداد، ١٩٧٧، ص ١٤٨.
- ٦- ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٢٠٨.

٧- البيت لجرير في ديوانه، ص ٣٤٨، وفي معجمي الصحاح ولسان العرب (ربع)، ومربع لقب لراوية جرير، واسمه وعوغة بن سعيد بن قرط بن كعب بن عبد بن أبي بكر بن كلاب، وكان الفرزدق حلف ليقْتلته. ينظر: ديوان جرير بن عطية الخطفي (٢٦١ هـ)، شرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان محمد طه، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩، حاشية ص ٣٤٨.

زعم الفرزدق أن سيقتلُ مربعًا أبشر بطولِ سلامةٍ يا مربع

وكتب ألفونس السادس ملك قشتالة إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في الأندلس يتوعده ويتهدده^(١)، فوقَّع يوسف في كتابه بيت أبي الطيب المتنبي^(٢):

ولا كُتِبَ إلا المشرفيّة عنده ولا رسلٌ إلا الخميسُ العَرَمَرُمُ

٣- وقد يكون التوقيع مثلاً سائراً^(٣)، من ذلك ما وقَّع به علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- إلى طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه-: «في بيته يؤتى الحكم»^(٤).

ومن ذلك أيضاً ما وقَّع به يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقد أخبر يزيد أنه يتلكأ في مبايعته بالخلافة: «أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى، فإذا أتاك كتابي فاعتمد على أيّهما شئت»^(٥).

٤- وقد يكون التوقيع حكمة، من ذلك ما وقَّع به السفّاح الخليفة العباسي في رقعة قوم شكوا احتباس أرزاقهم: «من صبر في الشدة شارك في النعمة»^(٦).



١- الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٦٤.

٢- المتنبي، أحمد بن الحسين (٣٥٤هـ)، الديوان، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٢٨١. المشرفيّة: السيوف، والخميس: الجيش، والعمرم: الكثير.

٣- ينظر: ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٢٠٦.

٤- المرجع السابق، ج ١، ص ٥٤.

٥- ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٢١٠.

٦- المرجع السابق، ج ٤، ص ٢١١.

الفصل الثاني

النص ذو الجملة الواحدة في سياقه التواصلية

أولاً: المرسل وآليات الإنتاج

ثانياً: إنتاج (النص / المثل)

ثالثاً: آليات التلقي

رابعاً: الغرض

خامساً: جامع الأمثال وآليات الإنتاج والتلقي

المثل وسياق التواصل:

سيدرس الباحث في هذا الفصل فضاء إنتاج المثل، ومظاهره التعبيرية، وهو إجراء منهجي لفتح المجال الضيق الذي حدّد -غالبًا- أمام الدراسات السابقة التي تناولت المثل بوصفه جنسًا أدبيًا محددًا بصيغة المثل نفسها؛ أي بالشكل التركيبي السطحي للمثل بغض النظر عن تفاعلاته في السياقات التواصلية التي يُستعمل فيها، ليتوجّه إلى ملاحظة نص المثل ضمن فضاء أوسع هو السياق، بما ينطوي عليه من وحدات حكاية وتفسيرية واستشهادية، وبما يسعى إلى تحقيقه من أهداف وعظية أو تعليمية أو ترويجية يكون بعضها ملتحماً مع بعض، ولا ريب أنّ «وصف عمليات إنتاج البنيات النصية في مرحلة الأداء، ثم إعادة إنتاجها في مرحلة التلقي»^(١)، هو من أبرز موضوعات نحو النص؛ فالنص حدث يوجّه المرسل إلى المستقبل، و«بنية النص تتشكّل وفقاً لضوابط المشاركين والمستقبلين على حدّ سواء»^(٢). وينبغي للنص حتى يكون نصّاً أن يتصل «بموقف تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات والتوقعات والمعارف تسمّى أسباب الموقف»^(٣)؛ فمقبولية النص؛ أي اعتباره نصّاً، أو عدم اعتباره كذلك، تعتمد على دوافع الموقف والإسهام في عملية الاتصال، ولا يمكن النظر إلى النص على أنّه مجرد صورة مكوّنة من الوحدات الصرفية، أو الرموز اللغوية؛ «إذ إنّّه تجلّ لعمل إنساني ينوي به شخص «ما» أن ينتج نصّاً، ويوجّه السامعين به إلى أن يبنوا عليه علاقات من أنواع مختلفة»^(٤)، «فالغرض من التركيب النصّي هو الاتصال»^(٥)، فالتواصل والتفاعل من أهمّ سمات النص، فالنص منطوق لغوي تدعمه تفاعلات تواصلية مختلفة بين شركاء الاتصال، وبتعبير (بيوجراند) «الخاصية الأولى للنصوص من باب أولى هي كونها ترد في الاتصال»^(٦).

1- Van Dijk, Text & context, Longman, London, 1977, P.121.

٢- إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم النص، ص ١١.

٣- ينظر: بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٩١.

٤- ينظر: المرجع السابق، ص ٩٢.

٥- ينظر: تمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها، ص ٣٥٦.

٦- بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٦٤.

وبذا سيدرس الباحث عملية الإنتاج الأول للمثل، ثم الإنتاج المتجدد والمعاد والمتكرر له ضمن هذا الفهم، وسيقف في هذا الفصل عند آليات الإنتاج والتلقي ضمن ثلاثية المرسل والمتلقي والنص، أما آليات التأويل فسيقف معها في الفصل الثالث إن شاء الله؛ فالتواصل عبر النص يحدث من مرسل إلى متلقٍ، ويحدث عبر ذلك إيصال النص بالصورة التي ارتضاها المرسل ضمن سياق محدد ولتأدية غرض محدد. ويمكن تمثيل ذلك عبر الشكل الآتي: شكل رقم (١)

سياق

المرسل ← النص ← المتلقي ← الغرض

سياق

- ولذا فستتناول مفردات هذا الفصل هذه المنظومة ضمن المطالب الآتية:
- آليات الإنتاج في النص ذي الجملة الواحدة.
 - النص / المثل / النص ذو الجملة الواحدة في ضوء عملية التواصل.
 - آليات التلقي: المتلقي والنص ذو الجملة الواحدة.
 - الغرض.
 - جامعو الأمثال وآليات الإنتاج والتلقي: قراءة في ضوء نحو النص: الميداني نموذجًا.

أولاً: المرسل وآليات الإنتاج:

المثل قول موجز مكثف يتسم بالذبوع والسيرورة، والعرب يشبهون بالمثل كل شيء يشيع وينتشر، فيقولون: «أُسِيرُ من مثل»^(١)، وهو يتخذ سمًا تركيبًا ثابتًا لا يتغير بغض

١ - ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٣، ص ٧.

النظر عن الموقف الذي يستخدم فيه، ولا ريب أن «المثل» استمدَّ اسمه من المماثلة، وهو «الشيء المثل لشيء يشابهه، والشيء الذي يُضرب لشيء مثلاً؛ فيجعل مثله، والأصل فيه التشبيه»^(١).

ولعلَّ نصَّ المرزوقي الذي نقله السيوطي في مزهره من أثنى النصوص التي تشرح آليات إنتاج مثل هذا النص المكثف، يقول: «المثلُ جملة من القول مقتَضبةٌ من أصلها، أو مرسلَةٌ بذاتها، فتتَّسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتُنقل عما وردت فيه إلى كلِّ ما يصح قَصْدُه بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يُوجِبُه الظاهر إلى أشباهه من المعاني؛ فلذلك تُضرب وإن جُهلَّت أسبابُها التي خرجت عليها»^(٢).

فمنشأ المثل قصة أو حادثة قيل فيها أو بسببها المثل أوّل مرة، وأشار المرزوقي إلى ذلك بقوله: «عَمَّا وردت فيه»؛ فصيغة المثل هي في الأصل جزء من نص حكائي أو إخباري أو قصّة جرت وحدثت، يقول ابن الأثير في نصّ ثمين آخر في هذا السياق: «إنَّ العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب أو وجبتها، وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يُعرف بها الشيء، وليس في كلامهم أو جز منها ولا أشد اختصاراً»^(٣). وهذا هو الإنتاج الأوّل للمثل حيث لم يكن مثلاً حينها، ولكنه تركيب لغوي، جملة واحدة غالباً، وهو جزء من قصة أو حكاية؛ أي جزء من نص وليس نصّاً مستقلاً غالباً، وقد يكون هو النص كاملاً، ويمتاز هذا التركيب بقدرته على تكثيف مغزى القصّة ومحتواها وإبراز أحداثها، والمرسل الذي قام بإنتاجها أوّل مرّة لم يقصد أن يجعلها مثلاً، بل إن قدراته الأدائية والكلامية مكّنته من صياغة موقف ما في الحكاية أو القصّة أو الحادثة يمثل عبارة أو جملة على جانب عالٍ من قوة الأداء والتأثير والتكثيف؛ ولهذا السبب استقرّت وسارت على الألسنة، وبتعبير المرزوقي «تتَّسم بالقبول، وتشتهر بالتداول»، وبلغه ابن الأثير «صارت كالعلامة»^(٤)، ويمكنني التمثيل لهذا الإنتاج الأوّل، ثم تحوّل المثل إلى علامة بسبب ما تأتي له من:

١- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج ٨، ص ٣٥٤.

٢- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٨٦.

٣- ابن الأثير، المثل السائر، ج ١، ص ٦٣.

٤- المرجع السابق، ج ١، ص ٥٤.

■ القَبول.

■ التداول.

باستحضار الأمثلة الآتية:

نموذج (١)

أورد الميداني قول المفضّل في المثل ذي الرقم (١١٧): «كان السليك بن السلكة السعدي نائماً مشتملاً فينا هو كذلك إذ جثم رجل على صدره، ثم قال له: استأبِرْ. فقال له السليك: الليل طويل وأنت مقمر، أي في القمر، يعني أنّك تجد غيري فتعدّني، فأبى، فلمّا رأى سُلَيْك ذلك التوى عليه وتسنّمه. يُضرب عند الأمر بالصبر والتأني في طلب الحاجة»^(١).

فالعبرة المثل «الليل طويل وأنت مقمر» تحمل دلالة حقيقة ومباشرة على فكرة أراد السليك تبليغها للرجل في تلك الحكاية، وهي تمثّل نقطة مكثّفة فاصلة في سيرورة القصة بدليل تغيّر موقف السليك تماماً من ذلك الرجل بعدها؛ فبينما كان موقفه قائماً على التفاوض والملاينة في البداية؛ نظراً لأنّ الرجل غافله بالهجوم وطلب منه الاستسلام للأسر، إلّا أنّه بعد تمالك أمره واستعادة جأشه نطق بتلك العبارة، وهي تشبه أن تكون تهديداً في سياقها الذي وردت فيه، فلمّا أبى الرجل تحوّل موقف السليك إلى أخذ حقّه بيده، وبالقوّة لا بالملاينة، ولربّما استطعت أن أعمّم هذه الخصيصة في عبارة المثل بأنّها تمثّل تحوّلًا بصورة «ما»، في الحدث الكلامي الأول الذي اشتمل عليها، وهي تشبه الومضة الدالّة المكثّفة، ولربّما لأجل ذلك علقت في الأذهان، وحفظتها الذاكرة، وسارت على الألسن، لكنّ دلالتها حقيقة ومباشرة بمعنى أنّها كانت نتاجاً مباشراً للمقام الذي جرت فيه حكاية المثل واستجابة عفويّة حاضرة في ذلك المقام، وأنّها متّسقة مع سياقها الأول المباشر اتساقاً تامّاً:

■ اتساقاً تركيبياً فهي جزء بنيوي من نصّ الحكاية.

■ واتساقاً دلاليّاً حيث ترتبط بسياق الحكاية التي انتظمتها، وتشكّل النصّ الأصلي لها.

والعناصر الإشاريّة في بنية المثل تحيل إلى شخوص القصة الحقيقيين، وما يحيط بهم من مقام؛ فـ «الليل» في قوله: «الليل طويل وأنت مقمر»، وهي جملة المثل، يُحيل إلى الليل المعروف الذي كان المسرح الزماني لأحداث القصة، و«مقمر» من «القمر» المعروف بمعناه الحقيقي؛

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١١٧)، ج ١، ص ٤٧.

فالإحالة هنا حقيقة وهي إحالة ماصدقية^(١) من جهة أن مدلول الكلمة موجود حقيقة في خارج النص، ولا ينفي هذا أن يكون لهذه الألفاظ دلالات إيحائية أخرى يمكن استنباطها من السياق، ولكن الأكيد أن لها مدلولاً حقيقياً في واقع القصة يمثل مدلولها الخارجي الذي تدلّ عليه.

أما الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وغيرها من الألفاظ التي تتحدّد معانيها وفق وجودها في التراكيب وتوجد في المثل في إنتاجه الأول، فإنها تنتسب إلى الإحالة الافتقارية، وهي في عرف (هاليداي) ورقية حسن «الألفاظ التي تفتقر في تفسيرها وفهمها إلى مفسّر»^(٢)؛ فالضمير «أنت» في قوله: «الليل طويل وأنت مقمر» يحيل إلى الرجل الذي جثم على صدر السليك في القصة، والضمير المستتر في اسم الفاعل «مقمر» يحيل إلى ذلك الرجل أيضاً.

نموذج (٢)

ومن الأمثلة كذلك المثل الذي أورده الميداني تحت الرقم (٢٤٥٧)، ونصّه «عند النوى يكذبك الصادق» وأورد الميداني قول المفضل: «إن رجلاً كان له عبد لم يكذب قط، فبايعه رجل ليكذبه، أي يحملنه على الكذب، وجعلوا الخطر بينهما أهلها وما لهما، فقال الرجل لسيد العبد: دعه يبيت عندي الليلة، ففعل، فأطعمه الرجل لحم حواري وسقاه لبناً حلياً، وكان في سقاء حازر، فلما أصبحوا تحمّلوا وقال للعبد: الحق بأهلك، فلما توارى عنهم نزلوا، فأتى العبد سيده، فسأله فقال: أطعموني لحماً لا غثاً ولا سميناً وسقوني لبناً لا مخضاً ولا حقيناً، وتركتهم قد ظعنوا فاستقلّوا، ولا أعلم أساروا بعد أو حلّوا، وفي النوى يكذبك الصادق، فأرسلها مثلاً، وأحرز مولاه مال الذي بايعه وأهله»^(٣).

ثم أورد الميداني مضرب المثل بقوله: «يُضرب للصّدوق يحتاج إلى أن يكذب كذبة. وقال أبو سعيد: يُضرب للذي ينتهي إلى غاية ما يعلم، ويكفّ عمّا وراء ذلك، لا يزيد عليه شيئاً»^(٤).

١ - الإحالة الماصدقية تعني: العلاقة بين الكلمة ومدلولها الخارجي. ينظر: تامر عبد الحميد أنيس، الإحالة في القرآن الكريم، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٧٣.

٢ - ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص ١٨.

٣ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٧٧٢)، ج ٢، ص ٢٨٩.

٤ - المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٨٩.

وهذه العبارة التي تحوّلت مثلاً، وإن خلت من الإحالة الافتقارية؛ فلا ضمير لغائب فيها ولا اسم إشارة ولا اسم موصول أو غيره، إلا أنّ دلالتها تُحيل مباشرة إلى أحداث القصة، التي تثبت أنّ النوى يكشف عن خواطر الإنسان وصدق أخلاقه؛ فهذا العبد الذي عُرف عنه صدقه الذي لا يُفارقه في شؤونهِ كلّها، تخلّى عن هذه الصفة حين فارق سيّده ليلة واحدة، وجعل السبب في هذه الكذبة، هو النوى الذي حدث بينه وبين سيّده، فقال: «عند النوى يكذبك الصادق»، ويظهر من نصّ المثل أنّ الإحالة ماصدقية مباشرة وحقيقية ومتّصلة مباشرة بشخوص الحكاية.

نموذج (٣)

ومن الأمثلة كذلك المثل الذي أورده الميداني تحت الرقم (٢٧٧٢)، وجعل نصّه «في النصح لسع العقارب» وأورد الميداني أنّ أوّل من قال ذلك «عُبَيْد بن ضربة النَّمَرِي، وذلك أنّه سَمِعَ رجلاً يَقَعُ في السلطان، فَقَالَ: ويحك! إنك غُفْل لم تَسْمَكِ التَّجَارِبَ، وفي النصح لَسَعُ العقارب، وكأنني بالضحك إليك باكيًا عليك، فذهب قوله مثلاً»^(١).

فقائل العبارة التي تحوّلت مثلاً، الذي قال العبارة أوّل مرة هو عُبَيْد بن ضربة النَّمَرِي، والعبارة وإن خلت من الإحالة الافتقارية؛ فلا ضمير فيها ولا اسم إشارة ولا اسم موصول أو غيره، إلا أنّ دلالتها تُحيل مباشرة إلى أحداث القصة، وإن كان القائل هنا قد لجأ إلى التعبير المجازي فلا عقارب حقيقية في القصة ولا لسع؛ فالرجل الغفل كان يقع في السلطان، أي يتنقذ السلطان انتقاذاً مباشراً، وقائل العبارة ينهأ عن هذا ويتوقّع أنّ نصيحته لا تجد محلّها عنده؛ لأنّ النصيحة تقع موقعاً شديداً على المنصوح عادة؛ فالنصح هو من طرف عبيد، ولسع العقارب هو أثر النصيحة على متلقّيها، وهو في هذه القصة الرجل الغفل الذي كان يقع في السلطان؛ فالإحالة ماصدقية مباشرة وحقيقية ومتّصلة مباشرة بشخوص الحكاية. ويلحظ من هذه الأمثال ما يأتي:

■ أنّ نصّ المثل لا ينتج بقصد المثل؛ إذ إنّهُ يدخل القصة تلقائياً بواسطة تعبير الشخصية في الحكاية عن عواطفها وآرائها، أو بواسطة تعبير السارد عن موقفه من الوقائع والشخصيات، إنّهُ جزء من حياة الشخصية أو السارد، يجري تلقائياً على لسان المرسل في غمرة حرارة

١- الميداني، مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٣٧٢.

الموقف، لقد قصد قائله أن ينتج نصًّا، وإن لم يكن يعلم أنه سيتحوّل إلى مثل يسير على الألسنة ويكتب له التداول.

■ المثل نص مكتمل مستقل، وإن كان في الأصل جزءًا من نص أكبر منه، ولذلك فإنّ دلالته تتّسع لأنّها لم تعد مستمدّة من المثل وحده، بل من كلّ عناصر النص الكبير (القصة مثلاً)، وإذا تصبح أغنى وأقوى إلى حدّ أنّه يمكن أن أصوغ قانونًا عامًّا لهذه العملية كما يأتي: «كلّ مثل موظّف في نص أكبر منه هو مستقل، لكنّه يصبح أوسع دلالة».

لكنّ هذه العبارات التي تتحوّل إلى أمثال، وبسبب خصائص ذاتيّة فيها تتحوّل إلى علامات أو أيقونات أو عبارات دالّة قابلة للسيرورة والتداول، أو نصوص مكثّفة قابلة للتعميم على ما لا يتناهى من المواقف والسياقات التي قد تحمل ملمحًا مشابهاً، أو غرضًا مشابهاً. وسأشير إلى هذه الخصائص عند الحديث عن النص المنتج، وبسبب من هذه الخصائص وجد هذا النص/ المثل قبولاً ورضى لدى مستعملي اللغة.

ويعبّر أصحاب كتب الأمثال عن تحوّل العبارة من دلالتها الحقيقيّة المباشرة على أحداث بعينها أو شخوص بعينهم إلى دلالتها العلاميّة (إن جاز التعبير) أو الأيقونيّة أو النصيّة الكاملة، بقولهم: «فذهبت مثلاً»^(١)، أو «أرسلها مثلاً»^(٢)، أو «فسارت مثلاً»^(٣)، أو «فجرت مثلاً»^(٤).

وهذه العبارات تشير إلى أنّ المسؤول عن تحوّل ذلك التعبير أو التركيب أو الجملة إلى مثل ليس هو قائل النص، وإن كان هو المنتج الأوّل له، بل المسؤول عن تحوّلها من جزء من نص أنتجه صاحبه في حالة معيّنة وفي حكاية معيّنة مخصوصة بغرض معيّن وفي سياق أوّل بعينه، إلى نص أيقوني قابل للتكرار في حالات لا متناهية تشابه النص الأصلي في سمت «ما»، وقابل للإعادة والتجدّد في سياقات مختلفة من جهة، ومشابهة من وجه ما للسياق الأصلي

١- ينظر: الميداني، مجمع الأمثال، الأمثال ذات الأرقام: ١٠٣، ١٤٢، ٣٦٢، ٦٥٢، ٧١٥، ٧٧١، ٨٧٨، ٨٩٨، ١٠٢٦، ١٠٤٤، ١٠٩٠، ١٣٢٣، ١٥٤٦، ١٥٦٨، ١٨١٨، ٢٧٧٢، ٣٨١٤، ٣٩٦٨، ٣٩١٧، ٤٠٠٧، ٤١٨٩، ٤١٩٤، ٤٤٤٤، ٤٤٩٥.

٢- ينظر: المرجع السابق، الأمثال ذات الأرقام: ٤٣، ١٤٢، ١٨٥، ٣٦٢، ٥٠٣، ٦٥٥، ٦٧٠، ٧٧١، ١٥٤٦، ١٥٥٥، ٢٥٤٣، ٣٤٩٧، ٣٧٥٩، ٤٠١٧.

٣- نفسه، المثل رقم: ١٠٥٠.

٤- نفسه، المثل رقم: ٣٧٩٠.

للنص الذي ينتظم المثل؛ يرى الباحث أنّ المسؤول عن ذلك هم مستعملو اللغة؛ أي الذين سمعوا هذا النص، ووجدوا فيه ما يعبر تعبيراً مكثفاً عن مراد «ما» في حوادث مشابهة، ووجد عندهم القبول؛ أي ترك أثراً بليغاً ارتضوه أيقونة للتعبير عن السياقات المشابهة. وعبر المرزوقي عن ذلك بقوله عن الأمثال «تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول»^(١)، وعبر عنه الفارابي بقوله: «والمثل ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتدلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء»^(٢)، ولا ريب أنّ هذا الرضى وهذا القبول وهذه السيورة وهذا التداول عند مستعملي اللغة مرده:

■ الخصائص الذاتية للمثل في بنيته: التركيبية والدلالية أو بتعبير الفارابي في (لفظه ومعناه).
■ ما لحظوه من قدرته على تحقيق المطالب والأغراض التواصلية في خطابات متنوعة ومن جهات متعددة؛ فاستعملوه بشدة متوسلين به لتحقيق أغراضهم المختلفة. عبر عن ذلك الفارابي بقوله: «فاستدروا به الممتنع من الدرّ، وتوصلوا به إلى المطالب القصية، وتفرّجوا به من الكرب المكربة»^(٣)؛ فهذا النص بتركيبته الخاصة قادر على تحقيق الأغراض بكفاءة عالية «الممتنع من الدرّ» والأغراض الصعبة «القصية»، بل يمكنه تفريج الكرب المكربة، وهذا لون من المبالغة المقبولة في هذا السياق.

إنّ القارئ إذا بإزاء إنتاج أول للنص / المثل تمثّل في أنّه جزء من نص تواصل في حكاية بعينها أو حادثة بعينها، لم يقصد صاحبه فيه أن يجعله مثلاً، ثم هو بإزاء مرحلة تالية هي مرحلة القبول والرضى والسيورة وكثرة التداول «حتى ابتدلوه فيما بينهم»، وعبر ابن عبد ربّه عن هذه المرحلة بقوله عن الأمثال: «لم يسّر شيء سيرها، ولا عمّ عمومها»^(٤)، وفي هذه المرحلة تحوّل المثل من جزء من نص إلى نص كامل موجز مكثف قابل للإعادة في سياقات متعددة ومشابهة.

أمّا المرحلة الثالثة فهي مرحلة بدء الإنتاج المتجدّد -إن جاز التعبير- أو استعمال المثل في سياقاته المتجددة ومقاماته المتعددة القابلة للإعادة في متوالية مستمرة بوصفه نصاً أيقونياً،

١- السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٨٦.

٢- الفارابي، ديوان الأدب، ج ١، ص ٧٤.

٣- المرجع السابق، ج ١، ص ٧٤.

٤- ينظر: ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج ٣، ص ٣.

وذلك بحسب الأغراض المختلفة لمستعملي اللغة في سياقاتهم التواصلية المختلفة، ويمكن أن أمثل تحولات الإنتاج في نصّ المثل بالشكل الآتي: شكل رقم (٢)

الإنتاج الأول	الإنتاج الثاني
المثل جزء من نص مُنجز في سياق تاريخي ما، وهذا الجزء يمثل نقطة تحوّل دلالية ولفظية في ذلك السياق	التحوّل إلى نص كامل مكثّف قابل للتعميم والإعادة في سياقات تواصلية متعددة أو التحوّل إلى نص أيقوني أو علاماتي
← عبر القبول والرضى والسيرورة والتداول عند مستعملي اللغة	

الإنتاج المتجدّد للمثل:

الخطاب مرتبط بشروط إنتاجه، وهو «نشاط مُبْنِيٌّ» (يتمثل في بنية متسقة) مبدؤه حصر القصد التواصل، ومنتهاه تمرير هذا القصد التواصل في خطاب محدّد^(١)؛ فهو شكل من أشكال التأثير على الآخر؛ إذ يهدف إلى التأثير على وضعيّة معيّنة، وهو محكوم بطبيعته الديناميّة وخصائصه التفاعليّة بوصفه يخضع لقطبين أساسيين يمثل أحدهما المتكلّم والآخر يمثل المتلقّي، ووفقاً لهذا النموذج يفترض الباحث أنّ مستعمل المثل / النص (المرسل) في مقاماته المتجدّدة يحضر في سياق تواصل «ما»، وهو يريد أن يعبر عن نيّة أو فكرة أو إحساس تجاه متلقّ بعينه، فيحوّل هذه الفكرة أو هذه النيّة إلى كلام ذهني أو تصوّر ذهني لشكل الإنتاج الكلامي، ومن ثم يبحث له عن بنية سطحيّة تركيبيّة تعبّر عن هذا التصرّ، ولا ريب أنّ ذلك يحدث بسرعة فائقة، ولا ريب أيضاً أنّ المرسل أو المتكلّم نفسه من وجهة نظر (لفلت) يتحوّل إلى «إجراء إخباري معقّد له القدرة على تحويل نواياه وأفكاره وأحاسيسه إلى كلام منطوق»^(٢).

١ - ربيعة العربي، في تصوّر الخطاب: آليات الإنتاج والتأويل، بحث منشور ضمن كتاب «لسانيّات النص وتحليل الخطاب»، دار كنوز المعرفة، عمّان، ٢٠١٢م، ج ١، ص ٩٦.

٢ - المرجع السابق، ج ١، ص ٩٦-٩٧.

ولذلك يفترض (لفت) أنَّ مقارنة الإنتاج اللغوي تقتضي افتراض أنسقة فرعية، وتخصيص الكيفية التي تشغل بها هذه الأنسقة الفرعية في تقديم تمثيلاتها، وكذلك الوقوف عند الطريقة التي تسلكها في توليد الخطاب^(١)، أي عبارة أخرى يمكن القول إنَّ بناء نظرية حول المهارات المعرفية المعقدة يوجب بناء معمارية النسق الإجرائي المتضمن في إنتاج الكلام، وفي الاتجاه نفسه يشير (فيول) إلى أنَّ الوصول إلى فهم آليات الإنتاج لا يتأتى إلا بالتركيز على إشكالات محدّدة يحملها بالآتي^(٢):

١- ضرورة تمييز عدد محدّد من القوالب، وضبط كيفية استقبال كلّ قالب منها نمطاً معيّناً من الفكرة وتحويلها إلى نمط آخر.

٢- ضرورة تحديد العلاقات الوظيفية الموجودة بين هذه القوالب، والوقوف على كيفية اشتغالها؟ بمعنى هل تشغل بشكل مستقل، فلا تأخذ بعين الاعتبار إلا المعلومات الداخل؟ أم أنَّها تشغل بشكل تفاعلي، ومن ثم تأخذ بعين الاعتبار المعلومات التي تأتيها من القوالب الأخرى؟

٣- ضرورة تحديد العلاقات البنيوية بين القوالب ليتسنى تحديد كيفية اشتغالها؛ هل تحدث بشكل تسلسلي أم بشكل مواز؟ وما يترتب على ذلك من إجراءات.

٤- ضرورة مقارنة إجراءات المراقبة التي تقوم بمهمة نقل المعلومات وتقويم الناتج. ويحدّد (لفت) في النموذج الذي يقدّمه لتفسير آليات الإنتاج التي يفعلها المتكلّم مراحل محدّدة تعكس الخطوات التي يسلكها في تكوين نصّه أو خطابه، ولا ريب أنَّ المحدّد في توليد الخطاب هو القصد الكلامي، ويشتمل هذا القصد على مقاصد فرعية؛ فالمتكلّم يضع خططاً عامة لخطابه تكون شاملة للمخطّطات الفرعية التي يضعها لكلّ مقصد على حدة، والبنية القصديّة للخطاب سلّمية، والانتقال من مقصد فرعي إلى مقصد فرعي آخر يتطلّب الرجوع إلى القصد الموجود في أعلى السلّمية، ولا بد من تحديد متوالية مرتّبة للمقاصد الكلامية^(٣).

ويقول عبد القاهر الجرجاني: «ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل، وكيف يتصوّر أن يقصد

١ - ربيعة العربي، في تصوّر الخطاب، ج ١، ص ٩٧.

٢ - المرجع السابق، ج ١، ص ٩٧.

٣ - نفسه، ج ١، ص ١٠٣.

به إلى توالي الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض...
فينبغي أن ينظر في الفكر بماذا تلبس أبا المعاني أم بالألفاظ؛ فأَيُّ شيء وجدته الذي تلبس به
فكرك من بين المعاني والألفاظ، فهو الذي تحدث فيه صنعتك وتقع فيه صياغتك ونظمك
وتصويرك؛ فمحال أن تتفكر في شيء وأنت لا تصنع فيه شيئاً^(١).

إنَّ وصف فعل الكلام يحدث انطلاقاً من وضعه في إطار منظور معيَّن، وفي وحدة إخبارية
خاصة ذات صورة قضويَّة بما يستلزم ذلك من تحديد للفكرة الجديدة وإسناد لوظيفتي
البؤرة والمحور، وكلَّ المظاهر الضروريَّة، وذلك لا يتأتَّى للمتكلِّم إلا إذا كان مُلمّاً بالشروط
اللغويَّة التي تتيح الاستجابة لها بتخصيص الخطاب وتبليغه التبليغ الصحيح إلى السامع،
والمقاصد قد تكون:

■ تواصلية.

■ أو إنجازية.

هذا عن تمثيل الرسالة اللغويَّة عموماً، أمَّا بالعودة إلى آليات إنتاج الخطاب المثل في صورته
المتجددة والمعادة، فإنَّ المتكلِّم يكون في سياق تواصل معيَّن، ويتولَّد لديه مقصد تواصل
محدّد تجاه متلقٍّ أو متلقّين معيَّنين، ووفقاً لنموذج (لفت) في إنتاج الخطاب فإنَّ المرسل
يعود إلى المكوّن التصوري الذي تحدّد وظيفته في تشكيل المعلومات التصوريَّة التي هي
في جوهرها أنشطة يتيح التعبير عنها تحقيق ذلك المقصد التواصل المحدّد، وهي تنظم وفق
نمطين من المعلومات الأساسيَّة، هما^(٢):

أ- المعلومات الإجرائية، ويخزّن هذا النمط من المعلومات في ذاكرة الاشتغال^(٣)؛

١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤٩-٥١.

٢- ينظر: ربيعة العربي، في تصوّر الخطاب، ج ١، ص ٩٧-٩٨.

٣- ذاكرة الاشتغال: هي الذاكرة التي تعمل على تخزين أجزاء الرسالة وفق مستويات خمسة، حدّدها
(كاريت) كالآتي:

١- مستوى تصوّري: يتم فيه تركيب تصور للمحتوى.

٢- مستوى وظيفي: ويتم فيه انتقاء الزمر المعجميّة، وإسناد الأدوار الخاصة بها.

٣- مستوى موقعي: يتم فيه انتقاء إطار تركيب لإنتاج العناصر المعجميّة وإدماجها في الجملة.

٤- مستوى صوتي: يتم فيه تخصيص الجزئيات الفونولوجيّة والتراكيب النحويّة والوحدات المعجميّة.

٥- مستوى إنتاج تعليمات النطق. =

لاستخدامها وفق نسقين من الإجراءات، هما: نسق إجراءات إنتاج الخطاب، ونسق إجراء إدارته، وذلك المكوّن التصوّري يوظف هذه الإجراءات لتفعيل قدر معيّن من المعلومات وتهيئته للتحليل.

ب- المعلومات الخبريّة، وهي في أغلبها معلومات قضويّة تختزل مجمل المعارف التي يكوّنها الفرد بخصوص العالم، وهي تُستمد من مختلف الأنسقة سواء المكانية أم الزمانية أم الدلالية أم الحسية أم غيرها، وتتسم بكونها مُبَيَّنّة، وبكونها مُخزّنة في الذاكرة الطويلة الأمد، وبالإضافة إلى الفكرة الخبريّة يمكن للفرد أن يوظّف الفكرة الحالية التي يستمدّها من المحيط لكنّ منطلق إنجاز الخطاب هو الفكرة الخبريّة، ومن ثم فإنّ المرسل يصل إلى مرحلة المكوّن الصياغي في إنتاج الرسالة اللغويّة، وفيها تتحوّل البنية التصوريّة إلى بنية لغويّة، ولا ريب أنّ المكوّن الصياغي يأتلف من مكوّنين:

■ المكوّن النحوي الذي يعكس تصوّر المائل في ذهن المتكلّم، ومن ثمّ مقصد ذلك المرسل، وهو يعني الوصول إلى البنية السطحيّة للخطاب (جملة أو مجموعة جمل بحسب ما يقتضيه التصرّور).

■ المكوّن الفونولوجي، ويقوم بوضع مخطط صوتي انطلاقاً من البنية الصوتيّة.

أمّا المرحلة التالية فهي الوصول إلى المكوّن النطقي أو الصوتي، ويتّصل بإنجاز بيانات صوتيّة، أي توليد اللغة المنطوقة؛ فالمكوّن التصوّري مهمّته انتقاء الأفكار وتنظيمها، أمّا المكوّنات الصياغي والنطقي فيعملان بصورة متوازية؛ فعملية وضع الحدث في المكوّن التصوّري تجري بالتوازي مع عملية ترميزه في المكوّن الصياغي؛ فتفعيل المكوّن الصياغي لا يتوقف عند الانتهاء من بناء تصوّر كامل لمحتوى الخطاب، وإنّما يُفعل هذا المكوّن بمجرد تلقّيه لجزء واحد من الرسالة^(١).

إنّ الباحث يذهب إلى أنّ هذه المراحل التي تنتظمها عملية تمثيل الرسالة اللغويّة أو إنتاجها قد تختزل نسبياً وتتداخل، ويكون مركزها المكوّن التصوّري بما يشتمل عليه من رؤية

= وتمكّن هذه المستويات ذاكرة الاشتغال من الوصول إلى مصادر الفكرة وإدماجها، ومن ثمة برمجتها. ووحدات التخزين لها القدرة على التعامل مع مختلف مكوّنات أنسقة الإنتاج الكلامي وتحليلها في مختلف الأوقات وبمختلف درجات السرعة، الأمر الذي يتيح برمجة فعّالة للغة. ينظر: ربّيعه العربي، في تصوّر الخطاب، ج ١، ٩٩-١٠٠.

١- ينظر: المرجع السابق، ج ١، ص ٩٩-١٠٠.

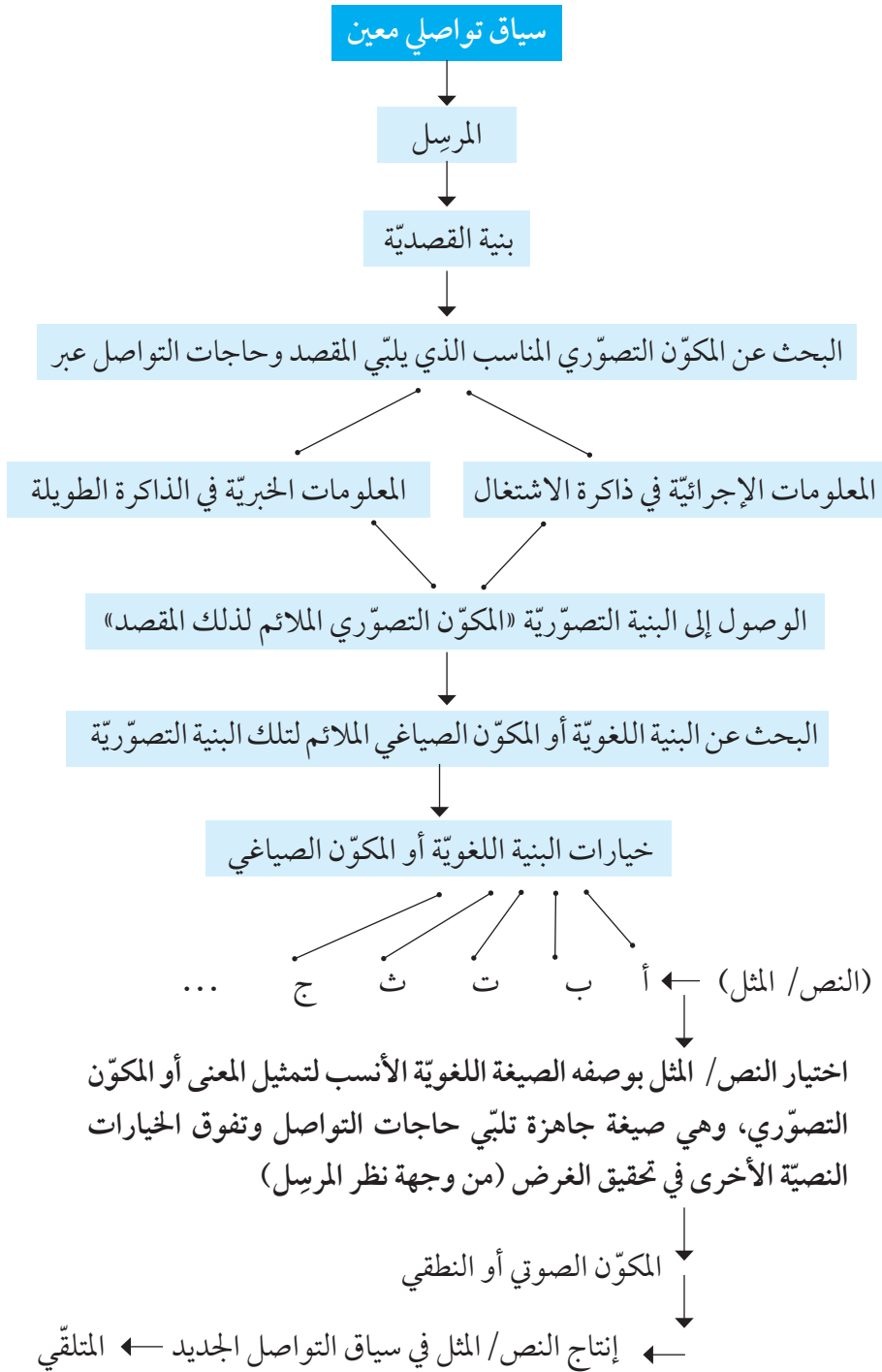
للعالم، وبما يختزله من مجمل المعارف التي يكوّنها الفرد بخصوص العالم حين يقوم بتحويل تصوّره (مكوّنه التصرّوري) إلى مكوّن صياغي (بنية لغويّة)، فيعثر هذا المرسل على نموذج نصّي جاهز وثابت ويوافق المقام الذي يجري فيه التواصل من وجه «ما» أو أكثر من وجه، فيستحضره بوصفه مكافئاً ناجحاً للبنية التصرّورية أو الثيمة التي كان يسعى إلى تمثيلها وكان يبحث لها عن بنية لغويّة ملائمة يقوم بإنتاجها وتجميعها، بل توليدها ممّا اختزنه دائرة خبراته اللغويّة ومعارفه، ليمر بها عبر عمليّات الصياغة والتحويل إلى شكل نطقي أو نص ممثّل صوتياً.

إنّ هذا النموذج هو «الأمثال» في هذه الدراسة، يمثّل في صورته النصيّة الجديدة نصّاً موجزاً مكثّفاً دالّاً على الحالة التواصلية القائمة، بل إنّ يستحضره وهو يعتقد أنّه أنسب البنى اللغويّة أو الصياغيّة لتحقيق هذا التصرّور وذلك المقصد، أو هو الإصابة في التعبير عن المعنى المتضمّن في الموقف التواصلية بإيجاز وتكثيف واقتدار، عبّر عنه ابن سلام بتلخيصه خصائص المثل بقوله: «إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه»^(١).

فيقوم بإعادة إنتاجه وفق مقصده المحدّد المائل في الموقف التواصلية ليلبي غرضاً مستجداً، يتّفق في «وجه ما» مع الغرض الذي حقّقه ذلك المثل في حادثة «ما» في الحدث الكلامي الذي حصل في مرحلة تاريخيّة سابقة وبعيدة عن المقام الجديد، أو يمكن القول إنّهما يتّفقان في الثيمة نفسها أو المكوّن التصرّوري نفسه أو في البنية الكبرى ذاتها.

ويمكن تمثيل عمليّة إنتاج النص / المثل / الجملة عبر التصرّور الآتي: شكل رقم (٣)

١ - أبو عبيد، القاسم بن سلام، كتاب الأمثال، ص ٣٤.



ولا ريب أن منتج ذلك النص يختاره من مجمل معارفه المخترنة في الذاكرة، ومن مخزونه الثقافي ومن رؤيته للعالم، وهو يقوم بعملية انتقاء بين مكونات تصوّرية مختلفة بعضها يمثل نصوصاً قارّة وثابتة تلبي أغراضاً بعينها في سياقات التواصل، ومن هذه النصوص «الأمثال» ولا ريب أن هناك نصوصاً أخرى مخزونة في الذاكرة تشابهها في الوظيفة، من مثل: محفوظه من الآيات أو الأشعار أو الأحاديث أو الأقوال يستجلبها عند الحاجة لتلبي له مقصداً معيّناً في سياق التواصل.

إن ناقلي الأمثال والمصنّفين فيها، ومنهم الميداني، يجتهدون في توضيح الفكرة أو الصورة الذهنية أو المكوّن التصوّري الذي يختزله المثل؛ ليكون ذلك أسهل لدى مستخدمي هذا النص/ العلامة/ الأيقونة/ ليكون مكوّناً صياغياً مناسباً للمكوّن التصوّري الذي يختزنونه في موقف «ما»، ومن ذلك ما أورده الميداني معقّباً بعد المثل: «إنّ من البيان لسحراً»، قال: «يُضرب في استحسان المنطق وإيراد الحجّة البالغة»^(١)، وبعد المثل: «إنّ الجواد عينه فراره»، قال: «يُضرب لمن يدلّ ظاهره على باطنه فيغني عن اختباره، حتى لقد يقال: إنّ الخبيث عينه فراره»^(٢)، وبعد المثل: «إنّ الشقيّ وافد البراجم»، قال معقّباً: «يُضرب لمن يُوقع نفسه في هلكة طمعاً»^(٣)، وعقّب الميداني على المثل: «إنّ البعّاث بأرضنا يستنسر»، قائلاً: «يُضرب للضعيف يصير قوياً، وللذليل يعزّ بعد الذل»^(٤)، وقال بعد المثل: «إنّ الجواد قد يعثر»، «يُضرب لمن يكون الغالب عليه فعل الجميل، ثم تكون منه الرّلة»^(٥)، وبعد المثل: «إنّ وراء الأكمة ما وراءها»، قال: «يُضرب لمن يُفشي على نفسه أمراً مستوراً»^(٦)، وبعد المثل: «إذا صرّبت فأوجع وإذا زجرت فأسمع»، قال: «يُضرب في المبالغة وترك التّواني والعجز»^(٧)، وبعد المثل: «أتاك ريان بلبنه»، قال: «يُضرب لمن يعطيك ما فضل منه استغناء، لا كرمًا؛

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١) ج ١، ص ١٣.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٥)، ج ١، ص ١٦.

٣- نفسه، رقم المثل (٦)، ج ١، ص ١٦.

٤- نفسه، رقم المثل (٨)، ج ١، ص ١٦-١٧.

٥- نفسه، رقم المثل (١٧)، ج ١، ص ١٩.

٦- نفسه، رقم المثل (٢٣)، ج ١، ص ٢١.

٧- نفسه، رقم المثل (١١١)، ج ١، ص ٤٦.

لكثرة ما عنده»^(١)، وبعد المثل: «إِذَا نَزَا بِكَ الشَّرُّ فَاقْعُدْ بِهِ»، قال: «يُضْرَبُ لِمَنْ يُؤْمَرُ بِالْحِلْمِ وترك التسرع إلى الشر»^(٢).

إنّ هذا التوضيح الذي يذكرونه فيه أمور ثلاثة متشابهة، هي:

■ الفكرة أو المكوّن التصوّري.

■ البنية الكبرى للنص المثل القابلة للإعادة.

■ وصف نسبي للمقام المناسب لاستخدام هذا النص.

ولا ريب أنّ عمليّات الانتقاء والاختيار لبعض النصوص أو استبعاد بعضها عن الاستخدام في سياقات التواصل مبني على عدد من العوامل، منها:

■ طبيعة السياق التواصلّي أو المقام الذي يحتاج فيه ذلك النص.

■ طبيعة المتلقّي؛ فلا تُقال هذه النصوص لأيّ متلقٍّ، وإنّها لمتلقّ له صلة بها من نوع ما؛ فلا معنى لاستعمالها مع متلقٍّ لا يفقه منها شيئاً أو لا تؤثر فيه، وبعبارة أخرى لمتلقٍّ يظنّ المرسل أنّه قادر على التقاط مغزى ذلك المثل أو بنيته الكبرى.

■ طبيعة الغرض الذي يُراد إحداثه، واعتقاد المرسل أنّ هذا النص المنتقى يحقق هذا الغرض، ويُحيلني هذا مباشرة إلى نص الفارابي الذي سبق ذكره، الذي يصف فيه المثل ودواعي استحضاره وأثره في تحقيق الأغراض، قال: «وفاهوا به في السراء والضراء...»^(٣)، أو بتعبير الزمخشري عن الأمثال: «فأطالت المغزى»^(٤)، أو بعبارة أبي الحسن اليوسي: «وناط به من الحاجة، فإنّ ضرب المثل يوضّح المنبهم، ويفتح المغلق»^(٥).

فقد توجد بدائل صغيّة أو أبنية لغويّة قادرة على أداء المعنى، لكنّ المرسل يختار هذه البنية (المثل) دون غيرها لاعتقاده أنّها قادرة على احتواء المعنى بكلّ تفاصيله وأبعاده وبأوجز عبارة، وعبر الزمخشري عن هذه الفكرة، بقوله واصفاً المثل: «هي قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حكمها أوجزت اللفظ، فأشبع المعنى، وقصرت

١ - الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٦٣.

٢ - المرجع السابق، رقم المثل (١٧١)، ج ١، ص ٦٦.

٣ - الفارابي، ديوان الأدب، ج ١، ص ٧٤.

٤ - الزمخشري، المستقصى في الأمثال، المقدمة، ج ١، صفحة ب.

٥ - الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ج ١، ص ٣٤.

العبارة فأطالت المغزى»^(١)، وقوله: «فأشبعَت المعنى» دالٌّ جدًّا في هذا السياق؛ فإنَّ البدائل الصياغيَّة الأخرى قد تؤدِّي المعنى لكنَّ المثل يشبعه تأدية -إن جاز التعبير- أي يصل بالمعنى إلى غايته توضيحًا وإصابة، وعبرَ أبو الحسن اليوسي عن هذا المعنى بقوله: «فإنَّ ضرب المثل يوضِّح المنبهم، ويفتح المنغلق، وبه يُصوِّر المعنى في الذهن، ويكشف المعنى عن اللبس»^(٢)؛ فالمثل له قدرة ليس على إيصال المعنى وحسب، بل على طبعه صورة في الذهن -وفقًا لليوسي- أو الوصول به إلى «غاية المدى» وفقًا لتعبير الفارابي^(٣)، أو بتعبير ابن المقفع «أبين في المعنى»^(٤)، وقدرته التامة على إصابة المعنى وفقًا لابن سلام^(٥).

- ثمة عنصر تداولي مهم في عمليَّة اختيار هذا البديل الصياغي دون غيره من الخيارات، هو اعتقاد المرسل أنَّ المتلقِّي سيتقبَّل هذه الصيغة أكثر من غيرها، وأنها ستجد عنده رضى وقبولًا ولربَّما تطمئنُّ بها نفسه، ولربَّما تحقِّق بعد هذه الأبعاد النفسيَّة شيءٌ من الاقتناع، يقول الجاحظ: «متى كان اللفظ كريبًا في نفسه، متخيرًا في جنسه، وكان سليماً من الفضول، بريئاً من التعقيد، حُبِّب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشَّت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره»^(٦)، وعبرَ أبو الحسن اليوسي عن ذلك خير تعبير بقوله: «وبه -أي المثل- يقع الأمر في النفس في حُسن موقع، وتقبله فضل قبول، وتطمئنُّ به اطمئنانًا، وبه يقع إقناع الخصم، ويقطع تشوُّف المعارض»^(٧)، ولعلَّ واحدًا من أسباب وقوعه موقعًا حسنًا لطيفًا في النفس اعتماده على الإيحاء دون الإفصاح، وجودة الكناية فيه، والنفس بطبعها لا تحب المباشرة عادة في كثير من الأمور. إنَّ المقصديَّة هي التي تحوِّل هذه الثيمة الجاهزة في الذهن إلى نص؛ فالنص هو ما يظنَّ المرسل أنَّه نص، ولعلَّ عبارة المرزوقي واضحة في هذا الشأن «فتنقل عمَّا وردت فيه

١ - الزمخشري، المستقصى في الأمثال، المقدمة، ج ١، صفحة ب.

٢ - الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ج ١، ص ٣٤.

٣ - ينظر: الفارابي، ديوان الأدب، ج ١، ص ٧٤.

٤ - ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، ص ٢٧.

٥ - ينظر: أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمثال، ص ٣٤.

٦ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٣١٧.

٧ - الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ج ١، ص ٣٤.

إلى كلّ ما يصحّ قصده بها»^(١)، وعبارة الفارابي أيضاً: «المثل ما ترضاه العامة والخاصّة في لفظه ومعناه»^(٢)؛ ف«ترضاه» تلخّص المقصدية والانتقاء والقبول، ولعلّ قوله «لفظه ومعناه» يشير إلى الاندماج بين المكوّن تصوّري (الذهن) والمكوّن الصياغي (اللغوي)، كما يشير إلى التمثيل السطحي للخطاب في شكله الأخير، ومناسبة هذا التمثيل للغرض المقصود.

ولعلّ في نص المرزوقي، الذي اقتبسته غير مرة قبلاً، إشارة إلى عمليّة الإنتاج الجديد للنص / المثل؛ يقول: «فتنقل عمّا وردت فيه (جملة المثل) إلى كلّ ما يصحّ قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعمّا يوجبها الظاهر إلى أشباهه من المعاني؛ فلذلك تضرب، وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها»^(٣)؛ فقوله «فتنقل» إشارة إلى المقام الجديد الذي يربطه بالمقام الأوّل للنص / المثل رابط أو جسر، أو وجه تشابه من ناحية «ما»، وهو قابل للإنتاج إلى عدد لا متناهٍ من المرات أو المقامات المتجدّدة، عبّر المرزوقي عنها بلفظة «كلّ» في قوله: «إلى كلّ ما يصحّ قصده بها»^(٤)، والمرسل في سياق تواصل جديد يريد إيصال فكرة أو نيّة أو تصوّر لهذا المتلقّي أو هؤلاء المتلقّين، واختار «المثل» صورة لغويّة أو بنية لغويّة لتصوّره الذهني لكلّ ما سبق أن أوردته من اعتبارات، ويقوم بإنتاج النص / المثل ليصل إلى هذا المتلقّي المائل أمامه.

وهنا لا بدّ أن تبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة التلقّي، وتبدأ مرحلة التلقّي باكتمال تشكّل الصورة اللغويّة للمعنى أو التصوّر الذهني وتكوّن النص / المثل في سياقه الجديد، أو المنتج النصّي الجديد، أو (النص / النتاج) وسيكون موضوع بحث تال.

ولكن قبل أن الانتقال إليه يجدر بي الإجابة عن سؤال: هل يفترض بالمرسل، أو هل يُشترط بالمرسل لهذا الضرب من النصوص / الأمثال في تشكّلها الجديد أن يكون على بينة واطّلاع على قصّة المثل أو الحادثة التاريخية التي أنتجته أوّل مرّة؟ وفي الجواب عن هذا السؤال لا بدّ أن أفترض وجود نوعين من المرسلين إزاء هذه المسألة:

١- السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٨٦.

٢- الفارابي، ديوان الأدب، ج ١، ص ٧٤.

٣- السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٨٦.

٤- المرجع السابق، ج ١، ص ٤٨٦.

الأول: مُرسِل منتج لهذا الضرب من النصوص، يعرف الحادثة التي أنتجت أو السياق التواصلِي الأول الذي أنتج فيه.

الثاني: مُرسِل منتج لهذا الضرب من النصوص، لكنه لا يعرف السياق التواصلِي الأول الذي أنتج فيه، أو الحادثة التاريخية التي قيل فيها.

ويرى الباحث أن استعمال الأمثال في السياقات التواصلية المختلفة يدل على أن كلا النوعين من المرسلين قادر على إنتاج هذا النص / المثل بكل براعة واقتدار ونجاح إن كان ممسكاً بنصية البنية الكبرى أو التصور الذي يختزنه النص / المثل، ومن ثم فهو قادر على تمثيل السياقات والمقامات التواصلية التي يمكن أن يستخدم فيها هذا المثل، أو التي وصفها الفارابي بقوله: «إلى كل ما يصح قصده بها»^(١)، وقد عبّر المرزوقي عن هذه الفكرة بوضوح قائلاً: «فلذلك تُضرب وإن جهلت أسبابها»^(٢)؛ فضرب الأمثال هو التشكل النصي الجديد للمثل، ولو جهلت أسباب تشكّله الأول فإنه لا يمنع من تشكّله الجديد، والدليل على ذلك أن ثمة أمثلاً قيلت ولم تُعرف الحادثة التي قيلت فيها^(٣)، وعُرف المثل فقط، وثيمته التي يُضرب فيها، ومن ذلك: «إِنَّ الشَّفِيقَ بِسُوءِ ظَنٍّ مُؤَلَعٌ»^(٤)، اكتفى الميداني بالقول تعقيباً على المثل بـ «يُضرب للمعنيّ بشأن صاحبه؛ لأنه لا يكاد يظنّ به غير وقوع الحوادث، كنعو ظُنُونِ الوالدات بالأولاد»، وبعد المثل «إِنَّ الكَذُوبَ قَدْ يَصْدُقُ»^(٥)، اكتفى بالقول: «قال أبو عبيد: هذا المثل يُضرب للرجل تكون الإساءة الغالبة عليه، ثم تكون منه الهنة من الإحسان»، واكتفى بعد المثل: «إِنَّهُ لَخَفِيفُ الشُّقَّةِ»^(٦)، بالقول: «يريدون أنّه قليلُ المسألة للناس تعقُّفاً»، كما أنّ ثمة أمثلاً لها أكثر من رواية تاريخية^(٧) قيلت في سبب تمثّلها، ومع ذلك

١- السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٨٦.

٢- المرجع السابق، ج ١، ص ٤٨٦.

٣- ينظر الميداني، مجمع الأمثال، الأمثال ذات الأرقام: ١٧، ٨٥، ٧٨٣، ٨٥٣، ١٣٣٢، ١٤٣٦، ٤٠٣٦، ٤٠٦٥، ٤٢٣١.

٤- المرجع السابق، رقم المثل (١٨)، ج ١، ص ١٩.

٥- نفسه، رقم المثل (٣٣)، ج ١، ص ٢٦.

٦- نفسه، رقم المثل (٥٢)، ج ١، ص ٣١.

٧- ينظر الأمثال ذات الأرقام: ٣٠٠٦، ٣٨١٤، ٤٢٠٢.

تُستخدم دون إشكال ممّا لا يجعل للسياق التاريخي الذي أنتجها القول الفصل في توظيفها، ومن ذلك الأمثال: «إِلَيْكَ يُسَاقُ الْحَدِيثُ»^(١)، و: «ذَهَبُوا أَيِّدِي سَبَأً»^(٢)، و: «رَجَعَ بِخُفْيٍ حُنَيْنٍ»^(٣)؛ فقد رُوي لها غير حكاية تاريخيّة، هذا من جهة، لكن من جهة أخرى فإن معرفة المرسل بالحادثة التاريخيّة أو السياق التواصلي الأوّل للإنتاج يزيد اقتداراً على توظيفه في المقامات المتجدّدة، ويمنحه سعة في التوظيف والتنغيم، ويعطيه مزايا إضافية كمرسل بارع قادر على الإقناع.

ثانياً: النتاج (النص / المثل):

في هذا المبحث يكون الباحث قد تجاوز الإنتاج الأوّل للمثل في سياقه التاريخي الذي تذكره له كتب الأمثال أو كتب الأدب، إضافة إلى عمليّات الإنتاج التي قام بها مرسل ما في سياق تواصلي جديد نحو متلقٍّ ما جديد، ووصل إلى النتاج وهو النص / المثل في سياقه التواصلي الجديد، ولعلّ أسئلة مشروعة يكون محلّها هو هذا الموضوع من الدراسة، وهذه الأسئلة هي:

- هل النص الذي يوجد في سياق التلقّي الجديد هو النص الأوّل ذاته، أم هو نص جديد؟ أي هل هما نصّان أم نصّ واحد؟
- إذا كانا نصّين فما خصائص كلّ منهما؟

وفي جواب هذه الأسئلة، يرى الباحث أنّ عبارات الأمثال -وبسبب من الخصائص الذاتية فيها^(٤)- تتحوّل إلى علامات أو أيقونات أو عبارات دالّة قابلة للسيرورة والتواصل، أو نصوص مكثّفة قابلة للتعميم على ما لا يتناهى من المواقف والسيقات التي قد تحمل ملمحاً مشابهاً أو غرضاً مشابهاً.

فالمتلقّي إذاً أمام النص الأوّل الذي تتجلّى خصائصه في الآتي:

- ١- الاختزال أو الاقتصاد اللغوي، وبعبارة ابن الأثير: «وليس في كلامهم أوجز منها ولا

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٨٥) ج ١، ص ٧٠.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (١٤٥٤) ج ٢، ص ٦.

٣- نفسه، رقم المثل (١٥٦٨) ج ٢، ص ٣٧.

٤- ينظر ص ١٥٥-١٧٣ من هذه الدراسة.

أشدّ منها اختصاراً»^(١)، وبعبارة المرزوقي: «جملة من القول مقتضبة»^(٢)، ولوجود هذه السمة في الأمثال أشاد بها أبو هلال العسكري، بقوله: «هي من أجل الكلام، وأنبله، وأشرفه، وأفضله؛ لقلة ألفاظها، وكثرة معانيها»^(٣)، وقال الزمخشري عن هذه الخصيصة في الأمثال: «أوجزت اللفظ، فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى»^(٤).

يقول البكري: «والأمثال مبنية على الإيجاز والاختصار والحذف والاقتصار»^(٥)، ويقول في موضع آخر: «والأمثال موضع إيجاز واختصار، وقد ورد فيها من الحذف والتوسّع ما لم يجئ في أشعارهم»^(٦).

ويقول القلقشندي: «وأما الأمثال الواردة نثرًا فإنّها كلمات مختصرة تورد للدلالة على أمور كلّية مبسّطة، وليس في كلامهم أوجز منها، ولما كانت الأمثال كالرموز والإشارة التي يلوّح بها على المعاني تلويحًا صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارًا»^(٧).

والإيجاز أو (الاختزال) أو (الاقتصاد اللغوي) صفة متعلّقة بتركيبة هذا النص وصياغته اللغوية؛ إذ إنّ لا يحتمل مسألة التمدّد اللغوي أو التوسّع الرمزي، وهي صفة إيجابية وخاصة إذا فهمت على أنّها تؤدي إلى نوع من الاتساع الدلالي، وبما يمكن تسميته «تضييق مجال العبارة، وتوسيع مجال الدلالة الرمزية».

ولعلّ اتسام المثل بالاختزال منحه - بلا ريب - مفاتيح كينونته الإشاريّة - الجماليّة معًا؛ فهو لا يدخل في تفصيلات من شأنها أن تضيع الفكرة الرئيسة؛ لذلك كان يقتصر على الحد الأدنى منها ليستقطب الثيمة بعمق، لكنّه في الوقت ذاته يوحى دون أن يصرّح، وبهذا يكون المثل ذا طابع مزدوج؛ لأنه يجمع اللفظ القليل والمعنى الوفير في بوتقة واحدة^(٨).

١ - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج ١، ص ٦٣.

٢ - السيوطي، المزهّر في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٨٦.

٣ - أبو هلال العسكري، جهرة الأمثال، ج ١، ص ٤-٥.

٤ - الزمخشري، المستقصى في الأمثال، المقدمة، ج ١، صفحة ب.

٥ - عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص ٢٥٦.

٦ - المرجع السابق، ص ٢٥٦.

٧ - القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥، ج ١، ص ٢٩٥.

٨ - ينظر: عشتار داود محمد، الإشارة الجمالية في المثل القرآني، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥، ص ٣١.

والإيجاز في المثل يسرّ في حفظه، ويُبقي عليه، ويُيسّر سيرورته؛ فالقول الموجز أسرع إلى الحفظ، وأعلق باللسن، وأجول في المحافل^(١)، ينتج عن ذلك قوّة في التأثير؛ فالقول الموجز أوقع في الصدور^(٢)، كما أنّ الإيجاز يحفظ بنية المثل من التغيير؛ ذلك «لأنّ الكلام إذا قلّ وقع وقوعاً لا يجوز تغييره»^(٣).

وهذا الإيجاز في الأمثال من أهمّ صفاتها وأبرزها، وأخصّ خصائصها وأشملها، به تمتاز على غيرها من فنون الأدب المختلفة، وهي بذلك تفتح عين المتلقّي على خلفيّة المثل الكامنة فيه، وتشجّد همته على استقصاء الفكرة التي يقوم عليها، دون أن يكون في المسألة طول نظر، أو تدقيق يخرج من وضوحه وجلالته.

ومن الأمثال التي يتّضح فيها الإيجاز، قولهم: «مواعيد عرقوب»^(٤)، ويرتبط هذا المثل بأصول وأحداث مختلفة ذات تفصيلات ووقائع متعدّدة، ويتبدّى الإيجاز فيه واضحاً جليّاً؛ ففي هذا المثل تتعدّد الروايات حول هذا الرجل؛ فقيل هو رجل من العماليق أو من ساكني يثرب من الأوس أو الخزرج، وقيل هو رجل من خيبر يهودي كان كذوباً يحد ولا يفني، ومن ذلك أنّه وعد ابن عمّ له، فقال له: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعتها، فأتاه حين أطلعت، فقال: دعها حتى تبلح، فلمّا أبلحت، قال: دعها حتى ترطب، فلمّا أرطبت، قال: دعها حتى تثمر، فلمّا أثمرت جذّها هو ولم يؤله منها شيئاً، فصار مثلاً في الخُلف وعدم الوفاء. وقيل: إنّ جبل مكلّل بالسحاب أبداً ولا يُمطر، فُضرب به المثل في الخلف.

فقالوا: «مواعيد عرقوب» مشيرين بذلك إلى كلّ الوقائع السابقة التي شملها المثل في كلمتين اثنتين لا ثالث لهما تختزلان جملة واحدة حُذف المبتدأ فيها، وتقديرها: «مواعيدك مواعيد عرقوب».

ومن الأمثال التي تبرز فيها سمة الإيجاز بوضوح: «التقي ملجم»^(٥)، و«الحربُ خدعة»^(٦)،

١ - ينظر: العسكري، كتاب الصناعتين، ص ١٨٠.

٢ - ينظر: المرجع السابق، ص ١٨٠.

٣ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٨٨.

٤ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٤٠٧٠)، ج ٣، ص ٢٧٧-٢٧٨.

٥ - المرجع السابق، رقم المثل (٦٩٤)، ج ١، ص ٢١٠.

٦ - نفسه، رقم المثل (١٠٤٣)، ج ١، ص ٣٠٣.

و«الشهامة لؤم»^(١)، و«العِدَّة عَطِيَّة»^(٢)، و«العجز ريبة»^(٣)، و«الليل أعور»^(٤)، و«الندم توبة»^(٥). إنَّ تركيباً يتكوّن من لفظين أو ثلاثة (مبتدأ وخبر) يُشعر بوجود الإيجاز فيه؛ إذ لا يُتصوّر أنّ معنى هذا التركيب الثنائي أو الثلاثي يمكن أن يُشرح بكلمتين أو ثلاث، خصوصاً إذا كان المتلقي إزاء عبارة تتكثّف فيها تجربة إنسانيّة طويلة.

وعندما تكون هذه العبارة جملة اسميّة (خبريّة لا إنشائيّة) يتجلى جلال المعنى؛ إذ التركيب الاسمي تركيب يلائم الحكمة، من حيث إنّه يدل على الثبات، كما أنّ الحكمة تدل على الثابت في حياة البشر.

إنَّ احتواء المثل على ميزة الإيجاز يدلّ على شعريّة المثل، وجماليّته الفريدة التي جعلته في المصاف العلّى من الأجناس الأدبيّة، وجعلته حقيقةً بأن تتوارثه الأجيال وتتناقله الألسن، وتؤلّف فيه المجامع.

فالمثل إذا لا يعبر عن الواقع مباشرة، وإنّما يمثّل له تمثيلاً عبر صورة أو قصّة ما، لذلك كان كلّ مثل في جملة (إشارة) تحيل إلى معنى أبعد، ومن الممكن -وفق هذا المفهوم- أن يفهم قول ابن الأثير إنّ: «العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب أوجبتها، وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء، وليس في كلامهم أوجز منها، ولا أشدّ اختصاراً»^(٦).

٢- التكتيف، وهو مبني على الخصيصة الأولى، وعلى كون المثل يختزل مقولة أو ثيمة كبيرة لا تنحصر بمجرّد الكلمات التي احتوتها، والمراد بالتكتيف في المثل: هو اختزال السّير، والقصص، والأحداث، والحروب، وما نتج عنها من نتائج، وما في مدلولاتها من معاني الانتصار والهزيمة، والشؤم والتفاؤل، وغير ذلك في نص موجز، يومئ للسامع ويشير إليه حتى يستذكر أصل القصّة، أو السيرة أو الحدث.

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٩٧٨)، ج ٢، ص ١٤٥.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٢٤٩٨)، ج ٢، ص ٢٩٩.

٣- نفسه، رقم المثل (٢٥٧٧)، ج ٢، ص ٣١٥.

٤- نفسه، رقم المثل (٣٢٧٣)، ج ٣، ص ٨٣.

٥- نفسه، رقم المثل (٤٢٤٦)، ج ٣، ص ٣٢٥.

٦- ابن الأثير، المثل السائر، ج ١، ص ٧٥.

بمعنى أن المثل يختزل في عبارة موجزة ومكثفة تجارب إنسانية تتسم بالتفصيل والامتداد؛ أي إن المثل يُجَمِّل ويُكثِّف ما هو مبسوط ومُفصَّل على مستوى التجربة الفعلية، حيث يصبح الانتقال من الحدث الخارجي إلى بنية المثل مبنياً على التدرج من جزئيات إلى كليّات، ويخضع هذا المسار لمنطق تعليمي مبدؤه الكشف عن حقيقة كلية تتحوّل إلى رمز يكتسي صبغة التعميم والحياد.

والتكثيف الشديد في المثل يتجلّى في اختزاله قصّة كاملة في لفظ أو اثنين، معبراً بها عما قد يحتاج في غير المثل إلى بسط قول حتى يتّضح القصد.

جاء في المثل: «صحيفة المتلمّس»^(١)، وهذا المثل يلّمح إلى قصّة مشهورة جرت بين طرفة بن العبد والمتلمّس، مع أحد الملوك، وهذه القصة حازت ثلاث صفحات عند شرحها في مجمع الأمثال للميداني، حتى أتمّها وأحاط بها، وموجز هذه القصة أنّ طرفة بن العبد والمتلمّس تعرّضا لأحد الملوك بالهجاء، ثم إنّه دفع لهما صحيفتين، وأمرهما بالذهاب إلى واليه في البحرين، موهما إياهما أنّه أمر لهما بعطايا سنّية، ولكن الحقيقة أنّ الصحيفة فيها أمر بقطع يدي المتلمّس وقدميه، ودفنه حيّاً، وقد تمكّن المتلمّس من النجاة من هذا الأمر حين عرض الصحيفة على غلام فنّبّه لما فيها، أمّا طرفة فلم يتّعظ بما ورد في الصحيفة، حتى إذا ما وصل إلى والي البحرين أمر بقطع يديه وقدميه، ودفنه حيّاً^(٢).

وعبر المثل عن هذه القصة بكلمتين فقط ليشير إلى القصة أولاً، ثم ليستخلص نتیجتها ثانياً، معبراً عن الإنسان الذي يسعى إلى حتفه بنفسه، واستخدم «صحيفة المتلمّس» ليعبر عن هذه القصة المشهورة دون الخوض في أحداثها وتفاصيلها، وإنّما اعتمد المثل على شهرة القصة من ناحية، وعلى معرفة المتلقّي بها من ناحية أخرى.

فالمثل السابق اختصر قصّة المتلمّس وألّمح إليها إلماحاً في كلمتين، كما أنّه جعلها نموذجاً في مجالها، وجعل كلّ الحالات التي يسير فيها الإنسان إلى هلاكه بنفسه «صحيفة المتلمّس» على اختلاف شخوصها وتفاصيلها مردّها كلّها إلى قصّة واحدة، ولا شك أنّ هذا من التكثيف الذي تمتاز به الأمثال؛ «فهي كلمات قليلة يسيرة تحمل الكثير من المعاني؛

١ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢١١٣)، ج ٢، ص ١٩٠-١٩٢.

٢ - ينظر: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٩٠-١٩٢.

وتطوي الكثير من التفصيلات، وتستشير على قَلَّتْها أحداثًا ووقائع تاريخية ذات دلالات متعددة^(١).

وقريب من المثل السابق قولهم: «جزاء سِنَّار»^(٢)، وسِنَّار هذا رجل «رومي بَنَى الخَوَزَنَقَ الذي بظَهْر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس، فلَمَّا فرغ منه ألقاه من أعلاه فَخَرَّ ميتًا، وإنَّما فعل ذلك لثلاثي يني مثله لغيره، فضربت العرب به المثل لمن يجزي بالإحسان الإساءة»^(٣). والمثل هنا اجتزأ القصة واستخلص نتيجهتها، وعبر بواسطتها عن أمر يتكرر كثيرًا في حياة الناس، وهو سوء الجزاء، وتقديم السوء ردًّا على فعل الحسن، وهو بذلك يعتمد على ذاكرة اللفظ في قصة سِنَّار مع الملك النعمان، دون أن يُدخل المتلقي في تفاصيل القصة. وما ينطبق على المثليين السابقين ينطبق على كثير من الأمثال الأخرى القائمة على «أفعل التفضيل» عند ذكر الأسماء؛ فقد أفرد الميداني في مجمعه عند الانتهاء من ذكر الأمثال حسب التقسيم الهجائي في كل باب، بابًا أسماء «ما جاء على أفعل من هذا الباب»، وأورد أسماء عديدة تختلف باختلاف الأمثال؛ فمن الأسماء ما عُرف بالجلود أو البلاغة أو الإقدام.... ومما يعتمد المثل في التكثيف بواسطة ذاكرة اللفظ، عرض تلك الأسماء وذكر ما اشتهر عنها من صفات، مشيرًا إلى المتلقي بها دون الخوض في سيرة ذلك الشخص، وما عُرف عنه من فَرادة صنعه في الصفة التي انماز بها عن غيره من الناس.

كقول المثل: «أجود من حاتم»^(٤)، وحاتم الطائي شخصية مشهورة في الثقافة العربية بالجلود، ولها من القصص ما ترخر به أمهات كتب الأدب، كلها تدور حول جوده وسخائه وإيثاره الضيف على نفسه، وعبر المثل عن حاتم بصيغة التفضيل «أفعل»، فقال: «أجود من حاتم»، وسكت عن إيراد قصصه وتفاصيل سيرته، واعتمد على الذاكرة المخبوءة تحت هذا الاسم العَلَم في المثل، فإذا سمع المتلقي هذا الاسم في المثل فإنه يتجه بذاكرته إلى هذه الشخصية الشهيرة، ويستعيد القصص التي تدور حولها في صفة الجود. والمثل هنا يتكئ على الخلفية الثقافية أو الذهنية الجماعية، التي جعلت المثل يستعمل التكثيف

١- عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص ٢٥٦.

٢- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٨٢٨) ج ١، ص ٢٤٥.

٣- المرجع السابق، ج ١، ص ٢٤٥.

٤- نفسه، رقم المثل (٩٧٧) ج ١، ص ٢٨٢-٢٨٣.

عند التعرّض لصفات هذه الشخصيات، واتّكأ على ما لهذه الأسماء من ذاكرة شديدة الانتقاد في الوجدان المجتمعي في الثقافة العربيّة.

وغير ذلك كثير من الأسماء المتناثرة في جَنَبَات مجمع الأمثال التي اشتهرت بصفات بعينها استحقّت بواسطتها أن يكون لها ذاكرة حاضرة في أذهان الناس، استطاع المثل بواسطتها أن يؤدّي وظيفة معتمداً عليها، ولو لم يكن لتلك الأسماء حضور في الذهنيّة الثقافية لأصبحت الأمثال التي تنتظمها عديمة الجدوى، أو قاصرة في تبليغ الرسالة التي تريد إيصالها. لهذا كله فإنّ ذاكرة اللفظ تؤدّي أثراً لافتاً في تميّز المثل العربي؛ إذ أسهمت في تأدية المثل مهمته التواصلية التفاعلية مع الأحداث والقصص والشخصيات من جانب، ومع المتلقّي من جانب آخر؛ إذ ينبنى المثل في خصيصة التكثيف على عملية تفاعلية يقوم بها بالتناسّ مع معطيات الثقافة، مع براعة المتلقّي في التقاط تلك الرموز التي يأتي بها المثل تاركاً للمتلقّي إسقاطها على مظانّها من الثقافة^(١).

٣- بلاغته في سياقه؛ فهو كالوَمُضْة الدالّة عبّر الفارابي عن ذلك بقوله: «وهو من أبلغ الحكمة»^(٢)، يقول ابن خلدون: «قد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيراً بحال هذه الملكة، وهو قليل واتفقي، وأكثر ما يقع للمخالطين (الكتاب) لسيويوه، فإنّه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط، بل ملأ كتبه في أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة، فتجد العاكف عليه، والمحصّل له قد حصل على حظّ من كلام العرب، واندرج في محفوظه في أماكنه ومفاصل حاجاته، وتنبّه لشأن الملكة فاستوفى تعليمها، فكان أبلغ في الإفادة»^(٣).

ويقول شوقي ضيف: «وقد أكثر العرب في صنع الأمثال وضرّ بها في جميع أحداثهم وشؤون حياتهم، وكثيراً ما كانوا يسوقونها في خطاباتهم»^(٤).

١ - ينظر: إبراهيم محمد الزهراني، الأنساق الثقافية في مجمع الأمثال للميداني: دراسة تحليلية، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور سالم الهدروسي، جامعة اليرموك، إربد - الأردن، ٢٠١٢، ص ١٠٨.

٢ - الفارابي، ديوان الأدب، ج ١، ص ٧٤.

٣ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الواحد وافي، نهضة مصر، ط ٣، د.ت، ج ٣، ص ١٢٨٧-١٢٨٨.

٤ - شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، ص ٢٢.

ويقول أحمد أمين: «كانت دلالة الأمثال على لغة الشعوب أصدق من دلالة الشعر»^(١)، ومن الأمثال الدالة على ذلك: «إِنَّ الْجَبَانَ حَتَفَهُ مِنْ فَوْقِهِ»^(٢)، ومنه: «إِنَّ الْهَوَانَ لِلنَّيْمِ مَرَامٌ»^(٣)، و: «رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ»^(٤)، و: «رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا»^(٥)، و: «كُلُّ فَتَاةٍ بِأَيِّهَا مُعْجَبَةٌ»^(٦)، و: «كَمَا تَدِينُ تُدَانُ»^(٧)، و: «قَتَلَ الرَّجُلُ بَيْنَ فِكَيْهِ»^(٨)، و: «مَاتَ حَتَفَ أَنْفِهِ»^(٩).

٤- قابليته للتعميم؛ فصياغته تؤهله لهذا التعميم في الحالات المشابهة جميعاً. وقد أشار مدوّنو الأمثال إلى هذه السمة، فمثلاً يقول الزمخشري: «ولأمر ما سبقت أراعى الرياح وتركيتها كالراسنة في القيود، بتدارك سيرها في البلاد، مصعدة ومصوبة، واختراقها الأفاق مشرقة ومغربّة حتى شبهوا بها كلّ سائر أمعنوا في وصفه وشارد لم يألوا في نعته»^(١٠). ووصف ابن عبد ربه الأمثال بأنها «وشيّ الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني، تحيّرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كلّ زمان، وعلى كلّ لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء سيرها، ولا عمّ عمومها»^(١١).

ويتبدّى من كلام ابن عبد ربه مدى الاهتمام بالناحية البلاغية التي يوضّحها المثل في الكلام، ومدى تأثير الجانب البلاغي في مسير المثل بين الناس وبقائه، ويُعزى ذلك إلى أنّ الأمثال اختيرت من بين مثيلاتها من العبارات، وزادها فضلاً أنّها تقدّمت على غيرها من الكلام. إنّ ممّا يميّز المثل اقترانه بالحقائق المشتركة، وانفتاحه على التجربة العامة التي لا تتقيّد

١- أحمد أمين، فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٦، ص ٩٨.

٢- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٠) ج ١، ص ١٧.

٣- المرجع السابق، رقم المثل (٣٠) ج ١، ص ٢٣.

٤- نفسه، رقم المثل (١٥٤٦) ج ٢، ص ٣٠-٣١.

٥- نفسه، رقم المثل (١٥٥٥) ج ٢، ص ٣٣-٣٤.

٦- نفسه، رقم المثل (٣٠٠٦) ج ٣، ص ١٠-١١.

٧- نفسه، رقم المثل (٣٠٩٣) ج ٣، ص ٣٨.

٨- نفسه، رقم المثل (٣٧٦٩) ج ٣، ص ٢٠٦-٢٠٧.

٩- نفسه، رقم المثل (٣٧٧٠) ج ٣، ص ٢٠٧.

١٠- ينظر: الزمخشري، مقدمة المستقصى، ج ١، صفحة ب.

١١- ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٣، ص ٧.

بتجربة قائل المثل الأوّل الذاتية، ولا تختص بالسياق الخاص الذي نشأت فيه، وإنّما تنزع إلى ملابسة جميع الأحوال المماثلة لمضمونها، وقد يسّر لها هذا الأمر الالتحام بتجارب الآخرين في ظروف تاريخية مغايرة، ممّا جعلها تكتسب صفة الصورة النموذجية التي تتميز بطابعها اللامكاني واللازماني كما في الأمثال الآتية: «إِذَا ضَرَبْتَ فَأَوْجَعْ وَإِذَا رَجَرْتَ فَاسْمِعْ»^(١)، و: «إِنْ كُنْتَ رِيحًا فَقَدْ لَاقَيْتَ إِعْصَارًا»^(٢)، و: «إِنْ لَمْ تَغْلِبْ فَاخْلُبْ»^(٣)، و: «إِذَا طَلَبْتَ الْبَاطِلَ أَبْدَعَ بِكَ»^(٤)، و: «إِذَا نَزَا بِكَ الشَّرُّ فَاقْعُدْ بِهِ»^(٥)، و: «إِلَيْكَ يُسَاقُ الْحَدِيثُ»^(٦)، و: «إِنَّكَ لَا تَجْنِي مِنَ الشُّوْكِ الْعَنْبَ»^(٧)، و: «إِنْ أَخَاكَ مِنْ آسَاكَ»^(٨)، و: «إِذَا لَمْ تُسْمِعْ فَأَلْمَعْ»^(٩)، و: «أَحْسِنْ وَأَنْتَ مُعَانٌ»^(١٠).

ويلحظ أنّ هذه الأمثال جاءت مفتوحة على عامّة الناس دون تحديد شخصية المخاطب، ولذلك تشيع في الأمثال ضوائر الحياد تلك التي لا تختص بمتكلّم نطق بها، ولا تعني متلقّيًا بعينه، وإنّما تنفتح على المتلقّي النموذجي الذي ينسلخ عن قيود الجنس والزمان، فيستقل بذاته عنهما ويعيش في مقام مجرد يفتح على التجربة العامّة، ومن طبيعة هذا الضمير أنّه ينتشر ويشيع بين الناس، وهذا ما يجعل من المثل كلامًا لا يتوجّه إلى معلوم ينحصر في متلقٍّ محدّد بقدر ما يتوجّه إلى كلّ المتلقّين، من حيث إنّهم أفراد تجري عليهم قوانين الوجود وأحكامه، ولذلك يكون مجاله المشترك بين الناس لا ما ينفرد به بعضهم، ولذلك يقبل التعميم.

١ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١١١) ج ١، ص ٤٦.

٢ - المرجع السابق، رقم المثل (١١٣) ج ١، ص ٤٦.

٣ - نفسه، رقم المثل (١٣٦) ج ١، ص ٥٢.

٤ - نفسه، رقم المثل (١٧٠) ج ١، ص ٦٥-٦٦.

٥ - نفسه، رقم المثل (١٧١) ج ١، ص ٦٦.

٦ - نفسه، رقم المثل (١٨٥) ج ١، ص ٧٠.

٧ - نفسه، رقم المثل (٢٠٩) ج ١، ص ٧٦.

٨ - نفسه، رقم المثل (٣٦٢) ج ١، ص ١١٠-١١١.

٩ - نفسه، رقم المثل (٣٩٥) ج ١، ص ١١٨.

١٠ - نفسه، رقم المثل (١١٥٦) ج ١، ص ٣٣٠.

٥- حُسْن التشبيه: من سمات المثل حُسْن التشبيه، بل إنّ المادة اللغويّة (م ث ل) تدل على المشابهة، ومن ثم جعل بعض العلماء التشبيه سمة أساسيّة في المثل، وقد اتفق ابن سلام ومعاصره إبراهيم النّظام على أنّ هذه الخصيصة من أظهر خصائص الأمثال، بقولهما: «حسن التشبيه»^(١).

ويشرح عبد القاهر الجرجاني وظيفة التشبيه في قوله: «وهل تشكُّ في أنّه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بُعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المُشَيِّم والمُعَرِّق، وهو يُريك للمعاني الممثّلة بالأوهام شَبَهَا في الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، ويُنطق لك الآخرس، ويُعطيك البيان من الأعجم، ويُريك الحياة في الجهاد، ويريك الثّام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين»^(٢)، وكلّ هذا الوصف يفسّر اختيار المرسل لبنية المثل اللغويّة وعاءً لمكوّنه التّصوّري في سياقات متعدّدة، دون غيرها من الأبنية اللغويّة.

وإذا كان التشبيه بجميع صوره وأشكاله من أساليب البيان المتّفق على بلاغتها؛ فإنّه في الأمثال يبلغ قمّة البلاغة، ويحتل ذروتها؛ ذلك أنّ مضارب الأمثال تكون عادة من المعاني المعقولة التي قد يصعب تصوّرها واستكناه حقيقتها، ومن ثم يلجأ الناس إلى ضرب الأمثال لها بأمور حسية، وأحداث واقعيّة، فلا تلبث هذه المعاني المعقولة أن تبرز من الخفاء حتى تكون في متناول الحواس الظاهرة.

وتوضيحاً لحُسْن التشبيه في الأمثال أسوق هذا المثل: «قبل الرماء تملأ الكنائن»^(٣)؛ إذ هو يضرب في الاستعداد للأمر قبل حلوله، وهو معنى معقول شبه بحالة حسية، هي حالة الرجل يستعد للرمي قبل أوانه، فيملأ جعبته سهاماً؛ فالمضرب هنا وهو المراد أمر معقول لا يُدرك إلا بالفكر والنظر، وهذا يعني أنّ العرب لجأوا إلى صورة حسية منتزعة من البيئّة، فشَبَّهوا بها تلك المعاني المعقولة وأخرجوها بهذا التشبيه من الخفاء والإبهام إلى الوضوح والجلاء.

١- أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمثال، ص ٣٤. وينظر رأي إبراهيم النّظام، في مجمع الأمثال للميداني، المقدمة، ج ١، ص ١٢.

٢- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ١١١.

٣- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٨٦٨) ج ٢، ص ٤٠٤.

ومن الأمثال التي برز فيها حُسن التشبيه: «إِنَّ الْجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ»^(١)، و: «كفائق عَيْنُهُ عَمْدًا»^(٢)، و: «الْمُكَنَّاظُ كَحَاطِبِ لَيْلٍ»^(٣).

٦- ينماز بخصائص تركيبيّة ودلاليّة جعلته مؤثراً فيمن سمعه، وينماز عن غيره من العبارات بصورة جليّة واضحة، يقول الجاحظ: «وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع، ومدار العلم على الشاهد والمثل»^(٤)، وعبر الفارابي عن ذلك بقوله: «المثل ما ترصاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء...؛ لأنّ الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصّر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة»^(٥). ويقول أبو الحسن اليوسي: «فلا يخفى على ذي ميز ولا يشته على ذي لب ما جعل الله تعالى في المثل من الحكمة، وأودع فيه من الفائدة، وناط به من الحاجة، فإنّ ضرب المثل يوضح المنبهم، ويفتح المغلق»^(٦). فالمثل من جهة هو صناعة صورة ما، ومن جهة ثانية إفراز لأثر نفسي مساعد على الاقتراب من الحقيقة المراد إيصالها، بل إنّ إيراد مثل (ما) يوازي في قيمته المعرفيّة، المعرفة التي تقدّمها «البرهان»، وتقدّمها المعرفة الظنيّة التي يحقّقها الجدل والمعرفة الإقناعيّة الممثّلة في الخطابة، ومن الأمثال الدالّة على ذلك: «السَّاءُ شَقَائِقُ الْأَقْوَامِ»^(٧)، و: «إِيَّاكُمْ وَخَصَرَاءَ الدَّمَنِ»^(٨)، و: «إِذَا زَلَّ الْعَالِمُ زَلَّ بَرَزَتِهِ عَالَمٌ»^(٩)، و: «إِنْ لَمْ يَكُنْ وَفَاقٌ فَفِرَاقٌ»^(١٠)، و: «حَمِيمُ الْمَرْءِ وَاصِلُهُ»^(١١)، و:

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٠) ج ١، ص ١٧.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٣١٧٩) ج ٢، ص ٨٥.

٣- نفسه، رقم المثل (٤٠٣٦) ج ٣، ص ٢٧٦.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٠.

٥- الفارابي، ديوان الأدب، ج ١، ص ٧٤.

٦- الحسن اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ج ١، ص ٣٤.

٧- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٠٨) ج ١، ص ٤٥.

٨- المرجع السابق، رقم المثل (١٢٦) ج ١، ص ٤٩-٥٠.

٩- نفسه، رقم المثل (١٧٣) ج ١، ص ٦٦.

١٠- نفسه، رقم المثل (٢٠٥) ج ١، ص ٧٦.

١١- نفسه، رقم المثل (١٠٥٠) ج ١، ص ٣٠٥-٣٠٦.

«رَضَا النَّاسُ غَايَةً لَا تُذَرُّكَ»^(١)، وهذا متّصل بتحقيق غرض النص، وهو مطلب رئيس في نجاح النصوص وقبولها.

٧- تشكّل الأمثال نقطة تحوّل في سياقها الأوّل الذي قيلت فيه، تحوّل لغوي وتحوّل سياقي، ولذلك وصفها أبو عبيد القاسم بن سلام بأنّها: «حكمة العرب في الجاهليّة والإسلام، وبها كانت تُعارض كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق، بكناية غير تصريح»^(٢)، فيوضّح أنّ المثل حكمة ناتجة عن التجربة، ويرى أنّ التعبير بالمثل كناية بطريقة غير مباشرة، مشيرًا إلى دلالته (الإيحائية).

جاء في المثل: «ارم فقد أفتقه مريشا»^(٣)، وهو مثل «يُضرب لمن تمكّن من طلبته»^(٤)، فإذا حدث من الموقف ما يُشبه هذا الموقف من بلوغ المراد، فإنّ الممثل يعبر عنه بهذا المثل، وإن كان الموقف الأخير بعيدًا كلّ البعد عن الرماية؛ إذ اتّفق الموقفان في تحقّق الغاية المقصودة.

ومن ذلك المثل المشهور: «يذاك أوكتا وفوك نفخ»^(٥)، وأصله «أنّ رجلاً كان في جزيرة من جزائر البحر، فأراد أن يعبر على زق نفخ فيه فلم يحسن إحكامه، حتى إذا توسّط البحر خرجت منه الريح فغرق، فلما غشيه الموت استغاث برجل، فقال له: يذاك أوكتا وفوك نفخ»^(٦)، يُضرب لمن يجني على نفسه بسوء تديره، ولكنّ المتكلّم أخفى المعنى وجاء بالمثل السابق ليكنّي عن معناه الخفيّ، ولو لم يكن في الموقف الذي يريد التعبير عنه أيّ شيء يتعلّق بالنفخ أو شدّ الوكاء.

٨- يعبر عن حالات وسياقات قابلة للتجدّد والإعادة في بيئات اجتماعيّة مختلفة، وهي خصيصة نادرة للنصوص؛ إذ المعتاد أنّ النص ابن بيئته، وهو متبدّل مختلف بحسب البيئة الاجتماعيّة التي أنتجته، أمّا المثل فهو ذو بعد إنساني يخاطب بيئات مختلفة، ويقبله الناس

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٥٨٤) ج ٢، ص ٤٢.

٢- أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمثال، ص ٣٤.

٣- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٦٧٧) ج ٢، ص ٦١.

٤- المرجع السابق، ج ٢، ص ٦١.

٥- نفسه، رقم المثل (٤٦٥٥) ج ٣، ص ٤٣٧.

٦- نفسه، ج ٣، ص ٤٣٧.

على اختلاف بيئاتهم الاجتماعية، عبّر عن ذلك الفارابي بقوله: «المثل ما ترضاه العامة والخاصة»^(١)، يقول إبراهيم السامرائي «إنّ للأمثال قوّة على البقاء؛ لأنّها عصارة تجارب إنسانية، فهي تزخر بالحياة التي عمرت بها على مرّ العصور، ولما كانت الأمثال لوّناً من ألوان الحياة، فلا بد لها من مقوّمات تجعل لها القدرة على المحافظة على كيانها، ومن هذه المقوّمات استعمالها بين الخاصة والعامة، وتداولها في كلّ لسان، ذلك التداول الذي أكسبها بقاء، وأمدّها بحياة عبر الأيام»^(٢).

تنشأ الأمثال نتيجة تأمل الحياة وأحداثها أو نتيجة للتجارب التي تتمخض عن خبرات ومعارف صحيحة، ومن ثم تتسم دائماً بالصدق والواقعية، ولولا ذلك ما تلقّاها الناس بالقبول والاستحسان، وما تداولوها واستشهدوا بها في كلامهم.

ومواقف الحياة تتكرّر ويُعيد بعضها نفسه نسبياً، وما يحدث بالأمس يحدث اليوم أو غداً، ولهذا تُصيب الأمثال المعاني دائماً وتقع منها في الصميم؛ فالأمثال صائبة المعنى في ذاتها، وأصبح لها من التأثير والسلطان عند الشعوب ما لنصوص القوانين، ولهذا جاء كثير منها في صيغ الأحكام العامة، كصيغة الجملة الاسميّة التي تدلّ على الثبات والدوام، وصيغة الجملة الاسميّة التي تفيد الشمول والعموم، وصيغة الجملة الشرطيّة التي تدلّ على ترتّب شيء على شيء^(٣).

فالمثل من حيث المعنى يدور حول حقائق بسيطة من قبيل البدهيات الشائعة، التي تعتمد معنًى عقلياً محضاً «يشهد له العقل بالصحة، ويعطيه من نفسه أكرم النسبة، وتتفق العقلاء على الأخذ به، والحكم بموجبه في كلّ جيل وأمة، ويوجد له أصل في كلّ لسان ولغة»^(٤)، وهو يؤسّس حضوره (عبر التاريخي) في عدم انغلاقه على زمان ومكان معيّنين، وفي توجيهه -أثناء سعيه لالتقاط وقائع صيغته وتجارب أناسه- إلى تقديم وصف أثولوجي (بانورامي) لشخصيّة الأمة خلال مراحلها المختلفة، ومن ذلك قولهم: «أول الحزم المشورة»^(٥)، و«الحقّ

١ - الفارابي، ديوان الأدب، ج ١، ص ٧٤.

٢ - إبراهيم السامرائي، في الأمثال العربية، ص ١٤٣.

٣ - ينظر: عبد المجيد قطامش، الأمثال العربيّة، ص ٢٦٠-٢٦١.

٤ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ١٩٠-١٩١.

٥ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢١٥) ج ١، ص ٢٧٧-٢٧٨.

أبلج»^(١)، و«قبل الرماء تملأ الكنائن»^(٢)، ومن النماذج التي تعبر عن ذلك أيضاً، قولهم: «تأبى له ذلك بناتُ ألببي»^(٣)، قالوا: «أصل هذا أن رجلاً تزوج امرأة وله أمٌ كبيرة، فقالت المرأة للزوج: لا أنا ولا أنت حتى تُخرج هذه العجوز عنا، فلما أكثرَتْ عليه احتملها على عنقه ليلاً، ثم أتى بها وادياً كثير السباع فرمى بها فيه. ثم تنكر لها، فمرَّ بها وهي تبكي، فقال: ما يبكيك يا عجوز؟ قالت: طرَحني ابني ههنا وذهب وأنا أخاف أن يفترسه الأسد، فقال لها: تبكين له وقد فعل بك ما فعل؟ هلا تدعين عليه، قالت: تأبى له ذلك بناتُ ألببي. قالوا: بناتُ ألبب: هي عُرُوقٌ في القلب تكون منها الرُقَّة»^(٤).

٩- يحمل المثل سمناً خاصاً «غريباً» بتعبير الزمخشري، يقول: «ولم يضربوا مثلاً، ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولا جديراً بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثم حُوفِظ عليه، وُحْمِي من التغيير»^(٥)، وذكر التهانوي كلاماً قريباً من كلام الزمخشري، حيث قال: «وللأمثال تأثير عجيب في الآذان وتقريب غريب لمعانيها في الأذهان، ولكون المثل ممّا فيه غرابة استعير لفظه للحال أو الصفة أو القصّة إذا كان لها شأنٌ عجيب ونوع غرابة»^(٦). فقبول المثل وانتشاره في الناس مهمّاز يقود إلى القول بغرابته؛ ذلك أنّ المثل إذا جاء في الكلام رفعه وأثبتته وجعله حجّة لقائله، يقول أبو هلال العسكري: «ثمّ إنّي ما رأيتُ حاجة للشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن كحاجته إلى الشاهد والمثل والشذرة والكلمة السائرة، فإنّ ذلك يزيد المنطق تفخيماً، ويُكسبه قبولاً ويجعل له قدرًا في النفوس وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيها ويبعثها على حفظه ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة والاستظهار به أو ان المجاورة في ميادين المجادلة والمصاولة في حلّبات المفاولة، وإنّما هو في الكلام كالتفصيل في العقد والتنوير في الرّوض والتسهيّم في البرد»^(٧).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١١٠٠) ج ١، ص ٣١٨.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٢٨٦٨) ج ٢، ص ٤٠٤.

٣- نفسه، رقم المثل (٦٦٣) ج ١، ص ١٩٧.

٤- نفسه، ج ١، ص ١٩٧.

٥- الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ١٩١.

٦- التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج ٢، ص ١٤٥٠.

٧- أبو هلال العسكري، جهرة الأمثال، ج ١، ص ١٤.

وما امتاز المثل بهذه المزايا إلا لأنّه عصارة فكر العربي، ومنتهى بلاغته، وأقرب الكلام وأكثره تسديدًا في وصف الموقف والتعبير عنه.

١٠- يحمل المثل سماتًا تركيبياً ثابتاً غير قابل للتغيير؛ لأنّه أصبح شكلاً أيقونياً يشبه إشارات المرور أو العلامات الدالّة حولنا، وقد جاء الكلام بالمثل وأخذ به وإن كان ملحوناً؛ لأنّ العرب تُجري الأمثال على ما جاءت، وقد تستعمل فيها الإعراب، والأمثال قد تخرج عن القياس، فتحكى كما سمعت، ولا يطرد فيها القياس، فتخرج عن طريقة الأمثال؛ لأنّ من شرط المثل ألا يغيّر عمّا يقع في الأصل عليه^(١)، يقول ابن جنّي: «الأمثال عندنا وإن كانت منشورة تجري في تحمّل الضرورة لها مجرى المنظوم في ذلك»^(٢)، ونقل عن أبي علي الفارسي علة ذلك: «قال أبو علي: لأنّ الغرض في الأمثال إنّما هو التسيير، كما أنّ الشعر كذلك، فجري المثل مجرى الشعر في تجوّز الضرورة فيه»^(٣).

ويفصح الزمخشري عن السرّ في المحافظة على ألفاظ المثل وحمايته من التغيير بأنّه متمثل في نفاسة المثل وغرابته، يقول: «ولم يضربوا مثلاً، ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولا جديراً بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثمّ حُوْظ عليه، وحُمي من التغيير»^(٤).

وقد عدّ بعض العلماء الأمثال من المواضع التي يلتزم فيها بصورة واحدة، وأنّه يُباح فيها مخالفة القاعدة المطّردة في النحو، يقول سيبويه في باب (الابتداء بالنكرة): «أمّا قوله: شيء ما جاء بك، فإنّه يحسّن، وإنّ لم يكن على فعل مضمر؛ لأنّ فيه معنى ما جاء بك إلا شيء، ومثله مثّل العرب: (شرّ أهرّ ذاناب)^(٥)، وعقّب ابن جنّي على هذا المثل بأنّ قائل هذا المثل «سمع هرير كلب فخاف منه وأشفق لاستماعه أن يكون لطارق شرّ، فقال: شرّ أهرّ ذاناب، أي ما أهرّ ذاناب إلا شرّ؛ تعظيماً عند نفسه، أو عند مستمعه، وليس هذا في نفسه كان يطرق بابّه

١- ينظر: السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٨٧-٤٨٨.

٢- ابن جنّي، المحتسب، تحقيق مصطفى الحلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٥٤، ج ٢، ص ٧٠.

٣- المرجع السابق، ج ٢، ص ٧٠.

٤- الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ١٩٥.

٥- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ) الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، القاهرة، ط ١، ١٩٦٦، ج ١، ص ٣٢٩.

ضعيفٌ أو يَلَمُّ به مُستَرشد، فلمّا عناه وأهمّه وَكَّدَ الإخبار عنه، وأخرج القول مخرج الإغلاظ به والتأهيب، لما دعا إليه^(١).

ويؤكد المرزوقي ما سبق بقوله: «من شرط المثل ألا يُغيّر عمّا يقع في الأصل عليه»^(٢). ويقول شوقي ضيف: «إذا كان القصص الذي أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للشعر الجاهلي بحكم تأخره في التدوين، فإنّ الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة؛ إذ إنّ من شأنها أن لا تُغيّر، وأن تظلّ طويلًا بصورتها الأصلية بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة»^(٣).

مما سبق يمكن القول إنّ من حقّ المثل أن تُحمى صيغته وألفاظه من التغيير، وأن يبقى على ما جاء عليه مهما اختلفت المضارب والأحوال؛ لأنّ المساس به يخلّ بمدلوله، ويخرجه من باب الاستعارة وجودة الكناية من ناحية، ومن ناحية أخرى تفقد الأمثال كثيرًا من قيمتها الأدبية واللغوية والتاريخية إذا تعرّضت للتغيير، ومن ثمّ أجازت العرب لضارب المثل الخروج فيه على قواعد اللغة بدعوى الضرورة كالشعر؛ لأنه قد يصدر شعراً أو سجعاً، وقد يصدر عن أفواه أناس لا يبالون بالقواعد^(٤)، لذلك فإنّه لا تغيّر صورته مهما كان مخالفاً لقواعد اللغة حفاظاً على سمة الثبات؛ إذ تحمل الأمثال، بين أهم ما تحمل، أطياف التجربة الإنسانية وهي تنعكس أبنيةً وأنساقاً على مرآة العقل.

فالعبرة المسكوكة تمثل «قوة تعبيرية حادة ثابتة؛ إذ إنّها تحتوي على نموذج الواقعة الأسلوبية التامة، أي تتكوّن من مجموعة ثنائية مؤلفة من سياق أصغر وعنصر مضاد لهذا السياق، وتضاد الطرفين المكوّنين لها - في تقابلها وعدم قابليتهما للانفصال - يجعلها مبتورة، وذات تأثير محفوظ، كما أنّ هذا التأثير يتعزّز بالسياق الأكبر الذي أدرجت فيه العبارة المسكوكة نتيجة لعدم قابليتها للانصهار، واتّضح بروزها من جميع الجوانب»^(٥).

١ - ابن جنّي، الخصائص، ج ١، ص ٣٢٠.

٢ - السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٨٨.

٣ - شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط ١١، د.ت، ص ٤٠٤.

٤ - ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج ٨، ص ٣٥٩.

٥ - صلاح فضل، علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٥، ج ٨، ص ١٧٥.

كما أنّه -أي المثل- بجمالته المتفرّدة، يستحق أن يمتلك جبروتاً رمزياً يحفظه من التغير والتبدل؛ إذ إنّ بكلّ تفاصيله ثروة لغويّة، صبّ فيها العربيّ جام بلاغته وسبائك فصاحته ونحيزته التعبيريّة البديعة، فاكتمب بهذا كلّ حصانة على مرّ العصور، وهذا ما ذهب إليه أبو هلال العسكري، حين قال: «ويقولون: الأمثال تُحكى؛ يعنون بذلك أنها تُضرب على ما جاءت عن العرب، ولا تُغيّر صيغتها»^(١).

ولذلك فإنّ المثل لا يتغيّر منه شيء في الأفراد والثنية والجمع والتذكير والتأنيث؛ فيُخاطَب به الجمع وهو في الأصل قيل في شخص مُفرد، ويُخاطَب به المذكر وهو في أصله قيل في أنثى، إنّما يُراعَى فيه مطابقة المثل في حال مضربه له في حال مورده؛ فالعرب لا يغيّرون من صيغة المثل ولا ألفاظه، فيقولون للرجل: «أطريّ فإنك ناعلة»^(٢)، والإطار: «أن تركب طُرّ الطريق، وهي نواحيه، وقال ابن السكيت: معناه أدليّ، وقال أبو عبيد: معناه اركب الأمر الشديد فإنك قويّ عليه، قال: وأصله أن رجلاً قال لراعية كانت له ترعى في السهولة وتَدْعُ الحزونة: أطريّ، أي خُذي طُرّ الوادي وهي نواحيه، فإنّ عليك نعلين، قال: أحسبه عني بالنعلين غلظَ جلد قَدَمَيْهَا، يُضرب لمن يؤمر بارتكاب الأمر الشديد لاقتداره عليه، ويستوي فيه خطابُ المذكر والمؤنث والجمع والاثنين على لفظ التأنيث، كذا قاله المبرد وابن السكيت»^(٣).

ومن ذلك أيضاً قولهم: «الصَّيْفُ ضَيَّعَ اللبن»^(٤)، والتاء من «ضيّعت» مكسورة في كلّ حال إذا خُوطب به المذكر والمؤنث والاثنان والجمع؛ «لأنّ المثلّ في الأصل خُوطبت به امرأة، وهي دَخْتَنُوس بنت لقيط بن زرارة كانت تحت عمرو بن عدّاس، وكان شيخاً كبيراً ففَرَّقَتْهُ»^(٥) فطلّقها، ثم تزوجها فتى جميل الوجه، أَجْدَبَتْ فبعثت إلى عمرو تطلب منه حلوبة، فَقَالَ عمرو «في الصيفِ ضيَّعتِ اللبن» فلمّا رجع الرسولُ، وقال لها ما قال عمرو، ضَرَبَتْ يَدَهَا على منكب زوجها، وَقَالَتْ «هذا ومَدَّقُهُ خَيْرٌ» تعني أنّ هذا الزوج مع عدم

١ - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج ١، ص ٥.

٢ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٢٦٦) ج ٢، ص ٢٣٥.

٣ - المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٣٥.

٤ - نفسه، رقم المثل (٢٧٢٥) ج ٢، ص ٣٥٨.

٥ - فركته أي كرهته. ينظر لسان العرب (فرك).

اللبن خيرٌ من عمرو، فذهبت كلماتها مثلاً، فالأول يضرب لمن يطلب شيئاً قد فوّته على نفسه، والثاني يضرب لمن قَنَعَ باليسير إذا لم يجد الخطير.، وإنّما خصّ الصيف؛ لأن سؤالها الطلاق كان في الصيف^(١).

ومن ذلك، المثل: «مُحْسَنَةٌ فَهَيْلِي»^(٢)، أصله «أنّ امرأة كانت تُفَرِّغُ طعاماً من وعاء رَجُلٍ في وعائها، فجاء الرجل، فذهِشَتْ، فأقبلت تفرغ من وعائها في وعائه، فَقَالَ لها: ما تصنعين؟ قَالَتْ: أهيل من هذا في هذا، فَقَالَ لها: مُحْسِنَةٌ -أي أنت محسنة- فَهَيْلِي، ويروى «محسنة» بالنصب على الحال، أي هَيْلِي محسنة، ويجوز أن ينصب على معنى أراك محسنة، يضرب للرجل يعمل العمل يكون فيه مصيباً»^(٣).

ومن ذلك قولهم: «أعِطِ القوس باريها»^(٤)؛ فإنّه يُروى بتسكين الياء في (باريها)، والقياس فتحها، ومنه أيضاً: «أجناؤها أبناؤها»^(٥)، جمع جان وبان، والقياس: «جنااتها بناتها»؛ لأنّ فاعلاً لا يُجمع على أفعال.

١١- يجد المثل قبولاً ورَضَى لدى مستعملي اللغة «يتسم بالقبول ويشتهر بالتداول»^(٦)، وعبر عن ذلك الفارابي بقوله: «وهو من أبلغ الحكمة؛ لأنّ الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصّر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة»^(٧)، وقد أشار مدوّنو الأمثال إلى هذه السمة، فمثلاً يقول الزمخشري: «ولأمر ما سبقت أراغيل الرياح وتركها كالراسنة في القيود، بتدارك سيرها في البلاد، مصعدة ومصوّبة، واختراقها الآفاق مشرقة ومغربة حتى شبهوا بها كل سائر أمعنوا في وصفه وشارد لم يألوا في نعته»^(٨).

ووصف ابن عبد ربه الأمثال بأنّها «وشِيّ الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني، تختيرتها

١- الميداني، مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٣٥٨.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٣٧٦١) ج ٣، ص ٢٠٤-٢٠٥.

٣- نفسه، ج ٣، ص ٢٠٥.

٤- نفسه، رقم المثل (٢٤٤٥) ج ٢، ص ٢٨٥.

٥- نفسه، رقم المثل (٨٧٨) ج ١، ص ٢٥٧.

٦- السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٨٦.

٧- الفارابي، ديوان الأدب، ج ١، ص ٧٤.

٨- ينظر: الزمخشري، مقدمة المستقصى، صفحة ب.

العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان، وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء سيرها، ولا عم عمومها»^(١).
يقول ابن جني في كتابه (الخصائص): «ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعاً لذّ لسامعه فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله، ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنس النفس به ولا أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، ولم تُطالب أنفسها باستعمال ما وُضع له، وجيء به من أجله»^(٢).

ومن الأمثال الدالة على ذلك: «الرّفيق قبل الطّريق»^(٣)، و: «رُبَّ كَلِمَةٍ تَقُولُ لِصَاحِبِهَا دَعْنِي»^(٤)، و: «سَأَلْتُ اللَّهَ لَا يَخِيبُ»^(٥)، و: «عِنْدَ النَّازِلَةِ تَعْرِفُ أَخَاكَ»^(٦)، و: «كَمَا تَدِينُ تُدَانُ»^(٧)، و: «لَا تَعْدُمُ الْحَسَنَاءُ دَأْمًا»^(٨)، و: «الْمُزَاحَةُ تُذْهِبُ الْمَهَابَةَ»^(٩)، و: «مَنْ رَضِيَ بِالْيَسِيرِ طَابَتْ مَعِيشَتُهُ»^(١٠)، و: «النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ»^(١١).

وهذه الخصائص هي التي جعلت من المثل بنية مرنة من حيث الشكل والوظيفة، وأسهمت في جعله من المرويات الشفاهية المتوازنة؛ بوصفها تحمل ميزة ثقافية تؤثر في النفس وتدفعها إلى التأمل والعبرة، وهي سمات تجعل منه نصّاً ناجحاً إذا استعمل في سياقه المناسب.
يتّضح ممّا سبق:

١ - ينظر: ابن عبد ربه، مقدمة الجوهرة.

٢ - ابن جني، الخصائص، ج ١، ص ٢١٧.

٣ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٦٠٩) ج ٢، ص ٤٧.

٤ - المرجع السابق، رقم المثل (١٦٣٥) ج ٢، ص ٥٢.

٥ - نفسه، رقم المثل (١٨٤٨) ج ٢، ص ١١٠.

٦ - نفسه، رقم المثل (٢٥٥٨) ج ٢، ص ٣١١.

٧ - نفسه، رقم المثل (٣٠٩٣) ج ٣، ص ٣٨.

٨ - نفسه، رقم المثل (٣٤٩٧) ج ٣، ص ١٣١.

٩ - نفسه، رقم المثل (٣٩١٣) ج ٣، ص ٢٤٠.

١٠ - نفسه، رقم المثل (٤٠٩٢) ج ٣، ص ٢٨٢.

١١ - نفسه، رقم المثل (٤٢٣٠) ج ٣، ص ٣٢٢.

■ أن المثل نص له خصائص لغوية وجمالية ينماز بها عن غيره من الأساليب، جعلته سيّاراً ومحافظاً على صيغته.

■ وأن المثل نص تعبري ينطلق من تجربة إنسانية طويلة وعميقة، جعلته قالباً ملائماً، يعتمد عليه الخطباء والحكماء وذوو التجارب في مواعظهم وحكمهم وخبراتهم.

■ وأن المثل نص مؤثر، يتّجه نحو أفراد المجتمع، فيلقي في أنفسهم الإجلال له، ويقدم لهم خبرات لم يعانون مشقة مباشرتها، ونصحاً وإرشاداً يسرون على هديه في حياتهم، ولذلك ينفعون به سريعاً، ويمثلون لحكمه.

وهذا هو المثل في إنتاجه الأول، فهل هو نفسه النص المثل الذي استُجلب أو استُحضر ليلبي مقصداً جديداً؟ هل هو هو في تمثله الأول أم أنه يعدّ كلاماً جديداً؟

وفي جواب هذا السؤال أستحضر قوله ابن المقفّع التي أوردها في «الأدب الصغير والأدب الكبير»، يقول: «إن جُعل الكلام مثلاً كان ذلك أوضح للمنطق وأبين في المعنى، وأتق للسمع، وأوسع لشعوب الكلام»^(١)، وبناء على هذا فإن المرسل يستحضر في ذهنه صيغة كلامية معيّنة (تصوراً ذهنياً) ويلبسه صورة تركيبية جاهزة هي صيغة المثل، وعبر ابن المقفّع عن هذا بقوله: «إن جُعل الكلام مثلاً»، فهناك كلام المرسل (كلامه الذهني)، وهناك المثل (الصورة التركيبية الماثلة والجاهزة ودُمج بينهما بمقصديّة واضحة من المرسل عبر عنه الفعل (جُعِلَ) المبني للمجهول و(ال) العهدية في كلمة (الكلام) عند ابن المقفّع، أي كلام المرسل، ويفعل المرسل ذلك اعتقاداً منه بأن هذه الصورة التركيبية، أو هذا الرصف البنيوي الجاهز للمعنى، هو أكثر وضوحاً من رصفه الخاص للمعنى، وأكبر أثراً، وانظر إلى أسماء التفضيل التي يستعملها العلماء القدامى في وصف المثل «أوضح»، و«أبين»، و«أوسع» و«أتق»، و«أدق»، و«أكثر إصابة للمعنى».

وهو أدعى لفتح مسارب أخرى واسعة في سياق التواصل وتشعيب الكلام أو بلفظ ابن المقفّع «وأوسع لشعوب الكلام».

إنّ المتلقي إذاً بإزاء كلام جديد هو كلام المرسل، ولو بدا الشكل التركيبى المعاد نفسه في الإنتاج الأول، لكنّه من وجهة نظري كلام جديد أنتج وفقاً لمقصديّة مختلفة ومقام جديد، وصدر من مرسل مختلف وملتقى مختلف، وهو مجبولٌ بعواطف قائل جديد ونواياه وإحساسه

١ - ابن المقفّع، الأدب الصغير والأدب الكبير، ص ٢٧.

ونظرتة إلى العالم، وعلاقته بالمتلقي... وهو موجه إلى متلقٍ مختلف سيتلقاه تلقياً مختلفاً، وفق خبرته بالعالم، وثقافته وأحاسيسه وعواطفه وعلاقته بالمرسل، وبحسب طبيعة المقام الذي قيلت فيه العبارة/ النص، كما أنه يلبي غرضاً جديداً في مقامه التواصل الجديد. وهذا المتلقي الجديد المختلف، والإنتاج الجديد المختلف يجعل منه كلاماً جديداً، ونصاً جديداً فالمتلقي أمام نصين إذاً:

■ **النص الأول**، ويمثل الإنتاج الأول للمثل وهو حقيقي وعفوي مباشر، ويحيل إلى الحادثة التاريخية التي قيل فيها مباشرة.

■ **والنص الثاني**، وهو النص الجديد الذي يمثل الإنتاج المتجدد للمثل في سياقات التواصل المختلفة.

وهو موافق للنص الأول في بنيته السطحية الماثلة (بنية الرصفية أو التركيبية)، ولكنه يختلف في العناصر الأخرى جميعاً؛ في المقصد، وفي المقام، وفي المشاركين، وفي الحدث، وفي الغرض ومن ثم في التأويل طبعاً، ولكنهما يشتركان في الثيمة أو التصور الذهني أو الفكرة التي يقومان عليها أو البنية الكبرى الكلية.

ويمكن تمثيل ذلك عبر الشكل الآتي إذا رمزت للنص بالرمز «ن» وللأول بالرقم (١)، وللثاني بالرقم (٢): الشكل رقم (٤)

ن ٢

ن ١

إنتاج متجدد

إنتاج أول

إنتاج غير مباشر

إنتاج مباشر

مجازي / غير عفوي /
مقصود في سياقه الجديد

حقيقي / عفوي /
في سياقه الأول

الإحالة فيه
مزدوجة: حقيقة
في السياق الجديد
تخييلية بالنسبة
للسياق القديم

-الإحالة حقيقية
إلى السياق
التاريخي الذي
انتظم النص



الإحالة فيه عهديّة
إنتاج مشابه / مسترجع

تأويل مباشر مرتبط
بالسياق التاريخي

التأويل غير مباشر



تأويل جديد مرتبط بالسياق
التواصلي الجديد

ويذهب الباحث مع علماء النص الذين يقولون: «النص حدث كلامي في زمان ومكان معيّنين، وهو لا يُعيد نفسه إعادة مطلقة، مثله في ذلك مثل الحدث التاريخي»^(١)؛ فالمثل الذي يُقال لمتلقٍ في موقف تخاطبي ما يختلف عن المثل الذي يُقال لمتلقٍ ثانٍ في موقف تخاطبي مختلف، وإن كان نصّ المثل نفسه قد استُخدم في الموقفين إلا أنّ الموقف التخاطبي - بما يصاحبه من حالة المتلقّي الشعوريّة والذهنيّة والنفسيّة - يطبع المثل بطابعه الخاص، لذلك لا يمكن أن يعيد النص نفسه إعادة مطلقة.

ويرى بعض الباحثين أنّ المسؤول عن انتظام مميّزات نصوص الأمثال واستجابتها لحركة السياق الثقافي في ظهورهما وتواريهما، هو ثالثو يتمثله نص «المثل» وصيغته، وهذا الثالث هو^(٢):

- ١- الإخبار؛ فالمثل فيه خبر وحكاية وقصة وحادثة في سياق تاريخي «ما».
- ٢- التمثيل؛ فنصّ المثل قابل لأن يُعاد في حادثة مماثلة مشابهة.
- ٣- التخيل؛ فعلى الرغم من الاختلاف بين مقام استعمال المثل في إنتاجه الأوّل ومقام استعماله في إنتاجه المتجدّد والمعاد، فإنّ مستعمل النص في سياقه المتجدّد وجد جسراً واصلاً بين المقامين قائماً على ضرب من التشبيه والتخيل لا يخفى على مستعمل المثل ومتلقّيه.

وربّما كانت عبارة الزمخشري عن المثل جديرة بالاستحضار هنا عند الحديث عن وجود نصّين، وهو قوله عن المثل: «وَلَوْحَتْ فَأَغْرَقَتْ فِي التَّصْرِيحِ، وَكَنَّتْ فَأَغْنَتْ عَنِ الْإِفْصَاحِ»^(٣)، ولعلّ هذا الوصف يصدق على النصّين: نص المثل في إنتاجه الأوّل الحقيقي المباشر، ونص المثل في تحليّيه الجديد وإنتاجه الجديد في السياق التواصلّي الجديد، مفتوح على التأويل، وهو توالدي؛ يمكن أن يقرأ على وجوه مختلفة بحسب المقام، وبحسب طبيعة المشاركين فيه، وهي خصيصة نصيّة أشار إليها علماء النص، وضح ذلك محمد مفتاح حينما ذهب إلى أنّ النص من الناحية المعنويّة توالدي؛ أي إنّ

-
- ١- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: إستراتيجية التناص، ص ١٢٠.
 - ٢- ينظر: لؤي حمزة عباس، سرد الأمثال: دراسة في البنية السردية لكتب الأمثال العربيّة، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥، ص ٢٦.
 - ٣- الزمخشري، المستقصى في الأمثال، المقدمة، صفحة ب.

الحدث اللغوي ليس منبثقاً من عدم، وإنما هو متولّد من أحداث تاريخيّة ونفسانيّة ولغويّة، وتتناسل منه أحداث لغويّة أخرى لاحقة له^(١). وتوصّف هذه الوحدة كذلك بالانغلاق (لها بداية ونهاية) وذلك في الجانب النحوي، أمّا في جانب المعنى فالنص توأدي في خاطر القارئ والناقد معاً، ويتسم بالاكتمال الدلالي، فهو مكتمل وهو مغلق ولكنّه منفتح على التأويل.

ثالثاً: آليات التلقّي

وقف الباحث في المفردتين السابقتين عند آليات إنتاج النص/ المثل أو النص ذي الجملة الواحدة، وكذلك نظر في النص التّاج وخصائصه في تمثله الأوّل عند إنتاجه الأوّل، وفي تمثله الثاني أو المتجدّد عند إنتاجه في مقام تواصل جديد، وفي هذا المبحث يسعى الباحث إلى توضيح آليات التلقّي في السياق التواصلّي الجديد. فإذا قام المرسل في موقف تواصلّي «ما» باختيار مكوّنه التصوريّ الذهني الذي يريد إيصاله لمتلقٍ «ما» يعرفه، ويعرف مستوى ثقافته وخبرته في العالم، ثم قام باختيار النص (البنية اللغويّة) الذي سيحمل هذا تصوّر الذهني، وكان اختياره هو صيغة المثل، وربما بنى هذا الاختيار وهو يقدر أنّ لدى المتلقّي خبرة في هذا الضرب من النصوص^(٢).

وعملياً فإنّ المرسل أمام الأنواع الآتية من المتلقّين فيما يتعلّق بنقطة الخبرة اللغويّة في التعامل مع مثل هذه النصوص/ الأمثال:

- متلقٍّ يعرف هذا النص/ المثل، ويعرف الحادثة التاريخيّة التي صدر منها ولسببها؛ أي المقام الأوّل للإنتاج، كما يعرف الثيمة أو الفكرة أو الصورة الذهنيّة التي يمثّلها (الموضوع أو القول الذي يخترنه هذا النص).
- وهناك متلقٍّ يعرف هذا النص في بنيته اللغويّة، ويعرف الثيمة أو الفكرة أو الصورة

١- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص ٣٤. وينظر في هذا قول منذر عياشي: « يعرف النص باستقلاليته وانغلاقه». منذر عياشي، الكتابة الثانية، ص ١١٨.

٢- أنفق مع صبحي الفقي في أنّ المتلقّي للنص لا يراد به المتلقّي على إطلاقه، وإنما المتلقّي الذي يملك الكفاءة التي تمكّنه من استيعاب النص وتفكيكه، وتتمثّل هذه الكفاءة في معرفة لغة النص وأسلوبه وسياقه. ينظر: صبحي الفقي، علم اللغة النصي، ج ١، ص ١١٠.

الذهنيّة التي يمثّلها، ولكنّه لا يعرف الحادثة التاريخيّة التي صدر منها هذا النص/ المثل وبسببها؛ أيّ أنّه لا يقف على المقام الأول للإنتاج.

■ وهناك متلقّ لا يعرف هذا النص أبداً، ولا يعرف الثيمة أو الفكرة أو الصورة الذهنيّة أو الحادثة التاريخيّة التي أنتجته.

والسؤال المطروح هو: كيف يتلقّى هؤلاء المتلقّون النص/ المثل الجملة الواحدة، بحسب المعطيات السابقة؟

إنّ المرسل والمتلقّي في مقام تواصل واحد، وهو (المقام) مكشوف لكليهما، والمرسل قد اختار الشكل التركيبي الذي يضع فيه ثيمته أو مكوّنه تصوّري، وهذا الشكل هو المثل/ النص.

أمّا المتلقّي فيستقبل هذا النص/ المثل وجزء من فهمه له مرتبط بإمساكه بناصية المقام الذي استخدم فيه حالياً، أي السياق التواصلّي الجديد لإنتاج المثل؛ فالمقامات تتحدّث عن نفسها، بل ربّما فهم المتلقّي الرسالة اللغويّة من غير أن يقول المرسل شيئاً، وفق اعتبارات معيّنة.

ولا يمكن بحال التقليل من أهميّة السياقات ودورها في الإخبار بمضامين الرسائل التي تنتج فيها أو تقال فيها، بل ربّما أخبرت السياقات بشيء، فيما البنية اللغويّة للنص تخبر بشيء آخر، ولا بد حينئذٍ الأخذ بما أخبرت به السياقات فهي أصدق في إحالتها إلى المراد.

ومن ذلك لو كانت صديقتان حيمتان في سياق تواصل واحد، وقالت إحدهما عن طفل الأخرى -وهو طفل جميل- مداعبةً: ما أقبح هذا الصغير! فإنّ الأخرى ستفهم هذا القول بخلافه تماماً: «ما أجمل هذا الصغير!»، أمّا قول الصديقة فيندرج تحت ما يُسمى في الحياة الاجتماعيّة عند الأمّهات «ردّ العين»، ومثل هذا كثير في حياتنا التواصليّة.

يقول محمد خطابي: «إنّ الخطاب القابل للفهم والتأويل هو الخطاب القابل لأن يُوضع في سياقه، بالمعنى المحدّد سلفاً؛ إذ كثيراً ما يكون المتلقّي أمام خطاب بسيط للغاية (من حيث لغته)، ولكنّه قد يتضمّن قرائن (ضباطاً أو ظروفًا) تجعله غامضاً غير مفهوم بدون الإحاطة بسياقه، ومن ثم، فإنّ للسياق أثراً فعالاً في تواصلية الخطاب وفي انسجامه بالأساس، وما كان ممكناً أن يكون للخطاب معنى لولا الإلمام بسياقه»^(١).

ويعني هذا أنّ النص الأدبي لا يمكن أن يبقى مغلقاً على ذاته، منطوياً على بنياته السيميائيّة أو الصوريّة المجرّدة، بل عليه أن يفتح على العوالم السياقيّة المتعدّدة الدلالات؛ بمعنى أن

١- محمد خطابي، لسانيات النص، ص ١٤٢-١٤٥.

النص لا بدّ أن يخضع لمبدأ التأويل السياقي، وذلك بالانفتاح على السياق النصّي الداخلي، والسياق الخارجي المتعدّد الأبعاد.

وبالعودة إلى المتلقّي الأوّل الذي يعرف النص (صيغة لغويّة) كما أنّه يعرف الحادثة التاريخية التي ارتبط فيها، وصدر منها وبسببها (المقام الأوّل لإنتاج النص)، وهو يعرف الثيمة أو الفكرة أو الصورة الذهنيّة التي يمثلها القول الذي يخترنه هذا النص، فإنّ هذا النوع من المتلقّين يمتلك الخبرة اللغويّة الكافية لالتقاط الرسالة اللغويّة (النص)، وأن يفهمها، ويقوم بتحليل مراميها، ويمكن هنا القول إنّ الرسالة وصلت؛ بمعنى أنّ التواصل قد أنجز عبر هذا النص، فالمستقبل قد فهم ثيمة النص وأمسك ببنية الكبرى. والمتلقّي في هذه الحالة أمام خيارَيْن: إمّا أن يقبل بمحتواه ويتفاعل مع الموقف بناء على ذلك، أو أن يرفض محتواه ويتفاعل مع الموقف بناء على ذلك أيضًا، ولست بصدد تحليل طبيعة استجابة هذا المتلقّي، بقدر ما يهمني أنّه اعتمد على إعادة إنتاج هذا النص في مرحلة التلقّي فهمًا وتحليلًا، وهذا هو الذي يمكنني من القول بحدوث التواصل، إنّ الذي أسعف هذا المتلقّي في فهم النص أمور متعددة هي:

١- السياق التواصلّي الجديد (الحالي)، الذي يُعد المتلقّي جزءًا منه بكلّ ما يحمله من معلومات بعضها معلوم في الذهن وبعضها محسوس بالمشاهدة، أو غيرها من الحواس، ويندرج تحت هذا علاقته بالمرسل، وطبيعة إرسال النص، والتنغيم....

٢- معرفته بالثيمة أو الفكرة أو البنية الكبرى^(١) التي يحملها هذا النص، ولا ريب

١ - تشمل البنية النصيّة الكبرى النظام العام الذي يحكم حركة النص، ويحدّد الترتيب الكلّي لأجزائه {صلاحيات، فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٣٣٠-٣٣١، وسعيد بحيري، علم لغة النص، ص ٥١٩، وخلود العموش، الملامح الكبرى لنظام النص، ٢٩١-٢٩٣}، والبنية النصيّة الكبرى شمولية، وذات صبغة دلاليّة تجريدية شاملة للنص تنشأ عن تماسك بنيوي عام في النص، تحقّقه المتتاليات الجمليّة التي تكون فيها «حركة الكلمات حركة إطار لا يخلو من الثبات» {مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، ص ١٥٤} على المستوى الخطّي أو الأفقي؛ فهي «بنية دلاليّة عميقة تشكل البنية الدلاليّة العامة للنص من ناحية أولى، ولا تسوّى بالبنية العميقة للجمل من ناحية أخرى» {خالد جمعة، نظريّة النص بين التنظير والإنجاز، مجلة علامات في النقد، مجلد ١٣، ع ٤٩، ص ٥١٦}، ويتم تحديد هذه البنية باختيار العناصر المهمّة في النص، وهذا الاختيار يخضع لاهتمامات المتلقّي ومعارفه، ممّا يجعل تحديدها معرّفًا للاختلاف من شخص لآخر دون الابتعاد عن الجوهر المضموني للنص المعالج {صلاحيات، فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٣٣١، وجون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ص ٢٢١}. فطبيعة البنية النصيّة الكبرى الدلاليّة، وتعلّقها بمدى التماسك الكلّي للنص يجعلان من =

أنّ البنية الكبرى الكليّة هي عماد الفهم والتأويل.

٣- خبرته اللغويّة في هذا الضرب من النصوص، والخبرة اللغويّة^(١) من المصطلحات المهمّة التي بحثها (ثان ديك).

٤- معرفته بالواقعة التاريخيّة أو الحادثة التاريخيّة التي ارتبط بها هذا المثل، ولا ريب أنّ هذا يشكّل إضاءة إضافية ومهمّة في عمليّة الفهم، لكنّها ليست عنصراً حاسماً أو رئيساً في ذلك كما سيجري التوضيح تالياً.

أمّا المتلقّي الثاني فهو قادر أيضاً على التقاط ثيمة النص، وفكرته وإعادة إنتاجه في ذهنه في مرحلة التلقّي، حتى لو لم يقف في مخزونه المعرفي على المقام الأوّل الذي أنتج النص أو الحادثة التاريخيّة التي صدر منها وبسببها، وهو قادر أيضاً على التواصل والتفاعل مع المرسل، ويُعينه في ذلك وقوفه على المقام التواصلّي الجديد الذي هو جزء منه، وهو - كما قلت - يمكن أن يقدّم مفاتيح كبيرة ومهمّة تعين على الفهم، ومعرفته السابقة بصيغة المثل والغرض الذي يستعمل فيه، والثيمة التي تختزلها، وكذلك خبرته اللغويّة في هذا الضرب من النصوص.

إنّ عدم معرفة المتلقّي بالمقام الأوّل لإنتاج النص (الحكاية التاريخيّة أو القصة) لن يحول دون إمساكه بناصية النص فهماً وتمثلاً وتواصلًا إذا كان المتلقّي وإعياً قادراً على التقاط

= المتلقّي محدّداً أساسياً لها؛ إذ إنّ مفهوم التماسك يرتبط كثيراً بمجال الفهم والتفسير الذي يضيفه القارئ على النص؛ لأنّ المتلقّي عندما يتلقّى النص لا يتلقّاه خلواً من أيّ سابقة دلاليّة، بل يتلقّاه مزوّدًا بالأعراف والتقاليد القرائيّة والثقافيّة التي يوفّرها له مجتمعه، فيصبح لفهم النص عنده أفقان متقابلان: أفق النص، وأفق المتلقّي، وهما ينصهران ليولدا عمليّة القراءة أو التلقّي التي تسهم في صنع الخطاب النصّي. {بول ريكور، نظريّة التأويل وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، الدار البيضاء، والمركز الثقافي العربي، ط ١، ٢٠٠٣، ص ١٧}.

١- يذهب براون ويول إلى أنّ المعرفة التي يملكها مستعملو اللغة تتعلّق بالتفاعل الاجتماعي بواسطة اللغة ليست إلا جزءاً من معرفتهم الاجتماعيّة - الثقافيّة، وإنّ هذه المعرفة العامّة للعالم لا تدعم فقط تأويلهم للخطاب، وإنّما تدعم أيضاً تأويلهم لكلّ مظاهر تجاربهم، وذهب بيوجراند إلى أنّ «التساؤل حول كيفيّة معرفة الناس لما يتحرّك في نص ما، ليس إلا حالة خاصة للتساؤل عن كيفيّة معرفة الناس لما يجري في العالم، ويعني هذا أنّ الإنسان يملك معرفة موسوعيّة قابلة للتزايد والنمو تبعاً لتجاربه في الزمان والمكان، كما أنّ المعرفة الخلقيّة تسهم بشكل فعّال في تكسير العلاقة المتوتّرة بين القارئ والنص، ومن ثمّ تجعله يشعر بإمكان الفهم والتأويل. {محمد خطابي، لسانيّات النص، ص ٣١١-٣١٢}.

الإحالة عبر المقام وتحويلها إلى ثيمة أو كتلة ذهنيّة أو تصوّر قارّ يجد صداه في مخزونه المعرفي والثقافي، وقادر كذلك على فهم ملابسات المقام المتجدّد الذي قيلت فيه هذه العبارة/ النص، وقد أشار المرزوقي إلى هذا الضرب من المتلقّين بقوله: «فتنقل (جملة المثل) عمّا وردت فيه (القصة أو الحكاية أو الحادثة التاريخيّة التي أنتج فيها) إلى كلّ ما يصحّ قصده بها (المقام التواصلّي الجديد) من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعمّا يوجبها الظاهر إلى أشباهه من المعاني؛ فلذلك تُضرب وإن جُهلّت أسبابها التي خرجت عليها»^(١)، وقوله «وإن جُهلّت أسبابها التي خرجت عليها» هو فهم متقدّم من المرزوقي بحالة معيّنة من التلقّي، يكون المتلقّي فيها جاهلاً بملابسات المقام الأوّل لإنتاج النص/ المثل، ولكنّه قادر على التقاط ثيمة المثل بخبرته اللغويّة فيها، وبواسطة المقام الجديد الذي هو جزء منه.

إنّ الوقوف على ملابسات المقام التواصلّي للنص وتفصيله كفيل بالوصول إلى ما يعرف بالتماسك التداولي في النص، وهو عنصر مهم من العناصر التي تصنع نصيّة النص عند علمائه «فالتداوليّة تُعنى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، ويستتبع هذا التفاعل دراسة كلّ المعطيات اللغويّة الخطائيّة المتعلّقة بالتلفّظ، وخاصة المضامين والمدلولات التي يولّدها الاستعمال في السياق»^(٢)، والتداوليّة تتجاوز الوصف التركيبي للجملة، وتدرس القول في المقام، وتُعنى بتأويل الأقوال وفهم المقاصد اعتماداً على الاستدلال»^(٣).

أمّا إدراك ثيمة النص وبنيته الكبرى فهو يعني الوقوف على حقيقة التماسك الدلالي في النص، وهو عنصر مهم من عناصر النصيّة عند علماء النص، وهذا التماسك «يتم على مستوى البنية العميقة للنص، أي على مستوى التصورات والمفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم»^(٤).

ويرى (ثمان ديك) أنّ التماسك الدلالي يتحدّد على مستوى الدلالات حين يتعلّق الأمر بالعلاقات القائمة بين التصورات والتطابقات والمقارنات والتشابهات في المجال التصوّري،

١- السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٨٦.

٢- آن روبول، جاك موشلار، التداوليّة اليوم: علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة للباعة والنشر، بيروت ط ١، ٢٠٠٣، ص ٢٦٤.

٣- المرجع السابق، ص ٢٦٥.

٤- جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة واللسانيات النصيّة، ص ١٤١.

كما يتحدّد على مستوى الإحالة أيضًا، أي ما تحيل إليه الوحدات الماديّة في متواليّة نصيّة^(١). ولا ريب أنّ عمليّة الإحالة بتفاصيلها المختلفة، وإمساك المتلقّي بمفاتيح بنيتها في النص سبب رئيس في نجاح عمليّة الفهم والتواصل؛ فمن مزاياها المهمة «أنّها قادرة على صنع جسر كبير للتواصل بين أجزاء النص المتباعدة، والربط بينها ربطًا واضحًا»^(٢)، والربط بينها وبين المقام الجديد والمتلقّي الجديد.

أمّا النوع الثالث من المتلقّين فلا خبرة له بهذا النص على وجه التعيين، وهو لا يعرف الثيمة التي يختزلها، ولم يسبق له سماعه، وفي هذه الحالة ثمة احتمالان:

- الأول: أن تكون صيغة المثل قابلة لأن تُحلّ شفراتها وتفهم مراميها على وجه العموم، بالاستعانة بما يمكن أن يهبه المقام التواصلّي الحالي من مفاتيح الفهم، وهنا يمكن للفهم أن يتحقّق بنسبة معقولة كافية لاستمرار التواصل.

- الثاني: أن تكون صيغة المثل مستغلقة على القراءة، ولا يمكن للمفاتيح التي يهبها المقام الجديد المحيط أن تعين في الوصول إلى ثيمتها، وهنا لا يمكن أن يتحقّق الفهم بنسبة معقولة كافية لاستمرار التواصل، والمتوقّع أن يُجابه هذا النوع من المتلقّين المرسل بمثل هذه الأسئلة: - ماذا قلت؟ ماذا تعني؟ ماذا يعني هذا المثل؟ وهل الذي في هذا المثل يحاكي ما نحن فيه من موضوع؟ ما الذي حملك على قول هذا؟

إنّ المتلقّي في الحالات كلّها يبحث عن جسر رابط بين صيغة المثل وما يعنيه بواسطة المقام الحالي الجديد الذي أنتج فيه المثل، وإنّ هذا الجسر هو الترجمة الحقيقيّة لـ «التواصل»، وقد أشار الحسن اليوسي إلى نجاح عمليّة التواصل بقوله: «وبه (أي المثل) يقع الأمر في النفس في أحسن موقع، وتقبله فضل قبول، وتطمئن به اطمئنانًا، وبه يقع إقناع الخصم، وقطع تشوّف المعارض»^(٣).

ويمكن القول إنّ العامل الرئيس في نجاح عمليّة التواصل مبني على نجاح الإحالة التي يسمح بها المقام الحالي، والقدرة على تحليل اتجاهاتها ومراميها، وليس معرفة قصة المثل،

١ - ينظر: ثمان ديك، النص بنياته ووظائفه، ضمن كتاب «في نظرية الأدب: مقالات ودراسات»، ترجمة محمد العمري، سلسلة كتاب الرياض، الرياض، ط ١، ١٩٩٧، ص ٦١-٦٢.

٢ - أحمد عفيفي، الإحالة ونحو النص، ص ٢٣.

٣ - الحسن اليوسي، زهر الأكمل في الأمثال والحكم، ج ١، ص ٣٤.

بدليل وجود أكثر من مرجع تاريخي أو قصة تاريخية يرتبط المثل بها، ولكنها مع ذلك تبقى تحمل الثيمة نفسها.

ولأهمية الإحالة في إعادة بناء النص/ المثل في مرحلة القراءة أو التأويل فسأفرد لها بالنظر في الفصل الثالث من هذه الدراسة، ولا ينفي ما قلته، عن أهمية السياق التواصل والمقام اللذين استعمل فيهما المثل في إنتاجه المتجدد، في الكشف عن مفاتيح الإحالة النصية وفهم مراميها.

ومع ذلك فإن هذا لا ينفي أنه كلما توافرت معلومات وبيانات لدى المتلقي عن النص/ المثل؛ نشأة ومقاماً تاريخياً وقصة كانت قدرته أكبر على التواصل، أما غياب البيانات تماماً مع عدم قدرة المتلقي على الربط بين الصيغة اللغوية والمقام الحالي الذي يجمع بين المرسل والمتلقي فمعناه استغلاق التواصل أو انقطاعه، ويمكن تخيل متلق من هذا الطراز الذي يفتقر إلى البيانات عن النص ومقام إنتاجه الأول وثيمته التي يضرب فيها، وقد أُلقي عليه مثل من الأمثال الآتية، ولم يستطع أن يجد جسراً يربطه مع مقامه التواصل في النتيجة محسومة سلفاً.

■ أن يقال له مثلاً: «الوحشة ذهاب الأعلام»^(١)، وهو لا يدري ما «الوحشة» وما الأعلام، وما الرابط بين ما هو فيه من حدث تواصل وبين هذا النص؟

■ أن يقال له مثلاً: «ويل للشجي من الخلي»^(٢)، وهو لا يدري ما الشجي وما الخلي، وما علاقة هذين بما هو فيه؟

■ أو يقال له: «المكثار كحاطب الليل»^(٣).

■ أو يقال له: «ما يوم حليلة بسر»^(٤).

■ أو يقال له: «ما وراءك يا عصام»^(٥).

وهذه الحالة يمكن تسميتها بـ «انهيار التواصل»، وقد تسبب هذه النصوص إشكالاً

١ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٤٤١٥) ج٣، ص ٣٧١.

٢ - المرجع السابق، رقم المثل (٤٣٨٣) ج٣، ص ٣٦٣-٣٦٤.

٣ - نفسه، رقم المثل (٤٠٣٦) ج٣، ص ٢٦٧.

٤ - نفسه، رقم المثل (٣٨١٤) ج٣، ص ٢١٧-٢١٨.

٥ - نفسه، رقم المثل (٣٧٥٩) ج٣، ص ٢٠٢-٢٠٤.

للمتلقي ما لم يكن قادرًا على بناء جسر بينها وبين المقام، وينبغي حينئذ أن تشرح له؛ لكي يتمكن من التقاط ثيمتها، ولعل هذا بعض ما صنعه أصحاب كتب الأمثال. ومن جهة أخرى فإن المتلقين يختلفون في طبيعة علاقتهم بالمرسل، كما أن المرسل تتعدد أغراضه من إرسال هذا النص/ المثل، وبحسب هذا يختلف المتلقي؛ فالخصم قد تقنعه الحجّة فيستسلم ويتوقف عن المتابعة في الجدل، أو الخصومة، والمعترض قد تنقطع آماله بتوقف المرسل عن إتمام ما يريد عبر رسالته، وذلك كله بسبب خصائص النص المثل التي جرت الإشارة إليها قبلاً^(١)، إن ما يتعلق بتمام عملية التواصل تحقق الغرض منها وسأناقش (الغرض) في المبحث الآتي.

رابعاً: الغرض:

يعدّ التعبير عن الأغراض أو المقاصد التي يرغب المتكلمون في تبليغها إلى المتلقين من أبرز الوظائف التي تقوم بها اللغة^(٢)، بل إن اللغة وُضعت من أجل أداء هذه الأغراض لتحقيق التواصل وإقامته، وعلى هذا جاء تعريفهم للغة بأنها «أصوات يُعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»^(٣)؛ فالأغراض بوصفها جملة من المعاني المختزنة بالذهن يستخرجها المتكلم في قوالب لغوية أو تراكيب؛ لتلبية حاجاته.

وهذا يؤكد أن الأغراض الكامنة في نفس المتكلم إنما يُعبّر عنها بأساليب مخصوصة على هيئة مخصوصة تُدرك بالفطرة والسليقة، مما يجعلنا نقرّ بأن الكشف عن هذه الأغراض والبحث في معانيها الدالة عليها، ومدى تأثيرها في المخاطب، من الأمور المهمة التي تستحق الوقوف والتحليل من المتلقين؛ ذلك أن «الناس إنما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده»^(٤)؛ إذ يسعى كل من المرسل والمتلقي في أداء الرسالة اللغوية إلى تأدية غرض محدّد، يقول نهاد الموسى: «فمما لا

١- ينظر ص ١٥٥-١٧٣ من هذه الدراسة.

٢- عطا محمد موسى، مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين، دار الإسرائ، عمّان، ٢٠٠٢، ص ٣١٠.

٣- ابن جني، الخصائص، ج ١، ص ٥٢٥.

٤- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٥٣٠.

ريب فيه أنّ النظام اللغوي خُلق للإفادة أي لتبليغ أغراض المتكلم للمستمع^(١). وقد التفت النحاة العرب إلى إبراز أغراض المتكلم التي ينوي إبلاغها للسامع بوصفها وسيلة مهمة في التقعيد النحوي، وبوصفها أداة إجرائية تسهم في ضبط الوظائف الإعرابية وتحديدتها على الوجه الذي ينبغي أن تكون عليه، وقرينة أساسية لتخريج التراكيب وتحقيق مبدأي الفائدة وأمن اللبس، على مستوى تفعيل العملية التواصلية المتوخى منها الفهم والإفهام؛ فغرض المتكلم «قرينة تساعد في تحديد الوظيفة النحوية للكلمة، وبيان دورها في التحليل النحوي للجملة»^(٢)، فتوسّلوا بشتى العناصر التي تتكفّل بإنتاج الخطاب سواء كانت لغوية أم غير لغوية، وسلّكوا طريق المعنى في تأديتهم؛ فالمعنى عندهم يتبوأ مكانة عالية، إذ أسس النحاة قواعدهم بمراعاة حصول الفائدة لدى المخاطب وتطبيق مبدأ أمن اللبس في أداء التركيب دون أن يعتريه إشكال أو غموض، من شأنه أن يذهب بأغراض العرب ومقاصدها في الكلام، كما سعوا إلى شمولية تلك القواعد ليتسنى لهم الإحاطة بما في اللغة من ظواهر لئلا يعرض إليها الفساد، فكان تصوّرهم للعلاقة القائمة بين ما نطقت به العرب وما أرادته من العلل والأغراض والمقاصد المنسوبة إليها الأساس الذي يُبنى عليه التقعيد.

ويعدّ التفات النحاة إلى المعنى الذي يحيل إليه النص من وسائل الكشف عن الإعراب؛ فلا يمكن إغفال أثره، والاكتفاء بما يدلّ عليه الظاهر؛ ذلك أنّ الإعراب لا يكون إلا بعد رصد المعنى، يقول الرماني: «وهذا يُبصّرُك أنّ الإعراب لا يستقيم إلا بعد فهم المعنى حتى يجري على حقّه والوجه الذي هو له»^(٣).

وعبرَ النقّاد والبلاغيون العرب القدامى عن القصد بألفاظ كثيرة منها، «الغرض» و«الحاجة»، و«المراد»، و«الفائدة»، وغيرها، بل ربّما كان لفظ البلاغة لديهم يراد به أحياناً المقصد، وربّما كان المراد من القول علم البلاغة، علم المقاصد^(٤)، وقصر ابن فارس المعنى

١- نهاد الموسى، نظرية النحو العربي، ص ٩٥.

٢- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٢٠٠.

٣- مازن المبارك، الرّماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط ٣، ١٩٩٥، ص ٢٥٣.

٤- ينظر: مصطفى ناصف، اللغة والتفسير والتواصل، ص ١١.

على القصد في قوله: «فأما المعنى فهو القصد»^(١)، ويذكر أبو هلال العسكري أن من سمات البلاغة وضوح المقصد، يُلمح هذا عند شرحه أحد تعريفات البلاغة الذي قيل فيه: «البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلي عن مغزاك...»، فيقول في شرحه: «قوله: يجلي عن مغزاك، أي يوضح مقصدك، ويبين للسامع مُرادك»^(٢).

وورد عن حازم القرطاجني قوله: «والأغراض هي الهيئات النفسية التي يُنحى بالمعاني المنتسبة على تلك الجهات نحوها، ويُبال بها في صفوها؛ لكون الحقائق الموجودة لتلك المعاني في الأعيان، مما يهيم النفس بتلك الهيئات، ومما تطلبه النفس أيضًا أو تهرب منه إذا تهيأت بتلك الهيئات»^(٣)؛ فالقرطاجني يقرّر بأن الأغراض عبارة عن مجموعة المعاني التي تتلبس بالمرء وتخالجه (الهيئات النفسية)، وتختلف من حيث الجهات التي تصدر عنها؛ فهي متنوّعة وغير محدودة، وهي حقيقة إنسانية (لكون الحقائق الموجودة لتلك المعاني في الأعيان) تتبدّى من جهتين: ما تطلبه (الرغبات)، أو تهرب منه (المنفّرات)، ويُعبّر عنها بهيئات مخصوصة. وهذا المعنى نفسه قد صرّح به عبد القاهر الجرجاني وكان سببًا إليه؛ إذ بنى (نظرية النظم) في ضوء المعرفة الدقيقة بتلك الأغراض والمقاصد التي يؤمّها المتكلم فيما يتوجّه به إلى المخاطب وكيفية توصيلها، يقول: «وجملة الأمر أن الخبر وجميع الكلام معانٍ ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرّفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله، وتوصّف بأنها مقاصد وأغراض، وأعظمها شأنًا الخبر»^(٤)؛ فالأغراض بمفهوم عام هي جملة المعاني التي تختزن في النفس والفكر والقلب والعقل، يفرضها المتكلم على أوضاع اللغة (المعاني العرفية) لتؤدي ما يهدف إليه من إبلاغ السامع رسالته والتأثير فيه، ويُعدّ إدراكها مصدرًا أساسيًا لاكمال العملية التواصلية؛ إذ إنّ العلم بمقاصد الناس في محاوراتهم - كما أجمع العقلاء - هو علم ضرورة^(٥)، فهي محصّلة البيان ودونها ينتفي.

١ - أحمد بن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ)، الصحاحي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط ١، ١٩٩٣، ص ١٩٢.

٢ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٤٢.

٣ - حازم القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد (٦٨٤هـ)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، قدّم له محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦، ص ٧٧.

٤ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٥٢٨.

٥ - ينظر: المرجع السابق، ص ٥٣٠.

ويرى الجرجاني أنَّ الفصل وترك العطف والحذف والتكرار والتقديم والتأخير وغيرها من الهيئات التركيبية «يُحدثها لك التأليف ويقتضيها الغرض الذي تؤمُّ، والمعنى الذي تقصد»^(١)؛ فتوافر القصد في الخطاب، يُعد من الأمور البديهية وفق الجرجاني، يُستنبط هذا من قوله: «وكان ممَّا يُعلم ببدائه المعقول، أنَّ الناس إنَّما يُكلِّم بعضهم بعضاً؛ ليعرف السامع غرض المتكلِّم ومقصوده»^(٢). ولعلَّ أهمَّ ما يُستنتج من آراء النحاة والنقاد القدامى، أنَّ النص في كلِّ مراتبه وأنواعه لا يقوم إلا بغرض، وهذا الغرض لا يكون له مفهوم أو مدلول إلا في إطار السياق النصي المتضمن لخطاب المتكلِّم، وليس متضمناً للكلمة الواحدة المفردة التي هي وإن كانت بِمَعزِل عن السياق، فإنَّها لا تشكِّل قصداً نصياً، هذا إذا فهم النص على أنَّه جملة «من العناصر ترتبط بتوافر الروابط التركيبية والروابط الزمنية، وكذلك الروابط الإحالية، فلا يكاد نص يخلو من ضمير عائد أو اسم إشارة أو اسم موصول أو غيرها من المعوِّضات، وهذا أمر يسرته وظيفة الذاكرة البشرية التي يمكنها أن تحتزن آثار الألفاظ السابقة، وتقرن بينها وبين العناصر الإحالية الواردة بعدها أو قبلها، فتحللها بنجاح دون ضير بالتواصل، وعلى هذا الأساس تقوم شبكة من العلاقات الإحالية بين العناصر المتباعدة في فضاء النص، فتجتمع في كلِّ واحد عناصره متناغمة»^(٣)، والغرض الذي يريد المنشئ إيصاله للمتلقِّي، هو الذي يتحكَّم باختيار النصوص، ويتحكَّم بمواضعها وطريقة تأليفها، وقد ربط ابن سنان الخفاجي أيضاً، وبوضوح، بين البنية التركيبية للنص والغرض المقصود من الخطاب، بل إنَّه جعله ركناً من أركان الصناعة^(٤)، كما أنَّ موافقة الصياغة للغرض أو المقصد من الخطاب هي علامة الانسجام الأولى في منظور مدارس تحليل الخطاب على اختلاف منطلقاتها النظرية، على نحو ما يظهر مثلاً عند (براون ويول)^(٥)، ولا ريب أنَّ الغرض هو مركز الالتقاء بين المرسل والمتلقِّي في أيَّة رسالة لغوية.

١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٢٥٠، ص ٢٥٠.

٢- المرجع السابق، ص ٥٣٠، ص ٥٣٠.

٣- الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١٢١.

٤- ينظر: ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد بن سعيد، (ت ٤٦٦هـ)،، سرِّ الفصاحة، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، دار قباء، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٨٢.

5- Brown & Youl, Discourse Analysis, Cambridge University Press, 7th edition, London, Cambridge, 1988. P. 18.

وللتمثيل وضرب الأمثال قيمة بيانية سنّية؛ فالمثل يخاطب النفس من حيث تألف، وهو بذلك يجمع بين خبرة التذكّر والحسّ المباشر، الأمر الذي يجعله يتسلط على الحواس فيشغلها بما هو من شأنها وطبيعتها، ولذلك فلا غنى للناس عن الأمثال، وهم يلجؤون إليها للتنفيس عما يلمّ بهم من ضيق أو كرب، ويعبرون بها لما يجدون بها في أنفسهم من سكينه، وفي قلوبهم من سلوى وطمأنينة، وهي من أهم ما تحرص عليه الشعوب والأمم؛ لامتلائها بالتجارب الحيويّة الخاصة التي عاشها الشعب عبر الماضي البعيد إلى الحاضر القريب، وفيها إيجاز لهذه التجارب بشكل مثير للدهشة؛ فهي تلخّص جوانب الحياة في كلمات قليلة، تُحفظ عن ظهر قلب لتؤدّي إلى الأجيال القادمة، وتُردّد بنصّها حتى لا تُصاب بالتحريف أو التغيير، فتظل حكمة سائرة تحمل نواميس الحياة وكنه أسرارها، وحلّ مشاكلها، إلى الأجيال الجديدة التي تجدد في هذه الأمثال الكنز الذي تركه الأجداد لأبنائهم؛ حرصاً على مستقبلهم، وتوجيهاً لمسار حياتهم.

فإذا أراد العربي أن يلتمس عذراً لصاحب فضل حصلت منه زلّة أو موقف يخالف ما تُعورف عليه من سيرته الفاضلة استنجد بقول المثل: «إنّ الجواد قد يعثر»^(١)، فيجنيء استشهاده بالمثل كالسيف المصلت، يشجّ به هام الاتّهامات، ويقصّ به بنیان الشّماتة واللوم؛ لأنّه دعم ما يقوله بالمثل، ولأنّ المثل مظنة كبيرة تنضوي تحتها كلّ تجارب العرب وخبراتهم ونظراتهم ورؤاهم في جوانب الدنيا والدين، وتعاليم المجتمع ومثله وقيمه وأخلاقه وما يحسن بالمرء التزامه، وما يجب عليه تركه، فلا يملك السامعون إلاّ الإنصات والقبول؛ لأنّهم برفضهم لهذا القول المدعم بالمثل، يرفضون ثقافة كاملة بناها العرب حجراً حجراً، ودأب الآخرون في حفظ ما بناه الأوّلون، والمثل في كلّ هذا يسير في أمان من غوائل النكران والرفض، مستشفعاً ببلاغته وحكمته من ناحية، وبقبوله وتداوله واجتماع الناس عليه من ناحية أخرى، فلا يشكّ فيه شاكّ، ولا يستنكف عن الاستشهاد به شريف ولا ضعيف، ناهيك عن حضوره البهّي في مجالس العلم والعلماء، وجريانه على ألسنة الرعاع والدهماء من الناس.

والمثل يسهل حفظه وجريانه على الألسنة؛ إذ هو إرث جماعيّ مشترك، ورثه الأوّلون للتأين لهم، وتداوله العرب على مرّ الأعصر، فاكتسب جبروتاً يجعله حجّةً للمحتجّ على المحتجّ

١ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٧) ج ١، ص ١٩.

عليه، ويأتي المثل مشيداً بشجاعة الشجاع، داعياً إلى الكرم، حاصاً على فعل المعروف، محذراً من شرٍّ من أحسنت إليه، معتذراً لجبن الجبان.

وللأمثال أغراض عديدة، وهي لا تأتي اعتسافاً في الكلام، وإنَّها لها وظيفتها وغرضها الذي ترمي إليه، وتصيب الأمثال مراميها إذا وافقت المضرب تمام الموافقة، وأحسن المرسل اختيار المثل الملائم للموقف الذي هو بصده.

ومن هذه الأغراض: التعريض؛ الذي يعدّه عبد القاهر أوقع في النفس من التصريح، حيث يصل المرء لمراده دون أن يخشى مغبة قوله، وهذا يحدث في النفس راحة كبرى؛ إذ إنَّه يلقي عن كاهله هذا العبء الثقيل الذي يحمله في نفسه دون التصريح به جهاراً، ومن ذلك قولهم: «إِنَّ الْبُعَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ»^(١) يُضرب للضعيف يصير قوياً، وللذليل يعزّ بعد الذلّ، وقولهم: «الْأَكْلُ سَلَجَانٌ وَالْقَضَاءُ كَيَانٌ»^(٢) يُضرب لمن يأخذ مال الناس فيسهل عليه، فإذا طوّل بالقضاء دافع وصعّب عليه، وقولهم: «أَوَّلُ الشَّجَرَةِ النَّوَاةُ»^(٣) يُضرب للأمر الصغير يتولد منه الأمر الكبير.

وأستحضر هنا قول أبي عبيد عن الأمثال: «وهي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق، بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خصال، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه»^(٤)؛ فالمقصود بقوله «كناية غير تصريح» ما تميّز الأمثال العربية من جلاء الفكرة والبراعة في تحديد المضمون من غير إسهاب في العرض، أو تكرار يفضي إلى الخلل والقصور؛ فهي تعتمد إلى الإشارة الخاطفة التي يتوافر معها الإيجاز في اللفظ والإصابة في المعنى، يقول توفيق أبو علي: «نشعر وكأنّ الأمثال اختزن طاقة شعب، تفجّرت ينابيع مواهبه في شرايين الكلم، فأينعت أسلوباً أخاذاً، وإعجازاً لا يحدّ بوصف، كلّ ذلك عبر لغة أعطتها الحياة من إمكانات تجلّت بها على سواها، فجاد أصحابها بالاعتناء بها، وتفنّنوا بذلك كلّ تفنّن، حتى أصبحت عالماً فنياً قائماً بذاته»^(٥).

١ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٨) ج ١، ص ١٦-١٧.

٢ - المرجع السابق، رقم المثل (١٥٦) ج ١، ص ٦٢.

٣ - نفسه، رقم المثل (٢٦٧) ج ١، ص ٨٨.

٤ - أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمثال، ص ٣٤.

٥ - محمد توفيق أبو علي، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، ص ١٠٨.

ومن ذلك الاحتجاج؛ لأنّ المثل مُسلّم بصحّته مقبول عند جميع الناس، ولهذا فإنّ فيه مادة غنيّة لأصحاب المناظرة والجدل، وهم يستخدمونه بمهارة فيقوّي من حججهم، ويوهن من حجج خصومهم، ومن ذلك قولهم: «إِذَا حَانَ الْقَضَاءُ ضَاقَ الْفَضَاءُ»^(١). و: «إِنَّمَا يُحْمَلُ الْكُلُّ عَلَى أَهْلِ الْفَضْلِ»^(٢). و: «إِذَا تَلَاَحَتِ الْخُصُومُ تَسَافَهَتِ الْخُلُومُ»^(٣). و: «بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ»^(٤). و: «بَعْضُ الْقَتْلِ إِحْيَاءٌ لِلْجَمِيعِ»^(٥).

وإذا كان هدف الشعر الإمتاع، وهدف الخطابة الإقناع، فإنّ «الهدف من المثل الاحتجاج»^(٦)، وما أشدّ حاجة الناس للاحتجاج؛ فهو أكثر إلحاحًا وحضورًا في حياة العربي من الإمتاع الذي تستدعيه بعض المواقف دون بعضها، وتعدّ الأمثال من أكثر الأساليب الأدبيّة شيوعًا على ألسنة الناس، وأعمقها تأثيرًا في نفوسهم، بالإضافة إلى قوة توضيحها للمعاني الجليلة؛ وذلك لامتيازها بالجودة وإصابة المعنى وإيجازه، من هنا فضّلها العقلاء على سائر الأساليب، كما ذهب إلى هذا الرأي عبد القاهر الجرجاني بقوله: «واعلم أنّ ممّا اتفق العقلاء عليه، أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزّت هي باختصار في معرّضه، ونُقلت عن صُورها الأصلية إلى صورته، كساها أُبّهةً، وأكسبها منقبةً، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها...»^(٧).

ويتبيّن من الآراء السابقة أنّ للأمثال أثرًا بارزًا في حياة الناس، وقد أشادوا بها، واهتمّوا بمعطياتها، وعملوا بنصوصها؛ وذلك لصحّتها، واتّفاق الناس عليها، وتسليمهم بصوابها، ومن ثم أصبحت حجة يُرجع إليها في حلّ الأزمات، وما يشكّل من الأمور، فتعين من استعان بها، وتهدية لما ينبغي أن يفعل، فهي مناط الرأي الصائب، والقول الفضل. ومن أغراض الأمثال أيضًا تقديم الخبرات العلميّة والعملية بصورة موجزة جدًّا، تغني

١ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٨٤) ج ١، ص ٩١.

٢ - المرجع السابق، رقم المثل (٣٨٦) ج ١، ص ١١٧.

٣ - نفسه، رقم المثل (٣٨٧) ج ١، ص ١١٧.

٤ - نفسه، رقم المثل (٤٥٥) ج ١، ص ١٤٣.

٥ - نفسه، رقم المثل (٥٢٩) ج ١، ص ١٦٠.

٦ - عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص ١٨.

٧ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ٩٢-٩٣.

عن سرد طويل، فتحفظ فيه الأمم والشعوب تجاربها النابعة من حياتها وفنّها، لتعمل على هداها في مستقبلها الذي تتطلّع إليه، وتتخطّى بنورها أسباب الفشل والإخفاق، يقول الترمذي: «فمن تدير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم؛ لحاجتهم إليها ليعقلوا بها، فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة، فالأمثال مرآة النفس»^(١)، ويقول رمضان عبد التواب: «الأمثال مرآة تنعكس عليها عادات الشعوب وسلوكها وأخلاقها وتقاليدها، وهي معين لا ينضب لمن يريد دراسة المجتمع، أو اللغة، أو العادات الشعبية عند أمة من الأمم»^(٢)، ومن ذلك قولهم: «البِطْنَةُ تَأْفِنُ الْفِطْنَةَ»^(٣)، و: «تَرَكَ الذَّنْبَ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ»^(٤)، و: «التَّقَدُّمُ قَبْلَ التَّنَدُّمِ»^(٥)، و: «التَّثَبُّتُ نِصْفُ الْعَفْوِ»^(٦)، و: «النَّفْسُ عَزُوفٌ أَلُوفٌ»^(٧).

فالأمثال في جوهرها الأساس تقوم على علاقة المشابهة، لكن حيويّتها وفاعليّتها منحتها القدرة على الامتداد في الزمن؛ إذ أصبحت تعالج في ظل أفق تأملي جديد، قوامه المقارنة بين القضايا في سبيل إدراك التشابه الكفيل بإقامة الحجة وتحقيق الإقناع، يقول (ميشال فوكو): «إنّ للتمثيل قدرة لا حدّ لها على ربط العلاقات وإقامة التشابهات، فمن نقطة واحدة يمكن إنشاء عدد لا يحصى من العلاقات وأشكال غير مرئية من التقارب، وعن طريق التمثيل يمكن أيضًا أن نقارب بين جميع الأشكال والأشياء في العالم مهما بلغت اختلافاتها»^(٨). ومن هذه الأغراض: التصوير؛ لغرض التحبيب في الشيء أو التنفير منه، وخصوصًا لمن

١ - الترمذي، أبو عبد الله محمد بن علي (٣٢٠هـ)، الأمثال من الكتاب والسنة، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٢.

٢ - السدوسي، أبو فيد مؤرج بن عمرو (١٩٥هـ)، الأمثال، حققه وقدم له ووضع فهارسه رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥. مقدّمة التحقيق.

٣ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٥٣٤) ج ١، ص ١٦١.

٤ - المرجع السابق، رقم المثل (٦١٥) ج ١، ص ١٨٥.

٥ - نفسه، رقم المثل (٦٨١) ج ١، ص ٢٠٦.

٦ - نفسه، رقم المثل (٧١٥) ج ١، ص ٢١٦.

٧ - نفسه، رقم المثل (٤٢٥١) ج ٣، ص ٣٢٥-٣٢٦.

٨ - عبد الرزاق دواي، التخيل والتمثيل في الخطاب الفلسفي، ضمن كتاب: تكون المعارف - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، ص ١٢٧.

يعسر عليه الفهم، وقد أشار الزمخشري أيضًا إلى أهمية الأمثال عند العرب بقوله: «ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأنٌ ليس بالخفي، في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمعٌ لسورة الجامح الأبي»^(١)، ومن ذلك قولهم: «جاء تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ»^(٢)، و: «ذهبوا أيدي سبأ»^(٣)، و: «رَجَعَ بِخُفْيِ حُنَيْنٍ»^(٤)، و: «الْعَوْدُ أَحَدُ»^(٥)، و: «قَبْلَ الرَّمْيِ يُرَاشُ السَّهْمُ»^(٦)، و: «قَدْ حَمَى الْوَطِيسُ»^(٧)، و: «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمَعَانِيَّةِ»^(٨).

وقد سعى الجرجاني إلى تعليل سرّ إقبال الناس على التمثيل بقوله: «إن كان (المثل) مدحًا كان أبهى وأفخم، وأنبّل في النفوس وأعظم، وأهزّ للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على المُتَدَحِّح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقصى له بغرّ المواهب المنائح، وأسير على الألسن وأذكّر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر، وإن كان ذمًا كان مسّه أوجع، وميسمه ألدع، ووقعه أشد، وحده أحد، وإن كان حجابًا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر، وإن كان افتخارًا كان شأؤه أمدّ، وشرفه أجدّ، ولسانه ألدّ، وإن كان اعتذارًا كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسلّ، ولغزب الغضب أفلّ، وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث، وإن كان وعظًا كان أشقى للمصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يُجِلِّي الغاية، ويُبَصِّر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل، وهكذا الحُكْم إذا استقرت فنون القول وضروبه، وتتبع أبوابه وشُعوبه»^(٩).

١ - الزمخشري، الكشف، ج ١، ص ١٩٥.

٢ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٩٥١) ج ١، ص ٢٧٤.

٣ - المرجع السابق، رقم المثل (١٤٥٤) ج ٢، ص ٦.

٤ - نفسه، رقم المثل (١٥٦٨) ج ٢، ص ٣٧.

٥ - نفسه، رقم المثل (٢٥٤٣) ج ٢، ص ٣٠٧-٣٠٨.

٦ - نفسه، رقم المثل (٢٨٧٠) ج ٢، ص ٤٠٥.

٧ - نفسه، رقم المثل (٢٨٨٣) ج ٢، ص ٤٠٩.

٨ - نفسه، رقم المثل (٣٢٧٠) ج ٣، ص ٨١.

٩ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ٩٢-٩٣.

- وهذا النص الثمين يمكن أن يشي بأمور تتصل بمسألة الغرض منها:
- أن نص المثل يمتلك قوّة ذاتيّة بما يمتلكه من خصائص يوظّفها المرسل لتعزيز مقصده وغرضه من الرسالة اللغويّة.
 - أن نص المثل يصل بالغرض إلى غايته القصوى، ويملك من نفس المتلقّي امتلاكًا كبيرًا، عبّر عنه الجرجاني بصيغ التفضيل الكثيرة: أشفى، وأبلغ، وأجدر، وأبهر....
 - أن نصوص الأمثال توظّف في أغراض الحياة جميعها، ولذلك تجد مثلاً تقريباً في كلّ موضوع، ويأتي بعضها للوعظ، وبعضها للنصح، وبعضها للزجر، وبعضها للتوبيخ، وبعضها للإقناع، وبعضها لجلب الاعتذار، وبعضها للافتخار؛ ممّا يعطيها حيويّة في الاستعمال، واتساعاً في التوظيف، ومقدرةً في الوصول إلى عدد كبير من المتلقّين، وأصناف كثيرة من المتلقّين.
 - أن نص «المثل» يوازي في أثره «البرهان»: البرهان المنطقي، والبرهان العقلي على موضوع الحديث؛ لأنّه مبني على ركام من الخبرات الإنسانيّة، ولذلك كان سلطانه قاهراً وغالباً، عبّر عنه الجرجاني بقوله: «كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيّانه أبهر».

خامساً: جامعو الأمثال وآليّات الإنتاج والتلقّي: قراءة في ضوء نحو النص: الميداني نموذجاً:

لعلّ البيانات التي يذيل بها جامعو الأمثال نصوصهم من أهمّ ما يسهم في منح نصوص الأمثال خصوصيّتها، بالنظر إلى أهميّة موقعها بين جوانب نص المثل، ولا تكتفي دراسة تركيب قصة المثل واستكشاف طبيعتها بأن تضيء أماننا حدود النص الداخليّة، وإنّما تسهم أيضاً في تحقيق نوع من الحضور للتجربة التي لا تنبثق صيغَةُ المثل ولا يتأكد حضورها في وعي مجموعة لغويّة من دونها.

فالمثل بجملة أخرى لا يحقّق مجاله التداولي مرتفعاً إلى ثقافة جماعة معيّنة من دون أن تُحيط هذه الجماعة بتجربته وتألّف واقعه، وتعيد إنتاجها بطريقة أو بأخرى، وهي تملك من الحساسية والتنظيم ما يدفعها على الدوام إلى الكشف عن جانب من الهاجس الفني للجماعة. وإذا كانت القصة قد تجلّت فناً أدبيّاً مميّزاً لأهداف عديدة، فإنّ غايات محدّدة تعمل على استحضر القصة وتأمين عمل منظومة أخبارها داخل نص المثل، واعتمادها وحدةً مهمة من بين وحداته؛ إذ إنّها فضلاً عن اشتراكها مع القصة عموماً بحكم مركزيّتها للتجربة

الإنسانية^(١)، وارتفاعها عن مستوى الأدب الذي تتجلى فيه^(٢)، تعمل على إنجاز مجازها، وتأمين استعارتها بوصفها «اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه»^(٣)؛ فالتشبيه في الاستعارة التمثيلية لا يقع لما يكون بين مشبه ومشبه به من تقارب في المعنى فحسب، بل يتعدى ذلك لتأشير ما يلتقط من أوجه الشبه بين تجربتين، تقوم إحداها بمهمة المشبه، على حين تقوم الثانية بمهمة المشبه به، لتتنظم الاستعارة باستحضار التجربة الراهنة التي تقوم مقام المشبه، وتأجيل التجربة السابقة، تجربة المثل نفسها التي تقوم عندئذ مقام المشبه به، ولذلك تدعونا مهمة الاستعارة القائمة على حذف المشبه واستعارة التركيب الدال على المشبه به، أي صيغة المثل للمشبه^(٤)، لتأمل أهمية تجربة المثل وملاحظة نُظم صياغتها القصصية في كتب الأمثال، متخذين من مجمع الأمثال للميداني نموذجاً لذلك، كما تحدّد قصة المثل بالإضافة إلى محتوى التجربة صيغة المثل التي ستشير لخبرة الجماعة ووعيتها لتجاربها، فلا يُحدّد استخدام المثل بزمان ومكان معيّن، ولا يُعتمد لرغبة آنية عابرة، بل إنّ له من الخصوصية ما يؤكد حضوره في مختلف التجارب الإنسانية، بوصفه رصيد ثقافة تُنشئه الجماعة وتحافظ عليه بما يُقترح له من مجال تداولي في حياة أبنائها؛ «ذلك أنّ تركّز البعد العملي فيها خُصّب وعميق وموحٍ»^(٥)، الأمر الذي يكشف أهمية قصة المثل، ويُعيّن لها موقعاً مؤثراً بغضّ النظر عمّا تؤدّيه من إخبار أو ما تتوسّل به من طرائق وأساليب.

ويُلاحظ أنّ عناية المثل بالتجربة التي أنتجت الصيغة، وأمنت لها مجالاً سردياً مناسباً، دفع القصة للانشغال بمفاد التجربة، بالنظر إلى خصوصية موقعها في حياة الجماعة وفي رصيد

١ - ينظر: سوزان لوهافر، الاعتراف بالقصة القصيرة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠، ص ١٧٠.

٢ - ينظر: رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٣، ص ٢٣.

٣ - القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، مكتبة الهلال، بيروت، ص ٣٠٤. وينظر حول أهمية الصورة المجازية في مدلولات المثل، عبد المجيد عابدين، الأمثال في الشر العربي القديم، ص ١٦-٢٠.

٤ - ينظر: أحمد مطلوب وكامل البصير، البلاغة والتطبيق، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، ١٩٩٠، ص ٣٦٠.

٥ - عبد الله إبراهيم، التلقي والسياقات الثقافية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٣٨.

خبراتها؛ فالأحداث في مثل هذا الشكل من القصص لا تستجيب على نحو كلي لإيعاز فني أو بنائي تتقدّم على أساسه باقي وحدات قصة المثل، بقدر ما تبدو استجابة لمنطق خارجي يوجّه القاص، معلوماً كان أو غير معلوم لـ«يقدم لسامعيه الأحداث في خطّ متسلسل تسلسلاً زمنياً مطّرداً وبترتيب وقوعها نفسه»^(١).

لذلك فإنّ الأحداث وهي تشكّل وحدة مؤثرة من وحدات نصوص الأمثال، وتسهم في نمط من الصياغة يراعى فيه توجّه التأليف للواقعة التاريخية وهي تتداخل مع التخيل في نصوص المؤلفين العرب الأوائل، تضيء توجّهاً عربياً قديماً اختصّت به القصص «منذ العصر الجاهلي ثم نما وازدهر في العصور الإسلامية. نما من داخله ووفقاً لمنطقه الخاص ولمنطق العصر والمجتمع اللذين كان يخاطبهما»^(٢).

إنّ تجربة المثل التي تُعتمد بوصفها مرجعاً لإنتاج القصة وتأمين مجال حياتها، ليست نموذجاً فنياً خالصاً، ولا عنصراً تكميلياً بقدر ما تسعى لإضاءة فضاء إنتاج صيغة المثل، التي تُعدّ قسماً مركزياً من أقسامها مهما تغيّر موقعها، أو تعدّدت صورها في نصوص الأمثال، إنّها تقدّم بجملة أخرى واقعة سردية مناسبة تُحافظ معها على حضورها، مستهديةً بأثر سابق له من الأهمية ما يدعو لإعادة إنتاجه والنسج على منواله^(٣).

لذا تُقسّم القصة في نصوص كتب الأمثال تبعاً لعنايتها بـ(الحدث) إلى أمثال ذات قصة واحدة، وأمثال ذات قصتين، وأحياناً ترد الأمثال دون قصة أو حتى تعليق، وهذا ينشأ بناءً على ما يُلتقط من أخبار تشكّل رصيذاً مهماً في أفق المثل العربي الذي يفتح على تجربة تُعدّ خزانته ومنبع صيغته، فهي في الوقت الذي تحبّر فيه، تستحضر واقعة، وتمثّل عالماً يفترق عن القول في كونه يحافظ على زمنية صيغته؛ ففي الوقت الذي «يبرز القول في إنجاز الكلام بصدد ما هو قيد الوقوع... يتمثّل الإخبار في إنجاز الكلام بصدد ما وقع»^(٤)، لتشكّل قصة المثل وجّها خاصاً من وجوه التعامل مع الخبر، فإذا كان الأخير قد حقّق على أساس تراكمي للأحداث حضوره في الأنواع السردية المتصلة بالقصة؛ نظراً لأصالتها وثباتها، ولإمكان

١- سيزا قاسم، بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٣٧.

٢- عز الدين إسماعيل، المكوّنات الأولى للثقافة العربية، ص ١٣٨.

٣- ينظر: لؤي حمزة، سرد الأمثال، ص ٩١.

٤- سعيد يقطين، الكلام والخبر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص ١٩١.

وجودها متعالية عن الزمان والمكان^(١)، فإنه مع قصة المثل قدّم نموذجًا خاصًا لم يُستحضر لذاته، بقدر ما استثمرت خصوصيته في إنشاء مجال سردي مناسب لاحتضان صيغة المثل، وتوفير فضاء نصي مناسب لها، ومن النماذج الدالة على ذلك:

١- أمثال ذات قصة واحدة:

«إِنَّ مِنَ الْبَيَّانِ لَسِحْرًا»^(٢).

قاله النبي ﷺ حين وفّد عليه عمرو بن الأهتم والزُّبرقان بن بدر وقيس بن عاصم، فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الأهتم عن الزُّبرقان، فقال عمرو: مُطَاعٌ فِي أَدْنِيهِ^(٣)، شديد العارضة، مانعٌ لما وراء ظهره، فقال الزُّبرقان: يا رسول الله إنه كيّعلم مني أكثر من هذا، ولكنه حسدني، فقال عمرو: أما والله إنه لزمّر المروءة، ضيق العطن، أحق الوالد، لئيم الخال، والله يا رسول الله ما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى، ولكني رجل رَضِيتَ فقلت أحسن ما علمت، وسَخِطْتَ فقلت أقبح ما وجدت، فقال -عليه الصلاة والسلام- «إِنَّ مِنَ الْبَيَّانِ لَسِحْرًا». يعني أن بعض البيان يعمل عمل السحر، ومعنى السحر: إظهار الباطل في صورة الحق، والبيان: اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللسن. وإنما شُبّه بالسحر لحدة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له. يُضرب في استحسان المنطق وإيراد الحجّة البالغة.

ومن ذلك قولهم:

«إِنَّ الشَّقِيَّ وَافِدُ الْبَرَاجمِ»^(٤).

قاله عمرو بن هند الملك، وكان سُويْدُ بن ربيعة التميمي قتل أخاه وهَرَبَ، فأحرق به مائة من تميم: تسعة وتسعين من بني دارم وواحدًا من البرّاجم، فلَقِبَ بالمحرّق... وكان الحارث بن عمرو ملك الشام من آل جَفْنَةَ يدعى أيضًا بالمحرّق؛ لأنّه أول من حرّق العرب في

١ - ينظر: سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص ١٩٥.

٢ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١) ج ١، ص ١٣.

٣ - المرجع السابق، رقم المثل (١) ج ١، ص ١٣. الأدنون: جمع الأدنى، بمعنى الأقرب. ينظر: لسان العرب (دنو).

٤ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٦) ج ١، ص ١٦.

ديارهم، ويدعى امرؤ القيس بن عمرو بن عديّ اللخمي محرّقاً أيضاً. يضرب لمن يُوقع نفسه في هلكة طمعاً.

ومن ذلك قولهم:

«إِنَّ الرِّثِيَّةَ تَفْتَأُ الْغَضَبَ»^(١).

الرثيئة: اللبن الحامض يُحْلَطُ بالحلو، والفثء: التسكين.

زعموا أن رجلاً نزل بقوم وكان ساخطاً عليهم، وكان مع سخطه جائعاً، فسقّوه الرثيئة، فسكن غضبه. يُضرب في الهدية تُورث الوفاق وإن قلت.

٢- أمثال ذات قصتين:

«إِلَيْكَ يُسَاقُ الْحَدِيثُ»^(٢).

زعموا أن رجلاً أتى امرأةً يخطبها، فأنعظ وهي تكلمه، فجعل كلما كلمته ازداد إنعاضاً، وجعل يستحي ممن حضرها من أهلها... وقال: إِلَيْكَ يُسَاقُ الْحَدِيثُ، فأرسلها مثلاً. وقال ابن الكلبي: جمع عامر بن صعصعة بنيه ليوصيهم عند موته، فمكث طويلاً لا يتكلم، فاستحثه بعضهم، فقال له: إِلَيْكَ يساق الحديث.

ومن ذلك قولهم:

«جَزَاءُ سِنِّارٍ»^(٣).

أي جزائي جزاء سنّار، وهو رجل رومي بنى الخورنق الذي بظهر الكوفة للنعمان ابن امرئ القيس، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فخرّ ميتاً، وإنما فعل ذلك لثلاثي يني مثله لغيره، فضربت العرب به المثل لمن يجزي بالإحسان الإساءة، قال الشاعر:

جَزَتْنا بنو سَعْدٍ بِحُسْنِ فَعَالِنَا جَزَاءُ سِنِّارٍ وما كانَ ذا دَنْبٍ

ويقال: هو الذي بنى أطمَ أحيحة ابن الجلاح، فلما فرغ منه قال له أحيحة: لقد أحكمته،

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٧) ج ١، ص ١٦. وينظر الأمثال ذات الأرقام الآتية: ١٠، ١١، ١٥، ١٩، ٢٣، ٢٧، ٢٩، ٣٥، ٣٧، ١١٧، ١٢٦، ٣٦١.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (١٨٥) ج ١، ص ٧٠.

٣- نفسه، رقم المثل (٨٢٨) ج ١، ص ٢٤٥.

قال: إني لأعرف فيه حجرًا لو نُزِعَ لتَقَوَّضَ من عند آخره، فسأله عن الحجر، فأراه موضعه. فدفعه أحيحة من الأطم فخر ميتًا.

ومن ذلك قولهم:

«رَجَعَ بِخُفِّي حُنَيْنٌ»^(١).

قال أبو عبيد: أصله أن حُنَيْنًا كان إسكافيًا من أهل الحيرة، فساومَه أعرابي بخُفَيْن، فاختلفا حتى أغضبَه، فأراد غَيَظَ الأعرابي، فلما ارتحل الأعرابي أخذ حنينٌ أحد خُفَيه وطَرَحَه في الطريق، ثم ألقى الآخر في موضع آخر، فلما مرَّ الأعرابي بأحدهما قال: ما أشبه هذا الخُفَّ بخف حنين ولو كان معه الآخر لأخذته، ومضى، فلما انتهى إلى الآخر نَدِمَ على تركه الأول، وقد كَمَنَ له حنينٌ، فلما مضى الأعرابي في طلب الأول عمد حنينٌ إلى راحلته وما عليها فذهب بها، وأقبل الأعرابي وليس معه إلا الخُفَّان، فقال له قومه: ماذا جئت به من سفرك؟ فقال: جئتكم بخُفِّي حُنَيْن، فذهبت مثلاً.

يُضْرَب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالحنية.

وقال ابن السكيت: حنين كان رجلاً شديداً ادَّعى إلى أسد بن هاشم بن عبد مناف فأتى عبد المطلب وعليه خُفَّانِ أحمرانِ فقال: يا عم أنا ابنُ أسد بن هاشم، فقال عبد المطلب: لا وثياب ابن هاشم، ما أعرف شمائل هاشم فيك، فارجع، فارجع، فقالوا: رجع حنين بخُفَيه، فصار مثلاً.

ويمكن تصنيف البيانات التي أوردها الميداني عقب الأمثال، وفق الآتي:

١ - الشرح اللغوي، وذلك نحو قولهم:

«الأَوْبُ أَوْبُ نَعَامَةٍ»^(٢).

الأَوْبُ: الرجوع. يُضْرَب لمن يعجل الرجوع ويُسرِع فيه.

«الأكُلُ سَلْجَانٌ وَالْقَضَاءُ لَيَانٌ»^(٣).

السَّلْجُ: البلع. يقال: سَلَجْتُ اللقمة أي بَلَعْتُهَا. والليَان: المدافعة، وكذلك اللَّيْ، ومنه

١ - المرجع السابق، رقم المثل (١٥٦٨) ج ٢، ص ٣٧. وينظر الأمثال ذات الأرقام الآتية: ١٦٢٨، ٣٠٠٦، ٣٧٥٩، ٣٨١٤، ٤١١٥، ٤٢٠٢.

٢ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٩٩) ج ١، ص ٤٣.

٣ - المرجع السابق، رقم المثل (١٥٦) ج ١، ص ٦٢.

«لِيُؤْجِدَ ظَلَمَ» ولم يَجِئ من المصادر شيء على فَعْلَان بالتسكين إلا اللَّيَّان والسَّنَان. يُضْرَب لمن يأخذ مال الناس فيسهل عليه، فإذا طوَل بالقضاء دافع وصَعَبَ عليه، ومثله. «إِنْ لَمْ أَنْفَعَكُمْ قَبْلًا لَمْ أَنْفَعَكُمْ عَلَا»^(١).

الْقَبْل والنَّهْل: الشُّرْبُ الأول. والعَلَل: الشُّرْبُ الثاني، والدَّخَالُ: الثالث، يقول: إِنْ لَمْ أَنْفَعَكُمْ فِي أَوَّلِ أَمْرِكُمْ لَمْ أَنْفَعَكُمْ فِي آخِرِهِ.

٢- نسبة المثل إلى قائله، وذلك نحو قولهم:

«إِنَّ خَيْرًا مِنَ الْخَيْرِ فَاعِلُهُ، وَإِنَّ شَرًّا مِنَ الشَّرِّ فَاعِلُهُ»^(٢).

هذا المثل للأخ للنعمان بن المنذر يقال له عَلَقَمَة، قاله لعمر بن هند في مواعظ كثيرة، كذا قاله أبو عبيد في كتابه.

«الْحَزْمُ حَفْظُ مَا كُفِّتَ، وَتَرْكُ مَا كُفِّتَ»^(٣).

هذا من كلام أكنم بن صفيي، وقريب من هذا قوله ﷺ «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

«الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(٤).

هذا من قول النبي ﷺ يَحْثُ عَلَى الصَّدَقَةِ.

٣- توضيح معنى المثل، وتعددت الأساليب التي يتبعها الميداني في ذلك، على النحو الآتي:

أ- باستخدام «يعني»، وذلك نحو قولهم:

«الْبَطْنُ شَرٌّ وَعَاءٌ صِفْرًا، وَشَرٌّ وَعَاءٌ مَلَأَنَ»^(٥).

يعني إِنْ أَخْلَيْتَهُ جُعَتْ وَإِنْ مَلَأْتَهُ آذَاكَ يَضْرِبُ لِلرَّجُلِ الشَّرِيرِ إِنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ آذَاكَ، وَإِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهِ عَادَاكَ.

«الْحَزْمُ يُعْطِي وَالْعَبْدُ يَأْلُمُ قَلْبَهُ»^(٦).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٣٤) ج ١، ص ٨١.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٢٦٣) ج ١، ص ٨٧.

٣- نفسه، رقم المثل (١٠٨٧) ج ١، ص ٣١٥.

٤- نفسه، رقم المثل (٤٦٥٦) ج ٣، ص ٤٣٧.

٥- نفسه، رقم المثل (٥٤١) ج ١، ص ١٦٢-١٦٣.

٦- نفسه، رقم المثل (١١٢٣) ج ١، ص ٣٢٤.

يعني أَنَّ اللئيم يكره ما يجود به الكريم.
«الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ»^(١).

يعني أَنَّ المؤمن يَحْرِصُ على جَمْعِ الحكم من أين يجدها يأخذها.
ب- باستخدام «أي»، وذلك نحو قولهم:

«إِنْ لَمْ يَكُنْ وَفَاقَ فَفِرَاقٌ»^(٢).

أي: إن لم يكن حبٌّ في قَرَبٍ فالوجه المفارقة.
«الْكَذِبُ دَاءٌ وَالصِّدْقُ شِفَاءٌ»^(٣).

أي داء للمكذوب فَإِنَّهُ يُعَمَى عليه أمره.
«النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمُسْطِ»^(٤).

أي متساوون في النسب، أي كُلُّهُمْ بنو آدم.
ج- باستخدام «إذا»، وذلك نحو قولهم:
«تَرَكَ مَا يَسُوءُهُ وَيَنْوَهُهُ»^(٥).

إذا ترك للوَرثة ماله، قيل: كان المحبوبي ذا يَسَارٍ، فلما حضرته الوفاة أراد أن يوصي، فقيل له:
ما نكتب؟ فقال: اكتبوا ترك فلان - يعني نفسه - ما يسوءه وينوءه، مالا يأكله وَرثته ويبقى
عليه وزره.

«جَاءَ وَفِي رَأْسِهِ خُطَّةٌ»^(٦).

إذا جاء وفي نفسه حاجة قد عَزَمَ عليها.

«جَاءَ صَرِيمٌ سَحَرٍ»^(٧).

إذا جاء آيسًا خائبًا.

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١١٥٢) ج ١، ص ٣٣٠.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٢٠٥) ج ١، ص ٧٦.

٣- نفسه، رقم المثل (٣١٨٧) ج ٣، ص ٥٦.

٤- نفسه، رقم المثل (٤٢٣٠) ج ٣، ص ٣٢٢.

٥- نفسه، رقم المثل (٦٩٩) ج ١، ص ٢١١.

٦- نفسه، رقم المثل (٩٣١) ج ١، ص ٢٧٠.

٧- نفسه، رقم المثل (٩٣٨) ج ١، ص ٢٧١.

د- بذكر ما يشبه معنى المثل فيما ورد قبلاً، نحو قولهم:
«إِذَا قَرِحَ الْجَنَانُ بَكَتِ الْعَيْنَانِ»^(١).

هذا كقولهم «البغض يُبْدِيهِ لَكَ الْعَيْنَانِ».
«التَّقَدُّمُ قَبْلَ التَّنَدُّمِ»^(٢).

هذا مثل قولهم «المَحَاجِزَةُ قَبْلَ الْمَنَاجِزَةِ».
«حَالِ الْأَجَلِ دُونَ الْأَمَلِ»^(٣).

هذا قريب من قولهم «حال الجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ».

٤- النقل عن أهل اللغة والأدب، وذلك نحو قولهم:
«أَهْلُ الْقَتِيلِ يَلُونَهُ»^(٤).

قال أبو عبيد: يعني أنهم أشدَّ عنايةً بأمره من غيرهم.
«إِنَّهُ لَوَاقِعُ الطَّائِرِ»^(٥).

قال الأصمعي: إنما يُضْرَبُ هذا لمن يوصَفُ بالحلم والوقار.
«رُبَّ نَعْلٍ شَرٌّ مِنَ الْحَفَاءِ»^(٦).

قال الكسائي: يقال رجل حَافٍ بين الحُفْوَةِ والحِفْيَةِ والحِفَايَةِ والحَفَاءِ بالمد، وكان الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى يُسَاقِرُ صاحباً له، فانقطع شِسْعُ نَعْلِهِ، فمشى حافياً، فخلع الخليل نَعْلَهُ وقال: من الجُفَاءِ، أن لا أواسيك في الحَفَاءِ.

٥- ذكر روايات المثل، وذلك نحو قولهم:
«دَمَّتْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ النَّوْمِ مُضْطَجِعاً»^(٧).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٣٨٥) ج ١، ص ١١٧.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٦٨١) ج ١، ص ٢٠٦.

٣- نفسه، رقم المثل (١٠٨٢) ج ١، ص ٣١٣.

٤- نفسه، رقم المثل (١٤٧) ج ١، ص ٥٩.

٥- نفسه، رقم المثل (١٠٠) ج ١، ص ٤٣.

٦- نفسه، رقم المثل (١٥٦٩) ج ٢، ص ٣٧.

٧- نفسه، رقم المثل (١٣٩٣) ج ١، ص ٤٠٣.

ويُروى «لجنبك» أي استعد للنوائب قبل حلوها، والتدميث: التلّين، والدَّمَائَة والدمث: اللين، ويُروى أنّ عائشة رضي الله تعالى عنها ذكرت عمر رضي الله تعالى عنه فقالت: كان والله أَحْوْذِيًّا نَسِيحًا وَحْدِهِ قَدْ أَعَدَّ لِلْأُمُورِ أَقْرَانَهَا. «الْعِتَابُ خَيْرٌ مِنْ مَكْتُومِ الْحَقْدِ»^(١)، ويُروى «من مكنون الحقد» قاله بعض الحكماء من السلف.

«كُلُّ إِنَاءٍ يَرْشَحُ بِمَا فِيهِ»^(٢)، ويُروى «ينضح بما فيه» أي يتحلّب.

٦- ذكر فيما يُضرب المثل، وذلك نحو قولهم:

«إِذَا ضَرَبْتَ فَأَوْجِعْ وَإِذَا زَجَرْتَ فَاسْمِعْ»^(٣)، يُضرب في المبالغة وترك التّواني والعجز.

«أَتَاكَ رِيَانٌ بَلْبِنِهِ»^(٤)، يُضرب لمن يعطيك ما فضل منه استغناء، لا كرمًا، لكثرة ما عنده.

«إِذَا تَوَلَّى عَقْدَ شَيْءٍ أَوْثَقَ»^(٥). يُضرب لمن يوصف بالحزم والجدّ في الأمور.

وأحيانًا يكتفي بذكر المثل فقط، وذلك نحو قولهم: «أَتَقِيَ شَرًّا مِنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ»^(٦).



١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٥٢٥) ج ٢، ص ٣٠٤.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٣١٥٩) ج ٣، ص ٥٠.

٣- نفسه، رقم المثل (١١١) ج ١، ص ٤٦.

٤- نفسه، رقم المثل (١٦١) ج ١، ص ٦٣.

٥- نفسه، رقم المثل (٢١٣) ج ١، ص ٧٧. وينظر المثل رقم (٤٠٩٢) ج ٣، ص ٢٨٢.

٦- نفسه، رقم المثل (٧٣٦) ج ١، ص ٢٢٠.

الفصل الثالث

نحو النص ذي الجملة الواحدة: أمثال الميداني نموذجاً

أولاً: النص ذو الجملة الواحدة ومقولات التماسك النصي

ثانياً: البنى النصية في النص ذي الجملة الواحدة

ثالثاً: إعادة بناء النص

رابعاً: الحذف في النص ذي الجملة الواحدة

خامساً: البنية الإحالية في النص ذي الجملة الواحدة

سادساً: آليات التأويل في المثل

نحو النص ذي الجملة الواحدة: أمثال الميداني نموذجاً

عُني الفصل الأوّل من هذه الدراسة بتحديد موقع «النص ذي الجملة الواحدة» من نحو النص عمومًا، وعُني بإجابة سؤال كبير:

هل نحو النص ذي الجمل المتعددة ينطبق على النص ذي الجملة الواحدة؟

واتخذ النقاش في ذلك الفصل سمتًا نظريًا عالج الظروف المختلفة في المسألة، واقترب الفصل الثاني أكثر من النص ذي الجملة الواحدة، وعالج آليات الإنتاج والتلقي في النص ذي الجملة الواحدة، متخذًا من نصوص «الأمثال» مسرحًا لهذا الوصف. أمّا هذا الفصل (الثالث) فهو ينحو منحى تطبيقيًا بحثًا على النص ذي الجملة الواحدة من نصوص الأمثال، وهو يسعى إلى اختبار المقولات المختلفة التي يعاين بها نحو النص النصوص عادة على «الأمثال»، ويسعى أن يجيب عمليًا عن السؤال:

ما الذي يميّز نحو النص ذي الجملة الواحدة عن غيره في تلك المعاينة للصيغة لنص الأمثال؟ وذلك من العناوين الآتية:

أولاً: نص الجملة الواحدة ومقولات التماسك النصّي.

ثانيًا: البنى النصيّة في النص ذي الجملة الواحدة:

أ- البنية الكلية الكبرى للنص ذي الجملة الواحدة.

ب- البنية العليا للنص ذي الجملة الواحدة.

ج- البنية التركيبية للنص ذي الجملة الواحدة.

د- البنية الإحالية في النص ذي الجملة الواحدة.

ثالثًا: المقام وانسجام النص ذي الجملة الواحدة.

رابعًا: آليات التأويل في نحو النص ذي الجملة الواحدة.



أولاً: النص ذو الجملة الواحدة ومقولات التماسك النصي

لا يكاد يخلو تعريف من تعريفات النص لدى دارسيه من مقولة «التماسك النصي» بوصفه ركناً ركيناً من الخصائص التي تصنع «النصيّة»، فـ(جون لاينز) مثلاً يفترض أن النص في مجمله «يتّسم بسمات التماسك والترابط»^(١).

أمّا معايير (بيوجراند) للنصيّة فيقف في رأسها السبك أو الاتساق (Cohesion)، والحبك أو الانسجام (Coherence)، وهما معياران مهمّان مهمتهما تحقيق التماسك النصي^(٢).

ولا يتعد (ثان ديك) عن هذا في وصفه لمكوّنات النص ووحداته بأنّها «تحكمها قيود الربط والترابط الجمليّة»^(٣)، وكان (هاليداي ورقية حسن) واضحاً جداً في هذا حين صرّحاً بأنّ الترابط النصّي هو الذي يُحدث النصيّة^(٤).

وحرصت الدراسات النصيّة على دراسة أشكال التماسك النصّي وأنواعه، واستخدمت في ذلك مفردات مثل: «التماسك»، و«الترابط»، و«الاتساق»، و«الانسجام»، و«السبك»، و«الحبك»، و«الاتحام النصّي»، وبعضها يفضي إلى بعض على نحو ما يظهر في دراساتهم. والتماسك النصّي عند بعض علماء النص خصيصة نحويّة^(٥)، وعند آخرين خصيصة دلاليّة^(٦)، وعند آخرين تداوليّة^(٧)، وهذا التماسك مسؤول عن ظهور النص كلاً واحداً مؤتلفاً، أو ما يُسمّيه علماء النص «وحدة الخطاب»، ويعبّر (بيوجراند ودرسلر) عن هذا حين يحدّان النص بأنّه «بنية مركّبة متماسكة تتجلّى فيها بنية ذات وحدة شاملة»^(٨).

١- جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ص ٢١٨-٢١٩.

٢- ينظر: بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٣.

٣- ثان ديك، علم النص، ص ٧٣.

٤- ينظر: Halliday & ruqaiya Hassan, Cohesion in English Language, P. 19.

٥- ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٦١.

٦- ينظر: صبحي الفقي، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، ص ٧٣. وسعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٢٠-١٢١؛ وصلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٣٤٠.

٧- ينظر: يوسف عليان، التماسك النصي في اللغتين «العربية والإنجليزية»: دراسة تقابلية في الربط النحوي، أطروحة دكتوراة غير منشورة، جامعة اليرموك، ٢٠٠٢، ص ١٧-٢٢.

٨- سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١١١.

وأرى أنه يمكن دراسة التماسك النصّي في نصّ الجملة الواحدة ضمن الأطر الآتية:

١- التماسك النحوي.

٢- التماسك الدلالي.

٣- التماسك التداولي.

وذلك لكي أجمع المفردات التي تُستعمل في هذا الصدد تحت عناوين كبيرة، ولأنّ السامع عندما يتلقّى نصّاً «ما» فإنّه -وفقاً لـ (هالداي ورقية حسن)- يستدعي له بُنيّتين:

■ داخلية تعتمد على الوسائل اللغويّة التي تربط أواصر مقطع ما بغيره.

■ وخارجية تكمن في مراعاة المقام المحيط بالنص.

ومن ثم فلا فصل بينهما عند المتلقّي^(١)، لكنّ الفصل ضروري في الدراسة اللسانية لإظهار التفاصيل، ولتوضيح سيرورة النصوص في تحقيق كياناتها.

والبنية الداخلية يتضافر في صناعتها مستويان: المستوى النحوي والمستوى الدلالي معاً، أمّا البنية الخارجية فتعالج ضمن مقولات المستويّين الدلالي والتداولي، ويحتاج الدارس إلى قواعد نحويّة دلاليّة تداوليّة لإظهار كلّ ذلك.

وسأعرّف أولاً بهذه الأشكال الثلاثة للتماسك، وصورتها في النصّ ذي الجملة الواحدة (المثل)، ثم سأقدّم تطبيقاً عملياً عليها بدراسة الأبنية النصيّة في نصوص الأمثال ذات الجملة الواحدة.

أمّا التماسك النحوي فسيكون بدراسة البنية التركيبيّة للنصّ في الجملة الواحدة، وأمّا التماسك الدلالي فسيظهر في دراسة البنية العليا، والبنية الكلّيّة الكبرى والبنية الإحاليّة، أمّا التماسك التداولي فيتجلّى في المقام وانسجام النصّ ذي الجملة الواحدة، وكذلك في البنية الإحاليّة، مع الأخذ بعين الاعتبار صعوبة الفصل في كلّ ذلك.

أ- التماسك النحوي أو «الاتساق» أو «السبك» في النصّ ذي الجملة الواحدة:

هذا النوع من التماسك يُعبّر عنه أحياناً بالتماسك النحوي أو الترابط اللفظي أو الاتساق، أو السبك أحياناً أخرى.

ووفقاً لمحمد خطّابي يُقصد به «ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكّلة لنصّ خطاب

١ - ينظر: Halliday (M.A.K) Ruqaiya Hassan, Cohesion in English Language, p20

ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكوّنة لجزء من خطاب أو خطاب برمته^(١)، وهو عند (سشايفر) «الأدوات التي تؤسّس العلاقات المتبادلة بين التراكيب والجميل في النص»^(٢).

وهذه العلاقات هي «روابط لغوية شكلية تسهم في اتساق النص وتماسك بنائه، وتكوّن شبكة نصية تعين على تفسير النص وفهمه»^(٣).

ويذهب (بيوجراند) إلى أنّ الاتساق «يترتب على إجراءات تبوّها العناصر السطحية على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق بحيث يتحقّق لها الترابط الرصفي، وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط»^(٤).

أو هو «الكيفية التي يتم بها ربط العناصر اللغوية على مستوى البنية السطحية في النص»^(٥)، وتُحقّق هذا الضرب من التماسك مجموعة من أدوات الترابط النحوي والمعجمي، ويترتّب عليه انسجام البنية الزمانية في النص.

ويصف صلاح فضل هذا الضرب من التماسك أو الاتساق بأنّه «يمثّل خصيصة نحوية للخطاب تعتمد على علاقة كلّ جملة بالجملة الأخرى، وهو ينشأ غالباً عن طريق الأدوات التي تظهر في النص مباشرة، وأدوات العطف والوصل والترقيم وأسماء الإشارة وأدوات التعريف والأسماء الموصولة وغيرها»^(٦)، واجتهد (هاليداي) ورقية حسن في جمع أكبر عدد من الأدوات الرابطة وصنّفها ضمن شكلين من أشكال الاتساق هما: «الاتساق النحوي» و«الاتساق المعجمي»، وأضاف بعض الدارسين «الاتساق الصوتي» ويتنظم خصائص مثل: «التنغيم» الذي عدّه (بيوجراند) من المحاور الرئيسة في «الاتساق»، ولعلّ من أهم أشكال الاتساق النحوي التي يذكرونها: الإحالة والعطف والحذف، وأمّا الاتساق المعجمي فيتحقّق عبر علاقات كثيرة من أبرزها عندهم: «التكرار»، و«المصاحبة المعجمية»، و«الاستبدال».

١ - محمد خطابي، لسانيات النص، ص ٥.

٢ - جون ماري سشايفر، النص ضمن كتاب العلاماتية وعلم النص، ص ١٣٢.

٣ - ينظر: محمد حماسة عبد اللطيف، الإبداع الموازي، ص ٤٥.

٤ - بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٣.

٥ - ليندة قياس، لسانيات النص النظرية والتطبيق، ص ٢٣.

٦ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢٦١.

فكيف ستطبق مقولات التماسك النحوي حين يتعلّق الأمر بنص ذي جملة واحدة؟ «المثل»
مثلاً؟

وللإجابة عن هذا السؤال، أقرأ النموذج الآتي:

* النموذج رقم (١):

جاء في مجمع الأمثال للميداني المثل ذو الرقم (١٤٢) ونصّه:

«إحدى حُطَيَّات لقمان».

وهو جزء من قصة طويلة أوردها الميداني^(١)، أمّا الجزء الصغير الذي وردت فيه على وجه

١ - الحُطَيَّة: تصغير الحُطْوَة بفتح حائه، وهي المرماة (هي سهم صغير قدر ذراع)، قال أبو عبيد: هي التي لا
نَصَلُ لها، ولقمان هذا هو: لُقْمَانُ بْنُ عَادٍ، وحديثه أنه كان بينه وبين رجلين من عاد، يقال لهما عمرو وكعب
ابنا تَقْنٍ بن معاوية قتال، وكانا رِيفِيَّيْنِ، وكان لقمان ربّ غنم فأعجبت لقمان الإبل، فراودهما عنها، فأبى أن
يبيعه، فعمد إلى ألبان غنمته من ضأن ومِعْزٍ وأنافَحٍ من أنافَحِ السَّخْلِ، فلما رأيا ذلك لم يلتفتا إليه ولم يرغب في
ألبان الغنم، فلما رأى ذلك لقمان قال: اشترِياها ابْنَي تَقْنٍ، أَقْبَلْتُ مَيْسًا، وَأَدْبَرْتُ هَيْسًا، وملأت البيت أَقْطًا
وحَيْسًا. اشترِياها ابْنَي تَقْنٍ، إنها الضأن تُحْزِرُ جَفَلًا، وتُتَنِّجُ رَحَالًا، وتحلب كَثْبًا ثَقَالًا. فقالا: لا نشريها يالْقَم،
إنها الإبل حَمْلَنٌ فَاتَسَقَنَ، وَجَرَبَيْنَ فَأَعْتَقَنَ، وبغير ذلك أفلتن، يَغْزُرُنْ إِذَا قَطَنَ. فلم يبيعه الإبل ولم يشريا
الغنم، فجعل لقمان يَدَاوِرُهُمَا، وكانا يَهَابَانِهِ، وكان يلتمس أن يغفلا فيشدد على الإبل ويَطْرُدْهَا، فلما كان ذات
يوم أصابا أرنَبًا وهو يَرِصُدُهُمَا رجاء أن يصيبهما فيذهب بالإبل، فأخذا صفيحة من الصِّفَا، فجعلها أحدهما
في يده، ثم جعل عليهما كومة من تراب قد أحياه فملاً الأرنب في ذلك التراب فلما انْضَجَّهَا نَفَضَا عنها
التراب فأكلاها، فقال لقمان: يا ويله أُنَيْتُهُ أَكَلَاهَا، أم الريح أَقْبَلَاهَا، أم بالشَّيْحِ اشْتَوِيَاهَا، ولما رآهما لقمان لا
يغفلان عن إبلهما، ولم يجد فيهما مطعمًا لقيهما ومع كل واحد منهما جَفِيرٌ مملوء بُبْلًا وليس معه غير بُبْلَيْنِ،
فخدعهما فقال: ما تصنعان بهذه النبل الكثيرة التي معكما؟ إنما هي حَطَبٌ، فوالله ما أحمل معي غير بُبْلَيْنِ،
فإن لم أُصِبْ بهما فلسْتُ بمصيب، فعمدا إلى نبلهما فنشراهما غير سهمين، فعمد إلى النبل فحواها، ولم يُصِبْ
لقمان منهما بعد ذلك غَرَّةً وكان فيما يذكرون لعمرو بن تَقْنٍ امرأة فطلقها، فتروجها لقمان، وكانت المرأة
وهي عند لقمان تكثر أن تقول: لَأَفْتَى إِلَّا عَمْرُو، وكان ذلك يَغِيظُ لقمان، ويسوءه كثرة ذكرها، فقال لقمان:
لقد كَثُرَتْ في عمرو، فوالله لأَقْتُلَنَّ عَمْرًا، فقالت: لا تفعل. وكانت لابني تَقْنٍ سَمُرةٌ يستظلُّان بها حتى ترد
إبلهما فيسقيانها، فصعدا لقمان، واتخذ فيهما عَشًّا رجاء أن يصيب من ابني تَقْنٍ غَرَّةً، فلما وردت الإبل تجرَّد
عمرو وأكَبَّ على البئر يستقي، فرماه لقمان من فوقه بِسَهْمٍ في ظهره، فقال: حَسَّ، إحدى حُطَيَّات لقمان،
فذهب مثلاً، ثم إن عَمْرًا أراد أن يقتل لقمان، فتبسّم لقمان: فقال عمرو: أَصَاحُكَ أَنتُ؟ قال لقمان: ما
أَصْحَاكَ إِلَّا من نفسي، أما إني تُهِيتُ عما ترى! فقال: وَمَنْ نَهاكَ؟ قال: فلانة، قال عمرو: أَفَلَيْ عَلَيْكَ إِن=

التعيين فهو «فرماه لقمان من فوقه بسهم في ظهره، فقال: حسّ، «إحدى حُطَيَّات لقمان»، فذهب مثلاً، ثم أهوى إلى السهم فانتزعه، فوقع بصره على الشجرة، فإذا هو بلقمان، فقال: انزل، فنزل...»^(١).

فكيف تُدرس الروابط في نص كهذا «إحدى حُطَيَّات لقمان»؟ هل تُدرس مرتبطة بقصّته الأولى، وتعد القصة أو الحكاية هي النص، وتعدّ «إحدى حُطَيَّات لقمان» مجرد جملة في ذلك النص ويُدرس الترابط في النص الكبير؟ إنّه إذا تم ذلك تُتجاوز المقولة الرئيسة في هذا البحث، وهي أنّ المثل بكيونته القائمة الماثلة على السطح يمثل نصّاً مكتملاً ومغلّقاً، ولا معنى لاستحضار النص الكبير أو الحكاية الأولى لإنتاج المثل في التحليل النحوي والترابط النحوي.

ماذا يفعل الباحث إذاً وبالكاد تمثّل مقولة المثل الذي استحضرت «جملة»؟ إنّه ملزم هنا باستيفاء بنية الجملة التي يمثلها المثل فقط عبر مقولة «الحذف النحوي»، ويفترض أنّ بنية الجملة الأصلية هي: «هي إحدى حُطَيَّات لقمان»؛ فيكون المحذوف هو المبتدأ^(٢).

وإذا تشكّلت الجملة كاملة بهذا فهل يدرس الباحث الروابط بين أجزائها، فيرى أنّ الخبر جاء مفرداً وصفاً (إحدى)، ومن ثم فهو يحتمل الضمير (هي)، فيكون ذلك هو الرابط الحقيقي بين المبتدأ والخبر؟ وإذا قال ذلك فإذا بعد؟ أين التماسك النصّي بمعناه الكلّي الشامل؟ وهل ترابط هذه الجملة نحويّاً هو محلّ سؤال عند أحد أصلاً؟ فلو لا هذا الترابط ما صارت جملة؛ فالإتلاف والإسناد هما شرطاً ببناء الجملة كما هو معلوم.

وهل هذا كافٍ في فهم نحوية البناء النصّي؟ أزعج أنّ هذا ليس كافياً. وماذا عن إحالة الضمير «هي» في المبتدأ؟ وأين نجد بيانه؟ إنّ بناء الجملة -من قِبَل الباحث- على هذا النحو ليس كافياً بالضرورة في فهم الترابط النحوي أو التماسك النحوي.

= وَهَبْتُكَ لَهَا أَنْ تُعَلِّمَهَا ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَأَتَاهَا لَقْمَانُ فَقَالَ: لَا فَتَيَّ إِلَّا عَمْرُو، فَقَالَتْ: أَقْدَ لَقَيْتَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ لَقَيْتُهُ فَكَانَ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ أَسَرَّنِي فَأَرَادَ قَتْلِي ثُمَّ وَهَبَنِي لَكَ، قَالَتْ: لَا فَتَيَّ إِلَّا عَمْرُو. يُضْرَبُ لِمَنْ عُرِفَ بِالْبَشَرِ، فَإِذَا جَاءَتْ هَنَّةٌ مِنْ جَنْسِ أَفْعَالِهِ قِيلَ: إِحْدَى حُطَيَّاتِ لَقْمَانَ أَيْ إِنَّهُ فَعَّلَهُ مِنْ فَعْلَاتِهِ.

١ - ينظر: الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٤٢) ج ١، ص ٥٤-٥٥.

٢ - يوافق ما افترضته ما ذهب إليه د. عبد الفتاح الحموز في كتابه (الحذف في المثل العربي)، ص ٩.

* النموذج رقم (٢):

جاء في مجمع الأمثال للميداني المثل ذو الرقم (١٤٥) ونصّه:
«إِنَّكَ خَيْرٌ مِنْ تَفَارِيقِ الْعَصَا».

ثم يذكر الميداني قصة المثل^(١)، والمتلقي هنا بإزاء جملة كاملة لا حذف فيها، والجملة مؤكدة بـ «إِنَّ» وجاء الاسم ضميراً، وجاء الخبر وصفاً (خيراً)، وهو متحمل للضمير «أنت» الذي يحيل إلى الاسم (أنت/الكاف).

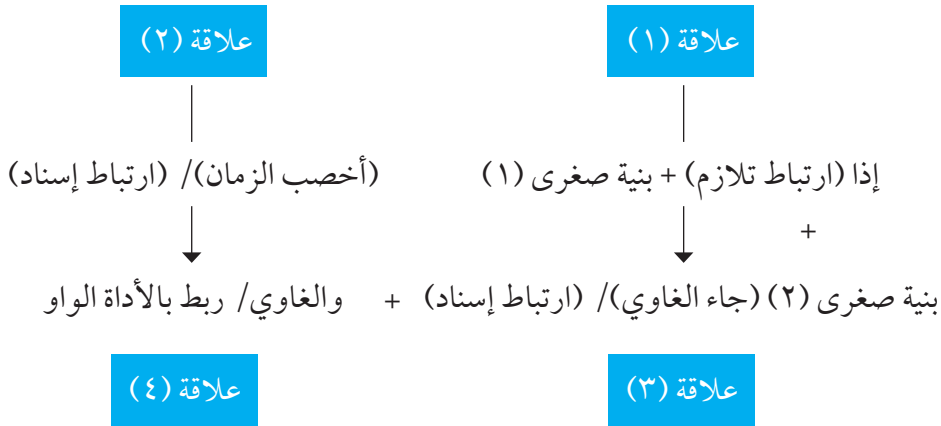
وبهذا المعنى فالجملة مترابطة الأركان، فهل هذا كافٍ ليصف التماسك النحوي النصّي؟ وإلى أي شيء يحيل الضمير الكاف في «إِنَّكَ»؟

* النموذج رقم (٣):

جاء في مجمع الأمثال للميداني المثل ذو الرقم (٣٣٢) ونصّه:
«إِذَا أَخْصَبَ الزَّمَانُ جَاءَ الْغَاوِي وَالْهَاوِي»

إنّ الجملة هنا جاءت على شكل تركيب شرطي ائتلف من أداة الشرط «إذا» وبنيتين إسناديتين هما: «أخصب الزمان»، و«جاء الغاوي والهاوي»، وبينهما علاقة تلازم (الشرطية)، فهل علاقة التلازم هي التي صنعت الترابط؟ وماذا عن ترابط الأبنية الصغرى: «أخصب الزمان»، و«جاء الغاوي والهاوي»، وارتباطات الإسناد بين مكوناتها. شكل رقم (٥)

١ - قالوا: هذا من قول غنيّة الأعرابية لابنها وكان عارماً كثير التلفت إلى الناس مع ضعف أسر ودقة عظم، فوائب يوماً فتى فقطع الفتى أنفه، فأخذت غنيّة دية أنفه، فحسنت حالها بعد فقر مُدْفِع، ثم وائب آخر فقطع أذنه، فأخذت ديتها، فزادت حُسْنَ حال، ثم وائب آخر فقطع شفته، فأخذت الدية، فلما رأت ما صار عندها من الإبل والغنم والمتاع، وذلك من كَسْب جوارح ابنها حُسْنَ رأيها فيه وذكرته في أرجوزتها فقالت: = «أَخْلَفُ بِالْمُرُوءَةِ حَقًّا وَالصَّفَا * إِنَّكَ خَيْرٌ مِنْ تَفَارِيقِ الْعَصَا. قيل لأعرابي: ما تَفَارِيقُ الْعَصَا؟ قال: العصا تُقَطَّعُ سَاجُورًا، وَالسَّوَاجِرُ تَكُونُ لِلْكَلابِ وَلِلْأَسْرَى مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ تَقَطَّعُ عَصَا السَّاجُورِ فَتَصِيرُ أَوْتَادًا، وَيُفْرَقُ الْوَتْدُ، فَتَصِيرُ كُلُّ قِطْعَةٍ شِطَّاظًا، فَإِنْ جُعِلَ لِرَأْسِ الشِّطَّاظِ كَالْفَلَكَةِ صَارَ لِلْبُخْتِي مِهَارًا، وَهُوَ الْعُودُ الَّذِي يَدْخُلُ فِي أَنْفِ الْبُخْتِي، وَإِذَا فُرِقَ الْمِهَارُ جَاءَتْ مِنْهُ تَوَادٍ، وَهِيَ الْحَشْبَةُ الَّتِي تَشَدُّ عَلَى خِلْفِ النَّاقَةِ إِذَا صُرَّتْ، هَذَا إِذَا كَانَتْ عَصًا، فَإِذَا كَانَتْ فِئَاةً فَكُلُّ شَقٍّ مِنْهَا قَوْسٌ بَنْدُقٍ، فَإِذَا فُرِقَتْ الشَّقَّةُ صَارَتْ سِهَامًا، فَإِنْ فُرِقَتْ السِّهَامُ صَارَتْ حِطَاءً، فَإِنْ فُرِقَتْ الْحِطَاءُ صَارَتْ مَغَازِلَ، فَإِنْ فُرِقَتْ الْمَغَازِلُ شَعَبَ بِهِ الشَّعَابُ أَقْدَاحُهُ الْمَصْدُوعَةُ وَقِصَاعُهُ الْمَشْقُوقَةُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِدُ لَهَا أَصْلَحَ مِنْهَا وَأَلْيَقَ بِهَا. يُضْرَبُ فِيْمَنْ نَفْعُهُ أَعَمُّ مِنْ نَفْعِ غَيْرِهِ. مجمع الأمثال، رقم المثل (١٤٥) ج ١، ص ٥٦.



هل هذا الوصف النحوي كافٍ للوصول إلى التماسك النحوي؟ أزعـم أن «لا»، وكلّ ما في الأمر أنّ هذا الوصف قد يوظّف في وصف الأبنية النصيّة الكبرى لاحقاً لا أكثر ولا أقل. إنّ الوصف النحوي المحض لجملة المثل بوصفها جملة وحسب لا يمكن أن يكون هو ما يُبحث عنه في التماسك النصّي للنص ذي الجملة الواحدة، ولكنّه المستوى الأول الذي يُبدأ به وحسب للوصول إلى «البنية النصيّة» التي أحدثت التفاعل والتواصل بين أطراف الخطاب، وبقيناً فإنّ علاقات الربط والارتباط التي تُدرس في «نحو الجملة» هي الأداة في التأكّد أنّ الباحث أمام جملة فقط، وليست أداة في دراسة التماسك النصّي بمعناه الكامل، لكنّه ضروري في الإحاطة بالبنية الرصفيّة السطحيّة الماثلة للنص، وهي ما يسمعه المتلقّي في موقف التواصل، ولذلك اجتهد النحاة القدامى والمُحدّثون في استكمال هذه البنية فدرسوا ما فيها من حذف.

وانظر أمثلة ذلك عند سيبويه^(١)، والمبرّد^(٢)، وأبي علي الفارسي^(٣)، وابن يعيش^(٤)، وابن

١ - سيبويه، الكتاب، ينظر مثلاً: ج ٣، ص ٤٢.

٢ - المبرّد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٨هـ، ينظر مثلاً: ج ٢، ص ٢٦.

٣ - الفارسي، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (٣٧٧هـ)، المسائل العسكريّة، تحقيق علي المنصوري، مطابع جامعة بغداد، ط ١، ١٩٨٢، ينظر مثلاً: ص ٣٣.

٤ - ابن يعيش، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي النحوي (ت ٦٤٣هـ)، شرح المفصل، إدارة المطابع =

الحاجب^(١)، وابن عصفور^(٢)، وابن مالك^(٣)، وابن هشام^(٤)، والسيوطي^(٥)، والصَّبَّان^(٦)، ومن المُحدِّثين عبد الفتاح الحموز^(٧).

إنَّ الوصول إلى البنية السطحيَّة للنص ضروري للبدء في التحليل النصِّي، لكنَّه مجرد البداية وحسبٌ، وهذا الوصول محلَّه مقولات النحو «نحو الجملة»، بكلِّ ما يتصل به من استكمال أركان الجملة وائتلاف أطرافها وترابطها.

أمَّا الوصول إلى البنية النصِّيَّة الحقيقيَّة فلا شأنٌ لنحو الجملة به، وإذا فمقولات التماسك النحوي التي يطرحها بعض نحاة النص بصورتها الحالية أو صورتها الظاهريَّة لا تصف التماسك النصِّي في النص ذي الجملة الواحدة لاعتبارات منها:

- ١- أنَّ هذه المقولات قد انصرفت لوصف النصوص التي تأتلف من متواليات من الجمل المتصلة، فعالجت الأدوات والضمائر والروابط المختلفة التي تربط بين الجمل المختلفة وتحيلها كلاً نحوياً متماسكاً، أمَّا نصُّ المثل فهو جملة واحدة فكيف ستدرس الروابط النحويَّة فيه؟.
- ٢- اشتغال النصوص ذات الجملة الواحدة على تراكيب تحتاج في توضيحها وفهمها إلى البناء النصِّي المكتمل، أي البنية النصِّيَّة في سياقها التواصلِي كالضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وغيرها، وهو ما لا يبرز حضور له في مقولات التماسك النحوي المطروحة.
- وبإزاء ذلك فإنَّ نحوي النص مُلزم هنا باستحضار البنية النصِّيَّة الكاملة التي جاء هذا المثل

= المنيريَّة، القاهرة، ١٩٦٤، ينظر مثلاً: ج ٢، ص ٦١.

١- ابن الحاجب، أبو عمرو عثمان بن الحاجب (٦٤٦هـ)، الإيضاح في شرح المفصل، تحقيق موسى العلي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٢، ينظر مثلاً: ج ١، ص ١٠٨.

٢- ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، تحقيق صاحب أبو جناح، وزارة الأوقاف والشؤون الدينيَّة، الجمهوريَّة العراقيَّة، ينظر مثلاً: ج ٢، ص ١٧٨.

٣- ابن مالك، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق محمد كامل بركات، ينظر مثلاً: ص ٥٧.

٤- ابن هشام الأنصاري، عبدالله بن يوسف (ت ٧٦١هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، مراجعة سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ٥ ط، ينظر مثلاً: ص ٨٢٥.

٥- السيوطي، همع الهوامع، ينظر مثلاً: ج ٢، ص ٤٣.

٦- الصبان، محمد بن علي (١٢٠٦هـ)، حاشية الصبان على شرح الأشموني، ومعه شرح الشواهد للعيني، دار إحياء الكتب العربيَّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ينظر مثلاً: ج ٢، ص ١٤٣.

٧- عبد الفتاح الحموز، الحذف في المثل العربي، دار عمَّار للنشر والتوزيع، عمان، ١ ط، ١٩٨٤.

ليختزلها، ولعلّ هذا يتفق مع ما ذهب إليه د. تمام حسان في أنّ الغرض من التركيب النصّي هو الاتصال، ولا يحدث الوصف حينئذٍ عن طريق وصف الوحدات الصغرى الصوتيّة والصرفيّة، ولا بعرض العلاقات النحويّة المباشرة، وإنّما يحدث عبر وصف اللغة في موقف استعمال أدائي حقيقي، بغضّ النظر هل طال هذا النص أم قصر^(١)، والباحث يذهب كذلك مع سعيد بحيري الذي يقول إنّ الجملة في نحو النص لا قيمة لها في حدّ ذاتها فهي قيمة جزئيّة، ولا تظهر قيمتها إلا باشتراكها في القيمة الكبرى التي تشكل جوهر البنية الكلية للنص^(٢).

وتنبّه (بيوجراند) إلى أنّ النص ليس مجرد شكل نحوي مختلف عن الجملة؛ فقد يكون النص أكثر من كلمة واحدة بقليل، وقد يتألف من عناصر ليس لها ما للجملة من شروط مثل علامات الطريق والإعلانات والبرقيات وغيرها؛ فالنص هو تجمع من الوظائف، وتحليل النص هو البحث عن هذه الوظائف^(٣).

إنّ النص في الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي فقط، بل هو إنجاز حدث اجتماعي في آن؛ فالمرسل ينجز حدثاً حين ينطق جملة أو نصّاً أو مثلاً كما يقول (ثنان ديك)^(٤). إنّ إعادة بناء النص عبر مفتاح الجملة الماثلة على السطح هو واحد من أهم أهداف نحو النص، ومحلّ الحديث عنه هو في المبحث المتعلق بالبنية التركيبية للنص ذي الجملة الواحدة.

ب- التماسك الدلالي أو «الانسجام» أو «الحبك»:

وفي هذا الجانب من التماسك لا بد من مراعاة قواعد الدلالة والمنطق إلى جوار القواعد التركيبية، وبه يصل الباحث إلى الدلالة الكلية للنص، ويرى (ثنان ديك) أن تُدرس بهذا الجانب كلّ الانحرافات في المعاني والوظائف التي يكشف عنها فضاء النص، وكذلك البحث عن عناصر توضّح منطقية الجمل وصلتها بالموقف التواصلية الذي يجعل من النص وحدة كلية^(٥).

١- ينظر: مصطفى النحاس، نحو النص، ص ٣٣.

٢- ينظر: سعيد بحيري، ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي: دراسة في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢٤٠.

٣- ينظر: بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٨٨.

٤- ينظر: Halliday & ruqaiya Hassan، Cohesion in English language، P. 22 .

٥- ينظر: رمان سيلدن، رفض البنى النصّية، ترجمة عزيز المطليبي، مجلة نوافذ، (٢٢)، ٢٠٠٢، ص ١١٥-١١٩.

ولا بد هنا من قواعد دلالية لا تتسم بالثبوت والاطراد، وتعصدها القواعد التركيبية ولا تنحصر فيها أبداً، وفي هذا الضرب من التماسك يدرس الباحث الروابط الدلالية وعلاقتها بموقف الاتصال والسياق، بمعنى أدق يدرس في هذا الجانب جميع العلاقات التي تُسهم في إنتاج الدلالة الكلية المنبثقة عن النص، فلم يعد التماسك صدى للبنية التركيبية القائمة على السطح؛ فطبيعة البنية النصية الكبرى والدلالية متعلقة بمدى التماسك الكلي النهائي للنص، وهذا يخضع لاهتمامات المتلقي ومعارفه، مما يجعل تحديدها معرّضاً للاختلاف من شخص لآخر دون الابتعاد عن الجوهر المضموني للنص المعالج، وكلّ هذا مرتبط بالخبرات اللغوية والنفسية والاجتماعية واللسانية في قراءة النص وتحليله، وصولاً إلى العلاقات القائمة بين المكونات النصية وربطها بما يحيط بها من سياق تواصلية وأبعاد نصية وفقاً لـ (بيوجراند و(ثان ديك)، وكلّ هذا يجعل من المتلقي محدداً أساسياً لها؛ إذ إنّ مفهوم التماسك يرتبط كثيراً بمجال الفهم والتفسير الذي يضيفه القارئ على النص؟

إنّ المتلقي يصل إلى فهم النص بواسطة اكتشافه للعلاقات التي تربط أجزاء النص بعضها مع بعض، كما أنّ فهم النص انعكاس للتفاعل الذي يحصل بين المتلقي والنص؛ فتنهض وحدات لغوية تمثل قيماً دلالية متحررة من ثبات المدلول، تفتح إمكانات النص للمتلقي؛ ليؤسس منها أبعاداً دلالية تستنبط من النص، وتضيف إليه شيئاً جديداً مع كلّ قراءة جديدة.

فالتماسك النصي في أفقّيه الدلالي والتداولي يتوقف على فهم المتلقين وتجاربهم ومعارفهم وأهدافهم، وهو ظاهرة بنيوية تأويلية ديناميكية تتداخل فيها معارف شتى لتجعل من أجزاء النظام النصي كلّاً موحداً تتخلله شبكة مترابطة من العلاقات الحميمة؛ بل تجاوز بعض الدارسين ذلك كلّهُ إلى القول بأنّ النص «مظهر دلالي يتم من خلاله إنتاج المعنى من لدن المتلقي»^(١).

ويركّز علماء النص ومنهم (كريستيفا) و(هلمسلايف) على أنّ الاكتمال الدلالي هو أبرز خصائص النص وليس الطول، وهو عند (لوزانو) «القول اللغوي المكتفي بذاته والمكتمل في دلالته»^(٢).

١ - سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص ٣١.

2- Lozano George, Discourse Analyssis, London, 1987, P. 19

فالتماسك الدلالي يحدث على مستوى «البنية العميقة للنص؛ أي على مستوى التصوّرات والمفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم»^(١).

أي إنّ التماسك الدلالي يتعلّق بالتصوّرات والتطبيقات والمقارنات والتشابهات في المجال التصوّري، كما أنّه يتمثّل على مستوى الإحالة أيضًا وفقًا لـ (ثان ديك)^(٢).

كما يهتم مفهوم التماسك الدلالي أو المعنوي بالمضمون الدلالي في النص، وطرق الترابط الدلاليّة بين أفكار النص من جهة، وبينها وبين معرفة العالم من جهة أخرى، ولهذه الجهة الأخيرة أهميّة قصوى إلى الدرجة التي تجعل بعض اللغويين يحدّدون التماسك الدلالي بأنّه «شيء موجود في الناس لا في اللغة؛ فالناس هم الذين يحدّدون معنى ما يقرؤون أو يسمعون»^(٣).

فلو استمع المتلقّي إلى المثل الآتي في سياق تواصل ما: «أَحْشَفًا وَسَوْءَ كَيْلَةٍ»^(٤)، وهو مثل ذو جملة واحدة، فإنّه لا يشترط أن يكون أمامه تمر رديء وبائع يبخس الميزان في البيع؛ إذ إنّ المرسل يختار هذا النص وهو على بينة أنّ السياق الحاضر فيه يتناسب مع هذا المثل من جهة، وأنّ المتلقّي يدرك أبعاد هذا النص ضمن الموقف الآتي من جهة أخرى، وبما أنّ الانسجام يتعلّق بالارتباط الدلالي فهذا يعني الاستناد إلى التفاعل الاجتماعي الحاصل أثناء عملية التواصل، هذا التفاعل الذي ينطلق من المرجعيّة الثقافيّة المشتركة بين مستعملي اللغة.

كذلك لو استمع المتلقّي المثل الآتي: «فِي الْجَرِيرَةِ تَشْتَرِكُ الْعَشِيرَةُ»^(٥)، وهو مثل يُضرب في الحثّ على المواساة^(٦)، فإنّ اهتمام المتلقّي ينصبّ على المشاركة في هذا الواجب، وتقديم ما يستطيع لأهل المرسل الذي قد تجمعهم بهم صلة قرابة أو نسب أو معرفة؛ إذ قد يكون هذا المثل -وهو نص ذو جملة واحدة- فيه حثّ وتحفيز أكثر من نصوص تحوي عشرات الجمل لكنّها لا تؤثر في المتلقّي.

١ - جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة واللسانيات النصية، ص ١٤١.

٢ - ينظر: ثان ديك، النص بنياته ووظائفه، ص ٦١-٦٢.

٣ - جورج يول، معرفة اللغة، ترجمة محمود فراج عبد الحافظ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط ١، ٢٠٠٠، ص ١٤٦.

٤ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٠٩٨) ج ١، ص ٣١٧-٣١٨.

٥ - المرجع السابق، رقم المثل (٢٧٤٥) ج ٢، ص ٣٦٥.

٦ - نفسه، ج ٢، ص ٣٦٥.

ولعلَّ إحدَى مهامِّ علم النص «أن يوضَّح لنا كيف يُمكن أن نؤثّر في آخريْن بواسطة مضمون معيّن، يعبر عنه بطريقة أسلوبية محدّدة وعمليات بلاغية محدّدة، وبنوع محدّد من النصوص»^(١).

ولو استمع المتلقّي المثل الآتي: «حَمِيمُ الْمَرْءِ وَاصِلُهُ»^(٢)، فقد يغلب على ظنّه أنّ المقصود بالحميم أي القريب بدرجة قرابة معيّنة، ولكنّه حين يرجع إلى سياق المثل يدرك أنّ المقصود بالحميم في هذا النص هو الشخص الواصل الذي يفرع في الخطوب، ويحضر حين تشتدّ المواقف؛ إذ يقال: إن أول مَنْ قال ذلك الخنابس بن المقنع، وكان سيّداً في زمانه، وإن رجلاً من قومه يقال له كلاب بن فارع، وكان في غنم له يَحْمِيها، فوقعَ فيها كَيْث ضارٍ، وجعل يحطّمها، فَأَنْبَرَى كلاب يَذُبُّ عنها، فحمل عليه الأسدُ فخبطه بمخالبه خبطةً، فانكَبَّ كلاب وجثم عليه الأسد، فوافق ذلك من حاله رجلاّن: الخنابر بن مرة، وآخر يقال له حَوْشَب، وكان الخنابر حميم كلاب، فاستغاث بهما كلاب، فحاد عنه قريبه وخذله، وأعانهُ حَوْشَب فحمل على الأسد وهو يقول:

أَعْتَنَّهُ إِذْ خَذَلَ الْخَنَابِرُ وَقَدْ عَلَاهُ مُكْفَهَرٌ خَادِرُ
هَرَامِسُ جَهْمٌ لَهُ زَمَاجِرُ وَنَابَهُ حَرْدًا عَلَيْهِ كَاشِرُ
ابْرُزْ فَإِنِّي ذُو حُسَامٍ حَاسِرُ إِنِّي بِهِذَا إِن قُتِلْتُ ثَابِرُ

فعارضه الأسدُ وأمكن سيفه من حِصْنِيهِ، فمر بين الأضلاع والكُتُفَيْن، وفخرَ صريعاً، وقام كلاب إلى حوشب وقال: أنتَ حَمِيمِي دون الخنابر، وانطلق كلاب بحَوْشَب حتى أتى قومه وهو آخذ بيد حَوْشَب يقول: هذا حميمي دون الخنابر، ثم هلك كلاب بعد ذلك، فاختصم الخنابر وحَوْشَب في تركته، فقال حَوْشَب: أنا حميمه وقريبه، فلقد خذلتَه ونصرتَه، وقطعتَه ووصلتَه، وصِمَمْتُ عنه وأجَبْتُه، واحتكمتُ إلى الخنابس فقال: وما كان من نُصْرَتِكَ إياه؟ فقال:

١ - حامد أبو أحمد، الخطاب والقارىء: نظريات التلقّي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة، نشر مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٣، ص ٢١٨.

٢ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٠٥٠) ج ١، ص ٣٠٥-٣٠٦.

أَجَبْتُ كِلَابًا حِينَ عَرَّدَ إِلْفَهُ وَخَلَاهُ مَكْبُوبًا عَلَى الْوَجْهِ خُبْرُ
فَلَمَّا دَعَانِي مُسْتَعِينًا أَجَبْتُهُ عَلَيْهِ عَبُوسٌ مَكْفَهْرٌ غَضَنْتُرُ
مَشَيْتُ إِلَيْهِ مَشْيَ ذِي الْعِزِّ إِذْ عَدَا وَأَقْبَلَ مَخْتَالَ الْخُطَا يَنْبَخِرُ
فَلَمَّا دَنَا مِنْ غَرْبِ سَيْفِي حَبَوْتُهُ بَأْيَيْصَ مَصْقُولِ الطَّرَائِقِ يَزْهَرُ
فَقَطَّعَ مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ وَحِصْنَهُ إِلَى حِصْنِهِ الثَّانِي صَفِيحٌ مُدَكَّرُ
فَخَرَّ صَرِيحًا فِي التَّرَابِ مُعَقَّرًا وَقَدْ زَارَ مِنْهُ الْأَرْضَ أَنْفٌ وَمَشْفَرُ

فشهد القومُ أن الرجل قال: هذا حميمي دون الخنابر، فقال الخنابس عند ذلك: حميمُ المرء واصله، وقضى لحوشب بتركته، وسارت كلمته مثلاً^(١).

وبذا يظهر أن النص يتطلب أحياناً السياق ليُحَكَمَ بناؤه وليشتدَّ ارتباط أجزاء بعضها ببعض؛ فقد يكون السياق المحيط بالنص هو أداة التماسك الرئيسة في النص، كما في المثل السالف، ولذا فمن الطبيعي أن يمثل السياق دوراً بارزاً في تحديد معنى النص، ثم تحديد تماسكه^(٢)؛ إذ يوفر السياق جملة من المعطيات والمعلومات الضرورية لتأويل الخطاب، وهي معطيات لا توفرها الخصائص النحوية والمعجمية للصيغة اللغوية بل توجد مبادئ وأصول تنظمه، أهمها مبدأ التأويل القائم على اعتماد المقام الذي يحدث فيه الخطاب، ومبدأ التشابه القائم على ضرب من الربط بين النص الحاضر ونصوص أخرى، وعلى المعرفة الخلفية^(٣).

ج- التماسك التداولي:

يذكر (فاينريش) أنه على الرغم من أن بنية النص لغوية منطوقة في المقام الأول، فإنها مرتبطة في استمرارها وتحقق دلالتها بأركان التواصل، وهي المنتج، والمتلقي، والتفاعل بين الطرفين بواسطة عملية التلقي^(٤).

١- الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٣٠٥-٣٠٦.

٢- ينظر: صبحي الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج ١، ص ١٠٦.

٣- ينظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ج ١، ص ١٧٨.

٤- ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٩٤.

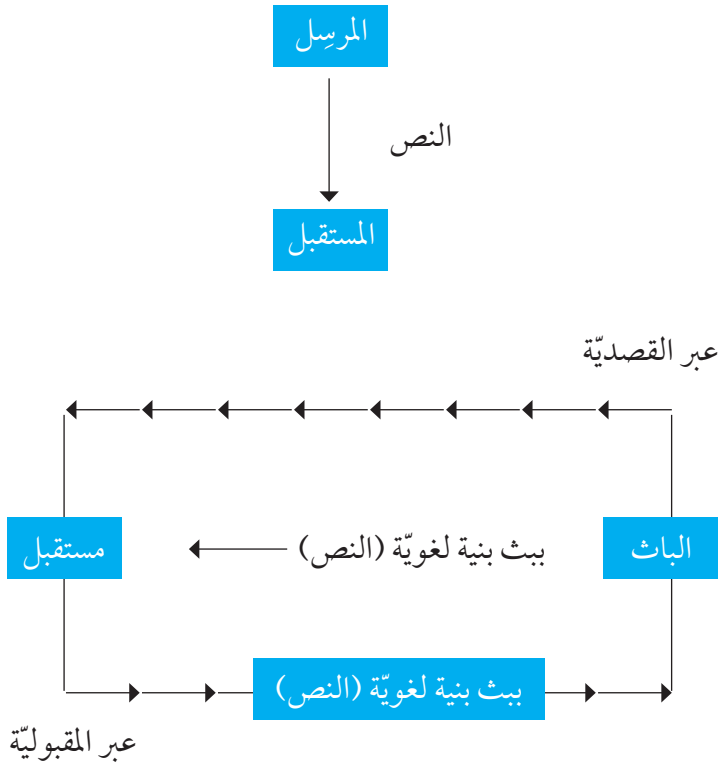
بل إنَّ النص في نظر (ثان ديك) وحدة مجردة لا تتجسّد إلا بواسطة فعل التواصل^(١).
 وحين يشرح علماء النص الانسجام، فإنّهم يقصدون «انسجامه مع سياقه العام الثقافي والتاريخي، وسياقه الخاص المسمّى بالمقام»^(٢).
 وإذا فالتماسك التداولي يُعنى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، وبدراسة كلّ المعطيات اللغويّة الخطابيّة المتعلّقة بالتلفّظ، وخاصة المضامين والمدلولات التي يولّدها الاستعمال في السياق.
 فالدلالة النصيّة والتداوليّة النصيّة يتجاوزان الوصف التركيبي للنص، ويعنيان «بدراسة القول في المقام، وتأويل الأقوال وفهم المقاصد اعتماداً على الاستدلال»^(٣)؛ فالبناء النحوي هو مطلع الصورة وليس الصورة كاملة، والبيان الدلالي لا يتحقّق بالبناء النحوي المائل، بل بالممارسات الاتصاليّة العمليّة التي تؤسّس النص لكنّها جدليّة غير قابلة للتفكيك؛ فالمقبوليّة، وهي واحدة من أهمّ خصائص النصوص، تفترض أنّ مستقبل النص حين يتلقّى النص قد كوّن موقفاً إيجابياً «إزاء كون صورة من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك والتحام»^(٤)، ومن هنا فإنّ شرط المقبوليّة يستدعي إذاً شرط التماسك النحوي والدلالي.
 أمّا المقاميّة، وهي خصيصة أخرى أساسيّة في النص وفقاً لـ (بيوجراند)، فإنّها تفترض أنّ النص ينتج في مقام معيّن وله رسالة وهدف يبيّنها المقام الذي أنتج فيه النص؛ فلا بد من مراعاة المقام الذي أنشئ فيه النص من أجل فهمه وتفسيره، ومراعاة المقام من الوسائل التي تجعل النص يبدو أكثر تماسكاً، والشكل الآتي يبيّن هذه الأنماط الثلاثة من التماسك، وتداخلها في صناعة النص: شكل رقم (٦)

١- ينظر: ثان ديك، النص والسياق، ص ٧٨.

٢- سعيد يقطين، افتتاح النص الروائي، ص ٢٤.

٣- آن روبول، جاك موشلار، التداوليّة اليوم، ص ٢٦٤.

٤- بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ١٠٤.



إنّ الانسجام النصّي يقوم عند (بيوجراند) على الترابط الفكري أو المفهومي الذي تحقّقه البنية العميقة للخطاب^(١)، وهو يضمن الاستمرارية المتحقّقة في عالم النص، وهو يختص بعلاقات الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة من المفاهيم الرابطة بين أجزاء النص ويسمّي بعض الدارسين ذلك بالحبك، وهو معنيّ بإيجاد الترابط المفهومي واسترجاعه، أو هو معنيّ بالطرق التي تكوّنت بها مكوّنات العالم النصّي^(٢).

ولأهميّة مصطلحي «المفاهيم» و«العلاقات» في فهم انسجام الخطاب يجدر تجليتهما بوضوح؛ أمّا (المفهوم) هنا فهو محتوى معرفي يمكن استرجاعه أو استثارته بقدر (ما) من الوحدة والاتساق في الذهن، ويُقصد بـ(العلاقات) هنا الروابط القائمة بين المفاهيم التي تتجلى معاً في عالم النص.

١ - ينظر: أحمد مداس، لسانيات النص، ص ٨٣.

٢ - ينظر: سعد مصلوح: نحو أجرومية للنص الشعري، ص ١٥٤.

أمّا في (المثل) فإنّ العلاقات الرابطة بين المفاهيم ليست متمثلة صراحة في النص؛ أي لا تحظى باستشارة مباشرة بواسطة تعبيرات ظاهر النص، وإنّما يقوم المتلقّي بتزويد ما يلزم من العلاقات لاستخراج المعنى من النص وإمدادها ببصيرته الخاصة.

إنّ ما شرحته آنفاً يتّصل بمصطلح وضعه نحاة النص هو «الكفاءة النصيّة»، وهو شديد الأهميّة فيما يتّصل بالمثل، أو بالنص ذي الجملة الواحدة، ويقصدون به القدرة على جعل توالي النص خاضعاً لقصد المتكلّم ومتوافقاً مع استعداد المتلقّي لقبوله، وهي تعد عاملاً رئيساً في إنشاء نص قادر على تحقيق الكفاءة النصيّة، بحيث يؤدي الغرض المقصود منه دون أن يبقى على حلقات مفقودة عند المتلقّي^(١)، إنّ «الكفاءة النصيّة» تصف ما يجري في تواصلية المثل وصفاً دقيقاً.

إنّ العلاقة القائمة بين القائل والمتلقّي والنص لها الأثر الأوسع في ترتيب النص منطقياً، وهي التي تضفي على مكوّناته دلالات مسؤولّة عن استقامة النص وانسجامه؛ فهي التي تحتفظ بمركزيّة أحدهما أو كليهما في النص أو تتخلّى عنها؛ فنصرف المعاني النصيّة نحوه أو عنه بحيث يبدو منسجماً ومتلائماً مع ما أريد له^(٢)، وهذا يقود إلى البحث في مدى العلاقة بين انسجام النص والغاية التي قيل من أجلها، فإذا كان النص محققاً للغاية التي قيل لأجلها، وخادماً لأغراض من يقوله أو يتلقّاه ظهر منسجماً ومقبولاً وإلا فمضطرباً ومختلاً. ومرة أخرى يرى الباحث أنّ الانسجام بهذا المعنى لا يتوقف على المكوّنات اللغويّة، وإنّما يتولّد عن العلاقات الداخلية فيما بينها، ومن الصلة بين هذه العلاقات ومجموع محدّدات الفضاء الذي ظهر فيه، بحيث يفرز سياق الإبلاغ النص وحدة كليّة مترابطة الأجزاء ومتألّفة المضمون؛ لذلك لا يمكن النظر إلى الانسجام على أنّه شيء مُعطى وموجود في النص، بحيث يجب البحث عنه والعثور عليه دون الاستناد إلى السياق، وقابليّة المتلقّي لفهم والتأويل، بل يكون تبيين وسائل الانسجام بالبحث عن تلك العلاقات جميعاً دون الانغماس في اللغة وحدها والإعلاء من فكرة الدال^(٣)، ولعلّ هذا يتفق في وجه من الوجوه

١ - ينظر: حميد لحداني، القراءة وتوليد الدلالة: تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص ٤٣.

٢ - المرجع السابق، ص ٤٣.

٣ - ينظر: إديث كيروزويل، عصر البنيويّة من ليفي شتراوس إلى فوكو، ص ٥٨.

مع مقولة أبي هلال العسكري، فيما يوجب التثام الكلام : «أن تكون موارده تنبيك عن مصادره، وأوله يكشف قناع آخره»^(١).

إنّ اتساق النص وانسجامه وتماسكه محكوم إذاً بثلاثية المرسل والمتلقي والقصد أو الغرض؛ فانسجام النص أو اتساقه يوجهها دائماً قصد المرسل لهدف معين، وهو التأثير في متلق بعينه في ظروف معينة، وهذا القصد المعين، هو الذي يجعل المتلقي يتلافى الخلل في البنية الظاهرة للنص، و«وجود القصدية يؤدي إلى التقبيلية حتى مع وجود ذلك الخلل»^(٢)؛ «فاللغة ليست نظاماً من العلامات حسب، بل إنّها في الأساس نشاط تواصل»^(٣)، ويقوم المتلقي بالتصرف إذاً أو بملء الفجوات التي تظهر في سطح النص، إلى أن يصل إلى تحقيق الغاية الاتصالية بين المنتج والمتلقي.

فلو استمع المتلقي إلى المثل الآتي في سياق تواصل ما: «في رأسه خطّة»^(٤)، وهو مثل ذو جملة واحدة، فإنّه سيجتهد في ربط هذه المقولة وتفسيرها في ضوء السياق وطبيعة معرفته بالمرسل ومقاصده، والموقف الذي قيلت فيه؛ فقد يُحيل الضمير الهاء ولو أنّه بصيغة الغياب إلى المخاطب / المتلقي، أو إلى شخص آخر كان الحديث يدور عنه، والخطّة التي جاءت بلفظ العموم تقولب في ذهن المتلقي لتحاكي سلوكاً ما أو تصرفاً ما قام به هذا المشترك في الحدث التواصل، أو الذي جرى حوله الكلام.

إنّ قدرة المتلقي على إعادة بناء النص، معتمداً على الجسور التي أقامها بين البنية اللغوية وسياق الحال وبين المكونات اللغوية وشخص التواصل اعتماداً على فهمه لمقصد المرسل، هو المسؤول مباشرة عن التماسك النصّي في مستوييه الدلالي والتداولي، بل التماسك النصّي في المستوى النحوي أيضاً، أو هو - بصورته الواضحة - المسؤول عن اتساق النص وانسجامه. وحين يستمع المتلقي لمثل نصّه: «في بطن زهمان زأده»^(٥)، وهو نص ذو جملة واحدة، فإنّه يسعى إلى أن يتعامل مع الأعلام أو الكلمات الواردة في المثل من منطلق أنّها مكافئات

١ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص ١٤١.

٢ - عزة شبل محمد، علم لغة النص: النظرية والتطبيق، ص ٢٨.

٣ - زتسيسلاف وأورزينيك، مدخل إلى علم النص، ترجمة سعيد بحيري، ص ٢١.

٤ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٧٢٧) ج ٢، ص ٣٥٩.

٥ - المرجع السابق، رقم المثل (٢٧٢٤) ج ٢، ص ٣٥٨.

دلالية أو ترميزية لأعلام آخرين موجودين في الحدث التواصلية؛ فلا يعود زهمان هو زهمان المائل في سطح النص، بل شخص آخر أو أشخاص تنطبق عليهم فكرة المثل، ولا يعود الزاد زاداً في مستوى التلقي إلا بمقدار ما يوافق ما هو مائل في واقع الحدث التواصلية من فكرة.

وإذا صادف المثل «في الصيف ضيَّعت اللبن»^(١)، في موقف تواصلية وكان هذا المتلقي ذكراً، وعلم مقصد المرسل من المثل، فإنه لا يأبه كثيراً لصيغة التأنيث المائلة في المثل «ضيَّعت»، يقول الميداني: «والتاء من «ضيَّعت» مكسورة في كل حال إذا خوطب به المذكر والمؤنث والاثنتان والجمع؛ لأنّ المثل في الأصل خوطبت به امرأة، وهي دَخْتُوس بنت لقيط ابن زرارة»^(٢)؛ لأنه يدرك أنّ المقصد ليس متعلقاً بتلك المرأة، بل به مثلاً وهو غير معنيّ بالوقوف طويلاً عند ما يبدو تناقضاً في كلمة «الصيف» لو جرى الحدث التواصلية في فصل الشتاء، فإنه يدرك القيمة الدلالية لكلمة «الصيف»، وأنها ليست مرتبطة بفصل بعينه، بقدر ما هي مرتبطة بوقت «ما» يطلب فيه شيء بعد فوات أوانه.

لكنّ هذه العملية كلّها تنهار، ويحكم على التماسك بأشكاله كلّها بالضياع إذا أخفق المتلقي في الإمساك بخيوط التواصل، وذلك حين لا يستطيع استنطاق الدال وربطه بواقع الحدث التواصلية والمشاركين فيه، حينئذٍ يطل وجود أي دلالة وينتفي أي معنى؛ «إذ إنّ ترتيب الأدلة وإخضاعها لنظام من العلاقات في حالتي الإرسال والتلقي هو الذي يجعلها تفتتح بما تنطوي عليه من دلالات»^(٣).

إنّ المقام الذي حدث فيه النص في إنتاجه الجديد، والمقصد، والمتلقي، وكفاءة المرسل في اختيار النص الموافق لذلك المقام هي أهمّ عوامل تحقّق الكفاءة النصية، أو هي مفاتيح التماسك النصّي بمعناه الكلّي والمفصّل، يقول ابن خلدون: «اعلم أنّ اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلّم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام»^(٤).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٧٢٥) ج ٢، ص ٣٥٨.

٢- المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٥٨.

٣- عبد الله إبراهيم، السردية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٠، ص ٤٦.

٤- ابن خلدون، المقدمة، ج ٤، ص ١٣٧٤.

ويقول بشر بن المعتمر: «ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات؛ فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»^(١).

ولا ريب أن الكفاءة النصيّة تتعرّض لضرر كبير في مجموعة من الحالات منها:

١- أن يختار المرسل المثل غير الملائم للسياق التواصلي الذي يكون فيه؛ ومثال ذلك أن يكون الموقف موقف رجل حليم يسكت عن الجاهل ويتحمّل أذاه، وهذا هو حال المتلقّي فيقول له المرسل على سبيل المثل، المثل رقم (٧٥٠) «تَرَكْتُ عَوْفًا فِي مَعَانِي الْأَصْرَمِ»^(٢)، وهو مثل يضرب في «مَنْ يَخْذُلُ صَاحِبَهُ فِي حَادِثِ أَلَمٍ بِهِ»^(٣)، فيما كان ينبغي أن يقول: «تَلَبَّسْ أُذُنِيكَ عَلَى مَضَاضٍ»^(٤)، والمضاضة أو المضاض ألم وحرقة يجدها الرجل في جوفه من غيظ يتجرعه، ويضرب للرجل الحليم يسكت عن الجاهل ويتحمّل أذاه»^(٥).

٢- أن لا يتمكّن المتلقّي من التقاط الرسالة، وأن يخفق في تبين الجسور الواصلة بين الدال «البنية اللغويّة» وما تحيل إليه في السياق التواصلي، أو ما تحيل إليه من غرض، كما لو أنّ متلقّيًا سمع من مرسل ما هذا المثل: «تَقَى يَوْمًا يَبْنَ شَدَقِيكَ الدَّخَنَ»^(٦)، فلا يتمكّن من الربط، وتخفق الرسالة النصيّة، ولو أنّه نظر في حاله ونفسه لأدرك أن المقصود توبيخ وتنبه له بأن «أفعاله السيئة إن سلمت في مرات كثيرة سابقة، فإنّه سوف يندم ويرى عاقبة ما يصنع»^(٧)، وأنّ القبيء والدخن ليسا بحسب ما يظهران، وإنّما يحيلان إلى عناصر تخصّ المتلقّي في الحدث التواصلي الذي يعيش فيه.

١- الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٣١٢.

٢- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٧٥٠) ج ١، ص ٢٢٢.

٣- المرجع السابق، ج ١، ص ٢٢٢.

٤- نفسه، رقم المثل (٧٥٢) ج ١، ص ٢٢٣.

٥- نفسه، ج ١، ص ٢٢٣.

٦- نفسه، رقم المثل (٧٥١) ج ١، ص ٢٢٣.

٧- نفسه، ج ١، ص ٢٢٣.

إنَّ من أهم نتائج تحقّق الكفاءة النصيّة حصول «الانسجام» بين أبنية النص المختلفة في ذهن المتلقّي، وتصبح كلّ بنية منها زاوية مختلفة لفهم النص وقبوله بتشكيلاته المختلفة، وفي ضوء المقام الذي ورد فيه وهو ما سأفصل فيه في المبحث الآتي.



ثانياً: البنى النصية في النص ذي الجملة الواحد

إنّ البنى النصية تؤدي وظيفة ديناميّة تتمثّل في الاتصال والتفاعل الاجتماعي، وإن كان لكلّ واحدة من هذه البنى خصوصيّتها ووظيفتها إلا أنّها في تناغم العلاقات بينها تؤدي إلى انسجام النص في نفس المتلقّي، ومن ثم نجاح الرسالة اللغويّة التي يحملها النص، أي يتحقّق مقصد المرسل وغرضه، ولعلّ وصف الأبنية النصيّة ودراستها وتحليل المظاهر المتنوّعة لأشكال التواصل النصّي هو الهدف الرئيس لنحو النص وفقاً لأحمد عفيفي^(١)، لكنّ هذا التحليل ينبغي أن يحدث ضمن وحدة النص الكلية. ولذا سأفرد كلّ واحدة من هذه البنى بالتوضيح والتفصيل لكي نحيط بالصورة الكلية التي يعمل بواسطتها النص.

أ- البنية الكلية الكبرى في النص ذي الجملة الواحدة:

البنية الكلية الكبرى هي: «ثيمة النص وفكرته»، وهي تشكّل المفتاح الرئيس في فهم النص وتأويله والإمساك بمقتضاه، بل إعادة بنائه وإدراك تماسكه؛ فعلى مستوى الوظيفة تقوم هذه البنية بتنظيم الإخبار الدلالي المعقّد في المعالجة وفي الذاكرة^(٢)، ويذهب (شان ديك) إلى أنّنا لكي نحصل على البنية الكلية لأية متواليّة لا بد من تنفيذ عدد من العمليّات، وطبيعة هذه العمليّات كلّها حذفية؛ أي حذف مجموعة من المعلومات الدلالية، تُنفذ من أجل اختزال النص إلى بنية دلالية كلية، أو اختزال المتواليات إلى بنيات جزئية منها تستخلص البنية الكلية التي يتولّد منها النص، وهذه العمليّات، هي^(٣):

أ- عمليّة الحذف: وتتعلّق بحذف المعلومات العرضيّة، دون أن يخلف ذلك أثراً دلاليّاً في البنية الكلية، وهي معلومات غير قابلة للاسترجاع، وتندرج تحتها قاعدة عدم إمكان حذف قضية تقتضيها قضية لاحقة، وهي قاعدة تضمن الإنشاء الدلالي الجيد للبنية الكلية.

١ - ينظر: أحمد عفيفي، نحو النص، ص ٣١.

٢ - ينظر: محمد خطايي، لسانيات النص، ص ٢٧٦-٢٧٧.

٣ - ينظر: المرجع السابق، ص ٤٤-٤٥.

ب- **عملية حذف المعلومات المكوّنة لإطار أو مفهوم ما:** وهذه المعلومات قابلة للاسترجاع استقرائياً.

ج- **عملية التعميم البسيط:** أي حذف المعلومات الأساسية، وهي غير قابلة للاسترجاع. ويمكن القول: إنّ هذه العمليات تقوم فعلاً باختزال المعلومات الواردة في الخطاب؛ أي إنّ هذه العمليات تحدّد ما هو مهم نسبياً في المقطع، وذلك يتحدّد بالنظر للأجزاء التي يتكوّن منها الخطاب، وليس باستقلال عنها.

ولكي يقنع (ثان ديك) القارئ بوجود بنية كليّة في الخطاب يسعى إلى البحث عن بينات لغويّة عبرها تتجلّى البنيات الكليّة، وأوّل بيّنة على ذلك ردود فعل القارئ أو المستمع المعبرة عن عدم قبوله لمتتالية ما أو خطاب ما؛ لأنّه يفتقر إلى بنية كليّة تجمع شتاته، ومن ردود الفعل هذه: عن أيّ شيء تتحدّث؟. ليس لما قلته أو كتبت أيّ معنى؟...؛ فالبينة الأولى: أنّ مجموعة المتتاليات التي ليست لديها بنية كليّة تعدّ غير مقبولة في السياقات التواصلية، والبينة الثانية: هي وجود جمل متعدّدة متنوّعة تعبر مباشرة عن قضايا كليّة، ووظيفة هذه الأخيرة من الناحية المعرفيّة، هي: تهبيء البنية الكليّة لمقطع معيّن عوض ترك هذه المهمة للمستمع/ القارئ؛ أي إنّها تسهّل الفهم^(١)، أمّا البينة الثالثة فهي وجود روابط مختلفة بين القضايا التي تشكّل المقطع، منها: (بالإضافة إلى ذلك)، و(مع ذلك)، و(لكن)، و(لهذا)، وأمّا البينة الأخيرة فهي الإحالة التي تعبر عنها الضمائر المحيلة إلى الأشخاص أو الأماكن...^(٢).

أخلص ممّا تقدّم أنّ لكلّ خطاب بنية كليّة ترتبط بها أجزاء الخطاب، وأنّ القارئ يصل إلى هذه البنية الكليّة عبر عمليات متنوّعة تشترك كلّها في سمة الاختزال، على أنّ البنية الكليّة ليست شيئاً معطى، حتى إن كانت هناك مؤشرات متنوّعة على وجود هذه البنية، وإنّما هي مفهوم مجرد (حدسي) به تتجلّى كليّة الخطاب ووحدته...^(٣).

لكن هذه الآليات قد تبدو للوهلة الأولى غير ذات نفع كبير عندما يتعلّق الأمر بنصّ ذي جملة واحدة؛ فالنص في هذه الحالة يُحيل إلى مجموعة من التفاصيل والمعارف، ويشتمل على

١- ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص ٤٥-٤٦.

٢- ينظر: المرجع السابق، ص ٤٦.

٣- ينظر: نفسه، ص ٤٦.

فراغ بنيوي كبير لا يهتدي المتلقي إليه إلا بمعرفة التفاصيل التي يتيحها سياق الحال أو موقف التخاطب.

وفيما يتصل بالمثل فإن البنية الكبرى الكلية الثاوية خلف هذه البنية اللغوية المختزلة المكثفة، هي من أبرز الجسور التي يمدّها المتلقي بين مقولة أنتجت في حادث «ما» في وقت «ما» سابق، وبين الحدث التواصل الذي تلقى فيه صيغة المثل، إنّ البنية الكبرى هي «مقولة» المثل وفكرته فكيف تستنتج؟

لقد اجتهد جامعو الأمثال في تذييل الأمثال بعد ذكر قصتها، إن كان لها قصة، بجملة تظهر السياق المناسب الذي تُطرح فيه هذه الأمثال؛ فهل هذه الخلاصة أو هذا التذييل هو ثيمة النص وبنيته الكبرى؟

إنّ إجابة هذا السؤال تحتاج إلى اختبار في مستوى الأمثال وتعقيب الميداني عليها كما ظهرت في كتابه، وإليك النماذج الآتية:

نموذج (١) المثل ذو الرقم (١٤٢٧):

«دَعِ الْمَعَاجِيلَ لِطَمْلٍ أَرْجَلٍ»^(١)

قال الميداني تحت هذا المثل: «المعاجيل: جمع مَعَجَل، وهو الطريق المختصر إلى المنازل والمياه، كأنّه أعجل عن أن يكون مبسوطاً، والطَّمْل: اللص الخبيث، والأَرْجَل: الصلب الرَّجْل الذي لا يكاد يَخْفَى، يُضرب في التباعد عن مواضع التُّهَم، أي دعها لأصحابها»^(٢).

هذا المثل ذُكر من غير قصة في الكتاب، واكتفى الميداني بشرح المفردات الصعبة، ثم ذكر في أيّ شيء يُضرب.

وفي الجانب التركيبي تتجلى أمام القارئ جملة فعلية تقوم على فعل أمر يدعو إلى الكفّ «دع»، والفاعل هو الضمير المستتر «أنت»، ولا يوجد مخاطب ظاهر، وصرّح بلفظ المفعول به «المعاجيل»، وهو يمثل -فيما أراه- بؤرة النص، وقيد الفعل بالجار والمجرور «لِطَمْلٍ»،

١ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٤٢٧) ج ١، ص ٤١١.

٢ - المرجع السابق، ج ١، ص ٤١١.

ثم خصّص هذا المجرور النكرة بالنعت «أَرْجَلٌ»، ويمكن أن أستخرج من الشرح المعجمي الذي أورده الميداني، وهذه البيانات المستلّة من البنية التركيبية، الأبنية النصيّة الصغرى الآتية:

١- المخاطب مطلوب منه ترك المعاجيل.

٢- الطمّل الأرجل جدير بالمعاجيل وهو معتاد على ارتيادها.

٣- غير الطمّل الأرجل لا يرتاد المعاجيل ولا يتعامل معها.

٤- أنت لست طملاً أرجل.

٥- ومن ثم فإنّ عليك ألا ترتاد المعاجيل.

وبإعمال قواعد (ثان ديك) في استخراج البنية الكلية؛ بحذف التشابهات في هذه الجمل، وعملية التعميم لمضامين هذه الجمل، أقول إنّ البنية الكلية لهذا المثل هي: «دع المعاجيل لأصحابها».

وبما أنّ «المعاجيل» هي الطرق المختصرة إلى «المنازل والمياه» أي إلى الأغراض والغايات، ومن المعروف أنّ الطرق المختصرة التي لا تكون منبسطة إنّما هي طرق تتلاءم ورغبة اللص الخبيث (الطمّل الأرجل) الذي يريد أن يسرق بأسهل طريقة وأسرع طريق وأخفاه، هي مظنة التهمة وعدم الاستقامة؛ وبذا يمكن تعميم هذه المقولة أكثر لتكون صالحة للسيرورة

على أكبر عدد ممكن من الحالات المتشابهة فأقول: «دع مواضع التهم لأصحابها».

ولمزيد من التعميم، ولكي تخرج من دائرة الخطاب الخاص لواحد، يمكن القول: «ينبغي الابتعاد عن مواضع التهم فإنّ لها أصحابها»، وهذه هي بنيتها الكبرى، وقد اقترب الميداني كثيراً من هذه البنية حين قال معقّباً على المثل: «يُضرب في التباعد عن مواضع التهم، أي دعها لأصحابها»^(١).

نموذج (٢) المثل رقم (١٤٢٨):

«دَأْمَاءُ لَا يَقْطَعُ بِالْأَرْمَاتِ»^(٢)

وهذا المثل أيضاً أورده الميداني من غير قصّة، وقام بشرح المفردات الصعبة، ثم أورده فيما

١- الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٤١١.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (١٤٢٨) ج ١، ص ٤١١.

يُضْرَب^(١)، وفي الجانب التركيبي تطالع القاريء جملة اسمية حُذِفَ فيها المبتدأ^(٢)، وتقديره «هو» أو «هذا»، أمّا الخبر فهو نكرة مخصّصة بالوصف الجملة «لا يُقَطَّع بالأرماث».

الآبنية النصّية الصغرى:

١- هذا دأماء (بحر).

٢- والدأماء عسير القطع.

٣- ولذا لا يمكن قطعه بالأرماث.

وبإعمال قواعد (ديك) في الحذف والتعميم يمكن التدرج في استخراج البنية الكبرى الكلية على النحو الآتي:

■ إذا أردت قطع الدأماء فاستعن بما يمكن أن يحقّق ذلك.

ثم يمكن تطوير هذه البنية عن طريق مزيد من التعميم إلى:

■ تحقيق الأمور العظيمة يحتاج إلى أدوات عظيمة.

وأرى أنّ الميداني قد اقترب كثيرًا من هذه البنية حين قال: «يُضْرَب في الأمر العظيم الذي لا يركبه إلا من له أعوان وعُدَدٌ تليق به»^(٣).

نموذج (٣) المثل رقم (١٥٨٣):

«رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ»^(٤)

أورد الميداني المثل ثم أورد روايته قائلاً: «ويروى معه «وأكِلَ غير حامد»، «يُقَال: إنّ أول من قاله النابغة الذبياني، وكان وفَدَ إلى النعمان بن المنذر وفودٌ من العرب فيهم رجل من بني عَبَسَ يقال له شقيق، فمات عنده، فلما حبا النعمان الوفودَ بعث إلى أهل

١- الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٤١١. قال الميداني: الدأماء: البحر، والرّمث: خَشَبَات يُضْم بِعُضْهَا إِلَى بعض ثم تتركب في البحر للصيد وغيره. يُضْرَب في الأمر العظيم الذي لا يركبه إلا من له أعوان وعُدَدٌ تليق به.

٢- ينظر: عبد الفتاح الحموز، الحذف في المثل العربي، ص ٩.

٣- الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٤١١.

٤- المرجع السابق، رقم المثل (١٥٨٣) ج ٢، ص ٤١-٤٢.

شقيق بمثل حياء الوَفْد، فقال النابغة حين بلغه ذلك: ربَّ ساع لقاعد»^(١).
ثم أورد روايته الأخرى قائلاً: «ويُروى «اسلَمِي أُمَّ خالِد، ربَّ ساع لقاعد» قالوا: إنَّ أول مَنْ قال ذلك معاوية بن أبي سفيان، وذلك أَنَّهُ لما أَخَذَ من النَّاسِ الْبَيْعَةَ ليزيد ابنه قال له: يا بني، قد صيرتكَ وليَّ عهدي بعدي، وأعطيتكَ ما تَمَنَّيت، فهل بقيتْ لك حاجة أو في نفسك أمر تحب أن أفعله؟ قال يزيد: يا أمير المؤمنين، ما بقيتْ لي حاجة ولا في نفسي عُصَّة، ولا أمرٌ أحبُّ أن أناله إلا أمر واحد، قال: وما ذاك يا بني؟ قال: كنت أحبُّ أن أتزوج أُمَّ خالد امرأة عبد الله بن عامر بن كريز، فهي غايتي ومُنِّيَّتِي من الدنيا، فكتب معاوية إلى عبد الله ابن عامر فاستقدمه، فلما قدم عليه أكرمه وأنزله أيامًا، ثم خلا به فأخبره بحال يزيد ومكانه منه وإيثاره هَوَاهُ، وسأله طلاقَ أُم خالد على أن يطعمه فارس خمس سنين، فأجابهُ إلى ذلك، وكتب عهده، وخَلَّى عبدُ الله سبيلَ أُم خالد، فكتب معاوية إلى الوليد بن عُتْبَةَ وهو عامل المدينة أن يعلم أُم خالد أن عبد الله قد طَلَّقَهَا لتعتدَّ، فلما انقضَّتْ عدَّتُها دعا معاوية أبا هريرة فدفع إليه ستين ألفًا، وقال له: ارْحَلْ إلى المدينة حتى تأتي أُمَّ خالد فتخطبها على يزيد، وتعلمها أَنَّهُ وليُّ عهد المسلمين، وأَنَّهُ سَخِيٌّ كريم، وأن مهرها عشرون ألف دينار، وكرامتها عشرون ألف دينار، وهديتها عشرون ألف دينار، فقدم أبو هريرة المدينة ليلاً، فلما أصبح أتى قبرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقية الحسنُ بن علي، فسلم عليه وسأله: متى قدمت؟ قال: قدمتُ البارحة، قال: وما أَقْدَمَكَ؟ فقصَّ عليه القصة، فقال له الحسن: فاذْكُرْني لها، قال: نعم، ثم مضى، فلقية الحسينُ بن علي وعبيدُ الله بن العباس رضي الله تعالى عنهم، فسألاه عن مَقْدَمِهِ فقصَّ عليهما القصة، فقالا له: اذكرنا لها، قال: نعم، ثم مضى فلقية عبدُ الله بن جعفر ابن أبي طالب وعبدُ الله بن الزبير وعبدُ الله بن مُطِيع بن الأسود، فسألوه عن مَقْدَمِهِ فقصَّ عليهم القصة، فقالوا: اذكرنا لها، قال: نعم، ثم أَقبل حتى دخل عليها، فكلَّمها بما أمر به معاوية، ثم قال لها: إنَّ الحَسَنَ والحسينَ ابني علي وعبدَ الله ابن جعفر وعبيدَ الله بن العباس وابنَ الزبير وابنَ مطيع سألونِي أن أذكرهم لك، قالت: أما هُمِّي فالخروج إلى بيت الله والمجاورة له حتى أموت أو تشير علي بغير ذلك، قال أبو هريرة: أمَّا أنا فلا أختار لك هذا، قالت: فاختر لي، قال: اختاري لنفسك، قالت: لا، بل اخترتُ أنت لي، قال لها: أما أنا فقد اخترتُ لك

سَيِّدِي شَبَابِ أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَقَالَتْ: قَدْ رَضِيتُ بِالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَبُو هُرَيْرَةَ فَأَخْبَرَ الْحَسَنَ بِذَلِكَ وَزَوَّجَهَا مِنْهُ، وَانصَرَفَ إِلَى مَعَاوِيَةَ بِالْمَالِ، وَقَدْ كَانَ بُلُغَ مَعَاوِيَةَ قِصَّتَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ خَاطِبًا وَلَمْ أَبْعَثْكَ مُحْتَسِبًا. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنَّهَا اسْتَشَارَتْنِي وَالْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ عِنْدَ ذَلِكَ: اسْلَمِي أُمَّ خَالِدٍ، رَبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ، وَآكِلٍ غَيْرِ حَامِدٍ، فَذَهَبَتْ مِثْلًا»^(١).

أَمَّا فِي الْجَانِبِ التَّرَكِيبِيِّ فَيُلْحِظُ الْقَارِئُ جُمْلَةً اسْمِيَّةً تَقُومُ عَلَى الْمُبْتَدَأِ (سَاعٍ) وَهُوَ نَكْرَةٌ مُفْرَدَةٌ مَجْرُورَةٌ بِـ (رَبِّ)، وَقَيْدُ السَّعْيِ الَّذِي هُوَ بَوْرَةُ النَّصِّ بِشَبِّهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ (لِقَاعِدٍ)، وَيَسْتَخْرِجُ الْبَاحِثُ مِنَ الرِّوَايَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَوْرَدَهُمَا الْمِيدَانِيُّ بَعْدَ الْمَثَلِ الْأَبْنِيَّةِ النَّصِيَّةِ الصَّغْرَى الْآتِيَةِ:

- ١- السَّعْيُ عَادَةً يَكُونُ لِلْمُجْتَهِدِ الَّذِي يَبْذُلُ الْجُهْدَ.
 - ٢- قَدْ يَحْدُثُ أَنْ يَتَحَوَّلَ السَّعْيُ أَحْيَانًا لِلْقَاعِدِ الَّذِي لَمْ يَبْذُلْ أَيَّ جُهْدٍ.
 - ٣- قَدْ يَحْدُثُ أَنْ يَأْكُلَ طَعَامُكَ مِنْ لَا يَحْمَدُكَ بَلْ يَذُمَّهُ وَيَذْمُكَ.
 - ٤- مِنَ الْمَفَارِقَةِ أَنْ يُسْعَى لِلْقَاعِدِ، وَيُتْرَكَ السَّعْيُ لِلْمُجْدِّ الَّذِي يَبْذُلُ الْجُهْدَ.
- وَيَأْخُذُ قَوَاعِدُ الْحَذْفِ وَالتَّعْمِيمِ عِنْدَ (ثَمَانٍ دِيكَ) تَكُونُ الْبَنِيَّةُ الْكَلْبِيَّةُ الْكَبْرَى لِهَذَا النَّصِّ هِيَ: «مِنَ الْمَفَارِقَةِ أَنْ يَصِيرَ حَصَادُ سَعْيِكَ لِلْقَاعِدِ الَّذِي لَمْ يَبْذُلْ أَيَّ جُهْدٍ وَأَنْ يَصِلَ طَعَامُكَ لِمَنْ لَا يَحْمَدُهُ».

نموذج (٤) المثل رقم (١٧٤):

«أَنْتَ أَعْلَمُ أَمَّ مَنْ غُصَّ بِهَا»^(٢)

قَالَ الْمِيدَانِيُّ تَحْتَ هَذَا الْمَثَلِ: «الْهَاءُ لِلْقَمَةِ، يَضْرِبُ لِمَنْ جَرَّبَ الْأُمُورَ وَعَرَفَهَا». وَيُظْهِرُ مِنْ هَذِهِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي قَدَّمَهَا الْمِيدَانِيُّ أَنَّ الْمَثَلَ ذُكِرَ مِنْ غَيْرِ قِصَّةٍ فِي الْكِتَابِ، وَاكْتَفَى الْمِيدَانِيُّ بِذِكْرِ الْإِحَالَةِ الَّتِي يُشِيرُ إِلَيْهَا الضَّمِيرُ (الْهَاءُ) فِي قَوْلِهِ: أَمَّ مَنْ غُصَّ بِهَا،

١- الميداني، مجمع الأمثال، ج ٢، ص ٤١-٤٢.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (١٧٤) ج ١، ص ٦٦.

فقال: «الهاء للّقمة»، ثم ذكر في أيّ شيء يُضرب، وهو قوله: «يُضرب لمن جرّب الأمور وعَرَفَهَا»^(١).

وتظهر في الجانب التركيبي جملة اسميّة تقوم على المبتدأ (أنت) والخبر (أعلم)، ثمّ العاطف (أم)، ثمّ المعطوف (مَنْ)، ثمّ جملة الصلة (غصّ بها)، وبناء على هذا يمكن استخراج البنى النصيّة الصغرى الآتية:

١- الذي يغصّ بالّلّقمة يعلم ألم الغصّة.

٢- أنت لم تغصّ بالّلّقمة.

٣- لن تكون عالمًا بألم الغصّة؛ لأنّك لم تجرّبها.

٤- لذلك لا تسارع لطرح الآراء فيما لم تعينه وتجرّبه.

٥- مَنْ عاين الأشياء وخبرها هو أقدر الناس على الإدلاء برأي فيها.

وبشيء من أعمال قاعدة التعميم يصل الباحث إلى البنية الكلّيّة الكبرى لهذا المثل: «مَنْ جرّب الأمور أعلم بها»، ومن ثمّ فإنّ على المخاطب التعلّم من أصحاب التجربة والخبرة الذين جرّبوا الحوادث وعاينوها؛ فهم أصحاب الشأن السديد في هذا الموضوع، وهذا قريب ممّا أورده الميداني، حين قال: «يُضرب لمن جرّب الأمور وعَرَفَهَا»^(٢).

نموذج (٥) المثل رقم (٧٣٧):

«تَنَاسَ مَسَاوِيءَ الْإِخْوَانِ يَدُمُ لَكَ وَدُهُمْ»^(٣)

قال الميداني تحت هذا المثل: «يُضرب في استبقاء الإخوان»^(٤).

ذُكر هذا المثل من غير قصّة في مجمع الأمثال، واكتفى الميداني بذكر في أيّ شيء يُضرب. وتظهر في الجانب التركيبي جملة فعليّة مركّبة، تقوم على فعل أمر يطلب إليك تغافل

١- الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٦٦.

٢- المرجع السابق، ج ١، ص ٦٦.

٣- نفسه، رقم المثل (٧٣٧) ج ١، ص ٢٢٠.

٤- نفسه، ج ١، ص ٢٢٠.

مساوئ الإخوان (تناس)، والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنت)؛ لذا لا يوجد مخاطب ظاهر، وصرّح بلفظ المفعول به (مساوئ الإخوان)، ثم ذكر النتيجة المترتبة على هذا الفعل إن قام به المخاطب فقال: «يدم لك ودّهم»؛ فالفعل (يدم) واقع في جواب الطلب، وهنا علاقة تلازم بين الجملتين عبر الطلب وجوابه، وبناء على هذا يمكن استخراج البنى النصية الصغرى على النحو الآتي:

- ١- البشر جميعهم يخطئون.
 - ٢- الإخوان هم من البشر ولذا فهم يخطئون.
 - ٣- لا يمكن أن تعثر على إخوان لا يخطئون.
 - ٤- إذا وقفت على كل خطأ يصدر من إخوانك فسوف تفقدهم تبعاً.
 - ٥- عليك أن تتغافل عن مساوئ إخوانك لكي تستديم ودّهم.
- وبإعمال قواعد (ديك) في الحذف والتعميم يصل الباحث إلى البنية الكبرى الكلية على النحو الآتي: «الوقوف المتكرّر عند مساوئ الإخوان خسارة محتمّة لهم».
- وهذا يتفق مع ما أورده الميداني فيما يُضرب فيه المثل، قال: «يُضرب في استبقاء الإخوان»^(١). ويمكن هنا إبداء الملاحظات الآتية:

- ١- يلاحظ أنّ الميداني كثيراً ما يغفل عن ذكر ما يضرب فيه المثل خاصة عندما يذكر القصة، وكأنّه يفترض أنّ السياق اللغوي الأول الذي وردت فيه، والمقام الذي قيل فيه كافيان لكي يستخرج القارئ ومستعمل المثل منها ثيمته بسهولة بالغة.
- وهذا الافتراض لا يتعد كثيراً عن الحقيقة؛ فالمقام أو السياق -وفق نحاة النص- أحد معايير الحكم على النص بالقبول^(٢)؛ فإلى جانب العلاقات الداخلية للنص، ثمة «علاقات أخرى بين النص ومحيطه المباشر وغير المباشر، ويؤدّي الفصل بين هذه العناصر الداخلية أو إسقاط أيّ منها أو إغفال أية علاقة سواء أكانت داخلية أم خارجية، إلى العجز عن إثبات الوحدة الكلية أو التماسك والانسجام الدلاليين للنص»^(٣)؛ إذ يمثل المقام أحد المقومات الفاعلة في اتساق النص، وخاصة من الناحية

١- الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٢٢٠.

٢- ينظر: بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٩١.

٣- سعيد بحيري، دراسات لغوية تطبيقية، ص ٧٨.

الدلالية، وعليه فإن نصية الخطاب لا تكتمل ولا تستقيم إلا إذا راعى صاحبه - في إنجازه - الظروف المحيطة التي سيظهر فيها النص، لذا فإن خطاباً يتعد كثيراً عن ملاسبات المقام لن يلقي قبولاً حسناً.

ويرى (بيوجراند) أنه «ينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه، تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات والتوقعات والمعارف، وهذه البيئة الشاسعة تُسمى سياق الموقف»^(١)، وقد وصف الباحثون في علم النص «المقامية» بأنها من أهم المعايير التي تقوم عليها النصية، وذلك لقناعتهم «بأن دراسة النص لن تكون كافية بالوقوف فقط عند بنيته النحوية أو الدلالية الداخلية، بل لابد من دراسته على مستوى الخطاب، وهذا يعني الاهتمام ببنية السياق والعلاقات بينها وبين النص»^(٢).

ووفقاً لـ (بيوجراند) فإن النص ينتج في مقام معين وله رسالة وهدف يبينهما المقام الذي أنتج فيه النص، إذاً فلا بد من رعاية المقام الذي أنشئ فيه النص من أجل فهمه وتفسيره تفسيراً يراعي ما قصده منتج النص؛ فمراعاة المقام من الوسائل التي تجعل النص يبدو أكثر تماسكاً.

٢- استخراج البنية الكبرى للنصوص المدروسة بالطرق ذاتها التي اقترحها (ثان ديك) لأي نص، يشير إلى أن قواعد (ديك) في استخراج البنية النصية الكبرى الكلية تصلح مع النصوص ذات الجملة الواحدة شريطة إعادة بنائها باستكمال ما حُذف منها أولاً، لتكون جملة مكتملة نحوياً أولاً، ثم إعادة استخراج ما فيها من جمل مضمّنة.

٣- الإمساك بالبنية الدلالية الكبرى هو السبيل الأوسع إلى الوقوف على تماسك النص، كما أنه السبيل إلى فهم النص وإعادة إنتاجه في مقامات مشابهة.

٤- إن التعقيب الذي كان الميداني يورده بعد المثل، ويشتمل على ما يُضرب فيه المثل، هو خليط من غرض النص ومقامه الذي يقال فيه، وبنيته الكلية الكبرى، ومن الطبيعي أن تتداخل هذه العناصر الثلاثة بسبب الاختزال والتكثيف اللذين يتسم بهما نص المثل أو النص ذو الجملة الواحدة.

٥- إن للجملة الماثلة على السطح معنى مباشراً، لكن المعنى الكلي للنص أو الدلالة الكلية

١- بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٩١.

٢- إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم النص، ص ٩٩.

للنص «لا تنجم عنه إلا بوصفه بنية كبرى»^(١)، وهذا فرق جوهري بين الجملة العادية التي لا تمثل نصًّا، والجملة النص.

٦- إنَّ الانتقال من الدلالة الجزئية الماثلة في سطح الجملة إلى الدلالة الكلية ليس انتقالًا معهودًا ومنظمًا من الجزء إلى الكل، بل هو مبني على مقتضيات الموقف التواصل في النص ذي الجملة الواحدة.

ب- البنية العليا للنص ذي الجملة الواحدة:

يُقصد بالبنية العليا للنص جنسه الذي ينتمي إليه؛ فبعض النصوص رسائل أدبية أو قصائد، وبعضها إعلانات، وبعضها نص قانوني، وبعضها...، وبعضها مثل، وقد اعتنى نحاة النص بدراسة البنية العليا وعلاقتها بفهم النص والوقوف على دلالتها، وحين درس أولئك النحاة معيار «المقبولية»، وهو من أهم خصائص النصية، وضعوا عوامل مؤثرة في المتلقي يمكنها أن تزيد مقبوليته أو موقفه من قبول النص بوصفه تشكيلاً ذا سبك والتحام، وجعلوا في رأس هذه العوامل معرفة المتلقي بنوع النص ومعرفة منتجته^(٢).

إنَّ هذا العامل مهم في مدى تقبل المتلقي لسلسلة الأحداث الكلامية أو الحدث الكلامي على أنه نص قابل لأن يوصف بالسبك والحبك، أي الاتساق والانسجام، وهو يحدد طريقة تلقيه لذلك النص، ويزوده بمفتاح مهم من مفاتيح التلقي وإعادة بناء النص في ذهنه، كما أنَّه يحدّد الطاقة التأويلية للمتلقي ويقولها في اتجاه معين، ويزيد من التفاعل النصي بين المتلقي والمرسل في عملية الاتصال.

وفيما يتصل بالمثل، فإنَّ معرفة المتلقي أنَّ جنس النص الذي يتعامل معه هو «مثل»، يجعل كفاءته النصية مرتفعة، ويسعى إلى تفسير النص في ضوء خصائص الأمثال التي أجملها في:

١- الاختزال أو الاقتصاد اللغوي.

٢- التكثيف.

٣- بلاغته في سياقه.

٤- قابليته للتعميم.

١- بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٨٩.

٢- ينظر: عزة شبل محمد، علم لغة النص: النظرية والتطبيق، ص ٣٥.

- ٥- حسن التشبيه.
- ٦- امتياز به بخصائص تركيبية ودلالية جعلته مؤثراً فيمن سمعه.
- ٧- يشكّل نقطة تحوّل في سياقه الأوّل الذي قيل فيه.
- ٨- يعبر عن حالات وسياقات قابلة للتجدّد والإعادة في بيئات اجتماعية مختلفة.
- ٩- يحمل سمّاً خاصاً «غريباً».
- ١٠- يحمل سمّاً تركيبياً ثابتاً غير قابل للتغيير.
- ١١- له قبول ورضى لدى مستعملي اللغة.
- ١٢- يتجاوز معناه بنيته اللغوية إلى معنى عام يتجدّد في سياقات متكرّرة.
- إنّ بنية النصّ العليا أو جنسه يزوّد القارئ بالأعراف والتقاليد القرائية والثقافية التي يوفرّها له مجتمعه في التعامل مع مثل هذا النصّ، ولا ريب أنّ المثل تُحيط به حالة من الأعراف القرائية والفهم لكثرة تداوله وسيرورته في المجتمعات.
- ومن جهة أخرى فإنّ معرفة المتلقّي بأنّ نوع النصّ أو بنيته العليا هي «المثل»، يجعله يسعى إلى فهم الضمائر وأسماء الإشارة والأعلام الواردة في نصّ المثل على أنّها مكافئات دلالية لعناصر موجودة في الموقف التواصل، وليست مطابقات دلالية، كما أنّ بنية النصّ «المثل» هي بنى مغلقة ومكتملة ومكثّفة، ولو لم تكن أمثالاً لربما بدت ناقصة وغير مكتملة ومفتوحة وباهتة ولا تحمل معنى تاماً.
- فلو تلقى القارئ جملة مثل «أَيُّ الرِّجَالِ المَهْدَبُ»^(١) على أنّها ليست مثلاً لبدت جملة استفهام عادية لا تحمل إلا بنية دلالية صغرى تطلب العلم بأيّ واحد من الرجال هو المهدّب، ولاحتاجت من المتلقّي جواباً.
- أمّا إذا قرأها على أساس أنّها مثل بدت آفاق أخرى للتأويل والفهم ذات بنية كلية كبرى وتساوق واقعاً ماثلاً أو مقاماً مشابهاً لحادثة ما، وبينهما توافق في الغرض والمقام، ولاحتاجت من المتلقّي إلى تفاعل وليس إلى إجابة.
- ولو تلقى القارئ المثل «إِنَّهُ لَوَاقِعُ الطَّائِرِ»^(٢) لا على أنّه مثل لظنّ أنّ المرسل يريد أن يُحدّثه عن طائر من الطيور، ولَبَدَت الجملة ناقصة محتاجة إلى تفصيل يوضّح إحالة الضمير في «إنّه».

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٦٥)، ج ١، ص ٣٥.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (١٠٠)، ج ١، ص ٤٣.

ولو تأمل القارئ المثل: «أَيُّ فِتْيَ قَتَلَهُ الدُّخَانُ»^(١) لا على أنه مثل، لبدت جملة استفهام عادية لا تحمل إلا بنية دلالية صغرى تطلب العلم بأيّ فتى قتله الدخان، ولا تحتاج من المتلقي جواباً.

ولو استقبل القارئ المثل «إِنَّهُ نَسِجُ وَحْدِهِ»^(٢) لا على أنه مثل لظنّ أنّ المرسل يريد أن يُحدّثه عن رجل حمال للأموال والأعباء، ولَبَدَت الجملة ناقصة محتاجة إلى تفصيل يوضح إحالة الضمير في «إِنَّهُ».

ولو سمع المثل «أَحْلَمُ مِنَ الْأَخْفِ»^(٣) وعلم أنّه مثل لتجاوز العَلَم الوارد في المثل تماماً، وركّز على امتدادات النص في الموقف التواصلية الذي هو بصده.

إنّ البنية العليا للنص مهمّة في عملية القراءة والتأويل، وهي تساعد في إيجاد ترابطات دالة بين القضايا الماثلة على السطح، وتعبير ربعة العربي «إنّ البنية العليا تشكّل أداة للقيام بتحليل تنازلي للخطاب»^(٤).

وفيما يتّصل بنص المثل على وجه التعيين فإنّ فيه فراغاً بنيوياً يهتدي إليه القارئ بوساطة جنس النص (المثل)، وبوساطة التفاصيل التي يتيحها سياق الحال أو موقف التخاطب.

ج- البنية التركيبية للنص ذي الجملة الواحدة:

سبق أن أشرت في المباحث السابقة إلى أنّ إعادة بناء النص عبر مفتاح الجملة الماثلة على السطح من أهمّ وظائف نحوي النص، وأنّ هذا البناء لا يحدث عبر المباحث المعتادة لنحو الجملة؛ ذلك أنّ الغرض من التركيب النصّي هو الاتصال، والاتصال لا يُوصف عن طريق الوحدات الصغرى الصوتية والصرفية، ولا بعرض العلاقات النحوية المباشرة، وإنّما يحدث عبر وصف اللغة في موقف استعمال أدائي حقيقي.

وإذا فبناء النص تركيبياً ووصف هذا التركيب إنّما هو نتيجة لعملية التواصل وليس مقدّمة لها؛ فوصف الموقف الاتصالي وما حدث فيه والحكم عليه بالنجاح أو الإخفاق، ووصف

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٣٤) ج ١، ص ٥٢.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (١٥١) ج ١، ص ٦٠.

٣- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١١٧٩) ج ١، ص ٣٣٧.

٤- ربعة العربي، في تصوّر الخطاب، ج ١، ص ١٠٦.

التماسكَيْن الدلالي والتداولي، وإمساك المتلقي بناصية البنية الكبرى عبر غرض النص ومقصد المرسل، كل ذلك مدعاة إلى تحقيق التماسك النحوي؛ أي الوقوف على بنية نصية تركيبية مكتملة ومغلقة، وبخلاف ذلك لا يمكن وصف البنية التركيبية للنصوص، وفي المبحث الآتي سأقف عند الأشكال التركيبية للنص ذي الجملة الواحدة في مجمع الأمثال للميداني؛ للتعرف على أنسب الأوعية التركيبية لنصوص الأمثال ذات الجملة الواحدة، التي يمكنها أن تؤمن له خصائص التكثيف والاختزال وقوة الدلالة وعمقها، والقدرة على محاكاة سياقات متجددة عبر الزمان والمكان، بما يضمن لها عنصر السيرورة الذي يعدّ سمّاً لازماً لها.

وبجمل الإنباه إلى أنّ الدراسة ستعتمد مصطلحي الجملة البسيطة، والجملة الموسّعة في الإشارة إلى الأشكال التركيبية التي وردت في المثل ذي الجملة الواحدة في «مجمع الأمثال» للميداني.

وتعد الجملة البسيطة أصغر أشكال الجملة، وتتألف، في حدّها الأدنى، من كلمتين بينهما عملية إسنادية واحدة، وتعد أبسط الصور الذهنية التامة التي يسوّغ السكوت عليها، ولا تكون داخلية في تركيب أوسع وأعقد، تربطها به علائق نحوية^(١)، وتحدّد بساطة الجملة بالنظر إلى عناصرها اللغوية؛ فإذا لم توجد عملية إسنادية ثانية في أحد عنصريها (المسند والمسند إليه)، أو في بعض عناصرها المتممة عدّت الجملة بسيطة^(٢)، وتعرف بأنّها الجملة المكوّنة من مركب إسنادي واحد، ويؤدي فكرة مستقلة سواء أبدأت باسم أم فعل^(٣)، وتعرف بأنّها الجمل التي تتحمل حملاً واحداً^(٤)، وتعرف بأنّها الجملة المكوّنة من عملية إسناد مستغنية بنفسها عن غيرها شكلاً ودلالة وهي اسمية أو فعلية، وتستقل بنواة إسنادية واحدة^(٥)، وتقسم الجملة البسيطة إلى جملة اسمية بسيطة تتكون من المبتدأ أو ما في حكمه

١ - ينظر: رابح بو معزة، الجملة والوحدة الإسنادية الوظيفية في النحو، مؤسسة رسلان، دمشق، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٦٩.

٢ - ينظر: المرجع السابق، ص ٦٩.

٣ - ينظر: محمد عبادة، الجملة العربية: دراسة لغوية نحوية، ص ٥٣.

٤ - ينظر: محمد المتوكل، الجملة المركبة في اللغة العربية، ص ٧.

٥ - ينظر: المنصف عاشور، بنية الجملة العربية، ص ٤١.

والخبر، وجملة فعلية بسيطة تتكون من الفعل والفاعل وقد تكون جملة بسيطة موسّعة إذا وجدت متمّمات المعنى^(١).

أما الجملة الموسّعة فقد انقسم دارسوها إلى قسمين؛ الأول: يستخدم هذا المصطلح استخدامًا خاصًا دون ربطه بأيّ اتجاه محدّد، والثاني: ينقل هذا المصطلح ومفهومه من الأنحاء الغربية، ويطبّقه على الجملة العربية.

ومن الدارسين الذين مضوا في الاتجاه الأول: إبراهيم الشمسان؛ إذ يرى أنّ توسيع الجملة وخصوصًا الشرطية يتمثّل في «إضافة عناصر جديدة»^(٢)، دون أن يحدّد الباحث معيار اعتبار عنصر ما جديدًا، وتظهر وسائل التوسعة عنده وأمثلةها كتوسيع العبارة الشرطية بجملة الحال أو العطف^(٣).

وتتمثّل التوسعة عند زين الخويسكي في «إضافة عنصر لغوي جديد على الجملة يترك آثاره على التركيب كلّ في البناء والدلالة»^(٤)، وتنحصر هذه العناصر بأدوات النفي والاستفهام والتوكيد، وما يؤدي وظيفتها.

ويشير لفظ التوسعة عند صبري السيّد إلى «إضافة النواسخ الحرفية والفعلية فحسب»^(٥)، دون أن يحدّد الباحث لم خصّ التوسعة بالنواسخ دون غيرها.

أما الاتجاه الثاني في دراسة التوسعة فيمثله محمد الشاوش، الذي يحدّد التوسعة بمعايرين هما: الاستغناء عن العنصر أو إمكانية حذفه مع بقاء الجملة مستقيمة نحويًا، وألا يكون للعنصر المضاف دور في تغيير العلاقات أو الوظائف الموجودة قبل دخوله^(٦).

١ - ينظر: رايح بو معزة، الجملة والوحدة الإسنادية الوظيفية في النحو، ص ٧١. وعلاء إساعيل الحمزاوي، الجملة الدنيا والجملة الموسّعة في كتاب سيبويه: دراسة وصفية تحليلية، نسخة إلكترونية، ص ١٥.

٢ - إبراهيم سليمان الشمسان، الجملة الشرطية عند النحاة العرب، مطبعة الدجوى، القاهرة، ط ١، ١٩٨١، ص ٣٩.

٣ - المرجع السابق، ص ٣٩٠.

٤ - زين كامل الخويسكي، الجملة الفعلية بسيطة وموسّعة: دراسة تطبيقية على شعر المتنبي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٨٦، ص ٢.

٥ - صبري إبراهيم السيد، لغة القرآن الكريم في سورة النور دراسة في التركيب النحوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤، ص ٤٧-٤٨.

٦ - محمد الشاوش، ملاحظات بشأن دراسة تركيب الجملة العربية، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، العددان ١٣٥-١٣٦، ١٩٨٢، ص ٨١-٨٢.

ويبدو أنَّ الباحث في تقييده مصطلح التوسعة بهذين المبدأين معاً متأثر بالنظرة اللسانية الوظيفية للتوسعة، التي حددها (مارتينيه) بأنَّها «كل عنصر يضاف إلى الإيضاح ولا يغيّر العلاقات المتبادلة ووظيفة العناصر الموجودة سابقاً»^(١).

أما محمود نحلة فيعرّف الجملة الموسّعة بالجملة «التي يضاف إلى ركنيّها الأساسيّين عنصر أو أكثر يؤثر في مضمونها أو يوسّع أحد عناصرها»^(٢).

والظاهر أنَّ الباحث -وفق ما ورد في مقدمة بحثه في تصنيف الجمل- ينقل مسمّى (الجملة الموسّعة) مفهوماً وتصنيفاً عن تقسيم الغربيّين للجمل في اللغات الهندية الأوروبية وتصنيف المستشرقين.

وقد جمع الباحث العناصر التي تتحوّل بها الجملة إلى موسّعة تحت اسم واحد هو (العناصر الإضافية)، وهو يستند في تمييزها على معيار واحد، وهو إمكانية الاستغناء عنها مع بقاء الجملة بعدها تامّة نحويّاً ودلاليّاً^(٣)؛ فالميزة التي يعرف بها عنصر التوسعة هنا هي: أنَّ الجملة دلاليّاً في غنى عنه، وليس تركيبياً فحسب كما هو الأمر في النظرة اللسانية الوظيفية التي قدّمها الشاوش^(٤)، ولذلك يرفض نحلة أن يكون المفعول به على الإطلاق، والظرف والجار والمجرور حين يتعلق معنى الفعل بهما، وكذلك الحال والنعته حين يتوقف عليهما أصل المعنى ضمن نطاق التوسعة؛ إذ تتحدّد القيمة الدلالية لهذه العناصر من خلال السياق، فهو الذي يعطي العنصر قيمة دلاليةً أوليّةً أو ثانويّةً.

واستناداً إلى مقياس الحذف بالصورة السابقة تمثلت التوسعة عند نحلة في ضربين من العناصر اللغويّة^(٥):

أ- عناصر لا علاقة لها بالإسناد، لكنها تقيده بواسطة تأثيرها في مضمون الجملة ووظيفتها، وهذه تتمثل في: الأفعال الناقصة، والأدوات الدالة على التوكيد والنفي والاستفهام... إلخ.

١- أندريه مارتينيه، مبادئ السننية عامة، ترجمة ريمون رزق الله، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٤٨.

٢- محمود نحلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربيّة، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٣-٢٤.

٣- ينظر: محمود نحلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربيّة، ص ١٢٣-١٢٤.

٤- ينظر: المرجع السابق، ص ١٣٤-١٣٥.

٥- ينظر: نفسه، ص ١٣٥-١٣٦.

ب- عناصر مكّلة للإسناد، أو لأحد عنصريه، أو لما يقع في نطاقها، وهذه تتمثل في: المفعولات ما عدا المفعول به، والحال، والتمييز، والمضاف إليه، والمستثنى، والتوابع الخمسة.

وأرى أنّ مفهوم الجملة الموسّعة الذي ارتضاه محمود نحلة ينسجم مع مؤدّى هذه الدراسة، ولذلك سيكون هو المفهوم المتّبع عند استخدام مصطلح الجملة الموسّعة في هذه الدراسة^(١).

الأشكال التركيبية للبنية النصية السطحية الماثلة للمثل ذي الجملة الواحدة في «مجمع الأمثال» للميداني

سبق أن قلت إنّ الوصول إلى البنية السطحية للنص ضروريّ للبدء في التحليل النصّي، لكنّه مجرد البداية وحسب، ولذا سأجتهد في استقراء الأشكال التركيبية للمثل ذي الجملة الواحدة في كتاب «مجمع الأمثال» للميداني، فإليك خلاصة هذا الاستقراء:

- ١- مجموع نصوص الأمثال في مجمع الميداني: ٤٧٦٥ مثلاً.
- ٢- مجموع نصوص المثل ذي الجملة الواحدة: ٤٦٢٢ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٩٧٪)، وهي نسبة لافتة يجدر التوقّف عندها، وهذه النصوص ذات الجملة الواحدة تقسم إلى:
أ- **النص جملة واحدة اسمية**: ٢٦٤٢ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٥٧٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة، ويمكن تقسيم هذا الصنف إلى:

■ النص جملة واحدة اسمية بسيطة: ٢٤١٧ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٥٢٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.

■ النص جملة واحدة اسمية بسيطة مكتملة العناصر (بنية الإسناد): ١٢١٠ أمثال، وذلك يشكّل ما نسبته (٢٦٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.

■ النص جملة واحدة اسمية بسيطة فيها حذف: ١٢٠٧ أمثال، وذلك يشكّل ما نسبته (٢٦٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.

■ النص جملة واحدة اسمية موسّعة: ٤٨٢ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (١٠,٥٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.

١- أشير هنا إلى أنّ علاء إسماعيل الحمزاوي قد اتّبع هذا التحديد لمفهوم الجملة الموسّعة في كتابه (الجملة الدنيا والجملة الموسّعة في كتاب سيبويه) ينظر: ص ١٥-١٦.

- النص جملة واحدة اسمية موسعة مكتملة العناصر (بنية الإسناد): ٤٤٦ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (١٠٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
- النص جملة واحدة اسمية موسعة فيها حذف: ٣٦ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٨, ٠٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
- ب- النص جملة واحدة فعلية: ١٩٨٠ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٤٣٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة، ويمكن تقسيم هذا الصنف إلى:
- النص جملة واحدة فعلية بسيطة: ١٤٨٧ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٣٢٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
- النص جملة واحدة فعلية بسيطة فيها حذف: ٤٧٣ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (١٠٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
- النص جملة واحدة فعلية موسعة: ٥٢٤ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (١٣٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
- النص جملة واحدة فعلية موسعة مكتملة العناصر (بنية الإسناد): ٤٩٣ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (١١٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة، والنص جملة واحدة فعلية موسعة فيها حذف: ٢٧ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٦, ٠٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
- وقد جاءت الأمثال الواردة في هذا الاستقراء وفق الأشكال التركيبية الآتية: (شكل رقم ٧):



أولاً: الأشكال التركيبية للنص ذي الجملة الواحدة في مجمع الأمثال للميداني عموماً:

- النص جملة واحدة اسميّة بسيطة مكتملة العناصر (بنية الإسناد): ١٢١٠ أمثال. وذلك يشكّل ما نسبته (٢٦٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
- النص جملة واحدة اسميّة حُذف منها المبتدأ: ١١٢٩ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٢٤٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
- النص جملة واحدة اسميّة حُذف منها الخبر: ٧٨ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٢٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.

- النص جملة واحدة اسمية موسّعة مكتملة العناصر: ٤٤٦ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (١٠٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
 - النص جملة واحدة اسمية موسّعة وفيها حذف: ٣٦ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٨, ٠٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
 - النص جملة واحدة فعلية: ١٩٨٠ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٤٣٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
 - النص جملة واحدة فعلية بسيطة مكتملة العناصر (بنية الإسناد): ١٠١٤ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٢٢٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
 - النص جملة واحدة فعلية بسيطة فيها حذف: ٤٧٣ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (١٠٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
 - النص جملة واحدة فعلية موسّعة: ٥٢٤ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (١٣٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
 - النص جملة واحدة فعلية موسّعة مكتملة العناصر (بنية الإسناد): ٤٩٣ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (١١٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
 - النص جملة واحدة فعلية موسّعة فيها حذف: ٢٧ مثلاً، وذلك يشكّل ما نسبته (٦, ٠٪) من عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة.
- يلحظ ممّا سبق أنّ الجملة الاسمية تعدّ الوعاء التركيبي المفضّل لبنية المثل، وأنّ الجملة البسيطة هي الأكثر شيوعاً في الاستعمال في نصّ المثل، وذلك في نوعي الجملة (الاسمية والفعلية)، وهذا ينسجم مع أهمّ خصائص المثل العربي: الثبات والإيجاز والتكثيف والاختزال.

ثانياً: الأشكال التركيبية للنص ذي الجملة الاسمية الواحدة في مجمع الأمثال للميداني

أ- الجملة الاسمية البسيطة: يمكن تقسيمها من حيث أركانها باعتبار المبتدأ إلى:

- ١- النص جملة واحدة اسمية بسيطة والمبتدأ فيها معرّف بأل التعريف، ورد ذلك في ٢٨١ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٦٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة. ومنه قولهم: العودُ أحمد^(١).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٥٤٣) ج ٢، ص ٣٠٧-٣٠٨.

- ٢- النص جملة واحدة اسمية بسيطة والمبتدأ فيها معرّف بالإضافة، ورد ذلك في ٣٤٧ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٥, ٧٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة. نحو قولهم: خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا^(١).
- ٣- النص جملة واحدة اسمية بسيطة والمبتدأ فيها معرفة اسم علم، ورد ذلك في ثلاثة مواضع. نحو قولهم: فِي كُلِّ أَرْضٍ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ^(٢).
- ٤- النص جملة واحدة اسمية بسيطة والمبتدأ فيها معرفة ضمير، ورد ذلك في ١٤٢ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٣, ٧٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة. وذلك نحو قولهم: أَنْتَ بَيْنَ كَيْدِي وَخَلْبِي^(٣).
- ٥- النص جملة واحدة اسمية بسيطة والمبتدأ معرفة اسم إشارة، ورد ذلك في ٣٣ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٧, ٠٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة. نحو قولهم: تِلْكَ أَرْضٌ لَا تَقْصُ بِضَعْتِهَا^(٤).
- ٦- النص جملة واحدة بسيطة والمبتدأ فيها نكرة، ورد ذلك في ١٦٩ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٤, ٤٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة. نحو قولهم: فِي الْإِعْتِبَارِ غَنَى عَنِ الْإِخْتِبَارِ^(٥).
- ويلحظ أنّ المبتدأ أكثر ما يرد في بناء المثل في مجمع الأمثال للميداني معرّفاً بآل التعريف، كما يظهر شيوع المبتدأ نكرة في الكتاب؛ نتيجة تقدّم الخبر عليه شبه جملة ظرفية أو جار ومجرور.
- ب- أنواع الخبر في النص:** جملة اسمية واحدة بسيطة: والخبر فيها:
- ١- معرّف بآل التعريف، ورد ذلك في ٢٩ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٦, ٠٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة. نحو قولهم: الدين النصيحة^(٦).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٢٩٤) ج ١، ص ٣٧١-٣٧٢.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٢٧٩٧) ج ٢، ص ٣٧٨.

٣- نفسه، رقم المثل (٣٩٠) ج ١، ص ١١٧.

٤- نفسه، رقم المثل (٦٧٨) ج ١، ص ٢٠٥.

٥- نفسه، رقم المثل (٢٧٤٣) ج ٢، ص ٣٦٥.

٦- نفسه، رقم المثل (١٤٣٣) ج ١، ص ٤١٢-٤١٣.

- ٢- الخبر نكرة وهو الأصل فيه، ورد ذلك في ٢٨٥ موضعًا، وهو يشكّل ما نسبته (٦٪) من مجموع مجيئه نصًّا ذا جملة واحدة.
نحو قولهم: تَرَكُ الذَّنْبَ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ^(١).
- ٣- الخبر معرّف بالإضافة، ورد ذلك في ١٧٥ موضعًا، وهو يشكّل ما نسبته (٤٪) من مجموع مجيئه نصًّا ذا جملة واحدة.
نحو قولهم: أَنَا ابْنُ بَجْدَتِهَا^(٢).
- ٤- الخبر معرفة اسم إشارة، ورد في موضع واحد.
نحو قولهم: خَيْرُ النَّاسِ هَذَا النَّمْطُ الْأَوْسَطُ^(٣).
- ٥- الخبر اسم موصول، ورد ذلك في ٣٤ موضعًا، وهو يشكّل ما نسبته (٧, ٠٪) من مجموع مجيئه نصًّا ذا جملة واحدة.
نحو قولهم: أَخُوكَ مَنْ صَدَقَكَ النَّصِيحَةَ^(٤).
- ٦- الخبر جملة اسميّة، ورد ذلك في خمسة مواضع.
نحو قولهم: الشَّرُّ قَلِيلُهُ كَثِيرٌ^(٥).
- ٧- الخبر جملة فعليّة فعلها ماضٍ، ورد ذلك في ٢٢ موضعًا، وهو يشكّل ما نسبته (٤, ٠٪) من مجموع مجيئه نصًّا ذا جملة واحدة.
نحو قولهم: الْحُمَى أَضْرَعَتْنِي لَكَ^(٦).
- ٨- الخبر جملة فعليّة فعلها مضارع. ورد ذلك في ١٢٢ موضعًا، وهو يشكّل ما نسبته (٣٪) من مجموع مجيئه نصًّا ذا جملة واحدة.
نحو قولهم: أُمُّ الْجَبَانِ لَا تَفْرَحُ وَلَا تَحْزَنُ^(٧).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٦١٥) ج ١، ص ١٨٥.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٦٠) ج ١، ص ٣٣.

٣- نفسه، رقم المثل (١٣٠٣) ج ١، ص ٣٧٣.

٤- نفسه، رقم المثل (٦٨) ج ١، ص ٣٥.

٥- نفسه، رقم المثل (١٩٧٤) ج ٢، ص ١٤٤.

٦- نفسه، رقم المثل (١٠٩٠) ج ١، ص ٣١٥-٣١٦.

٧- نفسه، رقم المثل (٣٠٠) ج ١، ص ٩٤.

٩- الخبر شبه جملة جار ومجرور، ورد ذلك في ١٨٧ موضعًا، وهو يشكّل ما نسبته (٤٪) من مجموع مجيئه نصًا ذا جملة واحدة.

نحو قولهم: **الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ**^(١).

١٠- الخبر شبه جملة ظرفيّة. ورد في ٥٣ موضعًا، وهو يشكّل ما نسبته (١٪) من مجموع مجيئه نصًا ذا جملة واحدة.

نحو قولهم: **الرَّفِيقُ قَبْلَ الطَّرِيقِ**^(٢).

يُلاحظ تفضيل المثل للجملة الفعلية ذات الفعل المضارع خبرًا للمبتدأ، كما يظهر شيوع شبه الجملة من الجار والمجرور في بناء المثل العربي، في مجمع الأمثال للميداني، ولعل ذلك لدلالة المضارع على الديمومة والاستمرارية، وهو ما يتفق وخصائص المثل التي تقوم على السيرة والتداول.

ثالثًا: الأشكال التركيبية للنص ذي الجملة الفعلية الواحدة في مجمع الأمثال للميداني

١- الجملة الفعلية البسيطة:

أ- الفعل الماضي المبني للمعلوم:

ورد الفعل الماضي المبني للمعلوم في ٦١٣ موضعًا، أمّا الفاعل فجاء على الصور الآتية:

١- الفاعل معرّف بأل التعريف، ورد ذلك في ١٢٤ موضعًا، وهو يشكّل ما نسبته (٣٪) من مجموع مجيئه نصًا ذا جملة واحدة.

نحو قولهم: **أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرِيَّهَا**^(٣).

٢- الفاعل معرّف بالإضافة، ورد ذلك في ٧٨ موضعًا، وهو يشكّل ما نسبته (٢٪) من مجموع مجيئه نصًا ذا جملة واحدة.

نحو قولهم: **تَرَكْتَنِي خَبْرَةُ النَّاسِ فَرْدًا**^(٤).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١١٢٨) ج ١، ص ٣٢٥.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (١٦٠٩) ج ٢، ص ٤٧.

٣- نفسه، رقم المثل (١٢٢) ج ١، ص ٤٨.

٤- نفسه، رقم المثل (٦١٦) ج ١، ص ١٨٥.

٣- الفاعل اسم علم، ورد ذلك في ١٥ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٣, ٠٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة.

نحو قولهم: عَادَتْ لِعِزِّهَا لَيْسُ^(١).

٤- الفاعل اسم موصول، ورد ذلك في ٦ مواضع.

نحو قولهم: اسْتَرَّاحَ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ^(٢).

٥- الفاعل ضمير متّصل، ورد ذلك في ١٤٧ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٣٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة، نحو قولهم: بَرِئْتُ مِنْهُ مَطَرُ السَّمَاءِ^(٣).

٦- الفاعل ضمير مستتر، ورد ذلك في ١٢٢ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٣٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة.

نحو قولهم: جَاءَ وَفِي رَأْسِهِ خُطَّةٌ^(٤).

٧- الفاعل نكرة، ورد ذلك في ٣٥ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٧, ٠٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة.

نحو قولهم: ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَةً^(٥).

يلحظ ممّا سبق أنّ المثل يفضّل اختيار الفاعل ضميراً سواء كان هذا الضمير متّصلاً أم مستتراً للفعل الماضي المبني للمعلوم في مجمع الأمثال للميداني.

ب- الفعل الماضي المبني للمجهول:

ورد الفعل الماضي المبني للمجهول في ٢٨ موضعاً، أمّا نائب الفاعل فجاء على الصور الآتية:

١- نائب الفاعل معرّف بأل التعريف، ورد ذلك في ٥ مواضع.

نحو قولهم: سُرِقَ السَّارِقُ فَانْتَحَرَ^(٦).

٢- نائب الفاعل معرّف بالإضافة، ورد ذلك في ٤ مواضع.

١ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٣٨٥) ج ٢، ص ٢٦٦-٢٦٧.

٢ - المرجع السابق، رقم المثل (١٥٧٨) ج ١، ص ٤٠.

٣ - نفسه، رقم المثل (٥٠٢) ج ١، ص ١٥٤.

٤ - نفسه، رقم المثل (٩٣١) ج ١، ص ٢٧٠.

٥ - نفسه، رقم المثل (٢٢٠٤) ج ٢، ص ٢١٨.

٦ - نفسه، رقم المثل (١٨١٥) ج ٢، ص ١٠٢.

نحو قولهم: حُبَّ إِلَى عَبْدٍ مُحَكَّدُهُ^(١).

٣- نائب الفاعل اسم موصول، ورد ذلك في موضع واحد.

نحو قولهم: عَيْلَ مَا هُوَ عَائِلُهُ^(٢).

٤- نائب الفاعل ضمير متصل، ورد ذلك في ٧ مواضع.

نحو قولهم: إِنَّمَا أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلِ الثَّوْرُ الْأَبْيَضُ^(٣).

٥- نائب الفاعل ضمير مستتر، ورد ذلك في ١١ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٢, ٠٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة.

نحو قولهم: قَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعِيرِ وَالنَّزْوَانِ^(٤).

يلحظ ممّا سبق أنّ المثل يفصل اختيار نائب الفاعل ضميراً سواء كان هذا الضمير متصلاً أم مستتراً للفعل الماضي المبني للمجهول في مجمع الأمثال للميداني.

ج- الفعل المضارع المبني للمعلوم:

ورد الفعل المضارع المبني للمعلوم في ١٦٤ موضعاً، أمّا الفاعل فجاء على الصور الآتية:

١- الفاعل معرّف بأل التعريف، ورد في ٢٤ موضعاً. وهو يشكّل ما نسبته (٥, ٠٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة، نحو قولهم: عِنْدَ النَّوَى يَكْذِبُكَ الصَّادِقُ^(٥).

٢- الفاعل معرّف بالإضافة، ورد في ١٣ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٢, ٠٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة، نحو قولهم: يَذْهَبُ يَوْمَ الْغَيْمِ وَلَا يُشْعِرُ بِهِ^(٦).

٣- الفاعل المعرّف اسم موصول، ورد في ٩ مواضع، نحو قولهم: يَعُودُ عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتُمُّ^(٧).

٤- الفاعل ضمير متصل، ورد في ٥ مواضع، نحو قولهم: خَيْرَ حَالِيكَ تَنْطَحِينُ^(٨).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٠٥١) ج ١، ص ٣٠٦-٣٠٧. والمحكد هو الأصل.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٢٤٦٠) ج ٢، ص ٢٩٠.

٣- نفسه، رقم المثل (٨١) ج ١، ص ٣٨.

٤- نفسه، رقم المثل (٢٨٥٢) ج ٢، ص ٣٩٨-٣٩٩.

٥- نفسه، رقم المثل (٢٤٥٧) ج ٢، ص ٢٨٩.

٦- نفسه، رقم المثل (٤٦٦٦) ج ٣، ص ٤٣٩.

٧- نفسه، رقم المثل (٤٧٤٤) ج ٣، ص ٤٥٦.

٨- نفسه، رقم المثل (١٢٦٣) ج ١، ص ٣٦٤.

٥- الفاعل ضمير مستتر، ورد في ١٠٠ موضع، وهو يشكّل ما نسبته (٢٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة، نحو قولهم: فِي وَجْهِ الْمَالِ تَعْرِفُ إِمْرَتَهُ^(١).

٦- الفاعل اسم نكرة، ورد في ٤ مواضع، نحو قولهم: يُرِيكَ يَوْمَ بَرَأِيهِ^(٢).
يلحظ ممّا سبق أنّ المثل يفصّل اختيار الفاعل ضميراً مستتراً للفعل المضارع المبني للمعلوم في مجمع الأمثال للميداني.

د- الفعل المضارع المبني للمجهول:

ورد الفعل المضارع المبني للمجهول في ١٤ موضعاً، أمّا نائب الفاعل فجاء على الصور الآتية:

١- نائب الفاعل معرّف بأل التعريف، ورد في ١١ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٢, ٠٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة.
نحو قولهم: قَدْ يُبْلَغُ الْخَضْمُ بِالْقَضْمِ^(٣).
٢- نائب الفاعل معرّف بالإضافة، ورد في موضعين اثنين، نحو قولهم: لَا فَقْرَ مِنَّا يُهْدَى غَمَامُ أَرْضِنَا^(٤).

٣- نائب الفاعل ضمير مستتر، ورد في موضع واحد، نحو قولهم: قَدْ يُؤْتَى عَلَى يَدَيِ الْحَرِيصِ^(٥).
يلحظ ممّا سبق أنّ المثل يفصّل اختيار نائب الفاعل معرّفاً بأل التعريف للفعل المضارع المبني للمجهول في مجمع الأمثال للميداني.

هـ- فعل الأمر:

ورد فعل الأمر في ١٩٢ موضعاً، أمّا الفاعل فجاء على الصورتين الآتيتين:

١- الفاعل ضمير مستتر، ورد في ١٧٨ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٤٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة، نحو قولهم: خُذِ الْأَمْرَ بِقَوَائِلِهِ^(٦).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٧٢٩) ج ٢، ص ٣٥٩.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٤٦٧١) ج ٣، ص ٤٤١.

٣- نفسه، رقم المثل (٢٨٤٥) ج ٢، ص ٣٩٤.

٤- نفسه، رقم المثل (٣٣٥٣) ج ٣، ص ١٠٠.

٥- نفسه، رقم المثل (٢٩١١) ج ٢، ص ٤١٦.

٦- نفسه، رقم المثل (١٢٤٥) ج ١، ص ٣٥٦.

٢- الفاعل ضمير متصل، ورد في ١٤ موضعاً، وهو يشكّل ما نسبته (٣, ٠٪) من مجموع مجيئه نصّاً ذا جملة واحدة، نحو قولهم: خَالِطُوا النَّاسَ وَزَايِلُوهُمْ^(١).

يلحظ ممّا سبق أنّ المثل يفضّل اختيار الفاعل ضميراً مستتراً لفعل الأمر في مجمع الأمثال للميداني، وهو أنسب للسيرورة والتداول والاستعمال في سياقات متكرّرة.

ملاحظات عامة على الأشكال التركيبية التي يتقوّل فيها نص المثل ذو الجملة الواحدة:

١- ورد المثل ذو الجملة الواحدة في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٩٧٪)، وهي نسبة كبيرة ولافتة يجدر التوقّف عندها بالدرس والتحليل، على حين ورد المثل ذو الجمل المتعدّدة في الكتاب نفسه بنسبة (٣٪)، ممّا يجعل الجملة الواحدة هي الوعاء التركيبي الأمثل للمثل بسبب خصائص التكثيف والاختزال فيه.

٢- وردت الجملة الاسميّة الواحدة في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٥٧٪)، على حين وردت الجملة الفعلية بنسبة (٤٣٪)، وبذا يلحظ تفضيل المثل للجملة الاسميّة وعاءاً تركيبياً لبنيته.

٣- وردت الجملة الاسميّة مكتملة العناصر (بنية الإسناد) في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٣٦٪)، على حين وردت الجملة الاسميّة بحذف أحد ركنيّها (المبتدأ أو الخبر) بنسبة (٢٦٪)، وبذا يظهر تفضيل المثل للجملة الاسميّة مكتملة العناصر وعاءاً تركيبياً لبنيته.

٤- وردت الجملة الفعلية مكتملة العناصر (بنية الإسناد) في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٣٣٪)، على حين وردت الجملة الفعلية بإضمار أحد ركنيّها (الفعل أو الفاعل) بنسبة (١٦٪)، وبذا يظهر تفضيل المثل للجملة الفعلية مكتملة العناصر وعاءاً تركيبياً لبنيته.

٥- وردت الجملة الاسميّة البسيطة في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٥٢٪)، على حين وردت الجملة الاسميّة موسّعة بنسبة (١٠٪)، وبذا يظهر تفضيل المثل للجملة الاسميّة البسيطة وعاءاً تركيبياً لبنيته.

٦- وردت الجملة الفعلية البسيطة في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٣٢٪)، على حين وردت الجملة الفعلية الموسّعة بنسبة (١٣٪)، وبذا يظهر تفضيل المثل للجملة الفعلية البسيطة وعاءاً تركيبياً لبنيته.

٧- أنسب الأوعية التركيبية للمثل ذي الجملة الواحدة هو الجملة الاسميّة البسيطة؛ لما تميز

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٢٩٣) ج ١، ص ٣٧١.

به هذا النوع من اختزال وتركيز وتكثيف في المعنى، أكثر من غيره، وهو ما يميل إليه المثل في صياغة بنيته النحويّة، بل هو ما تميل إليه العربيّة قصْدَ الخفة والسلاسة في إيقاع الكلام؛ إذ إنّ ذلك يكسب النص المثلّي السعة في الاستعمال، والشيوع بين الناس؛ إذ تردّدت الجملة الاسميّة البسيطة في ٢٤١٧ مثلاً، والجملة الاسميّة الموسّعة في ٤٨٢ مثلاً، وبناء على هذا فالظاهرة المطّردة في الأمثال هو الجملة الاسميّة البسيطة.

ومن الأمثلة على ذلك: «التقي ملجم»^(١)، و«الليل أعور»^(٢)، و«الناس أخياف»^(٣)، فما جاء من تركيب مثلي على هذه الشاكلة المتكوّنة من عنصرين، هما: (المسند + المسند إليه) يكاد يكون التركيب المثلّي الأخف إيقاعاً في وقعه وإيصاله إلى المتلقي؛ إذ تتحقّق فيه أبرز صفة من صفات المثل العربي وألزمها له، ألا وهي الإيجاز، فهي تعطي معاني مكثّفة بألفاظ معدودة لا تتجاوز (العنصرين) التركيبيين الأساسيين لأبسط جملة عربيّة، فكان ذلك عاملاً من العوامل التي حفظت للمثل العربي كيانه عبر التاريخ، فهو يمتلك في ذلك مقوّمات استعماله بين الخاصّة والعامة، وتداوله بين الناس الذي أكسبه ديمومة البقاء، مع ضرورة الإشارة إلى أنّ تلك الجمل الخبريّة البسيطة في تكوينها التركيبي تتجاوز في معناها التقييد بزمن معيّن؛ فهذا الإخبار الذي جرى بواسطة الإسناد التركيبي تجاوز كلّ الفجرات الزمنيّة على مدى العصور، والتزم في الوقت نفسه بالقيود اللغويّة والنحويّة التي يسلكها المنشئ للوصول إلى البناء الصحيح والسليم فيما يصدر عنه من نظم.

ويلحظ على هذه البنية المثلّيّة التركيبيّة خلوّها من الروابط التي تربط بين الجمل، والعبارات، ممّا أكسبها التلاحم المحكم بين (المسند والمسند إليه)، والتسلسل المنطقي، حيث التابع والمتبوع، والعامل والمعمول، فلا يجد المخاطب عناء في معرفة المعنى المقصود منها؛ وذلك لبساطة الصورة التركيبيّة التي وردت بها هذه البنية التمثيليّة.

٨- كان الإسناد الخبري العنصر الأساس الذي استندت إليه الجملة المثلّيّة، وهو العنصر الذي ينشأ من التعالق التركيبي بين مكوّنات جملة المثل، فبرز في هذا التعالق التركيبي تلاحم العناصر الرئيسيّة لجملة المثل، وقوّة الإسناد الرابط بينها؛ إذ كانت البنية النحويّة للجملة

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٦٩٤)، ج ١، ص ٢١٠.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٣٢٧٣)، ج ٣، ص ٨٣.

٣- نفسه، رقم المثل (٤٢٧٤)، ج ٣، ص ٣٣١.

المثلية «تابعة للمعاني تتكيّف بشكلها، فإذا تزاوجت المعاني تزاوجت التراكيب مثلها، وإذا استرسلت استرسلت مثلها»^(١).

ولا شك أنّ البنية التركيبية لجملة المثل تستمد أهميّتها من فاعلية (الإخبار) الذي يقوم به النص المثلّي؛ إذ يعد النص المثلّي هو الحاضن لهذا (الإخبار)؛ فهو يستجيب لهيمنة الحدث الإخباري، وفاعلية حضوره بإضاءته للمساحة الحكائيّة التي يشغلها المعنى الدلالي المُبتغى من هذا النص، ومن ثمّ التحكّم بتوجيه عناصره «توجيهًا يستجيب لإيعاز التأليف، ويعمل على تحقيق أهدافه، وهو يقدّم في كلّ مرة مكونًا بنيويًا من مكونات النصوص ويؤخّر آخر»^(٢).

٩- حُذِفَ المبتدأ في ١١٢٩ موضعًا من مجموع ٢٦٤٢ موضعًا هي الجملة الاسميّة الواحدة، ويكثر حذف المبتدأ في المثل المُصدّر بأفعل التفضيل، حيث يكون أفعل التفضيل خبرًا لمبتدأ محذوف كما في الأمثال «أخطب من سَحْبَان وائل»^(٣)، و«أشأم من داحس»^(٤)، و«أنم من التراب»^(٥)، وبهذا الحذف يغدو المثل شديد الإيجاز والتكثيف من ناحية التركيب، واسع الدلالة بعيد الإيجاء من ناحية المعنى^(٦).

كما يؤدي الحذف هنا وظيفة الدلالة على التعميم، وهو ما يلائم المثل من حيث إنّّه لا يكون في بنيته ما يحصره في جنس أو اسم معين، ومن ناحية أخرى يعني حذف المبتدأ عدم توجيه الخطاب مباشرة نحو المضروب له أو بسببه المثل، وفي هذا تحقيق لهدف المثل التربوي.

ولعلّ السبب في كثرة حذف المبتدأ كونه معلومًا للمخاطب والمتكلّم ليس بحاجة إلى إبراز هذا المحذوف (المبتدأ)، ولكنّ المطلوب والمجهول لدى السامع هو الحكم على هذا المعلوم المحذوف، فهذا الحكم سيكون دافعًا للحديث والحوار؛ فالرغبة في إعلان هذا المجهول

١- ينظر: محمود المسعدي، الإيقاع في السجع العربي: محاولة تحليل ونقد، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٩٦، ص ١٧٧.

٢- لؤي حمزة عباس، سرد الأمثال، ص ٢٠٧.

٣- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٣٣٦) ج ١، ص ٣٨١.

٤- المرجع السابق، رقم المثل (٢٠٣٣) ج ٢، ص ١٦١.

٥- نفسه، رقم المثل (٤٣٠٠) ج ٣، ص ٣٣٩.

٦- ينظر الدراسة النصيّة لمبحث الحذف في الفصل الثالث من هذه الدراسة ص ٢٧٩-٢٩٢.

وكشف أمره، ومعرفة المزيد عن جوانب هذا المعلوم وإذاعتها هي السبب في إبقاء الخبر والاستغناء عن المبتدأ، وهذا النوع من الحذف أكثر انسجامًا مع اللغة المنطوقة التي يكثر فيها اللمح والرمز والكناية اعتمادًا على ما بين المتحدثين من معلومات واضحة متفق عليها. واللغة المنطوقة تميل دائمًا إلى الإيجاز، وما المثل إلا عُملة صُربت في دار الجماعة وتردّدت في الأفواه كثيرًا حتى أخذت شكلها الأدبي الأخير، ولذلك تحرص الجماعة على إخراج المثل صافيًا مركّزًا خفيفًا يسهل تداوله، فكان الحذف إحدى الوسائل لتحقيق هذه الحقة، إضافة إلى أن استخدام المثل يكون إمّا لتأكيد تجربة حدثت أو المقارنة بين تجربتين أو الوعظ، وفي جميع هذه المواقف يكون المتحدث عنه أو المسند إليه واضحًا في ذهن المتكلم والمخاطب؛ فلا يشكّل الحذف عائقًا في عملية التفاهم، والقاعدة تقول: يجوز حذف ما دلّ عليه دليل.

١٠- تقدّم الخبر شبه جملة على المبتدأ في ١٢ موضعًا، ولوحظ أن تقدّم الخبر على المبتدأ معرفة بلغ ٥ مرات، والمبتدأ النكرة ٧ مرات، وبناء على هذا فالظاهرة المطّردة في تقدّم الخبر على المبتدأ عندما يكون الخبر شبه جملة والمبتدأ نكرة.

ويعدّ تقديم شبه الجملة (الجار والمجرور) من الظواهر التركيبية المميّزة في الأمثال أحادية الجملة سواء الاسمية أم الفعلية؛ وثوت وراء هذا التقديم مقاصد دلالية أرادها منشئ المثل؛ لتكون انعكاسًا لما في ذهنه من معان، ومن الأمثال التي تمثلت فيها هذه الصورة قولهم: «في بيته يؤتى الحكم»^(١)، وقولهم: «ببطنه يعدو الذكر»^(٢)، وقولهم: «من مأمنه يؤتى الحذر»^(٣)، وقولهم: «على أهلها تجني براقش»^(٤)؛ فيلاحظ على هذه النصوص المثلية تقدم المضمّر على الظاهر، وهو ما يتعارض والحكم النحوي العام الذي يتعلق بهذه المسألة؛ إذ إنّ «حكم المضمّر أن يجيء بعد ظاهر يتقدمه يعود عليه؛ لأنّه مبهم ولا يعقل على من يعود عليه، حتى يتقدمه اسم ظاهر يعود عليه»^(٥)، لكن بعض النحويين أجازوا في حالات معيّنة

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٧٤٢) ج ٢، ص ٣٦٤. يضرب للقاضي يؤتى في بيته.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٤٥٦) ج ١، ص ١٤٣. يضرب للذكر من الخيل يعدو على حسب ما يأكل.

٣- نفسه، رقم المثل (٤٠٦٣) ج ٣، ص ٢٧٦. يضرب للحدّز لا يدفع عنه ما لا بد له منه.

٤- نفسه، رقم المثل (٢٤٢٧) ج ٢، ص ٢٧٩. يضرب لمن يعمل عملاً يرجع ضرره إليه.

٥- الزجاجي، الجمل في النحو، ص ١١٧.

هذا التقديم، فذكروا «أن كل مضمّر اتصل باسم مخفوض أو منصوب، فإنه يجوز تقديمه وتأخيره على المضمّر؛ لأنّ النية فيه أن يكون مؤخراً»^(١).

ويبدو أنّ هذا التقديم قد أعطى تركيب المثل إسناداً خبرياً يلحظ فيه مزية من مزايا التركيب في اللسان العربي، وهو تجريد هذا الإخبار من الزمن، ومن ثم الدلالة على عدم تقييد مضمون هذه الجمل المثلية بزمن معين، يضاف إلى ذلك ما أحدثه هذا التقديم والتأخير من تغيير في الترتيب الطبيعي للجملة، وكان من شأنه أن يدل على الاهتمام والعناية والتنبيه على المتقدّم.

ومن الأمثال التي تقدّم فيها الخبر شبه الجملة على المبتدأ، قولهم: «في الأرض للحرّ الكريم منادح»^(٢)، وقولهم: «في التجارب علمٌ مُستأنف»^(٣)، وقولهم: «في الاعتبار غنى عن الاختبار»^(٤)؛ فهذه الصورة التركيبية البسيطة دلت على معانٍ كثيفة على الرغم من إيجازها التركيبي.

ويُلاحظ أنّ تقديم شبه الجملة (الجار والمجرور) كان سمة من السمات التركيبية البارزة في الجملة المثلية؛ إذ يخلق هذا النوع من التركيب تشويقاً لدى المتلقّي لمعرفة العنصر النحوي الذي تعلقت به شبه الجملة؛ وذلك ليتّمم المعنى وتكمل الفائدة من الجملة المثلية، ويحسن السكوت عنها؛ فشبه الجملة في العربية لا يتم معناه إلا إذا تعلق بشيء قبله ظاهراً كان أو محذوفاً (مقدراً)، فهي لا تكون بمفردها معنى تاماً.

ولاشك في أن تقديم شبه الجملة (الظرفية أو الجار والمجرور) فيه خروج عن التسلسل التركيبي للجملة العربية، وعدول عن الرتبة النحوية المقيس عليها؛ فهو خروج عن الإخبار العادي الذي تؤدّيه اللغة بوساطة الكلام، إلى لغة ذات سمات فنية؛ فقولهم: (على أهلها تجني براقش) ما كان ليمتلك من الأهمية والتكثيف الدلالي لولا تقديم الجار والمجرور (على أهلها) في الجملة، ففي هذا التقديم تبرز العناية والخصوصية ويكمن محلّ الشاهد؛

١ - الزجاجي، الجمل في النحو، ص ١١٩-١٢٠.

٢ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٧٦٩) ج ٢، ص ٣٧٢. أي مُتّسع. والمنادح: جمع مندوحة، وهي السعة.

٣ - المرجع السابق، رقم المثل (٢٧٧٨) ج ٢، ص ٣٧٣.

٤ - نفسه، رقم المثل (٢٧٤٣) ج ٢، ص ٣٦٥. يضرب للذي يعتبر بما يرى، ويستغني عن أن يختبر مثله فيما يستقبل.

فالعبرة في هذا المثل تؤخذ من جناية براقش على أهلها، وليس على غيرهم؛ فجنايتها على غير أهلها لا يكون فيه محل شاهد أو معنى يجري مجرى المثل، وبذلك يكون هذا النوع من التقديم في المثل العربي سواء كان للاختصاص، أم للعناية والاهتمام أم لغيرها من الدلالات الأخرى، قد قدّم مجالاً خصباً للتراكيب المثلّية، وأثبت في الوقت نفسه مزية من مزايا العربية.

ولا يخلو هذا التقديم من دوافع نفسية بالدلالة المقصودة من نظم المثل على هذه الشاكلة التركيبية؛ إذ كان الثبات والتغير في التركيب، والعدول إلى تغيير الرتب التركيبية هو في حقيقته توجيه اختلاف المعنى؛ فالتغيير في الدلالة يتأتى من تغيير الرتب وتركيبها وفق صياغة فنية يحدّد أطرها المعنى المقصود، وهو أمر أشار إليه نعمة العزاوي في قوله: «من مزايا العربية أنّ الجملة فيها لا تخضع لنظام صارم في ترتيب عناصرها، وإنّما يملك المتكلمون بها حرية وافرة في صوغ الجملة، وتقديم أو تأخير ما يشاؤون من عناصرها استجابة لدوافع نفسية معينة، أو مجازاة لظروف القول وملاساته»^(١).

لذلك كان للدافع النفسي لقائل المثل، أو ما يمكن أن نسمّيه بالحاجة النفسية له، الأثر الأكبر في صياغة المثل على هذه الصورة التركيبية؛ مستثمرًا الحرية اللغوية التي أتاحها له النظام اللغوي للعربية، كي يعبر عن هذا الدافع أو الحاجة النفسية. كما أنّ ارتباط المثل بسياقه المقامي أيضًا عامل مهم في توجيه العناية إلى تقديم بعض مكونات الجملة على بعضها الآخر؛ حيث يكون العنصر المقدّم أكثر التصاقًا بالسياق الذي يستدعيه أسرع من غيره في بناء الجملة.

١١- ورد الخبر مفردًا في ٥٢٣ موضعًا، وجملة اسمية في خمسة مواضع، وجملة فعلية في ١٤٤ موضعًا، وشبه جملة في ٢٤٠ موضعًا، وبناء على هذا فإنّ الظاهرة المطردة في الخبر هي كون الخبر مفردًا، وقد يأتي جملة أو شبه جملة.

١٢- كان للجملة الفعلية حيّز واسع في أمثال الدراسة، وإن كان بنسبة أقل من الحيّز الذي أخذته الجملة الاسمية، وربما يُعزى ذلك إلى الفوارق التركيبية والدلالية بين الجملة الاسمية والفعلية، فقد وردت الجملة الفعلية في ١٩٨٠ مثلاً، على حين وردت الجملة الاسمية في

١- نعمة العزاوي، الجملة العربية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، مجلة المورد، مجلد ١٠، ع ٣-٤، ١٩٨١، ص ١٠٩.

٢٦٤٢ مثلاً، ومن الأمثلة على ذلك قولهم: «يَعُوذُ عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتِمُرُ»^(١)، وقولهم: «قَيْدَ الْإِبْيَانِ الْفَتَكُ»^(٢)، و«تُقَطَّعُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ الْمَطَامِعُ»^(٣).

ولعلّ السبب في شيوع الجملة الاسميّة أكثر من الجملة الفعلية في المثل العربي؛ كون الجملة الاسميّة وعاءً أنسب للسيرورة والتداول في سياقات متجدّدة ذات أغراض ثابتة.

١٣- ورد الفعل المبني للمعلوم في ١٢٩ موضعاً؛ ١٠٠ موضع منها للفعل الماضي المبني للمعلوم، و٢٩ موضعاً للفعل المضارع المبني للمعلوم، على حين ورد الفعل المبني للمجهول في ١١ موضعاً، ٥ مواضع منها للفعل الماضي المبني للمجهول، و٦ مواضع للفعل المضارع المبني للمجهول، وجاء فعل الأمر في ٢٩ موضعاً، وبناء على هذا فالظاهرة المطّردة في الأمثال هو الفعل المبني للمعلوم.

ولعلّ السبب في شيوع الفعل الماضي أكثر من غيره من الأفعال أنّ المثل يعبر عن تجارب مرّ بها المجتمع، فاخترتها في ضميره عبارات جاهزة للعبارة والموعظة، ويأتي التعبير المثلي للتعليق على حدث مضى أو للتذكير بموقف للوعظ؛ فالمثل خبرة مكثّفة في الماضي، ولكنها تصلح للاستخدام في كلّ موقف مستقبلي يتطابق معناه الإنساني مع ذلك الموقف الذي انبثق منه في الماضي.

كما أنّ الفعل الماضي في المثل العربي يدلّ على «أنّ واقعاً معيّناً قد سما إلى مرتبة المثل الأعلى؛ فالمثل العربي بهذه الصيغة ليس حكمة وليس دعوة إلى الحكمة، إنّهُ انبهار أمام بهاء الواقع المتسامي، وقصّة تهزّ النفس والأعماق، وتستنهض الهمم، وتبشّر بقدرة الإنسان على الارتقاء في مراتب الكمال، إنّهُ خبر يقول لنا ما هو كائن»^(٤).

أمّا فيما يتعلّق بورود المثل بصيغة الفعل المضارع ففسّره إبراهيم أنيس «لإظهار أنّ المتكلّم ينظر إلى الحديث الذي انتهى كأنّها هو لا يزال ماثلاً للعين، والغرض من هذا التوكيد»^(٥).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٤٧٤٤) ج ٣، ص ٤٥٦.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٢٨٩٧) ج ٢، ص ٤١٣.

٣- نفسه، رقم المثل (٧١٦) ج ١، ص ٢١٦.

٤- جورج صدقي، في سيكولوجيا الأمثال العربيّة، مجلة المعرفة السوريّة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ع ٢١٩، ١٩٨٠، ص ٨.

٥- إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٦٩.

١٤- فاقت نسبة تردد الفاعل المعرفة نسبة تردد الفاعل النكرة؛ فقد تردد الفاعل المعرفة في ٩٣٠ مثلاً، على حين تردد الفاعل النكرة في ٣٩ مثلاً، وبناء على هذا فالظاهرة المطردة في الأمثال هو كون الفاعل معرفة، وكان أكثر أنواع المعارف حضوراً في الجملة الفعلية الضمير المستتر؛ إذ ورد في ٥٠٠ مثل، ولعل السبب في هذا إشعار المخاطب أنه حاضر، وأن الحوار ليس مقتصرًا على المرسل فقط.

١٥- فاقت نسبة تردد الفاعل الضمير نسبة تردد أنواع الفاعل المعرفة الأخرى، ثم تلاه الفاعل المعرف بـأل، ثم الفاعل المعرف بالإضافة؛ فقد تردد الفاعل الضمير في ٦٦٦ مثلاً، وتردد الفاعل المعرف بـأل في ١٤٨ مثلاً، وتردد الفاعل المعرف بالإضافة في ٩١ مثلاً.

١٦- شكّل إضمار الفاعل في الجملة الفعلية ظاهرة تركيبية بارزة في نصوص الأمثال؛ ومن الأمثلة على ذلك قولهم: «جَعَلَ كَلَامِي دَبْرَ أُذُنَيْهِ»^(١)، وقولهم: «رَجَعَ بِخُفْيِ حُتَيْنٍ»^(٢)، و«فِي وَجْهِ الْمَالِ تَعْرِفُ إِمْرَتَهُ»^(٣). وقولهم: «كَمَا تَدِينُ تُدَانُ»^(٤).

فيلمح في هذه الأمثال إضمار الفاعل وإظهار المفعول به، وهي ظاهرة تركيبية نحوية تكاد تكون بارزة في الجملة المثلية الفعلية، وربما يعود سبب وجود هذه الظاهرة في التركيب المثلي إلى أن أغلب الأمثال تتعلق دلالتها بالعوام دون الخواص؛ فهي لا تخص أحدًا بذاته، بقدر ما تخص الحالة أو الموقف الذي ينسجم مع دلالتها ومضمونها، كما أن ذكر الفاعل يؤدي إلى تحديد معنى المثل، وتقبيده بشخص وزمن معينين، وهو ما لا يتناسب ومعنى المثل، فهو بهذا التقيد يفقد المثل ميزة من مميزات، وهي العمومية في المضمون والدلالة، ناهيك عما يحققه هذا الحذف من خفة واسترسال في الكلام، وإيصاله للمخاطب.

كما قد يكون من الأفضل في أحيان كثيرة أن يكون التعبير غير مباشر؛ إما تجنبًا لخرج ما، أو استقدامًا لسلطة المسلمات العامة، أو استثمارًا لما يتصل بالغيبة من إحساس غامض بالمهابة يستقر في العقول والأرواح البشرية، وكأنه طبيعة إنسانية عامة.

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٨٥٣) ج ١، ص ٢٥١.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (١٥٦٨) ج ٢، ص ٣٧.

٣- نفسه، رقم المثل (٢٧٢٩) ج ٢، ص ٣٥٩.

٤- نفسه، رقم المثل (٣٠٩٣) ج ٣، ص ٣٨.

١٧- يتّضح من الأمثال المدروسة غلبة الإيجاز عليها، والإيجاز مظهر من مظاهر قوّة التركيب؛ فإنّه «لما كانت القوّة تستلزم السرعة في أكثر الأحيان، كان الإيجاز لازماً في العبارة عامة، وفي التراكيب خاصة»^(١)، ينتج عن ذلك قوّة في التأثير؛ فالقول الموجز أوقع في الصدور^(٢)، والإيجاز في المثل يسرّع في حفظه، ويُبقي عليه، ويُيسّر سيرورته؛ فالقول الموجز أسرع إلى الحفظ، وأعلّق بالألسن، وأجول في المحافل^(٣)، كما أنّ الإيجاز يحفظ بنية المثل من التغيير؛ ذلك «لأنّ الكلام إذا قلّ وقع وقوعاً لا يجوز تغييره»^(٤)، وقد عظم الزمخشري شأن الأمثال؛ لأنّها «أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى».

١٨- يتّضح من استقراء الأمثال ذات الجملة الواحدة شيوع أسلوب الحذف في الأمثال المدروسة في الاسم بالدرجة الأولى يليه الفعل، والأسماء كما هو معلوم تدل على الثبات والديمومة، وهو ما كان له أبلغ الأثر في ثبات الأمثال في الأذهان وديمومتها حتى يومنا هذا، وهذا ما يمكن تفسيره بكثرة تداول الأمثال من جهة، وحثّ السامع على إعمال ذاكرته لمعرفة الفاعل أو تذكّر قصّة المثل من جهة أخرى، ويمكن تفسير ذلك أيضاً بحرص العرب على عدم التشهير بالآخرين، ولا سيّما أنّ معظم الأمثال قيلت في مواقف ساخرة، ومنها ما قيل في الصفات والأخلاق لشخصيّات معروفة بين العرب، يقول حسين جمعة: «حذف المسند على وروده في كلام العرب وفي أيّ الذكر الحكيم، فهو أقلّ بكثير من حذف المسند إليه، فضلاً عن أنّ حذف المسند إليه أقلّ خطراً في وظيفة الجملة؛ فبالمسند تتمّ الفائدة غالباً، ولا سيّما في الجملة الاسميّة»^(٥).



١- أحمد الشايب، الأسلوب: دراسة بلاغيّة تحليليّة لأصول الأساليب الأدبيّة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦، ص ١٩٨.

٢- ينظر: العسكري، كتاب الصناعتين، ص ١٨٠.

٣- ينظر: المرجع السابق، ص ١٨٠.

٤- الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٨٨.

٥- حسين جمعة، في جماليّة الكلمة: دراسة جماليّة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢، ص ٩٧.

ثالثاً: إعادة بناء النص

في ضوء البيانات المتحصّلة للمتلقّي ومن ثم لمحلّل النص، بواسطة سياق التواصل وكل ما يتّصل بالمقام، وكذلك من وقوفه على البنية الكلّية الكبرى للنص، وما تجمّع لديه من معارف وخبرات قرائيّة متّصلة بالبنية العليا لذلك النص، وبعد الوقوف على الشكل التركيبي للنص المائل في بنيته السطحيّة الرصفيّة الظاهرة للعيان، في ضوء هذا كلّ يكون المتلقّي أو محلّل النص قادراً على الحكم على النص بالتماسك أو عدمه، ويُقصد به التماسك النصّي بكتّيته لا بنوع من أنواعه، ومعنى ذلك أنّه قادر على استعادة هذا النص، أو إعادة إنتاجه بالفهم مرة أخرى، أو هو قادر على الوقوف على دلالاته ومرماه والتيقّن من تحقق غرضه؛ أي أنّه يشعر باتّساقه وانسجامه، ومن ثمّ إعادة استرجاعه بالفهم مسألة مقدور عليها.

إنّ من أهمّ نتائج الاتساق «إحساسنا بأنّ النص كلّ موحد؛ فمن أهمّ شروط النصيّة أن يكون النص كلّاً موحدًا منتظمًا في وحدة دلاليّة لا تجميعًا محضًا بين جمل يعوزها الترابط الدلالي سواء في ذلك أن يكون لفظًا منطوقًا أم مكتوبًا قصيرًا أم طويلًا»^(١).
إنّ السؤال المائل إذاً:

هل يمكن إعادة بناء النص المكتمل تركيبياً ودلاليّاً بواسطة النص ذي الجملة الواحدة سطحيّاً أمام القارئ؟ ولعلّ هذا السؤال يمكن أن يردّ عليه بسؤال آخر: هل القارئ بحاجة إلى ذلك؟ أو بعبارة أخرى: هل يجب إعادة بناء التشكيل اللغوي للنص بوصفه وحدة نحويّة؟ قد يبدو من التركيز على الفعل التواصل لنصوص الأمثال أنّ القارئ ليس بحاجة إلى ذلك؛ لأنّه -في العادة- يعيد تركيب النص ذهنيّاً ومنطقيّاً بصورة مباشرة وعفويّة وسريعة بواسطة استعادته بالفهم والتأويل؛ أي عبر المستويّين الدلالي والتداولي، ولعلّ ما يعضد ذلك أنّه غالباً في بناءه لكلّ الدلالي الذي يمثله النص يتجاوز الوحدة البنيويّة المائلة، وكذلك في تمثله للعلاقات الإحاليّة.

غير أنّ من العدل والموضوعيّة أن أذكر أنّه يُفهم من مجمل الأدبيّات المتاحة في نحو النص، وجود رأيين في الموضوع:

١ - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص ٨٩.

١- رأي يذهب إلى ضرورة تمثّل النص المتّسق والمنسجم في شكل بناء تركيبى متماسك نحويًا.
٢- ورأي آخر لا يرى ضرورة ذلك، ويرى أنّ التماسك الدلالي والتداولي، أو ما يصل إلى المتلقّي على شكل قيمة منسجمة هو المهم.
ولعلّ (هاليداي) ورقية حسن ممّن يميل إلى الرأي الأول، وأقول: «لعلّ» لأنّهما لم يصرّحا بشيء كهذا بوضوح، لكنّ تركيزهما على الترابط اللفظي الملحوظ، وعدم إعطائهما انتباهًا كبيرًا للارتباط المعنوي غير الملفوظ يمكن أن يوحي لنا بما قلته، وقد يفهم من تحديد (دريسلر) للنص بأنّه «حدث تواصل مكتف بذاته»^(١)، ورؤية لـ (ثان ديك) في أنّ التشكيل التركيبى للنص هو نتاج قواعد دلالية وتداولية^(٢).
ولا ريب أنّ المتلقّي يمسك بيديه مفاتيح التماسك النحوي في النص إذا كان الموقف التواصلى ناجحًا؛ فمفهوم التماسك - كما أسلفت - مرتبط جدًا بمجال الفهم والتفسير الذي يضيفه القارئ على النص؛ فهناك فضاء للنص يبدأ بتركيبه النحوي المائل على السطح ولا ينتهي به، وهناك فضاء المتلقّي الذي يتابع امتدادات الشكل النحوي بكلّ تفاصيله، ويملاّ خلال ذلك كلّ ما يعترضه من فجوات في البنية النحوية، بواسطة إمساكه بتفاصيل البنية الدلالية، وهو يقوم بتحقيق «السمة الأساسية والقارّة في النص وهي صفة الاطراد والاستمرارية وتكون بالتواصل والتتابع والترابط بين الأجزاء المكوّنة للنص»^(٣).
ومعنى ذلك أنّ نحوي النص قادر عبر مفاتيح الدلالة والتداولية على استعادة الشكل التركيبى أو النحوي للنص الذي حقّق فعل التواصل حقًا، ويفهم من كلام صلاح فضل كذلك «أنّنا نستطيع بناء النص نحويًا بواسطة جملة المقاربات التي تجمّعت لدينا، غير مكتفين بالتحديدات اللغوية المباشرة؛ لأنّها تقتصر على مراعاة مستوى واحد للخطاب هو السطح اللغوي بكيونته الدلالية»^(٤).
إنّ بعض الدارسين يرى أنّ الاختزال والاقتصاد في تركيبة المثل مقصودان؛ وبذلك

١ - سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٤.

٢ - ينظر: ثان ديك، النص بنياته ووظائفه، ص ٦١-٦٢.

٣ - ينظر: جميل عبد المجيد، بلاغة النص: مدخل نظري ودراسة تطبيقية، دار غريب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٩، ص ١٥. مازن الوعر، تقنيات الفك والربط في الخطاب المنطوق والخطاب المكتوب: دراسة لسانية نقدية أدبية، مجلة المعرفة، (٣٢٤، ٣٢٥)، ١٩٩٠، ص ١٦٧.

٤ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ٢١٢.

فهو لا يحتمل التمدد اللغوي أو التوسع الرمزي، لكنّ هذا الاختزال يؤدّي إلى نوع من الاتساع الدلالي؛ فهو يقتصر على الحد الأدنى من المفوضات ليستقطب الثيمة بعمق، وهذا الاختزال منحه مفاتيح كينونته الإشاريّة^(١)؛ فشدة الاختزال جعلته يفتح واسعاً على باحة التأويل «فكلّما ضاقت العبارة اتّسع المعنى»^(٢)، ولا يبتعد (ديك) عن هذا الفهم؛ فهو يرى أنّ الخطاب يتعدّى حدود الجملة الماثلة؛ إذ هو تحديدات مركّبة.

ولعلّ هذا هو رأي (زتسيسلاف وأورزيناك) اللذين يذهبان إلى أنّ «النص نشاط تواصلية وليس مجرد نظام من العلامات»^(٣)، إنّ النص الحاضر هنا هو نص ذو جملة واحدة، لكنّه في تشكّله النهائي مرتبط بشروط إنتاجه ومقاصد مرسله.

ويشارك في هذا الرأي باحث آخر؛ حيث يذهب إلى أنّ نصيّة النص عند نحاته لا ترجع إلى اعتباره وحدة بنيائيّة تتكوّن من جمل وتعابير، بل ترجع إلى اعتباره وحدة اتصاليّة أو وحدة موضوعيّة تؤدّي وظيفة إخباريّة في عمليّة الاتصال^(٤).

وظاهر كلام عبد الله إبراهيم يوحى بأنّ المتلقّي يقوم بترتيب النص منطقياً، وذلك عن طريق استنطاق الدوال، وترتيب الأدلّة وإخضاعها لنظام من العلاقات في حالتي الإرسال والتلقّي، وأنّ هذا الترتيب المنطقي هو الذي يضفي على مكوّناته دلالات مسؤولّة عن استقامة النص وانسجامه^(٥)، وهو رأي حميد لحمداني كذلك في هذا الخصوص^(٦).

وتصر (إديث كيرزوف) على أنّ البحث عن انسجام النص لا يكمن في البحث داخل علاقات اللغة والانغماس في اللغة وحدها والإعلاء من فكرة الدال، بل إنّ الانسجام يبحث عنه عبر مقتضيات السياق وقابليّة المتلقّي للفهم والتأويل^(٧).

١- ينظر: عشتار داود محمد، الإشارة الجمالية في المثل القرآني، ص ٣١.

٢- ينظر: وليد منير، النص القرآني من الجملة الى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧، ص ٧١.

٣- سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١١٧.

٤- ينظر: خالد جمعة، نظرية النص بين التنظير والتطبيق، ص ٥١٢.

٥- ينظر: عبد الله إبراهيم، السردية العربية، ص ٤٦.

٦- ينظر: حميد لحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، ص ٤٣.

٧- ينظر: ادبث كيرزوف، عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، ص ٩٨.

وقد يفهم من بعض كلام (بيوجراند) و(درسلر) أننا يمكن أن نفهم النصية مع تجاوزنا للشكل اللغوي المائل على السطح، أي الوصول إلى أفقه التواصل عبر قصدية المرسل ومقبولية المتلقي^(١). إن الجملة المائلة على السطح وحدة نحوية؛ لكنها بامتداداتها الدلالية والتواصلية تشكل نصاً؛ ف«النص ليس وحدة نحوية أوسع، أو مجرد مجموع جمل، أو جملة كبرى، وإنما هو وحدة من نوع مختلف، وحدة دلالية، الوحدة التي لها معنى في سياق»^(٢).

وحدود النص ليست كما تظهر في بنيته السطحية الظاهرة، وإذ أسعى إلى إعادة بناء النص في تشكيله النحوي المكتمل نسعى للوقوف على الوحدة النصية المتصلة بالسياق؛ فالنص -كما أعتقد- «ليس مجرد شكل نحوي مختلف، بل هو تفاعل للوظائف والعلاقات»^(٣) -بتعبير (بيوجراند)- وإذا سلم الباحث بأن «كل بنية إشارية تنقل معنى محدداً أو مكتملاً هي نص»^(٤)، فإن الهدف من إعادة بناء النص لغوياً هو التقاط هذه البنية الإشارية، ومن ثم الوصول إلى المعنى المحدد للنص.

ولعل الباحث يخلص من كل ذلك إلى أن متلقي النص يقوم بعملية بناء النص منطقياً، بإمساكه بخيوط موقف التواصل، واستنطاق الدوال وربطها بالمقام، ويعينه في ذلك خبرته اللغوية في هذا الضرب من النصوص، ومن ثم يبدو النص متماسكاً في ذهنه، وإن ليس بصورته اللغوية المحضة الخاضعة لمقتضيات النحو في مظهرها الشكلي، ومن ثم فإن المتلقي ليس بحاجة إلى إعادة بناء النص نحوياً، أما محلل النص أو محلل الخطاب فلربما يلزمه إعادة بناء النص نحوياً بما يتوافر له من بيانات عن موقف التواصل، وبكل ما أوتي من أدوات معرفية وإجرائية تعينه في عملية التحليل. وفيما يتصل بالنص ذي الجملة الواحدة أرى أنه يمكن إعادة بناء نص المثل نحوياً؛ أي بصورته المكتملة لغوياً إذا زود ببيانات موقف التواصل الذي استخدم فيه «المثل» في إنتاجه المتجدد، أما من غير ذلك فإن بناء النص يقوم على محض الافتراض، وهو مجرد سيناريو مفترض قابل للتغيير مع توافر بيانات موقف الاتصال، وسأمثل لهذين النوعين من النصوص في النموذج التطبيقي، أي:

١ - ينظر: Beaugrand & Dressler, P. 145.

٢ - جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة واللسانيات النصية، ص ٦٨.

٣ - بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٨٨-٩٦.

٤ - ميخائيل خرابتشنكو، طبيعة الإشارة الجمالية، ص ٢٨-٢٩.

- ١- نماذج لنصوص من الأمثال ذكرها الميداني، ولم يورد إلا نصّها وفيها تُضرب، وقد يكون أورد قصة إنتاجها الأول أو لا يكون، ولم يذكر أيّ شيء عمّن تمثّل بها بعد ذلك. وسأطلق عليه اسم «المثل في سياق تواصل افتراضي».
- ٢- نماذج لنصوص من الأمثال ذكرها الميداني وأورد شيئاً عن قصّة إنتاجه الأوّل وأوّل من قاله، ثم يذكر قصّة أخرى لمن تمثّل به بعد ذلك. وسأطلق عليه اسم «المثل في سياق تواصل حقيقي».
- أمّا الآليّات والخطوات المتّبعة في إعادة البناء النحوي للنص -فيما أراه- فهي:
- ١- استكمال الشكل التركيبي للجملة الماثلة على السطح بوصفها جملة واحدة، عن طريق استرجاع المحذوف فيها إن كان فيها حذف.
- ٢- إعادة بناء النص باستكمال جملة المضمّنة والمحذوفة، وملء الثغرات البنيويّة فيه، وصولاً إلى ما يمكن أن أسمّيه بالنص الغائب في صورته النهائيّة، آخذاً بعين الاعتبار تفاصيل الموقف التواصلي جميعاً.
- والهدف من هذا الوصول إلى «النص» بصورته المكتملة والنهائيّة، ومن ثم إمكانيّة وصفه وتحليله وفهم السيورة التي تمثّل بها التماسكان: الدلالي والتداولي في شكل بناء لغوي متّسق ومنسجم ومتناسك نحويّاً.

نماذج تطبيقية:

أ- إعادة بناء نص المثل في سياق تواصل افتراضي:

النموذج الأوّل:

تحت الرقم (١٢٦٤) أورد الميداني مثلاً على النحو الآتي:

الْخُرُوفُ يَتَقَلَّبُ عَلَى الصُّوفِ^(١).
يُضْرَبُ لِلرَّجْلِ الْمَكْفِيِّ الْمُؤَنِّ

ومعنى هذا أنّ الميداني اكتفى بذكر صيغة المثل، وفيها يُضرب، ولم يذكر قصّة إنتاجه الأوّل،

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٢٦٤) ج ١، ص ٣٦٤.

ولم يذكر الشرح المعجمي؛ لأنَّ صيغة المثل بسيطة لا غريب فيها، أمَّا البنية سطحيَّة للنص «المثل» فأتتلف من جملة واحدة ولا حذف فيها، وإذا كان المتلقي لا يستطيع أن يتخيَّل موقفاً تواصلياً بتفاصيله كلّها فإنَّه يستطيع تمثّل موقف تواصلٍ بصورته العامّة. إنَّ هذا المثل يُضرب «للرجل المكفّي المؤن»^(١)، وللمتلقي أن يتصوّر المرسل يخاطب شخصاً يطلب أشياء من الآخر، ويظنّ أنّ تحقيقها متاح سهل ميسور؛ ذلك أنّه يتمتّع بمزايا وأوضاع جعلته مكفي المؤونة من جهة ما يطلبه، فيما الآخر مفتقر إليها يعسر عليه تحصيلها؛ فيقول له المرسل: «الخروف يتقلّب على الصوف».

ومن الممكن أن يُنشئ محلّلو النصوص سيناريوهات أخرى تقترب من هذا الموقف التواصليّ أو تبتعد، ثم يقوموا بإجراء قراءاتهم وفقها، لكنّ هذا السيناريو مقبول جداً في ضوء البنية الكبرى الكلّيّة والغرض الماثّل في النصوص، ويمكن استخراج البنية الكبرى الكلّيّة وفقاً للآليّات المقترحة قبلاً في عنوان: «البنية الكلّيّة الكبرى» للنص ذي الجملة الواحدة على النحو الآتي:

- ١- الخروف يتقلّب على الصوف.
 - ٢- الخروف يتخيَّل أنّ جميع من حوله أو ما حوله يتقلّبون مثله على الصوف.
 - ٣- الكائن الآخر لا صوف له يتقلّب عليه.
 - ٤- الخروف لا يمكنه الإحساس بشعور الكائن الآخر؛ لأنَّه يتقلّب على الصوف، ويظنّ أنّ الآخر يتقلّب مثله كذلك.
 - ٥- يطلب الخروف من الكائن الآخر أشياء صعبة، فيما هو يتقلّب على صوفه أو في صوفه. ويأعمال قواعد الحذف والتعميم يمكن الوصول إلى البنية الكلّيّة الآتية:
- الخروف الذي يتقلّب على الصوف لا يمكنه الإحساس بشعور من لا يتقلّبون على الصوف مثله.

وبمزيد من التعميم على صياغة العبارة لتشكّل ضرباً من التراكيب القابلة للسيرورة تصبح العبارة: مكفيّ المؤونة لا يمكنه التعاطف الحقيقي مع غير مكفيّ المؤونة؛ لأنَّه غير قادر على الشعور بإحساسه.

وفي ضوء هذه البنية وهذا الفهم يمكن تمثّل غرض النص، وهو تنبيه المتلقي إلى الكفّ

١- الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٣٦٤.

عن مطالب لا يحسّ هو بصعوبة القيام بها؛ لأنّه مكفّي المؤونة من جهات شتى، وهذا العرض فيه تنبيه من جانب، وتوبيخ من جانب آخر، وإقناع من جانب ثالث؛ أمّا التنبيه والتوبيخ فواضحان، وأمّا الإقناع فهو إقناعه بأنّ عدم تلبية الناس لمطالبه مردّه عدم اقتدارهم على الوفاء بمستلزماتها، وليس عدم رغبتهم في ذلك، ولأنّه غافل عن هذا بسبب اقتداره واكتفائه فإنّ فهمه الصحيح لواقع حالهم قد غاب تمامًا. إنّ غرض النص ومقصده يفهman بواسطة اللغة والأحداث الكلاميّة الماثلة في النص من جانب، وهذه وجهة نظر (برينكر)^(١)، ومن بنية النص الكبرى من جانب آخر، ومن آفاق الموقف التواصلّي كذلك. وبعد تحديد البنية الكبرى الكلّية، وغرض النص يمكن لمحلّل النص أن يعيد تمثّل الموقف التواصلّي في شكله اللغوي على النحو الآتي:

الْخُرُوفُ يَتَقَلَّبُ عَلَى الصُّوفِ، وَمِنْ يَتَقَلَّبُ عَلَى الصُّوفِ
أَنِّي لَهُ أَنْ يَشْعُرَ بِالْآخِرِ الَّذِي لَا صُوفَ لَهُ يَتَقَلَّبُ عَلَيْهِ؟!

وهذا هو النص المتخيّل في بنيته السطحيّة المكتملة، أمّا بنيته العميقة فلا يمكن الكشف عنها إلا بعد استخراج خارطة بنيته الإحاليّة.

النموذج الثاني: المثل رقم: (٤٤٢٩):

تحت هذا الرقم أورد الميداني المثل: «وَحْيٍ فِي حَجَرٍ»^(٢)، وأورد بعد النص ما يأتي:

وَحْيٍ فِي حَجَرٍ
الْوَحْي: الكتابة. يضرب عند كتمان السر.
أَي سِرِّكَ وَحْيٍ فِي حَجَرٍ؛ لِأَنَّ الْحَجَرَ لَا يُخْبِر أَحَدًا بِشَيْءٍ، أَي أَنَا مِثْلُهُ.

١ - ينظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ص ١٠٩.

٢ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٤٤٢٩) ج ٣، ص ٣٧٣.

وواضح من هذه البيانات أنه لم يرفق قصّة الإنتاج الأوّل للمثل، واكتفى بتوضيح الكلمات الصعبة، وفيما يُضرب هذا المثل، وأوّل الجزء المحذوف من الجملة وهو المبتدأ «سرك»، وعلّل اختيار الحجر ليكون وعاء للظرفيّة.

ثم يجتهد الميداني في تأويل البنية الإحاليّة حين قال: «أي أنا مثله». وهذا النص يأتلف من جملة اسميّة بسيطة وفيها حذف؛ حيث حذف المبتدأ الذي قدره الميداني بـ «سرك».

ويكون بهذا قد كفى الباحث مؤونة الإجراء الأوّل، وهو استكمال عناصر الجملة السطحيّة الماثلة، أمّا البنية الكبرى الكليّة فتُستخرج عن طريق التعميم والحذف وفقاً لقواعد (ثان ديك)، فتكون جمل النص المضمّنة والمحذوفة والموجودة على النحو الآتي:

١- سرك وحي في حجر.

٢- الحجر غير قادر على النطق والإخبار.

٣- سرك إذاً في أمان.

وبذلك تكون البنية الكبرى الكليّة لهذا النص:

سرك محفوظ كما لو كان وحيًا في حجر.

أمّا غرض النص فهو بثّ الطمأنينة في نفس المتلقّي (صاحب السر) بأنّ سرّه في أمان، وأنّ المرسل خير من يؤتمن عليه.

وفي ضوء البنية الكليّة الكبرى والغرض، يمكن للمتلقّي رسم السياق التواصلّي الذي احتضن هذا النص، فيتخيّل شخصاً يريد أن يبوح بسرّ ما للمرسل، لكنّه متخوّف من كشف هذا السرّ وإشاعته، فيتلقّى تظميناً وضماناً من المرسل على شكل «مثل» قائلاً: «وحيّ في حجر».

وحذف المبتدأ فيه مزيد من التظمين للمتلقّي، وكأنّ السرّ أصبح منذ اللحظة سرّاً، فلم يبح حتى بالكلمة الدالّة عليه.

وفي ضوء هذا السيناريو المفترض لموقف التواصل الذي أنتج هذا المثل في سيرورة إنتاجه المتجدّد، يُستخلص النص في بنيته اللغويّة المكتملة على السطح:

اطمئن بالآ فسرك محفوظ عندي
كما لو كان وحيًا في حجر

النموذج الثالث:

تحت الرقم (٨٣٠) أورد الميداني المثل الآتي:

جَلَىٰ مُحِبُّ نَظْرُهُ^(١).

يُضْرَبُ لِمَنْ يَحْسِنُ النَّظَرَ إِلَىٰ أَحِبَّاهُ، مِنْ «جَلَوْتُ الْعُرُوسَ» إِذَا حَسَّنَتْهَا، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ:
وَمِنْهُ قَوْلُ زَهِيرٍ:

فَإِنْ تَأْكُ فِي صَدِيقٍ أَوْ عَدُوٍّ تُخَبِّرُكَ الْعَيُونُ عَنِ الْقُلُوبِ

وَيُرْوَى «جَلَىٰ مُحِبًّا نَظْرُهُ» أَيَّ أَوْضَحَ مُحِبَّتَهُ نَظْرُهُ إِلَيْكَ أَوْ نَظَرَكَ إِلَيْهِ، وَالْمَصْدَرُ يَصْلُحُ أَنْ
يُضَافَ إِلَى الْفَاعِلِ وَإِلَى الْمَفْعُولِ أَيْضًا.
يُضْرَبُ فِي حُبِّ الْقَوْمِ وَبَغْضِهِمْ.

ومعنى هذا أنَّ الميداني اكتفى بذكر صيغة المثل، وتعليق أبي عبيد على هذا المثل، كما ذكر روايته: «جَلَىٰ مُحِبُّ نَظْرُهُ» و«جَلَىٰ مُحِبًّا نَظْرُهُ»، وفيما يُضْرَبُ، ولم يذكر قصَّة إنتاجه الأوَّل. ويلحظ أنَّ صيغة المثل بسيطة لا تحتاج إلى شرح معجمي، وهي تأتلف من جملة فعلية واحدة لا حذف فيها، وللمتلقي أن يتصوَّر صورة عامَّة للموقف التواصلِي الذي يُضْرَبُ فيه هذا المثل؛ فالمرسل يستقبل المخاطب الذي حضر بعد غياب إلى بيت المرسل أو إلى قومه، وأخذ المخاطب يتأمل أهل هذا البيت أو أفراد القوم، ويدقُّ النظر في كلِّ واحد منهم، فيقول المرسل تعليقًا على ما قام به المخاطب: «جَلَىٰ مُحِبُّ نَظْرُهُ». وقد استطاع المرسل بمراقبته الدقيقة لنظرات المخاطب أن يكشف عن حبِّ هذا المخاطب أو بغضه له ولقومه. ويعدُّ هذا السيناريو أحد السيناريوهات المقبولة في هذا المثل في ضوء بنيته الكلية الكبرى،

١ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٨٣٠) ج ١، ص ٢٤٥-٢٤٦.

- والغرض الذي وُضِّحه الميداني، ويمكن استخراج البنية الكبرى الكلية لهذا المثل عن طريق التعميم والحذف وفقاً لقواعد (ثان ديك)، على النحو الآتي:
- ١- المرسل يسمح للمخاطب بالنظر والتأمل.
 - ٢- المخاطب يأخذ وقتاً كافياً وهو يجول بنظره.
 - ٣- المرسل يراقب المخاطب في نظراته.
 - ٤- المرسل استطاع أن يكشف عن تصوّر المخاطب لأهل المرسل أو لقومه.
- وبإعمال قواعد الحذف والتعميم يمكن الوصول إلى البنية الكلية الآتية:

نظرة الإنسان تكشف عن حبه أو بغضه

وفي ضوء هذه البنية وهذا الفهم يمكن تمثّل غرض النص، وهو إشعار المحبّ أنّ الآخر (المحسوب) يستشعر عواطفه ومحبّته، وأنّ الجو كلّ مليء بالمحبّة والصفاء، وأنّ العيون تفضح المشاعر جميعاً.

النموذج الرابع: المثل رقم: (١١٤٣):

تحت هذا الرقم أورد الميداني المثل: «حَسًّا وَلَا أُنَيْسَ»^(١)، وأورد بعد النص ما يأتي:

حَسًّا وَلَا أُنَيْسَ

أي مواعيد ولا إنجاز، مثل قولهم "جَعَجَعَةً وَلَا أَرَى طِخْنًا"
أي أسمع حسًّا، والحسُّ والحسيس: الصوتُ الخفي.

وواضح من هذه البيانات أنّ الميداني لم يرفق قصّة الإنتاج الأوّل للمثل، واكتفى بذكر المعنى الذي يرمي إليه المثل، وهو قوله: أي مواعيد ولا إنجاز، وأوّل الجزء المحذوف من الجملة وهو الفعل «أسمع»، وذكر معنى الحس والحسيس، مبيناً أنّ هذا المثل يشبه قولهم «جَعَجَعَةً وَلَا أَرَى طِخْنًا»، ويلفت هنا هذا النوع من الإحالة، وهو الإحالة إلى نص آخر مشابه في

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١١٤٣) ج ١، ص ٣٢٨.

الغرض، ومثابه في البنية الكبرى الكلية، وهي نوع من الإحالة لم يُدرس ولم يُشر إليه علماء النص.

وهذا النص يأتلف من جملة فعلية بسيطة وفيها حذف؛ حيث حذف الفعل الذي قدره الميداني بـ «أسمع»، ولهذا الفعل فاعل مستتر تقديره «أنا»، وبذلك تكون الجملة السطحية لهذا المثل: أسمع حسًا ولا أنيس.

أمّا البنية الكبرى الكلية لهذا المثل فأستخرجها عن طريق التعميم والحذف وفقًا لقواعد (ثان ديك)، فتكون جمل النص المضمّنة والمحدوفة والموجودة على النحو الآتي:

- ١- المخاطَب يتّفق مع المرسل لإنجاز أمر ما.
 - ٢- المخاطَب يعدّ بإنجاز هذا الأمر في وقت محدّد.
 - ٣- المخاطَب لم ينجز وعده، ويكتفي بالكلام والقول عن إنجازات لا وجود لها.
 - ٤- المرسل يغضب من فعل المخاطَب.
- وبذلك تكون البنية الكبرى الكلية لهذا النص:

الأمور بمنجزاتها لا بكَيْل الخطاب حول إنجازها

أمّا غرض النص فهو حثّ المخاطَب على الصدق في إنجاز الأمور التي يعدّ بالقيام بها، في الوقت المحدّد لذلك، وأن يبذل طاقته وجهده في سبيل ذلك؛ فهذا الأمر إنّ تمّ شاع الناس عنه الصفات المحمودة، ممّا يؤدّي إلى ثقة الناس بهذا المخاطَب.

ومن جانب آخر يمكن أن يكون غرض المرسل تنبيه المخاطَب بأنّه إن تخلف عن إنجاز شؤونه في وقتها، فإنّ السمعة السيئة هي التي ستنتشر عنه بين الناس، ممّا يؤدّي إلى فقد ثقتهم به.

وبذا يستطيع المتلقي أن يرسم السياق التواصلي الذي احتضن هذا النص، فيتخيّل أنّ المرسل أوعز للمخاطَب بإنجاز أمر ما في وقت محدّد، ووافق الطرفان على ذلك، لكنّ الذي حصل أنّ المخاطَب لم يُنجز الأمر المتفق عليه في وقته، وأخلف وعده، وأخذ يقدّم الوعود تترى للمرسل بأنّه سيقوم بذلك الأمر، ولكن دون أيّ فعل حقيقي، ممّا يُزعج المرسل، ويجعله يطلق المثل: «حسًا ولا أنيس»؛ تعبيرًا عن غضبه من تصرّفات المخاطَب.

وحذف الفعل والفاعل في بداية النص فيه لفت انتباه المتلقي إلى كثرة وعود المخاطب، وفيه دلالة أيضًا على غضب المرسل؛ مما جعله ينطق بالمفعول به مباشرة دون الفعل والفاعل. وفي ضوء هذا السيناريو المفترض لموقف التواصل الذي أنتج هذا المثل في سيرورة إنتاجه المتجدد، يُستخلص النص في بنيته اللغوية المكتملة على السطح:

أسمع حسًا عن إنجاز الوعد
ولا يوجد ألبته أنيس لثمارها

ب- إعادة بناء المثل في سياق تواصل حقيقي:

نموذج تطبيقي (١):

أورد الميداني تحت الرقم ٣١ نص المثل^(١):

إِنَّ بَنِي صَبِيَّةٍ صَفِيُّونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رَبِيعُونَ

ثم قال: يُضرب في التندّم على ما فات.

يقال: أَصَافَ الرجلُ، إذا وُلد له على كبر سنه، وولده صَفِيُون، وَأَرَبَعَ الرجل إذا وُلد له في فتاء سنه، وولده رَبِيعُونَ، وأصلها مستعار من نتاج الإبل؛ وذلك أن رَبِيعَةَ النَّجَّاجِ أولاه، وَصَفِيَّته أخراه، فاستعير لأولاد الرجل.

يقال: أول من قال ذلك سعد بن مالك بن صُبَيْعَة، وذلك أَنَّهُ ولد له على كبر السن، فنظر إلى أولاد أَخَوَيْهِ عمرو وعَوْف، وهم رجال، فقال البيهقي، وقيل: بل قاله معاوية بن قُشَيْر، ويتقدمها قوله:

لَبَّثَ قَلِيلًا يَلْحَقِي الدَّارِيُّونَ أَهْلُ الْجَبَابِ الْبُدُنُ الْكَفِيُّونَ
سَوْفَ تَرَى إِنْ لَحِقُوا مَا يُبْلُونَ إِنَّ بَنِي صَبِيَّةٍ صَفِيُّونَ

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٣١) ج ١، ص ٢٣-٢٤.

وكان قد غزا اليمن بولده فُقْتُلوا ونجا وانصرف ولم يبق من أولاده إلا الأصاغر، فبعث أخوه سَلَمَةُ الخير أولاده إليه، فقال لهم: اجلسوا إلى عمكم وحَدِّثوه ليسلو، فنظر معاوية إليهم وهم كبار وأولاده صغار، فساء ذلك، وكان عِيُونًا فرَدَّهم إلى أبيهم مخافة عينه عليهم وقال هذه الأبيات.

وحكى أبو عبيد أنه تمثل به سليمان بن عبد الملك عند موته، وكان أراد أن يجعل الخلافة في ولده فلم يكن له يومئذ منهم مَنْ يصلح لذلك إلا مَنْ كان من أولاد الإماء، وكانوا لا يَعْقِدُونَ إلا لأبناء المَهَائِر^(١)، قال الجاحظ: كان بنو أمية يرون أن ذهاب ملكهم يكون على يد ابن أم ولد، ولذلك قال شاعرهم^(٢):

ألم تَرَ للخِلافةِ كَيْفَ ضَاعَتْ بأنْ جُعِلَتْ لأَبْنَاءِ الإِمَاءِ

ويلاحظ أن نص الميداني قد اشتمل على البيانات الآتية:

- ١- فيما يُضرب المثل «يُضرب في التندّم على ما فات».
 - ٢- الشرح المعجمي لكلمات المثل، وهو مهم في فهم النص.
 - ٣- قصة الإنتاج الأوّل للمثل وفيها خلاف؛ فقد ذكر قَصَّتَيْنِ للمثل؛ الأولى أن أول من قاله: سعد بن مالك بن ضُبَيْعَة في حادثة معيّنة، والثانية أن أول من قاله: معاوية بن قشير. وهذا يعني أن إحداهما هي قِصّة المثل الحقيقيّة وسياقه التواصلي الأوّل، والثانية هي إنتاج متجدّد للمثل، ومعنى ذلك أن وجود بنية كبرى كليّة في موقفين تواصليّين متشابهين قد تنتج نصًّا واحدًا ومتشابهًا.
 - ٤- قصة تمثّل بهذا المثل، وهي بالضرورة تمثّل إنتاجًا متجدّدًا للمثل، وأسندها لسليمان بن عبد الملك عند موته، وهذا السياق التواصلي هو ما ستحدث عنه هنا، وسأسعى إلى إعادة صياغة الموقف بلغتي الخاصة، وفق هذا السيناريو:
- أراد سليمان بن عبد الملك أن يجعل الخلافة في ولده، لكنّه حين حضرته الوفاة لم يكن له يومئذٍ منهم من يصلح لذلك إلا من كان من أولاد الإماء، وكانوا لا يَعْقِدُونَ إلا لأبناء المَهَائِر فقال متحسّرًا لمن حوله:

١- الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٢٣-٢٤. المهائز: غالية المهر. ج ١، ص ٢٣.

٢- المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣-٢٤.

إِنَّ بَنِي صَبِيَّةٍ صَيِّفِيُونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُونَ

هذا هو الموقف التواصلّي المتجدّد الذي أنتج هذا النص / المثل، أمّا بنيتة الكبرى فتستخرج على النحو الآتي:

- إِنَّ بَنِي صَغَارٍ لَمْ يَشْبُوا عَنْ الطُّوقِ إِذْ أَنْجَبْتَهُمْ عَلَى كِبَرِ سَنِي.
 - مَنْ يَرْزُقُ الْأَوْلَادَ فِي فَنَاءِ سَنَةٍ يَجِدُ نَفْعَهُمْ وَخَيْرَهُمْ.
 - أَنَا لَنْ أَقْتَدِرَ عَلَى الْإِنْتِفَاعِ بَوْلَدِي لِأَنَّهُمْ لَا يَصْلَحُونَ لِهَذَا الْأَمْرِ؛ فَهَمْ صَغَارٌ أَحْدَاثِ السَّنِ.
- وبإعمال قواعد (ديك) نخلص إلى أنّ البنية الكبرى لهذا النص هي:

الشعور بالندم لضياح الجهد فمن ينبجأ أبناءه
على كبر سنّه لن يقتدر على الانتفاع بخيرهم

أمّا غرض النص فهو إظهار الندم.
وبإعادة كتابة النص مكتماً في شكله اللغوي، وفي ضوء السياق التواصلّي الحي الذي أنتج فيه أقول: قال سليمان بن عبد الملك عندما حضرته الوفاة:

أشعر بالندم والخسارة لضياح الخلافة؛ فليس من بين أبنائي من
يصلح لها وحالي كحال القائل:
إِنَّ بَنِي صَبِيَّةٍ صَيِّفِيُونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُونَ

ويلاحظ أنّ الآليّات المستخدمة في استخراج البنية التركيبية المكتملة للنص في سياقه التواصلّي الافتراضي، لا تختلف كثيراً عنها في سياقها الحقيقي إلا أنّ الأخيرة أكثر تحديداً؛ بسبب وجود حالة ماثلة حقيقية يجري التعبير عنها.

نموذج تطبيقي رقم (٢):

أورد الميداني تحت الرقم ١٥٦٨ نص المثل^(١):

رَجَعَ بِخُفْيٍ حُنَيْنٌ

ثم قال: «قال أبو عبيد: أصله أن حُنيْنًا كان إسكافيًّا من أهل الحيرة، فساوَمَه أعرابي بخُفَيْنٍ، فاختلفا حتى أغَضَبَه، فأراد غِيْظَ الأعرابي، فلما ارتحل الأعرابي أخذ حنينٌ أحد خفيه وطَرَحَه في الطريق، ثم ألقى الآخر في موضع آخر، فلما مرَّ الأعرابي بأحدهما قال: ما أشبه هذا الخُفَّ بخف حنين ولو كان معه الآخر لأخذته، ومضى، فلما انتهى إلى الآخر نَدِمَ على تركه الأول، وقد كَمَنَ له حنينٌ، فلما مضى الأعرابي في طلب الأول عمد حنينٌ إلى راحلته وما عليها فذهب بها، وأقبل الأعرابي وليس معه إلا الحُقَّان، فقال له قومه: ماذا جئت به من سفرك؟ فقال: جئتكم بخُفْيٍ حُنين، فذهبت مثلاً.

يُضْرَب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة.

وقال ابن السكيت: حنين كان رجلاً شديداً ادَّعى إلى أسد بن هاشم بن عبد مناف فأتى عبد المطلب وعليه خُفَّانِ أحمران فقال: يا عم أنا ابنُ أسد بن هاشم، فقال عبد المطلب: لا وثياب ابن هاشم، ما أعرف شمائل هاشم فيك، فارجع، فرجع، فقالوا: رجع حنين بخفيه، فصار مثلاً».

ويُلاحظ أن نص الميداني قد اشتمل على البيانات الآتية:

١- فيما يُضْرَب به المثل: «يُضْرَب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة».

٢- قصة الإنتاج الأول للمثل وفيها خلاف؛ فقد ذكر الميداني قصَّتَيْن للمثل؛ الأولى تشير إلى أن حُنيْنًا كان إسكافيًّا من أهل الحيرة، والثانية تشير إلى أن حُنيْنًا كان رجلاً شديداً ادَّعى إلى أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهذا يعني أن إحداها هي قصَّة المثل الحقيقية وسياقه التواصلية الأول، والثانية هي إنتاج متجدد للمثل، ومعنى ذلك أن وجود بنية كبرى كلية في موقفين تواصليين متشابهين قد تنتج نصًّا واحدًا ومتشابهًا.

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٥٦٨) ج ٢، ص ٣٧.

ولعلّ القصة الأولى التي أوردها الميداني على لسان أبي عبيد تمثل سياقًا تواصليًا واضحًا، يمكن أن أصوغه بلغتي الخاصّة، وفق هذا الساريو:
أقبل أعرابي على أحد الإسكافيين من أهل الحيرة لشراء خفّين، فأخذ الأعرابي بمساومة هذا الإسكافي واسمه حنين، فاختلغا حتى غضب البائع حنين من بخل الأعرابي، وشدة مساومته.

فشعر حنين بضرورة الانتقام من هذا الأعرابي، فرمى الخفّين في موضعين متنافرين في طريق الأعرابي، حتى إذا مرّ الأعرابي بالطريق شاهد الخفّ الأول، فتركه ومضى، ثمّ شاهد الخفّ الثاني بعد مسافة طويلة، فقرر ترك الراحلة وما عليها حتى يجمع الخفّين، فاعتنم حنين الفرصة وأخذ الراحلة وما عليها، أمّا الأعرابي فلم يظفر إلا بالخفّين.

هذا هو الموقف التواصلّي الذي أنتج هذا النصّ/ المثل، أمّا بنيتة الكبرى فتستخرج على النحو الآتي:

- الأعرابي رجل بخيل يساوم في كلّ شيء.
 - الأعرابي يفرط بالكثير «الراحلة وما عليها» من أجل القليل «الخفّين».
 - الأعرابي يندم على بخله وسوء تقديره للأمور.
 - حنين ينتقم من الأعرابي، ويشفي غليله منه.
- وبإعمال قواعد (ديك) أخلص إلى أنّ البنية الكبرى لهذا النص هي:

الندم لا يُعيد ما فات من الأمور

أمّا غرض النصّ فهو إظهار الحسرة والندم على سوء التقدير.
وبإعادة كتابة النصّ مكملاً في شكله اللغوي، وفي ضوء السياق التواصلّي الحي الذي أنتج فيه أقول: قال الأعرابي لما رجع إلى قومه:

أشعر بالندم والحسرة لشدة بخلي وسوء تقديري للأمور

إنَّ من أهمِّ وظائف نحو النص «وصف عمليَّة الاتصال الفعلي الذي يتمُّ عبر النص»^(١)، وقد تبيَّن أنَّ إمساك المتلقِّي بالبنية الكلية الكبرى للنص، والوقوف على غرضه وبواسطة البنية الظاهرة تمكَّنه أن نعيد بناء النص، وتمثِّل سيناريوهات قد تشكِّل سياقه التواصلية. إنَّ ما سبق أن قمت به هو ترجمة لفكرة انسجام النص التي تقوم على الترابط الفكري أو المفهومي للنص، وتختص كذلك بالاستمراريَّة الدلاليَّة بين الأجزاء المشكَّلة للنص، ورصد الترابط في عالم النص، وهو يُعنى بالطرق التي يكون بها عالم النص مترابطاً مبنياً كلَّ جزء فيه مستند إلى الآخر، وفيما يتَّصل بالمثل فإنَّ العلاقات الرابطة بين المفاهيم ليست متمثلة صراحة في النص «أي إنَّها لا تحظى باستشارة مباشرة من خلال تعبيرات ظاهر النص، وإنَّها يقوم المتلقِّي بإمداد ما يلزم من العلاقات لاستخراج المعنى من النص»^(٢).

إنَّ العلاقة القائمة بين القائل والمتلقِّي والنص لها الأثر الأوسع في ترتيب النص منطقياً، وهي التي تضيف على مكوّناته دلالات مسؤولّة عن استقامة النص تركيبياً وانسجامه دلاليّاً، «إنَّ الانسجام النصّي لا يتوقف على المكوّنات اللغويّة، وإنَّها يتولّد عن العلاقات الداخليّة فيما بينها ومن الصلة بين هذه العلاقات ومجموع محدّدات الفضاء الذي ظهر فيه، بحيث يفرز سياق الإبلاغ النص وحدة كليّة مترابطة الأجزاء ومتألّفة المضمون»^(٣).



١- سعيد بحيري، اتجاهات لغويّة معاصرة، ص ١٤٦.

٢- إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم النص، ص ٢٧.

٣- عثمان أبو زنيد، نحو النص، ص ١٧٣.

رابعاً: الحذف في النص ذي الجملة الواحدة:

الحذف علاقة اتساقية ترد في النص على المستويين المعجمي والنحوي، يهتدي فيها المتلقي إلى عناصر غير ظاهرة، ويقدرها اعتماداً على قرائن مقالية ومقامية^(١)، ويُعرّف (بيوجراند) الحذف في النصوص بقوله: «إنَّه استبعاد العبارات السطحية لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن، ومن هذا الاستبعاد يستطيع القارئ أن يتلمّس المعاني التأويلية الصحيحة للنص، معتمداً على السياق اللغوي والسياق الموقفى؛ فوجود الحذف بدرجات مختلفة يتلاءم كل منها مع النص والموقف»^(٢).

والحذف إحدى الظواهر اللغوية التي يميل الناطقون إلى اتباعها في الكلام؛ فيعتمدون على قرائن تغني عن المحذوفات التي قد تطال المقال، ويغني عنها السياق، فيعترى الحذف مكوّنات النص من جملة ومفرد وحرف وحركة ويبقى لذلك دليل عليه^(٣).

والحذف عملية لغوية تُستبعد بموجبها بعض العبارات من الظهور على سطح الكلام، ويؤدّي السياق فيها مهمة جليّة؛ إذ لا يمكن أن يُحذف شيء من الكلام إلا إذا كانت ثمة قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه وتدل عليه.

وهو علاقة داخل النص، يشكل فيها العنصر المحذوف أو المفترض علامة دلالية مع العنصر السابق عنه في النص؛ أي إنّه علاقة قبلية في النص تحدث اتساقاً بين أجزائه، حيث تكون الجمل المحذوفة أساساً للربط بين المتتاليات النصية بواسطة المحتوى الدلالي، «فإنَّك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم بياناً إذا لم تبين»^(٤).

ويرى علماء النص في الحذف علاقة داخلية تقع في النص، وتسهم في ربط أجزائه عن طريق افتراض العنصر المحذوف الذي تدل عليه عناصر لغوية سابقة أو لاحقة^(٥)؛ فقد ذكره

١ - ينظر: لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ص ١١٢.

٢ - بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٣٤٥.

٣ - ينظر: طاهر حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص ٩.

٤ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٤٦.

٥ - ينظر: محمد خطاي، لسانيات النص، ص ٢١.

(هاليداي) ورقية حسن بقولهما، هو: «علاقة داخل النص، وفي معظم الأمثلة يوجد العنصر المفترض في النص السابق، وهذا يعني أن الحذف عادة قبلية»^(١).

ويكثر الحذف في النصوص دون الجمل المنفصلة، وما يساعد على ذلك هو أن النص بناء يقوم على الاتساق والانسجام، وهذان العاملان يساعدان منسج النص على الاختصار، وعدم الإحالة بذكر معلومات فائضة^(٢).

ويشترط علماء اللغة القدماء والمُحدثون ضرورة وجود الدليل على المحذوف إمّا من لفظه أو سياقه؛ «لأنّ الدليل يعد مرشدًا للقارئ كي يهتدي إلى إيجاد المحذوف وكيفية اختيار مكان المحذوف وتقديره، ومن ثم يثير لدى المتلقّي الرغبة في إتمام النص بالحصول على العناصر المحذوفة، وتلك العناصر من بين المتطلّبات التي تهّم المتلقّي»^(٣).

إنّ عمليّة التقدير التي يقوم بها المتلقّي تُسهم في إكمال النص وملء فجواته، ممّا يؤدّي إلى حدوث تفاعل من نوع ما بين المرسل والمتلقّي قائم على الإرسال الناقص من المرسل، وتكملة هذا النقص من جانب المتلقّي^(٤).

ولا ريب أنّ ذلك فيه تحريك للمعرفة التراكميّة عند المتلقّي، وخبرته اللغويّة في معالجة النصوص المشابهة، كما أنّ فيه تفعيلاً للمشاركة بين المرسل والمتلقّي في إنتاج المعنى وتشكيله. وفكرة الحذف كما نفهمها تقوم على وجود فراغ بنيوي في النص يهتدي إليه القارئ بواسطة معرفته للبنية العليا للنص (جنس النص) وفي حالتنا (المثل)، وخبرته في التعامل معها. وكذلك عبر وقوفه على حيثيّات السياق التواصلّي أو موقف التخاطب، وعبر معرفته الذهنيّة واللغويّة بطبيعة التركيب الذي يتنظم الحذف، كما أنّ البنية الإحاليّة في النص تعين على الوقوف على المحذوفات وتقديرها.

إنّ استحضر المحذوف يجسر الفجوات ويستبدلها بعلاقات داخلية تخضع للعلاقات الخارجيّة التي يريدتها المتكلّم، فيتشكّل النص في صورته الكليّة المتجانسة.

١- محمد خطاي، لسانيات النص، ص ٢١.

٢- ينظر: صلاح الدين حسنين، الدلالة والنحو، ص ٢٥٣.

٣- صبحي الفقي، علم اللغة النصي، ج ٢، ص ٢٠٩.

٤- ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص، ص ١٢١.

إنّ الحذف ظاهرة تركيبية شائعة في المثل خصوصاً في المثل ذي الجملة الواحدة، فقد سبق أن أشرت إلى أنّ عدد الأمثال ذات الجملة الواحدة في مجمع الأمثال للميداني يبلغ (٤٦٢٢) مثلاً بينها (١٧٤٣) مثلاً يوجد فيها حذف بما يشكل ما نسبته (٣١٪).

وقد رصد الدكتور عبد الفتاح الحموز ظاهرة الحذف في الأمثال العربية بمجمع الأمثال للميداني؛ لكنّ دراسته لموضوع الحذف لم تخرج عن نطاق نحو الجملة، ولم تتعدّ الدراسة رصد العنصر التركيبي المحذوف وملاحظة الأشكال التركيبية التي يكثر حذفها منها؛ فجعل الباب الأول -مثلاً- لحذف الاسم، وجعل الفصل الأول منه لحذف المرفوعات، والفصل الثاني منه لحذف المنصوبات، والفصل الثالث منه لحذف المجرورات.

أمّا الباب الثاني فهو في حذف الحروف، والباب الثالث في حذف الجملة، وعندما يتوقع القارئ أن يكون الباب الثالث لصيقاً بنحو النص فإنه لا يجده كذلك؛ فقد جعل الفصل الأول منه لحذف الفعل وحده، وحذفه وفاعله، والثاني في حذف ما في حيّز الشرط والقسم، والفصل الثالث حذف جملة وأكثر، لكنّه لم يتناولها من وجهة نظر نصية بل بقيت المعالجة محصورة في إطار نحو الجملة.

وهي دراسة قيّمة في حيّز الإطار الذي وضعه صاحبها لها، لكنّ الحذف الذي أتحدث عنه هو تلك الخصيصة التي تسهم في الاتساق، ويجري تأويلها عبر آفاق الموقف التواصلية وبالاستعانة بالسياق.

وسأضرب لذلك أمثلة متعددة بعضها من الجمل الاسمية، وبعضها الآخر من الجمل الفعلية، وإليك بيان ذلك:

نموذج تطبيقي (١):

يشكّل حذف المبتدأ في الأمثال ظاهرة نصية بامتياز، فقد أحصى د. الحموز ٣٨٧ مثلاً في مجمع الميداني حذف المبتدأ فيها^(١).

وحصر فيها أهم مواضع حذفه وهي^(٢):

■ فيما ظاهره كون الخبر نكرة، ومنه المثل رقم ٤٢٠٣: «نابٌ وقد تقطّع الدّويّة».

١ - ينظر: عبد الفتاح الحموز، الحذف في المثل العربي، ص ٩-١٠.

٢ - ينظر: المرجع السابق، ص ١٠.

- فيما ظاهره كون الخبر نكرة مخصّصة أو معرفة، ومنه المثل رقم ١٠٤٢: «حِرَّةٌ تَحْتَ قِرَّةٍ».
- فيما ظاهره كون الخبر شبه جملة، ومنه المثل رقم ٢٤٠٠: «عَلَى يَدَيَّ عَدْلٌ».
- فيما صُدِّرَ بقاء الجزاء، ومنه المثل رقم ١٤٩: «إِنْ أَرَدْتَ الْمَحَاجِرَةَ فَقَبِّلِ الْمُنَاجِرَةَ».
- فيما ظاهره وقوع المضارع المرفوع جواباً لأداة شرط عاملة، ومنه المثل رقم ٤٠٥٨: «مَنْ يَبْغِ فِي الدِّينِ يَصْلَفُ».
- في صدر صلة الموصول، ومنه المثل رقم ٦١٣: «الْحِدَاعَ مَنْ أَجْرَى مِنْ مَائَةٍ».
- في حِيزِ نِعَمٍ أو بَسْ أو ما يعمل عملهما، ومنه المثل رقم ٤٢٥٣: «نِعَمَ الدَّوَاءُ الْأَزْمُ».
- في حِيزِ الاستفهام وجوابه، ومنه المثل رقم ٤٢٣٧: «أَنْسَبُ أَمْ مَعْرِفَةٌ؟».
- فيما ظاهره وقوع المضارع المثبت المسبوق بالواو حالاً، ومنه المثل رقم ٦٧٦: «تَفَرَّقُ مِنْ صَوْتِ الْغُرَابِ وَتَفَرِّسُ الْأَسَدَ الْمُشْتَمَّ».
- فيما ظاهره وقوع المضارع المنفي بلا والمقترن بالواو حالاً، ومنه المثل رقم ٤٦٦٦: «يَذْهَبُ يَوْمَ الْغَيْمِ وَلَا يُشْعِرُ بِهِ».
- فيما ظاهره الاستئناف، ومنه المثل رقم ٣٧٧٣: «مَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ كَالْقَيْنِ إِلَّا يَحْرِقُ ثَوْبَكَ بِشَرِّهِ أَوْ يُؤْذِيكَ بِدُخَانِهِ».
- فيما ظاهره وقوع الجملة الشرطية المصدرية بالواو حالاً، ومنه المثل رقم ١١٠٧: «الْخُرْ حُرٌّ وَإِنْ مَسَّهُ الضَّرُّ».
- فيما ظاهره اقتران الخبر بلام الابتداء، ومنه المثل رقم ٣٠١٦: «كُلُّكُمْ لِيَحْتَلِبُ صَعُودًا».
- فيما فيه (كيف) لا متعلّق لها، ومنه المثل رقم ٣٠٩٧: «كَيْفَ لِي بَأْنُ أَحْمَدَ وَلَا أَرْزَأُ شَيْئًا».
- بعد (إِذَا)، ومنه المثل رقم ٣٦٤٤: «لَا تَعْقِرْهَا لَا أَبَا لَكَ إِمَّا لَنَا وَإِمَّا لَكَ».
- في حِيزِ القول، ومنه المثل رقم ٤١٢٠: «مَنْ يَرِنًا يَقُلْ سَوَادُ رَكَبٍ».
- فيما يُسَمَّى بالتبيين، ومنه المثل رقم ٦٦٠: «تَعَسَا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ».
- فيما يجوز فيه رفع الاسم المنصوب على الإغراء أو التحذير، ومنه المثل رقم ٦٩٥: «التَّجَلَّدْ وَلَا التَّبَلَّدْ».
- فيما ظاهره حذف المشبّه وبقاء المشبّه به، ومنه المثل رقم ٤٠٧٠: «مَوَاعِيدُ عَرْقُوبٍ».
- فيما يمكن فيه أن يكون المحذوف ضمير شأن، ومنه المثل رقم ٢٦٦٨: «غَمَرَاتٌ ثُمَّ يَنْجَلِينَ».

- فيما فيه فضل وغيره أفضل منه، ومنه المثل رقم ٢٧٦٢: «فَتَى وَلَا كَمَالِكِ».
واخترت المثل رقم ٣٠٤ نموذجاً تطبيقياً لهذه الحالة التركيبية.
أورد الميداني تحت الرقم ٣٠٤ ما يلي^(١):

أَوَّلُ مَا أَطْلَعَ ضَبُّ ذَنْبِهِ

قال أبو الهيثم: يقال ذلك للرجل يصنع الخير ولم يكن صنعه قبل ذلك، قال: والعرب ترفع أول وتنصب ذنبه على معنى أول ما أطلع ذنبه، قلت: رفع أول على تقدير هذا أول ما أطلع ضب ذنبه: أي هذا أول صنيع صنعه هذا الرجل، قال: ومنهم من يرفع أول ويرفع ذنبه، على معنى أول شيء أطلعه ذنبه، ومنهم من ينصب أول وينصب ذنبه على أن يجعل أول صفة، يريد ظرفاً على معنى في أول ما أطلع ضب ذنبه".

وسأختار ما اختاره الميداني من تعيين المحذوف وتقديره، وهو أن أصل جملة المثل هي «هذا أول ما أطلع ضبُّ ذنبه»؛ أي هذا أول صنيع صنعه هذا الرجل^(٢)، وهو ما اختاره د. الحموز كذلك^(٣).

إنَّ الحذف إجراء يسهم في تكثيف نص المثل، ويزيد من الاختزال فيه، وسبق أن قلت إنَّ هذا الاختزال يسهم في تركيز الثيمة ويعطيها قدرة إضافية على السيورة والتداول^(٤). وفيما يتصل بهذا المثل فإنَّ ثيمته تتعلق بحالة غير مسبوقه من أحد المشاركين في الحدث الكلامي الذي يمثله النص، وهو في الغالب المتلقِّي ويريد المرسل أن ينبِّه على ذلك، ويصدر هذا عن استغراب المرسل ربِّها ودهشته من هذا الإنجاز، وربِّها خليط منهما. وفي مثل هذا السياق التداولي يأتي حذف المبتدأ محققاً لأكثر من غرض؛ فالمرسل يريد التركيز على الإنجاز غير المسبوق الذي حققه المتلقِّي أو المتحدِّث عنه، فهو بؤرة النص، ولربِّها قصد أن هذا الأول قد يكون له ثابن فحين يبدأ بكلمة أوَّل فإنَّ المتلقِّي يخطر له

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٣٠٤) ج ١، ص ٩٤-٩٥.

٢- المرجع السابق، ج ١، ص ٩٤.

٣- ينظر: عبد الفتاح الحموز، الحذف في المثل العربي، ص ٩.

٤- ينظر ص ١٥٥-١٥٩ من هذه الدراسة.

ثاني وثالث ورابع، وربما للتركيز على ما يعقب ذلك من أحداث، فحين أقول أول فإن الإنجازات على الطريق.

وإذا كان أول الأمر أن يطلع ضبّ ذنبه، فإن تالي الأمر سيكون أكبر وأضخم بلا شك، وكلّ هذا مرتبط بالموقف التواصل، وهل هو محمول على التوبيخ أو التهكم أو التشجيع أو الدهشة والاستغراب، أم غيره.

إنّ حذف المتبداً (هذا) وهو يشير إلى الصنعة أو الإنجاز الأول، والبدء مباشرة بالخبر (أول) فيه تجاوز من المرسل للإنجاز الحالي إلى ما يليه من إنجازات، أو إلى ما سبق من انعدام للإنجازات إذا كان الموقف من قبيل التهكم والاستهزاء، فما قبل الأول هو الصفر؛ أي أنّه لم يكن ينجز شيئاً من قبل والآن أصبح لدينا «أول».

نموذج تطبيقي (٢): حذف المبدأ في سياق أفعال التفضيل:

وهو كثير يشكّل ظاهرة نصيّة، وتبدو صيغة (أفعل) التفضيل الصيغة الأكثر حضوراً في الأمثال؛ حتى إنّ صاحب الفلك الدائر على المثل السائر عرّف المثل بقوله: «المثل يُطلق على نوعين: أحدهما ما قصد به المبالغة بلفظة أفعل...»^(١)؛ إذ تشكل هذه الأمثال نسبة مئوية عالية مقارنة بغيرها من الأمثال التي انساق في صيغ تركيبيّة أخرى، وتكاد تصل إلى خمس الأمثال الواردة في مجمع الأمثال الميداني، حتى إنّ ضمّن كلّ باب طائفة منها بلغ مجموعها ٩١٧ مثلاً. وصيغة (أفعل) تشي بأن شيئين اشتركا في صفة ما وزاد أحدهما على الآخر، وهي باب من أبواب الصرف يشترط لصياغتها أن تكون من فعل ثلاثي مجرد مثبت مبني للمعلوم متصرف غير جامد، وتام غير ناقص، ودال على التفاوت، وأن لا يصاغ من وصف على وزن أفعل مؤنثها فعلاء كما في الألوان والعيوب والصفات الجماليّة^(٢).

١- عبد الحميد بن هبة الله أبي الحديد (٦٥٦هـ)، الفلك الدائر على المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط ٢، ١٩٨٤، ٤٩.

٢- ينظر: ابن هشام، شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٤٢٧-٤٢٨، ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٣٤٧، الرضي الأسترباذي، شرح الرضي على الكافية، ج ٣، ص ٤٤٨، عبده الراجحي، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٨٤، ص ٩٤، وعبد العزيز عتيق، المدخل إلى علم النحو والصرف، دار النهضة العربيّة، ط ٢، ١٩٧٤، ص ١٠٠-١٠١.

ولا يتوفر وزن أفعل في وظائفه المختلفة (التفضيل واللون والجمال والعيب) في أيّ من اللغات السامية، فهو «مُرتجل في العربية جديداً، فأفعل إذا كان للتفضيل، هو أكثر تخصيصاً وتحديداً من بين سائر أبنية الاسم، فاخترع العربية له ممّا يسهّل تركيب الجملة، والتعبير عن الأفكار المشكّلة بالتركيبات المشتبكة، مثل ذلك: (هذا أكثر من أن يحصى)، (وأنتم أحوج إلى هذا منكم إلى ذلك)، و(لا يوجد مثلها في سائر اللغات السامية)»^(١). وقد جاءت صيغة (أفعل) لتصدر الأمثال نكرة غير مضافة، ومتلوة بحرف الجر (من) مع غياب المفضّل في سائر الأمثال من هذا النمط، ولا تكاد كثير من الأمثال تتجاوز كلمتين يفصل بينهما (من)، فيصبح المثل مؤلفاً من:

اسم تفضيل + حرف الجر (من) + المفضل منه، نحو الأمثال ذات الأرقام الآتية:

١٠٠٤ - أجود من هَرَم.

٢٠٧٤ - أشجى من حمامة.

٢٢٦٢ - أضوأ من نهار.

وبهذا يغدو المثل شديد الإيجاز والتكثيف من ناحية التركيب، واسع الدلالة بعيد الإيحاء من ناحية المعنى، ويحتاج فهمه واستقباله إلى معرفة مسبقة بقصة المثل أو سمات المفضّل منه التي عُدّت نموذجاً تضرب به الأمثال^(٢)، ويتحقّق للأمثال بذلك ما يمكن أن يُسمّى بالإيجاز التركيبي فلا يلمس أنه مقتطع من كلام أو سياق، خصوصاً أنّ اكتمال هذا التركيب يتحقق عبر استخدامه، فيظل المفضل مثلاً في تركيب (أفعل) متاحاً للتغيير، وكلّ مستخدم للمثل يملؤه بما يناسب الموقف أو المقام، أمّا المفضل منه الذي

١ - برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصحّحه وعلّق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ودار الرفاعي، القاهرة - الرياض، ١٩٨٢، ص ١٠٤ - ١٠٥.

٢ - ذكر العَلَم بهذا الشكل يضع مشكلة أمام الفهم الكامل للمثل؛ حيث يتوقف الفهم على معرفة مُسبقة بهذا العَلَم، وما يتسم به في مجال الصفة موضع المقارنة؛ وذلك حتى يفقه معنى المثل جيداً، سواء بالنسبة للمرسل أم المتلقي؛ صحيح أنه إذا قيل: (أنجب من عاتكة رقمه ٤٢٩٦) يمكن - دون معرفة بالخلفيات الواقعية للمثل - تصوّر امرأة تسمى عاتكة كثيرة الإنجاب، أو أنها أنجبت أبناء نجباء تفخر بهم، ولكن إذا كان مستعملو المثل يجهلون من هي عاتكة بالفعل وما صفاتها، فمن يدري أن الاستعمال ليس معكوساً، بمعنى أن المراد به التهكم وليس الإجلال، فقد تكون عاتكة هذه غير ولود ولا منجبة أصلاً، هنا يتدخّل سياق الحال لنفي هذا المفهوم أو تأكيده، وهذا ممّا يؤكد ارتباط هذا الشكل من أشكال المثل بسياقه الثاني ارتباطاً قوياً كما يرتبط بسياقه الأول.

يبدو عنصرًا راسخًا ثابتًا فإنَّه يمثل معيارًا تحتكم إليه الجماعة فيما تفضله أو تميل إليه^(١). وقد جاءت هذه الصيغة في الأمثال لتعبّر عن توجّه العربي للمقارنة بين الأشياء والكائنات، وتبيان التفاضل والاختلاف معها وبينها؛ لما تمنحه هذه الصيغة من إمكانية لتقديم النموذج أو المثل ومقاربة العربي لما في نفسه أو لما يحيطه أو يعايشه أو يواجهه، فثمة من يتسم بسمة معينة إيجابية أو سلبية، ويعرف بهذه السمة أو يشتهر بها ويأتي من يفوقه ويتجاوزه على وجه الحقيقة أو المجاز.

وفي أمثال (أفعل) يظهر عدم انفراد المفضل منه بالصفات التي يفضل فيها، بل يمكن القول عوضًا عن هذا التفرد إن المقصود سمو طرف في هذه الصفات على الطرف الآخر المشترك معه فيها، ويلحظ في هذه الأمثال أيضًا أنها تقدّم مضامين تفترض وجود أسماء أو أشياء أو مفردات وكائنات في البيئة تشكل رمزًا أو معلمًا في بابها (في الصفة التي تشتهر فيها)، وتعد المثل الأعلى ويتفاضل معه أو يقارن به فحسب، بل يمكن أن يتجاوزه ويعلو عليه فيما يشي بمبالغة فائضة للصفة المذكورة، وهو نوع من الطموح في الأمثال للتفوق على المثل/ الرمز وتخطيمه بتقديم ما هو أكثر سموًا ورفعة، مع ما يتغلغل في هذا التركيب المثلي من إحياءات وجدانيّة ونفسيّة فيها قدر من التعجب والدهشة والتأهل والثقة والتطلع. فحين يقال: أجود من حاتم^(٢)، فإنّ المقارنة لا تقوم بين شخصين عاديّين يتصف كلّ منهما بالكرم إلا أنّ أحدهما يتفوق ويعلو على الآخر في كرمه، بل إنّ أحد طرفي المقارنة يعد علمًا في باب، لم يقدم التاريخ من سما عليه في الكرم، فيأتي المثل على صيغة أفعل لا ليقارن، بل ليصدّم المتلقي ويفاجئه ويبعث في نفسه التأمل والتعجب والدهشة، للمبالغة الكبيرة التي يحملها مضمون المقارنة؛ فهو يقدم له من يفوق المثل ويكسر النموذج المعترف به بوصفه الأعلى رتبة في تلك الصفة.

ويلاحظ المتأمل في مضمون هذا النوع من الأمثال أنّها استمدّت موضوعاتها من محيط الإنسان وبيئته، سواء تمثل هذا المحيط بالكائنات الحية: الإنسان مثل قولهم: أوفى من

١ - ينظر: أماني سليمان داود، الأمثال العربية: دراسة أسلوبية سردية حضارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٩، ص ١٨١.

٢ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٩٧٧) ج ١، ص ٢٨٢-٢٨٣.

السموأل^(١)، أم الحيوان مثل قولهم: أجزاً من قَسَوْرَة^(٢)، أم الطبيعة، مثل قولهم: أعمق من البحر^(٣)، وإليك بيان ذلك حسب الترتيب الإحصائي لهذه الفئات الثلاث:
أ- بلغ عدد الأمثال التي ورد فيها ذكر الحيوان ٣٣٨ مثلاً من المجموع الكلي للأمثال الواردة على هذه الصيغة في مجمع الأمثال الذي بلغ ٩١٧ مثلاً، وهي أكثر الفئات وروداً في الأمثال من هذه الصيغة^(٤)، حيث رأى العرب في الحيوان منبعاً غزيراً يستقون منه نماذج مثالية، ويندر أن تجد حيواناً في بيئة العرب لم يتخذ مثلاً في جانب من الجوانب السلبية أو الإيجابية، وذكر حمزة الأصفهاني «أن أكثر أمثال العرب مضروبة بالبهايم.. فهم لا يكادون يذمّون أو يمدحون إلا بما يجدون في البهايم... والسبب في تفرّد العرب باستعمال ذلك دون سائر الأمم أن العرب أناس إنما وضعوا بيوتهم وأبنيتهم وسط السباع والأحناش والهمج والحشرات، فليس يعثرون إلا بها، ولا يفتحون عيونهم إلا عليها ولا يرون سواها»^(٥)؛ وهو تفسير بيئي يرى أن الإنسان يستمد معارفه من البيئة المحيطة به، بوصفها مصدراً أساسياً يشتق منه أمثاله وأنماط إنتاجه التعبيري، ومن ذلك الأمثال ذات الأرقام الآتية^(٦):

٥٧٨- أَبْصَرُ مِنْ غَرَابٍ.

٥٨٣- أَبْرُّ مِنْ هِرَّةٍ.

٩٧٠- أَجْرَأُ مِنْ ذُبَابٍ.

١٠٠٠- أَجْهَلُ مِنْ فَرَّاشَةٍ.

١٢٠٤- أَخْذَرُ مِنْ ذَنْبٍ.

ولعلّ هذا الحضور اللافت للحيوان في الأمثال يتأتى من وضوح سمات معينة فيه لا تتضح

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٤٤٣٢) ج ٣، ص ٣٧٥-٣٧٦.

٢- المرجع السابق، رقم المثل (٩٨٨) ج ١، ص ٢٨٦.

٣- نفسه، رقم المثل (٢٦٥٩) ج ٢، ص ٣٣٧.

٤- ينظر: إبراهيم محمد الزهراني، الأنساق الثقافية في مجمع الأمثال للميداني، ص ٦٨-٨٩.

٥- حمزة الأصفهاني، الدرّة الفاخرة في الأمثال السائرة، ص ٤٩.

٦- ومن ذلك أيضاً الأمثال ذات الأرقام الآتية: ١٢٢٣ - أَحْسَنُ مِنَ الطَّائِسِ، ١٣٧٠ - أَخْيَلُ مِنْ غَرَابٍ، ١٥١٦ - أَذَلُّ مِنْ حَوَارٍ، ١٧٠١ - أَرْوَى مِنَ الْخَوْتِ، ١٨٨٤ - أَسْرَعُ مِنَ الْعَيْرِ، ٢٠٧٤ - أَشَجَى مِنْ حَمَامَةٍ، ٢١٨٥ - أَضُولُ مِنْ جَمَلٍ، ٢٦٠٨ - أَعْدَى مِنَ الظَّلِيمِ، ٢٦١٧ - أَعْقُ مِنْ ذَنْبَةٍ، ٢٨٠٢ - أَفْسَدُ مِنَ الْجَرَادِ، ٣٢١١ - أَكْسَبُ مِنْ فَهْدٍ، ٤١٧٨ - أَمْنَعُ مِنْ عَنَزٍ.

في غيره من الكائنات، كما يشي بالعلاقة الأليفة التي تجمع هذا النوع من الكائنات الحيّة بالإنسان العربي، لدرجة «أنّ العرب قد درسوا الحيوانات المختلفة وتفهموا طباعها، وضربوا بها الأمثال»^(١)؛ فالعلاقة بين العربي والحيوان علاقة ألفة ومعيشة وخبرة، تستند إلى البيئة العربيّة وأنماط العيش فيها، وفي جانب آخر هناك مشاعر الخوف والرهبة التي تربط الإنسان بالمتوحّش من الحيوان، ولعلّ ذكرها وضرب الأمثال استعانة بما تتّصف به من سمات يأتي بوصفه رغبة بالاقتراب ممّا يخشى منه ولو وهمياً ومحاولة التآلف معه، أو التنفير والتحذير منه، ولعلّ هذا كلّه جراء الحرّيّة التي يستشعرها مرسل المثل تجاه كائنات لا يخشى عاقبة إيرادها والتمثّل بها، أو يتأتّى في سبيل البحث عن رمز يحمل مدلولات المرموز إليه، وقد بلغ بالعربي «من شدة إعجابه أو نفوره من صفات فيها أن تسمّى ببعض أسمائها»^(٢). وقد يفسّر شيوع صيغة «أفعل» في هذه الفئة أنّ الحيوان تبرز صفاته وطباعه للإنسان بصورة أكثر وضوحاً من الإنسان؛ لأنّه لا يملك إخفاءها بسبب افتقاده إلى العقل والإدراك، فتبدو تلك الصفات واضحة للإنسان الذي يعايشه سلماً أو عداءً بحسب موقفه من ذلك الحيوان^(٣).

ب- أمّا الفئة الثانية في هذه الصيغة فقد استمدّها الذهن العربي من الطبيعة^(٤) برحمتها وقسوتها، وجمالها وقبحها، وما تبثّه من طمأنينة أو خوف في نفس الإنسان العربي، كما استمدّها أيضاً من الحياة وتجاربها ومظاهرها المختلفة... وبلغ عدد أمثالها ٣١٢ مثلاً، ومن ذلك الأمثال ذات الأرقام الآتية^(٥):

- ١- صفاء خلوصي، دراسة في الأمثال العربيّة القديمة، ص ١٠٠.
- ٢- عفيف عبد الرحمن، الأمثال العربيّة القديمة، ص ٤٢.
- ٣- ينظر: عفيف عبد الرحمن، الأمثال العربيّة على صيغة أفعل التفضيل، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، ٢١٤، ١٩٨٦، ص ٦٤-٦٥.
- ٤- ينظر: إبراهيم محمد الزهراني، الأنساق الثقافيّة في مجمع الأمثال للميداني، ص ٨٩-٩٥.
- ٥- ومن ذلك أيضاً الأمثال ذات الأرقام الآتية: ١٠١١ - أَجْفَى مِنَ الدَّهْرِ، ١٢٠٨ - أَحْرُ مِنَ الْقَرْعِ، ١٢٠٩ - أَحْسَنُ مِنَ النَّارِ، ١٢٢٦ - أَحْيَرُ مِنَ اللَّيْلِ، وَمِنْ يَدٍ فِي رَحِمٍ، ١٢٣٤ - أَحْلُ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ، وَمِنْ لَبَنِ الْأُمِّ، ١٤٤٢ - أَدْقُ مِنَ الطَّحِينَ، ١٥٠٩ - أَذْلُ مِنَ النَّعْلِ، ١٧١٢ - أَرْقُ مِنَ النَّسِيمِ، ١٨٩٥ - أَسِيرُ مِنْ شِعْرِ، ١٩٠٠ - أَسْهَرُ مِنَ النَّجْمِ، ١٩٠١ - أَسْرَى مِنَ الْخَيْالِ، ٢٠٦٥ - أَشْرَبُ مِنْ رَمْلٍ، ٢١٨١ - أَصْرَدُ مِنَ السَّهْمِ، ٢٢٥٢ - أَضْلُ مِنْ يَدٍ فِي رَحِمٍ، ٢٣١٣ - أَطْوَلُ مِنْ ظِلِّ الرُّمَحِ، ٢٦٥٩ - أَعَمَقَ مِنَ الْبَحْرِ،

٥٧٥- أَبْعَدُ مِنَ النَّجْمِ.

٥٨٧- أَبْرَدُ مِنْ غِبِّ الْمَطَرِ.

٥٩٧- أَبَيَّنُ مِنْ فَلَقِ الصُّبْحِ، وَفَرَقِ الصُّبْحِ.

٧٩٨- أَثْقَلُ مِنْ أُحْدٍ.

٩٧٦- أَجْرَى مِنَ السَّيْلِ تَحْتَ اللَّيْلِ.

واستخدام هذه المضامين الطبيعية التي تتناول تفاصيل ما يحيط بالإنسان من قريب أو بعيد، يشي باتصال الإنسان مع ما حوله، ويلمح إلى تنوع معارفه، وتوظيفه كل ذلك في كلامه وفي حياته، بحيث يغدو البعيد قريباً وجزءاً من المعاشة اليومية.

ج- أمّا الفئة الثالثة فهي فئة استمدت نماذجها من البشر^(١)، من العرب وسواهم، ثم جاءت بميزة يتّصف بها كلّ منهم بشكل مثالي أو قياسي، وصاغت منها «أفعل من»؛ فالأحنف بن قيس اشتهر بالحلم فضرّبوا به المثل، فقالوا: أحلم من الأحنف^(٢)، وباقل اشتهر بالعي، فقالوا: أعي من باقل^(٣)، وكليب بن وائل كان عزيزاً، فقالوا: أعز من كليب وائل^(٤)، ومن ذلك أيضاً^(٥):

٥٦٧- أَبْلَغُ مِنْ قَسٍّ.

٥٧٤- أَبْصَرُ مِنْ زَرْقَاءِ الْيَمَامَةِ.

٧٦٨- أَتَبُّ مِنْ أَبِي هَبٍ.

٩٧٧- أَجْوَدُ مِنْ حَاتِمٍ.

١١٨١- أَحْزَمُ مِنْ سِنَانٍ.

٢٧٠٢- أَعَزُّ مِنْ سَرَابٍ، ٢٧٠٣- أَعَزُّ مِنَ الْأَمَانِي، ٤٣٠٣- أَتَقَى مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

١- ينظر: إبراهيم محمد الزهراني، الأنساق الثقافية في مجمع الأمثال للميداني، ص ٣٣-٣٥، ٤٨-٦٧.

٢- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١١٧٩) ج ١، ص ٣٣٧-٣٣٨.

٣- المرجع السابق، رقم المثل (٢٥٩٥) ج ٢، ص ٣٢٠-٣٢١.

٤- نفسه، رقم المثل (٢٥٩٤) ج ٢، ص ٣٢٠.

٥- ومن ذلك أيضاً الأمثال ذات الأرقام الآتية: ٥٨٩- أَبْطَأُ مِنْ فَيْدٍ، ١٠١٥- أَجْوَرُ مِنْ قَاضِي سُدُومَ، ١٢٣٦- أَحْيَا مِنْ كَعَابٍ، ١١٩١- أَحْمَقُ مِنْ حُجَا، ١٣٣٦- أَخْطَبُ مِنْ سَحْبَانَ وَائِلٍ، ١٩٠٧- أَسْوَدُ مِنَ الْأَخْنَفِ، ٢٦١٥- أَعْدَى مِنَ السُّلَيْكِ، ٢٨٢٨- أَفْوَهُ مِنْ جَرِيرٍ، ٣٢٠٢- أَكْذَبُ مِنَ الْمُهَلَّبِ، ٤٤٣٥- أَوْفَى مِنْ أُمِّ جَمِيلٍ، ٤٩٩٢- أَنْجَبُ مِنْ مَارِيَةٍ.

ووجود النموذج الإنساني سواء منه النموذج الحسن أم القبيح يأتي في المرتبة الثالثة في أمثال هذه الصيغة، فقد بلغ عددها ٢٦٧ مثلاً، وقد يكون نزوع العقلية العربية إلى هذا النموذج تلك الحياة المادية القاسية التي كانوا يحيونها، وأمامهم نماذج من البشر يتحللون بصفات وقيم يتمنى كل عربي أن يصل لها؛ فحاتم جواد^(١)، وجريز مفوّه^(٢)، والحارث بن عبّاد وفي^(٣)، وقد تكون تلك النماذج سيئة، فهم ينفرون منها، ويتمنون الابتعاد عنها؛ فهبتة (اسمه يزيد بن ثوران) أحق^(٤)، وباقل (رجل من إياد) عبي^(٥)، وأسلم (اسمه أسلم بن زُرعة) لئيم^(٦).

وما دامت حياة العرب مادية، فليس صعباً أن يصل أحدهم إلى الرقم القياسي، وهو النموذج، بل يطمح إلى أن يسبقه، ويبقى المجال مفتوحاً أمام الجميع لتحطيم الرقم القياسي؛ المثال والواقع أيضاً؛ لأنه أمامهم، بل تجاوزه؛ فالمثل الأعلى نموذج واقعي بعيد المنال، ولكنه ممكن التحقيق^(٧).

ولهذا السبب جعلت العرب لكل سمة إنسانية مستحبة كانت هذه السمة أم مردولة نموذجاً واقعياً من الناس، وهذا ما يبرّر كثرة أسماء الأعلام الواردة في الأمثال من هذه الصيغة.

ومن النماذج على ذلك: تحت الرقم (٥٧٣) أورد الميداني مثلاً على النحو الآتي^(٨):

أَبْرُ مِنَ الْعَمَلَسِ
وهو رجل كان بَرّاً بأمّه، وكان يحملها على عاتقه

- ١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٩٧٧) ج ١، ص ٢٨٢-٢٨٣.
- ٢- المرجع السابق، رقم المثل (٢٨٢٨) ج ٢، ص ٣٨٩.
- ٣- نفسه، رقم المثل (٤٤٣٧) ج ٣، ص ٣٧٩.
- ٤- نفسه، رقم المثل (١١٦٩) ج ١، ص ٣٣٤-٣٣٥.
- ٥- نفسه، رقم المثل (٢٥٩٥) ج ٢، ص ٣٢٠-٣٢١.
- ٦- نفسه، رقم المثل (٣٧٠٨) ج ٣، ص ١٨٣-١٨٤.
- ٧- ينظر: عفيف عبد الرحمن، الأمثال العربية على صيغة أفعل التفضيل، ص ٤٩.
- ٨- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٥٧٣) ج ١، ص ١٧٣.

ويُضرب فيمن اتَّصف بالبرِّ في أمره كلّهُ أو في حادثة بعينها.
إذا كان المتلقي في سياق تواصلٍ تفوّق فيه أحد المشاركين في الحدث التواصلِي بالبرِّ
لدرجة أنّ هذا التفوّق احتاج إلى أداة خاصة من المرسل في رصده وقياس درجته، ليعبّر
عن إعجابه بهذا النموذج وليكون أوعى للتعميم للاقتداء والتأسي.
إذا كان الأمر كذلك فإنّ حذف المبتدأ يسهم في هذا الغرض؛ فيأتي التركيز على الخبر
(أفعل) وكأنّ برّ عملّس هذا هو التدرّج النهائي في معيار البرِّ والذروة العليا فيه،
فيكون برّ هذا الرجل فوقه ومحطّاً رقمه القياسي في البرِّ - إن جاز التعبير - فتشرّب
الأعناق لمعرفة من هذا الذي فاق عملّس في البرِّ، وهو الذي يمثل القمّة السامقة فيه،
وهو أدعى للتنافس في مسألة البرِّ في كل إنتاج جديد للنص؛ فكلّ مشارك في الحدث
التداولي يظنّ أنّه الذروة بعد عملّس هذا في البرِّ.
ولربّما كان البدء بأفعل مدعاة لسؤال المتلقي: ما الذي فعله العملّس هذا ليفوز بقصب
السبق في معيار البرِّ؟
فحين يجاب يكون ذلك أدعى ليقارنه بنفسه، فيتحرّك نحو مزيد من البرِّ والإحسان.

نموذج (٣):

تحت الرقم (٤٠٣٢) أورد الميداني مثلاً على النحو الآتي^(١):

الْمَنِيَّةُ وَلَا الدَّنِيَّةُ

أي اختار المنيّة على العار، ويجوز الرفع، أي المنيّة أحبُّ إليّ ولا الدنية،
أي وليست الدنية مما أحبُّ وأختار. قيل: المثل لأوس بن حارثة.

لو ذكر المبتدأ على تقدير «حقك المنيّة» لانحصر الأمر في حالة المخاطب هنا، لكن لما حذف
المبتدأ جرّد الجملة من أيّ خطاب خاص لتكون أكثر تعميمًا.
وليتبدى على السطح خياران جاءا على وزن واحد:

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٤٠٣٢) ج٣، ص ٢٦٦.

المنية أو الدنية

ولكنّ تحديد المثل يشير إلى أنّ المرسل يوصي المتلقّي باختيار المنية أي «الموت»، على الامتثال والعيش بلا كرامة «الدنية».

ولعلّ حذف المبتدأ هنا إشارة إلى أنّ المرسل يحرص الحرص كلّ على أن يوجّه المتلقّي إلى اختيار الموت على قبول «الدنية»، وهذا يظهر في نطق المرسل للفظ «المنية» مباشرة، دون أيّ مقدّمات؛ وذلك لأنّ هذا اللفظ «المنية» هو الذي يستولي على تفكير المرسل، ويشغله عن أيّ شيء آخر إذا تعلّق الأمر بالاختيار بين المنية أو الدنية، ثمّ اختار أسلوب النفي؛ لينفي عن المخاطب اختيار الدنية تحت أيّ ظرف، فقال: ولا الدنية.

وفي مثل هذا السياق التداولي يأتي حذف المبتدأ لأكثر من غرض؛ فالمرسل يريد أن يصرف المتلقّي عن التفكير -ولو مجرد التفكير- بالدنية، ولذلك عاجله بالقول: المنية ولا الدنية. وإذا افترضنا أنّ بنية المثل تقوم على جملة فعلية هي: اختر المنية لا الدنية، فيكون المحذوف هو الفعل، ويكون غرض حذفه هو إلزام المخاطب باختيار الموت على اختيار الدنية. ولربّما كان اختيار «المنية» وهي أقصى حال يمكن أن يفكر بها المرء في حال خير بين وضعين، مدعاة لإظهار حرص المرسل على كرامة المتلقّي، ولفت انتباهه إلى أنّ الإنسان الحرّ يضحّي بالحياة وبكلّ ما يملك من عائلة ومال... ولكنه لا يقبل العيش بلا كرامة.

أخلص ممّا سبق إلى أنّ الحذف يسهم في اتساق النص، وأنّ محلّ النص يمكنه فكّ الفراغات البنيوية مستعيناً بتفاصيل الإنتاج الأوّل للنص وتفاصيل الإنتاج المتجدّد سياقاً ومشاركين، بنية كبرى وغرضاً، وأنّ هذا الحذف يرتبط تفسيره بالغرض وطبيعة العلاقة بين المتلقّي والمرسل وحيثيات السياق.



خامساً: البنية الإحالية في النص ذي الجملة الواحدة:

يجعل بعض علماء النص الأهداف الإحالية سبباً رئيساً في تشكيل النصوص والخطابات؛ ومنه تعريف (شفرن) للخطاب أو النص بقولها: «إنَّه استعمال اللغة لأهداف إحالية»^(١)؛ فنحن نتوسَّل بالنصوص والخطابات لنحيل ما في أذهاننا وما نريد إيصاله إلى المتلقين. ومن الخصائص القارّة للنصوص اشتغالها على بنية إحالية واحدة، ووحدة البنية الإحالية من أهم أسباب تشكّل انسجام الخطاب.

والإحالة خصيصة نحويّة دلاليّة ولا مجال للفصل بينهما أبداً في عالم النص، وهي من قبيل الترابط المفهومي وإن تبدّت أحياناً تحت شكل من أشكال الترابط اللفظي؛ فالترابط الإحالي ربط دلالي لكنه يجري عبر التركيب عادة، فالبنية الإحالية في أي نص منجز «تتصل بمستواه الدلالي اتصالاً وثيقاً؛ لأنّها تفتح المجال للقراءة والتأويل في إطار سياق أو مرجعية تتحكّم في التأويل وتحديد المعنى المقصود»^(٢).

وقد أشار تمام حسان إلى أنّ الإحالة «من وسائل السبك، وهي تؤدّي إلى الالتحام النصّي من الناحية المفهومية»^(٣).

وإذا كانت الإحالة ركناً رئيساً في عملية فهم النصوص وتأويلها، فإنّها شديدة الأهمية بصورة مضاعفة في النصوص التي تقوم على مبدأ الاقتصاد والثبات المعنوي، كما هو الحال في نصوص الأمثال؛ «حيث سيظهر أنّ استخدام الإحالة بألفاظها الكنائية التي توصف بالاختصار عمّا تحيل إليه إنّما هو من قبيل مبدأ الاختصار والإيجاز والتكثيف»^(٤).

والإحالة تؤدّي إلى تحديد الدلالة وتوضيحها وإزالة الغموض في النص، كما أنّها وسيلة اتّساق قوية؛ لأنّها تصنع ربطاً معنوياً وتماسكاً دلاليّاً ملحوظاً، وتساعد على تحفّز المتلقّي وانتباهه للعلاقة المعنويّة، وإعمال ذهنه بين السابق واللاحق بين التشكيل اللغوي المائل وبين مقتضيات الموقف التواصلّي الذي يضم طرفي الخطاب.

١ - ربيعة العربي، في تصوّر الخطاب، ج ١، ص ٩٦.

٢ - ميلود نزار، نحو نظريّة عربيّة للإحالة، بحث منشور على الشبكة العنكبوتيّة، ص ٢.

٣ - بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٣٠٠.

٤ - أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ص ٤.

والإحالة في اللغة من الفعل (أحال) والمعنى العام لهذا الفعل هو التغيّر ونقل الشيء إلى شيء آخر؛ جاء في لسان العرب: «المَحَال من الكلام: ما عدل به عن وجهه، وحَوّله جعله محالاً، وأحال أتى بِمَحَال، ورجل مَحَوَّل: كثير محال الكلام... ويقال أحلت الكلام أحيله إحالة إذا أفسدته، وروى ابن شميل عن الخليل بن أحمد أنّه قال: المحال الكلام لغير شيء... والجَوَال: كلّ شيء حال بين اثنين... حال الرّجل يحول تحوّل من موضع إلى موضع»^(١). فهو التغيّر والتحوّل ونقل الشيء إلى غيره.

أمّا في الاصطلاح فيعرّفها أحمد عفيفي تعريفاً طويلاً ضافياً جامعاً بقوله: «الإحالة علاقة معنويّة بين ألفاظ معيّنة، وما تشير إليه من أشياء أو معانٍ أو مواقف تدلّ عليها عبارات أخرى في السياق، أو يدلّ عليها المقام، وتلك الألفاظ المحيلة تعطي معناها عن طريق قصد المتكلم مثل الضمير واسم الإشارة واسم الموصول... الخ؛ حيث تشير هذه الألفاظ إلى أشياء سابقة أو لاحقة قصدت عن طريق ألفاظ أخرى أو عبارات أو مواقف لغويّة أو غير لغويّة، والمتكلم أو الكاتب هو الذي يحمّل التعبير دلالة تكشف عن وظيفة إحاليّة»^(٢).

ولهذا يقول (ستروس): «إنّ الإحالة ليست شيئاً يقوم به تعبير ما؛ ولكنها شيء يمكن أن يحيل إليه شخص ما باستعماله تعبيراً معنياً»^(٣).

ومن هنا يقرّر (براون ويول) أنّه في تحليل الخطاب ينظر للإحالة على «أنّها عمل يقوم به المتكلم/الكاتب»^(٤)، وهذا لا يغفل أثر اللفظ الذي يحمل المعنى؛ فاللفظ «هو الذي يحيل في نهاية الأمر لقصد المتكلم أو الكاتب؛ إذ أثر الكاتب رئيسي لا شك؛ فهو الذي ينشئ النص، وهو الذي يحمّل الألفاظ دلالتها، ويستطيع أن يخرج بها عن طبيعتها»^(٥)، وفقاً لأحمد عفيفي. ولعلّ تعريف (بيوجراند) للإحالة يضيء جانباً مهماً من وظيفتها في النص؛ فالإحالة عنده هي «العلاقة بين العبارات والأشياء والأحداث والمواقف في العالم الذي يُدّلّ عليه بالعبارات»^(٦).

١ - ابن منظور، لسان العرب، (حول).

٢ - أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ص ١٢-١٣.

٣ - براون ويول، تحليل الخطاب، ص ٣٦.

٤ - المرجع السابق، ص ١٢.

٥ - أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ص ١٣.

٦ - بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٣٢٠.

وهو من أدقّ التعريفات التي توضّح حقيقة الإحالة، ولا تحصرها في مظاهر جزئية كالضمائر مثلاً كما يفعل بعض دراسي الإحالة، ولا يبتعد (جون لاينز) عن هذا فهو يقول: «إنّ العلاقة القائمة بين الأسماء والمسمّيات هي علاقة إحالة فالأسماء تحيل إلى المسمّيات»^(١). ونظام الإحالة قد يأخذ شكلاً معهوداً فيكون أداة مهمّة من أدوات الاتساق والتماسك، وذلك عن طريق مباشر وهو القصد الدلالي إلى ما يشير إليه اللفظ مباشرة؛ فالعنصر المحيل -أيّا كان نوعه- والمحال إليه لا بد أن يكونا بارزَيْن دون حاجة إلى التأويل، ويرتبط ذلك بالإحالات داخل النص قبلية أو بعدية، ويستخدم منشئ النص هنا الألفاظ المفرّغة من الدلالة المستقلّة كالضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة، وغيرها. وقد يأخذ شكلاً غير مباشر فتكون آلية الإحالة مندرجة تحت ما نسمّيه «التأويل»، وذلك «في حالة عدم وجود المحال إليه بشكل مباشر داخل النص، ويتم تأويل مفاهيم النص وترجمة الإحالة عبر المقام ومقتضيات الموقف التواصلية»^(٢)، والعلاقة بين المحيل والمحال إليه هي علاقة دلالية، وتتسم بالتوافق والانسجام. وفي نظام الإحالة من الشكل الأوّل تأخذ العلاقة بين المحيل والمحال عليه شكلاً من التوافق والانسجام اللغوي، وباشتراك اللفظ المحيل والمحال إليه في مجموعة من العناصر تؤكد طبيعة تلك العلاقة بعضها نحوي مثل إمكانية الإسناد إليه، والآخر صرفي مثل الأفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث، والنص كاشف لهذه العلاقات. أمّا في نص المثل فنظام الإحالة هو من الشكل الثاني؛ فالمحال إليه ليس موجوداً بصورة مباشرة داخل النص، ولذلك فإنّ التوافق النحوي والصرفي بين العناصر المشتركة في الإحالة ليس شرطاً، بل إنّ دارسي المثل قد أكدوا مسألة ثبات صيغة المثل وأنّه غير قابل للتغيير حتى لو ورد ملحوناً؛ «لأنّ العرب تُجري الأمثال على ما جاءت، وقد تستعمل فيها الإعراب، والأمثال قد تخرج عن القياس، فتُحكى كما سُمعت، ولا يطرد فيها القياس، فتخرج عن طريقة الأمثال؛ لأن من شرط المثل ألا يغير عما يقع في الأصل عليه»^(٣)، كما يقول السيوطي.

١ - براون ويول، تحليل الخطاب، ص ٣٦.

٢ - أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ص ١٥.

٣ - ينظر: السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٨٧-٤٨٨.

ويربط الزمخشري بين ثبوت صيغة المثل وأهليته للسيرورة والتداول والقبول، يقول: «ولم يضر بوا مثلاً، ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولا جديرًا بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه؛ ومن ثم حُوفظ عليه، وحُمي من التغيير»^(١).

ومن ثم لا يمكن ترجمة العناصر الإحالية المعتادة كالضائرات والأسماء الموصولة وأسماء الإشارة دلاليًا إلا وفقًا للموقف التواصلية وعبر البنية الكلية الكبرى أو الثيمة التي تختزنها البنية السطحية للخطاب؛ فقد يحيل ضمير للمؤنث في نص المثل إلى مذكر، وقد يحيل ضمير الجمع إلى مفرد بحسب السياق وبحسب الموقف. ويجعل علماء النص عناصر الإحالة على النحو الآتي^(٢):

١ - المتكلم أو الكاتب صانع النص، وفي موضوع الدراسة مستخدم المثل، وبقصده المعنوي تحدث الإحالة إلى ما أراد؛ حيث يشير علماء النص إلى أنّ الإحالة عمل إنساني.

٢ - اللفظ المحيل، وهذا العنصر الإحالي قد يتجسد ظاهريًا أو مقدّرًا كالضمير أو الإشارة وهو الذي سيحمل المتلقي للاتجاه إلى خارج النص أو داخله، وفي حالة النص / المثل فإنّ النص كله ببنية السطحية الماثلة يقوم بمهمة الإحالة الكلية، التي قوامها إحالة بنية لغوية مرتبطة بحادثة جرت في وقت ما إلى موقف آخر جديد يشابه هذه الحادثة في غرضها المجرد أو المعنى المجرد الذي تنطبق عليه، وفي الآن ذاته قد توجد إحالات فرعية غير الضائرات وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والعهديّة، وغيرها من العناصر التي تستخدم عادة في الإحالة.

٣ - المحال إليه: وهو موجود إمّا خارج النص أو داخله من كلمات أو عبارات أو دلالات، وتفيد معرفة الإنسان بالنص وفهمه في الوصول إلى المحال إليه.

وفي حالة النص المثل فإنّ المحال إليه موجود خارج النص ماثل في مقتضيات الموقف التواصلية، ووجود المتكلم والمخاطب في سياق تواصلية واحد كفيل بتحديد المحال إليه، ومن ثم فهم النص وتأويله وتحقق غرضه.

٤ - العلاقة بين اللفظ المحيل والمحال إليه، والمفروض أن يكون التطابق مجسّدًا بين اللفظ المحيل والمحال إليه.

١ - الزمخشري، الكشف، ج ١، ص ١٩١.

٢ - ينظر: أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ص ١٥-١٧.

فقد أشار (براون ويول) إلى الرأي القائل بضرورة أن تكون الإحالة موصوفة بالصدق والصحة فقالا: «أهل علم الدلالة الشكلائي يركزون في الغالب على أهميّة أن تكون العبارة المستعملة للإحالة على شيء صادقة/ صحيحة في وصفها لذلك الشيء»^(١).

وذلك وفقاً لمقاصد المتكلم أو المرسل، وفي حالة النص/ المثل، فإنّ الصدق والصحة والتطابق مرتكز بالأساس على تطابق البنية الكلّية الكبرى في لفظ المثل، وفي الموقف التواصلّي الذي استخدم فيه المثل.

ويعتمد نجاح الإحالة - وفقاً لعلماء النص^(٢) - بالدرجة الأولى على إعطاء القدرة الكافية للمتلقّي أن يتعرّف على المحال إليه، وعلى قصد المتكلم من استخدام الإحالة، وكلما حدث ذلك بسهولة ويسر كانت الإحالة ناجحة.

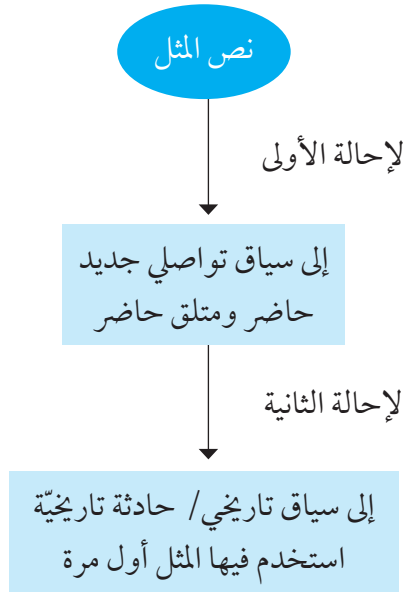
وفي حالة النص المثل فإنّ استخدام المثل المناسب للموقف التواصلّي الذي استخدم فيه وانطباقه على الحالة ولو في خطوطه العريضة، ووجود المتلقّي والمرسل في موقف تواصلّي واحد، ومقام واحد كفيل بنجاح الإحالة، ومن ثم نجاح الرسالة اللغويّة وفهمها وتحقيق غرضها. ويفرق الدارسون بين نوعين من العناصر في موضوع الإحالة:

١- العناصر الإشاريّة، وهي التي يحال إليها، وقد يكون العنصر الإشاري جزءاً من الملفوظ أو الملفوظ كاملاً، كما هو الحال في نص المثل.

٢- العناصر الإحاليّة، وهي التي تعتمد في فهمنا لها على إسنادها إلى شيء آخر، وفيما يتصل بالنص المثل فإنّ الملفوظ كاملاً هو المحيل، والموقف التواصلّي أو شخوصه هما المحال عليه؛ فالموقف الخارجي أو ما يكتنفه من عناصر وشخص عناصر إشاريّة خارجيّة، وأمّا نص المثل فهو عنصر إحالي ولا يمكن فهمه إلا بواسطة سياق التواصل؛ غير أنّ في العمليّة هنا إحالة مزدوجة؛ فمن جهة يحيل لفظ المثل إلى موقف خارجي أو ما يكتنفه من عناصر، ومن جهة أخرى فإنّه يحيل إلى الحادثة الأولى التي استعمل فيها المثل أول مرة، لكنّ المتلقّي وهو محلّ عمليّة الإحالة تمهيداً للفهم والتقاط الفكرة قد لا يمر إلا بالإحالة الأولى، وهي التي تربط بين نص المثل وسياقه التواصلّي، خصوصاً إذا لم يكن على معرفة بالحادثة التاريخيّة التي قيل فيها المثل أول مرة. والشكل الآتي يبين هذه الفكرة: شكل رقم (٨)

١ - براون ويول، تحليل الخطاب، ص ٢٤٥.

٢ - ينظر: أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ص ٢٠.



ويستخدم علماء النص مصطلح «وضوح الإحالة» ويقصدون بذلك عدم وضوحها، ويحصل الغموض إذا تعدّد المحال إليه، وإمكانية أن تعود الإحالة إلى كلّ من هذا المتعدّد. ويتحصّل هذا الوضوح في حالة استخدام المثل المناسب في سياقه التواصلي المناسب، ويتحصّل الغموض إذا أخطأ المتلقّي في عكس العناصر الإحالية في المثل على الموقف التواصلي موضع النظر، وقد تنطبق ثيمة المثل على شخص أو أكثر في الموقف التواصلي فيظنّ كلّ منهم أنه المعنيّ بها، ويرتبط وضوح الإحالة كذلك فيما يسمّيه علماء النص بمرجع الإحالة، وتحديد مرجعية الإحالة هي واحدة من وظائف المتلقّي لكنّها منوطة بصنيع المرسل وما يوفره من عناصر تنجح عملية الإمساك بخيوط الإحالة النصّية، وقد يسهل في بعض الأحيان على المتلقّي تحديد مرجع الإحالة والوصول إلى المحال إليه دون إجهاد ذهني، وفي أحيان أخرى يصعب عليه التحديد لاعتبارات ذكرها بعض علماء النص ومنها^(١):

١- وجود مسافة كبيرة بين اللفظ الكنائي وما يحيل إليه ذلك اللفظ من مدلولات أو ذوات، وهذا لا ينطبق على نص المثل لأنّه موجز جدّاً، ومكثّف ويحيل مباشرة إلى السياق التواصلي الذي يستخدم فيه.

١ - ينظر: أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ص ٣٤-٣٦.

٢- وجود أكثر من مرجع، وهذا ممكن في حالة النص المثل؛ فقد يطلق المرسل المثل وهو يقصد به شخصاً ما، فيظنّ آخر أنّه معنيّ به لانطباق بعض جوانبه الدلاليّة عليه، وقد يكون المقصد متعدداً فيحار المتلقّي في أيّ المقاصد هو الذي ينطبق على الحالة.

٣- وجود غموض فيما يصدق عليه اللفظ الكنائي، وهو ممكن في حالة النص المثل إذا لم يكن المتلقّي على معرفة بثيمة المثل وفيما يُضرب به.

٤- صعوبة التحديد بسبب الضعف المعرفي أو الثقافي للمتلقّي بالموضوع الذي يتحدث فيه المتكلم؛ فثقافة المتلقّي تندمج وتتشابك وتنصهر مع الدلالات الصادرة من النص، ولهذا يحدث نوع من الانسجام لو أنّ لدى المتلقّي معرفة بالتصوّر الذي يوحيه النص أو ما يشير إليه صراحة؛ ولهذا فإنّ البشر يفهمون ما يقال لهم في ضوء معرفتهم ومعتقداتهم عن العالم، ولكنني لا أستطيع القول إنّ تصوّر المتلقّي يتطابق تماماً مع تصوّر المتكلم لإمكانية اختلاف الثقافة والمعرفة في الموضوع المطروح؛ فتلك المسافة الغامضة أو غير المعروفة بين المتلقّي والمتكلم يمكن أن تخلق صعوبة في فهم الإحالة، لكنّ الملاحظ دائماً أنّ المتحدث يريد من المتلقّي أن يكون سريعاً ودقيقاً في فهم الإحالة، وأن يحيل اللفظ الكنائي إلى مرجعه بفطنة وذكاء، وأن يجري ذلك بوضوح يعادل الوضوح المتجسّد في ذهن المتحدث^(١)، وفيما يتّصل بنص المثل فإنّ خبرة المتلقّي بهذا الضرب من النصوص يعدّ فيصلاً في فهمه وتأويله والإمساك بمرجعياته والوقوف على مرامي الإحالة المقصودة، ولذلك وجدت اللغويين الذين يدرسون المثل يشيرون إلى كونه معروفاً ومتداولاً وسائراً عند العامة والخاصة، وإلا فلا قيمة دلاليّة للنص/ المثل إذا لم يقتدر المتلقّي على فهم مرجعيّته والإمساك بخيوط إحالته.

٥- يزيد الأمر صعوبة إذا كانت الإحالة خارج النص فإنّ ذلك يتطلّب من المتلقّي أن يتوقف كثيراً أمام النص ليفهم ما يصدق عليه اللفظ الكنائي، ويكون ذلك مرتبطاً بالمقام أو السياق. ولا ريب أن الإحالة في نص المثل هي إلى خارج النص، ووقوف المتلقّي على حيثيات الموقف التواصلية وربطها بنصّ المثل كفيل بنجاحه في تحديد المرجعية وفهم المقصود.

١ - براون ويول، تحليل الخطاب، ص ٢٤٨.

إنَّ معرفة المعنى العام الذي تولّده العبارة، والذي يستطيع المتلقّي التقاطه من السياق هو سبيله لفهم الإحالة والتقاطها، كما أنَّ مراعاة المقام أو الموقف في الإحالة خارج النص، وربط النص بالموقف اللغوي أو السياق أو المقام، هو سبيل المتلقّي في فهم المعنى اللغوي، والتقاط مغزى الإحالة، وكلما نجح المتلقّي في تحديد الإحالة كان أقرب إلى الربط النصّي والاتساق.

إنَّ الإحالة في نص المثل هي إحالة إلى خارج النص، وهذا الضرب من الإحالة «يدلّ على وجود علاقات متشابكة ومتفاعلة بين اللغة والمواقف الاجتماعية والثقافية العامة»^(١)؛ لأنَّ الإحالة تقوم على مبدأ التفاعل بين المتلقّي والنص والمواقف التواصلية خارج النص، ومن غير هذا التفاعل يصير الانتفاع بقراءة النص شيئاً غير مؤكد، وربّما غير موجود؛ وذلك لأنَّ الأعراف والمواقف الاجتماعية تنطبق على المفهوم العام للنصوص، والإحالة في نصّ المثل هي إحالة خارجية مقامية تعتمد على سياق الموقف، وتعني «إحالة عنصر لغوي إحصالي على عنصر إحصاري غير لغوي موجود في المقام الخارجي، وهي إحالة إلى غير مذكور في النص، ويمكن إرجاعها إلى أمور مُستنبطة من السياق أو الموقف لا من عبارات يمكن أن تشاركها الدلالة في النص نفسه، وعلى المتلقّي أن يبحث عن المرجع من السياق أو المقام، ولا بد من التوافق بين العنصر الإحصالي مع ما يحيل إليه؛ فالاتفاق بينهما جزء أساسي في عملية الربط عن طريق الإحالة، والعنصر الإحصالي هنا هو النص كلّ غير قابل للتجزئة؛ فالمثل يستعمل ليحيل بكلّيته إلى حالة مشابهة، وقد أشار (هاليداي) ورقية حسن إلى نوع من الإحالات «لغير مذكور في الاستعمال المقبول تستعمل فيها الكنائيات استعمالاً عرفياً»^(٢).

لكنّه ربطها بذلك الاستعمال العرفي الذي لا يربطها بمحتوى مفهومي معيّن، وفي حالة نص المثل فإنَّ البنية اللغوية للنص تستعمل استعمالاً عرفياً مرتبطاً بمحتوى مفهومي معيّن، وهذا المفهوم منبثق عن وجود تفاعل بين المتلقّي والنص بإعادة اللفظ المحيل إلى ما يحيل إليه وربطه بذلك الموقف الخارجي، إنَّ على المتلقّي أن يتأمّل الموقف خارج النص ليحدّد

١ - أحمد عفيفي، الإحالة في نحو النص، ص ٤٠.

٢ - المرجع السابق، ص ٤٦.

مرجعه، «إنّ هذه الإحالة المقاميّة تسهم في خلق النص؛ لكونها تربط اللغة بسياق المقام إلا أنّها لا تسهم في اتساقه بشكل مباشر»^(١).

إنّ الإحالة هي الوسيلة الأكثر قوة في صنع التماسك الشامل للنص وتجسيد وحدته العامة؛ وذلك لأنّها تقرن بين الترابط الرصفي والترابط المفهومي؛ أي بين ما هو لفظي وما هو معنوي.

إنّ المتلقّي يعمل عقله في السياق والمقام في الإحالة الخارجيّة إلى غير مذكور ليوحد ما تصدق عليه الإحالة حدّاً وزماناً ومكاناً ومنطقاً، وعلى هذا تأتي رتبها في مقدمة وسائل الاتساق؛ لأنّها تشغل عقل المتلقّي كثيراً بالبحث عن مرجع الأداة خلافاً للتكرار أو الاستبدال، ولأنّها تحيل إلى العلاقات المعنويّة القائمة داخل النص؛ فثمة علاقات معيّنة إذا توافرت في نص ما تجعل أجزاءه متآخذه مشكّلة بذلك كلّاً موحّداً، حيث تعدّ هذه العلاقات الدلاليّة مميزة للنص بوصفه وحدة دلاليّة.

ولعلّ من النقاط المهمة في نص المثل أنّ الإحالة فيه متجدّدة ومتغيّرة مع كلّ موقف تواصلّي يستعمل فيه.

ويجمع بين هذه المواقف البنية الدلاليّة المجرّدة التي أطلق عليها اسم البنية الكلية الكبرى، ولعلّ هذه ميزة وخصيصة للنصوص القصيرة المكثفة التي تتسم بالثبات كالأمثال والأحاديث النبويّة، وأقوال العظماء، والحكم والتوقيعات وما شابهها.

إنّ تحديد عنصري الإحالة (المحيل والمحال إليه) موكول إلى ثقافة المتلقّي ومعطيات السياق التواصلّي؛ فإنّ المحيل يمثل نقطة انطلاق عملية الربط الإحالي، وهو دائماً عنصر.

وتمثّل الإحالة «المقابل النفسي للشيء أو الظاهرة الذهنيّة التي يدرك من خلالها المرجع»^(٢)، وبذلك فإنّ الإحالة تعتمد على حركة الذهن داخل النص وخارجه.

إنّ الوقوف على البنية الإحاليّة بوضوح في نصّ المثل لا بدّ فيه من معرفة الأحداث وسياق الحال، والمواقف التي تحيط بالنص أو الخطاب للتعرفّ على الشيء المحال إليه.

ولتوضيح البنية الإحالية في نص المثل أنقدّم النماذج الآتية:

١ - محمد خطابي، لسانيات النص، ص ١٧.

٢ - محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب: مقارنة بنيوية تكوينية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٢، ١٩٨٥، ص ١٨٣.

*النموذج الأول:

المثل رقم: (١٤٣) في مجمع الأمثال للميداني، ونصّه:

«إِنَّهُ لِيَكْسِرُ عَلَيَّ أَرْعَاطَ^(١) النَّبْلِ غَضَبًا»^(٢)

وهو يضرب للغضب، وقد ورد في قول قتادة اليشكريّ يحذر أهل العراق الحجاج: حَذَارِ حَذَارِ اللَّيْثِ يَحْرِقُ نَابَهُ وَيَكْسِرُ أَرْعَاطًا عَلَيْكَ مِنَ الْحَقْدِ

فإذا افترضت أنّ شخصاً استخدم هذا المثل في واقعة ما مخاطباً به شخصاً غاضباً أو أشخاصاً غاضبين، فثمة احتمالات بأن يكون غضبه موجّهاً نحو قائل المثل أو نحو غيره، فيكون الضمير الهاء في «إنّه» يعود على الغضبان أو الغاضبين، ويكون الضمير الياء في «عليّ» عائداً على مَنْ وقع عليهم الغضب سواء أكان ذلك هو القائل فينطبق ضمير المتكلم الياء انطباقاً صرفياً وواقعياً، أم كان ذلك هو شخص آخر غير المتكلم فلا يقع الانطباق الصرفي والواقعي.

هذا فيما يتعلّق بإحالات الضمائر في النص/ المثل، وهي إحالة ضميريّة خارجيّة يفسّرها السياق وموقف التواصل، ولا يشترط فيها انطباق الضمائر على ما تحيل إليه كما هو المعتاد عادة في الإحالة الضميريّة، ولكنّ النص يحمل إحالة كليّة بصيغته الكاملة إلى الموقف الحاصل على أرض الواقع واستخدم بسببه المثل.

وهي إحالة كليّة يحيل إليها النص كلّ ونوعها إحالة خارجيّة تداوليّة عهديّة، وهذا هو حال نصوص الأمثال كلّها؛ فكلّها تحمل إحالة كليّة خارجيّة تداوليّة عهديّة، ومعنى ذلك أنّ لفظ النص يحيل إلى معنى ثابت متعارف عليه بين مستعملي اللغة بغضّ النظر عن تفاصيل الواقعة أو شخصها الماثلين.

فهذا النص النموذج يحيل إلى ما يصنعه الغاضب إذا تعرّض إلى ما يفجّر غضبه؛ فإذا كان الغاضب في الموقف الأول الذي أنتج هذا النص قد كسر النصال والسهم إذا كُلم بكلام

١- أرعاط: جمع الرُعْط، مدخّل النصل في السهم، وإنّما يكسره إذا كلمته بكلام يغيظه فيخط في الأرض بسهامه فيكسر أرعاطها من الغيظ. الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، ص ٥٥.

٢- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١٤٣) ج ١، ص ٥٥.

يغيظه، فإن الغاضب في المواقف المتجددة قد لا يكسر نصلاً أو سهماً، بل يفعل أشياء أخرى تعبّر عن الغضب، ومع ذلك يمكنك استخدام المثل في حقّه.

والإحالة الخارجية كما أسلفت ترتبط بالمقام التداولي المحيط بالنص أو الملفوظ؛ فالعناصر الإحالية نحو الضمائر والإشارات والموصولات وظروف الزمان والمكان يرتبط تفسيرها بالمقام الإشاري الخارجي، ومن ثم فسياق الحال أثر حاسم في تأويلها وتحديد دلالاتها وضبط معانيها؛ لأنّها عناصر لسانية فارغة معجمية، ولا يكون لها من معنى إلا عند تموضعها في سياق تركيبى فحينئذ تفسّر في إطار بنية النص أو في بنية السياق المقامي، والنص هنا يفسّر بإشارات ومعانٍ قائمة بالخارج، وتعد هذه الإشارات منه بمنزلة الأسباب التي أوجده؛ لذا إذا فهمت هذه الأسباب الخارجية زال إشكال الإبهام، وحصل بالتالي فهم دلالة النص بوساطة هذه الإحالة الخارجية^(١).

أمّا كون هذه الإحالة تداولية فذلك أنّ المتغيرات المقامية هي الفصل هنا في الفهم؛ لأنّ الإشارات اللسانية -بموجب التداولية كما يذكر (فرانسواز أرمينكو)- تعيش بالاستعمال^(٢)، ومن ثم تكون العناصر الإشارية المتعلقة بالعنصر الإحالي هي «المعرفة المفترضة التي تسمح لنا بالإتيان بمعلومات إضافية تخصّه»^(٣). وتكشف الإحالة الخارجية عن التفاعل المتبادل بين اللغة والموقف؛ «الموقف يؤثر بقوة في استعمال طرق الإجراء»^(٤).

ولا ريب أنّ البحث في الإحالة وتفسيرها يخضع للكفاءات القرائية وامتلاك الأدوات النصية: الشكلية، والدلالية، والتداولية، بل يقتضي فكّ شفراتها وتأويلها من المتلقّي أن يتموضع مكان المخاطب والمخاطب ليستطيع دخول عالم النص، بالإضافة إلى تجاوزه البنية اللسانية الداخلية المغلقة إلى الفضاءات التداولية للنص، ومن ثم الانفتاح على المرجعيّات الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية التي ينتمي إليها الخطاب.

١ - صبحي الفقي، علم اللغة النصي، ج ١، ص ٦٨.

٢ - ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د. ط، د. ت، ص ٢٢.

٣ - سعيد بنكراد، المؤلّ والعلاقة والتأويل، مجلة فكر ونقد، ع ١٦، ١٩٩٩، ص ٥١.

٤ - بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٣٣٩.

ومن الأمور المهمّة في الإحالة التداوليّة أنّ المقتضي لها هو مراد المتكلّم لا نظام اللغة، ولا شك أنّ الغاية التي يقصدها المتكلم والنتائج العمليّة والسلوكيّة التي تحدثها العبارة في المخاطب والمستمعين من أبرز عوامل المقام التي تشكل المعنى التداولي لعبارة ما، ومن الجدير بالإشارة إلى أنّ حازم القرطاجنيّ أورد شيئاً يتّصل بهذا الشأن؛ فهو يرى أنّ بعض المعاني يتوقف فهمها على أمر ما، وهذا الأمر الـ (ما) قد يكون معرفة صناعة ما، أو حفظ قصة ما؛ لكون المعنى متعلقاً بتلك القصة، وهذه القصة إما أن تكون مشهورة، وإما أن تكون غير مشهورة^(١).

وسمّاها (إحالة) لأنّ الشاعر يحيل بالمعهود إلى المأثور^(٢)، ويقول: «وأما التواريخ والقصص فإمّا أن تكون الإحالة فيها إحالة تذكّرة أو إحالة محاكاة أو مفاضلة أو إضراب أو إضافة، وقد تكون جهات آخر غير هذه»^(٣).

ويتحدّث عن منشأ الإحالة عند المتكلم «ولاقتباس المعاني واستثارتها طريقان: أحدهما تقتبس منه لمجرد الخيال وبحث الفكر، والثاني تقتبس منه بسبب زائد على الخيال والفكر»^(٤)، ثم يقول عن الطريق الثاني: «والطريق الثاني الذي اقتباس المعاني منه بسبب زائد على الخيال هو ما استند فيه بحث الفكر إلى كلام جرى في نظم أو نثر أو تاريخ أو حديث أو مثل، فيبحث الخاطر فيما يستند إليه من ذلك على الظفر بما يسوّغ له معه إيراد ذلك الكلام أو بعضه بنوع من التصرف والتغيير أو التضمنين، فيحيل ذلك أو يضمّنه أو يدمج الإشارة إليه أو يورد معناه في عبارة أخرى على جهة قلب أو نقل إلى مكان أحقّ به من المكان الذي هو فيه، أو ليزيد فيه فائدة فيتمّمه أو يتمّم به، أو يحسن العبارة خاصة...»^(٥).

وهذا الكلام يتقاطع مباشرة مع عملي في المثل؛ فالمتلقّي ينبش مخزونه المعرفي ويعكس ذلك على النص ليفهمه.

إذاً فمنطلق تحديد الإحالة عند حازم هو كونها علاقة معنوية يقتضيها قصد المتكلم لا

١ - ينظر: حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ١٨٨-١٨٩.

٢ - ينظر: المرجع السابق، ص ١٨٩.

٣ - نفسه، ص ١٠٥-١٠٦.

٤ - نفسه، ص ٣٨.

٥ - نفسه، ص ٣٩.

نظام اللغة «إنَّ الإحالة التداولية يمكن وصفها بأنها علاقة مزدوجة بمعنى أنَّها تتألف من علاقتين الأولى؛ مقامية بحثة بين المتكلم والمخاطب، والثانية: لغوية بين المحال به والمحال عليه»^(١).

أما كون الإحالة في المثل عهديَّة فهي لأنَّها تعتمد على المعرفة السابقة لدى المخاطب، ونجاح عملية الإحالة يعتمد على قدرة المستمع أو القارئ على تعرّف المعنى الذي قصده المتكلم باستعمال العبارة المحيلة حتى يفهم الرسالة اللغوية الموجهة إليه. والإحالة العهديَّة هنا هي من قبيل العهد الذهني؛ لأنَّ المحال إليه غير مذكور والعهد الذهني يعتمد على قرينة غير حاضرة في السياق الحالي، وهنا تتحدّد درجة الفهم بقدرة المتلقّي على استثارة المعلومات في ذهنه وربطها بالنص.

النموذج الثاني:

المثل ذو الرقم (٢٠٩) في مجمع الأمثال:

«إِنَّكَ لَا تَجْنِي مِنَ الشَّوْكِ الْعِنَبَ»^(٢)

«أي لا تجد عند ذي المنبت السوء جميلاً، والمثل من قول أكنثم، يقال: أراد إذا ظلمت فاحذر الانتصار فإنَّ الظلم لا يكسبك إلا مثل فعلك»^(٣).

إنَّ هذا المثل لو استخدمه قائل ما في سياق جديد فإنَّه قد لا يقصد بالكاف المخاطب، بل من ينطبق عليه المعنى المجرّد للمثل، وقد لا يُحيل الضمير في «تجني» وهو (أنت) إلى المخاطب أيضًا.

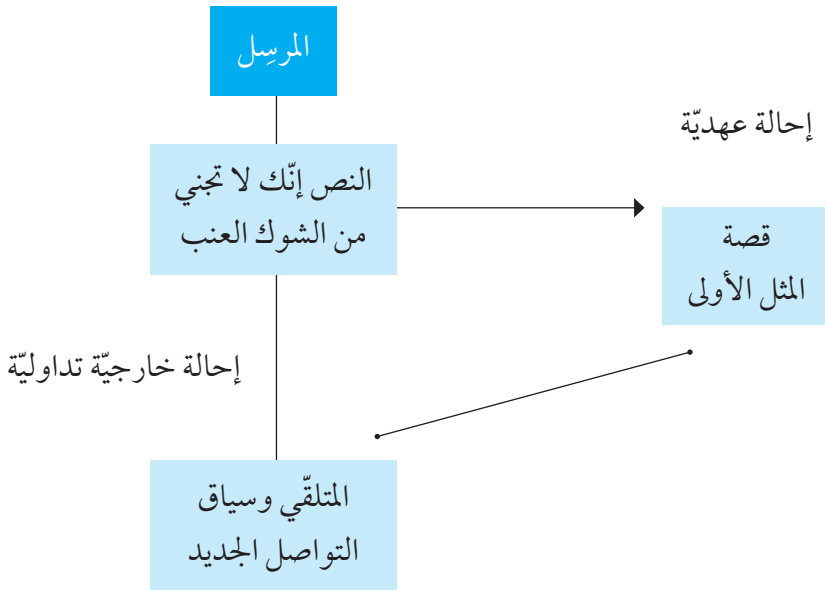
وبالضرورة فإنَّ الشوك لا يقصد به الشوك على الحقيقة، والعنب ليس عنبًا على وجه التعيين. فهذا النص فيه إحالة خارجية تداولية عهديَّة؛ خارجية لأنَّ فهم المعنى متوقف على شيء خارج النص وموجود في المقام، وتداولية لأنَّ فهم النص متصل بمستعملي اللغة ومقصد

١ - تامر عبد الحميد، الإحالة في القرآن الكريم، ص ٤٧.

٢ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٢٠٩) ج ١، ص ٧٦.

٣ - المرجع السابق، ج ١، ص ٧٦.

المتكلم وما يريده من المخاطب، وعهديّة لأنّ الفهم متوقف على إدراك المخاطب للمقصد العرفي المعهود من مثل هذا النص الذي يتّسم بالسيرورة والتداول:
 وثمة إحالة أخرى مستترة توحى إلى حادثة قديمة أو قصة قديمة استخدم فيها النص أوّل مرّة، وهذا معلوم من معرفة أطراف الخطاب بأنّ النص «مثل»، ويمكن توضيح ذلك عن طريق الشكل الآتي: شكل رقم (٩)



النموذج الثالث:

المثل ذو الرقم (١١٣) في مجمع الأمثال:

«إِنْ كُنْتَ رِيحًا فَقَدْ لَاقَيْتَ إِعْصَارًا»^(١)
 «قال أبو عبيدة: الإعصار ريحٌ تهبّ شديدة فيما بين السماء والأرض. يضرب مثلاً
 للمُدِلِّ بنفسه إذا ضلّي بمن هو أدهى منه وأشدّ»^(٢).

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (١١٣) ج ١، ص ٤٦.

٢- المرجع السابق، ج ١، ص ٤٦.

إنّ هذا المثل لو استخدمه قائل ما في سياق جديد فإنّه قد لا يقصد بالضمير المتّصل في «إن كنت» المخاطب، بل من ينطبق عليه المعنى المجرد للمثل، وقد لا يُحيل الضمير كذلك في «لاقيت» إلى المخاطب أيضًا.

وبالضرورة فإنّ الريح لا يقصد بها الريح على الحقيقة، والإعصار ليس إعصارًا على وجه التعيين.

فهذا النص فيه إحالة خارجية تداوليّة عهديّة؛ خارجية لأنّ فهم المعنى متوقف على شيء خارج النص وموجود في المقام، وتداوليّة لأنّ فهم النص متصل بمستعملي اللغة ومقصد المتكلم وما يريده من المخاطب، وعهديّة لأنّ الفهم متوقف على إدراك المخاطب للمقصد العرفي المعهود من مثل هذا النص الذي يتّسم بالسيرورة والتداول، وثمة إحالة أخرى مستترة توحى إلى حادثة قديمة أو قصة قديمة استخدم فيها النص أوّل مرّة، وهذا معلوم من معرفة أطراف الخطاب بأنّ النص مثل.

ولذلك تعد البنية الإحاليّة من أجود الأبنية التي تتشكّل منها البنية الكلّيّة للنص، لذلك أوضح (ستراوسن) أنّ الجملة بعينها، أي مغزى بعينه قد يشير إلى الخارج، وقد لا يشير اعتمادًا على الأحوال أو سياق فعل الخطاب؛ فالإحالة إلى الخارج هي ما تقوم به الجملة في مقام معيّن، واستنادًا إلى استعمال معيّن^(١)، وهذا ما ذهب إليه (بيوجراند) حين أشار إلى أنّ الإحالة عمل إنساني، وليست من خواصّ المركّب الاسمي، ويقول: «إنّ تعبيرات الإحالة (referring expressions) لا يمكن تناولها بدون مواقفها (their context)، ويبدو لي أنّ الإحالة تحدث في الواقع من مجمل نموذج عالم النص (TEXT WORLD MODEL)، فإذا وفقّ الناس بين المحتوى والمواقف، وما يكون لهم من أفكار عن العالم الحقيقي، فإنّ النموذج المستكمل لعالم النص سيعطي أوضح الإشارات لما يبحثون عنه»^(٢).

١ - ينظر: <http://www.lissaniat.net/viewtopic.php?t1148>.

٢ - بيوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص ٣٣٤.

النموذج الرابع:

المثل ذو الرقم (٧٥٠) في مجمع الأمثال:

«تَرَكَتُ عَوْفًا فِي مَغَانِي الْأَصْرَمِ»^(١)

«يُقَالُ لِلذَّنْبِ وَالْغُرَابِ: الْأَصْرَمَانِ، يَقُولُ تَرَكَتُهُ فِي مَنْزَلٍ لَا أُنِيسَ بِهَا وَلَا يَسْكُنُهَا إِلَّا الذَّنْبُ أَوْ الْغُرَابُ. يُضْرَبُ لِمَنْ يَخْذُلُ صَاحِبَهُ فِي حَادِثٍ أَلَمَ بِهِ»^(٢).

إنّ هذا المثل لو استخدمه قائل ما في سياق جديد فإنّه قد لا يقصد بذكره «عوفًا» المخاطب، بل من ينطبق عليه المعنى المجرد للمثل، وبالضرورة فإنّ «عوفًا» لا يُقصد به اسم المخاطب على الحقيقة، كما أنّ «مغاني الأصرم» ليست مقصودة على وجه الحقيقة.

فهذا النص فيه إحالة خارجية تداوليّة عهديّة؛ خارجية لأنّ فهم المعنى متوقف على شيء خارج النص وموجود في المقام، وتداوليّة لأنّ فهم النص متصل بمستعملي اللغة ومقصد المتكلم وما يريد من المخاطب، وعهديّة لأنّ الفهم متوقف على إدراك المخاطب للمقصد العرفي المعهود من مثل هذا النص الذي يتّسم بالسيرورة والتداول، وثمة إحالة أخرى مستترة توحى إلى حادثة قديمة أو قصة قديمة استخدم فيها النص أوّل مرّة، وهذا معلوم من معرفة أطراف الخطاب بأنّ النص مثل.

وبدون خاصيّة الإحالة لا يمكن للعلامة اللغويّة أن تكون ذات معنى؛ فالإحالة هي التي تمنح العلامات معناها من حيث علاقتها الجدليّة بالفكر والواقع الذي تعبّر عنه، وبما أنّ الإحالة وظيفة لغويّة دلاليّة في الآن ذاته، فإنّها تمنح العلامة اللغويّة كينونتها داخل اللغة وخارجها عند مستعمليها.

ولذلك ذهب حازم القرطاجيّ إلى أنّ الإحالة إلى قصّة ما معروفة أمر حسن، أمّا إذا كانت القصّة غير مألوفة، فإنّ ذلك غير مستحسن، «وملاحظات الشعراء والأخبار المستطرفة في أشعارهم، ومناسبتهم بين تلك المعاني المتقدمة والمعاني المقاربة لزمان وجودهم، والكائنة فيها التي يبنون عليها أشعارهم ممّا يحسن في صناعة الشعر. ويجب للشاعر أن يعتمد من

١- الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٧٥٠) ج ١، ص ٢٢٢.

٢- المرجع السابق، ج ١، ص ٢٢٢.

ذلك المشهور الذي هو أوضح في معناه من المعنى الذي يناسب بينه وبينه، ويعلقه على طريق التشبيه أو التنظير أو المثل أو غير ذلك. ويسمى ما تسبب إلى ذكره من القصص المتقدمة الماثورة بذكر قصة أو حال معهودة، الإحالة؛ لأنّ الشاعر يحيل بالمعهود إلى الماثور... وإذا وقعت الإحالة الموقع اللائق بها فهي من أحسن شيء في الكلام، فلتذكر ما مضى من الأمور التي يقلّ نظيرها فيما هي عليه من الأوصاف التي تميل النفوس أو تنفر عنها... فتتحرك النفوس بما قد ارتسم فيها من صفة القصة الأولى إلى اعتقاد القصة الأخرى على مثل تلك الصفة»^(١).



١ - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص ١٨٩-١٩٠.

سادساً: آليات التأويل في المثل:

يعدّ التأويل في جوهره إعادة بناء المعنى، وما يرتبط بذلك من إجراءات فك رموز الخطاب التي يلجأ إليها المخاطب، وهي في مجملها آليات تتصل بتفعيل المعارف اللغوية وغير اللغوية. ووفقاً لنموذج (كنتش) و(ثمان ديك) للفهم فإنّ التأويل مبني على أنّ فهم الخطاب إجراء استراتيجي يقتضي بناء تمثيل ذهني يحلل الخطاب بالاستناد إليه.

ومدار هذا النموذج الوقوف على أساس النص، أو البنية الكبرى وهي الوصف الدلالي المجرد للمحتوى العام الذي يشكّل حصيلة القضايا الملخصة لأجزاء النص، والوصول إلى الشبكة التصورية للنص^(١)، ولا ريب أنّ الوصول إلى هذا تتصافر فيه عدد من العناصر المركزية من وجهة نظر الباحث:

١- الغرض والوظيفة: فالخطاب له وظيفة معيّنة في السياق الاجتماعي، وفيما يتصل بالمثل فإنّ المثل في أحد تعريفاته: «عمل كلامي يستحثّ قوة ما على التحرك، ويعتقد قائله أنّه يؤثر أعظم الأثر في مسار الأمور وفي سلوك الناس»^(٢).

والوقوف على هذا الغرض وهذا الأثر يساهم في تأويل النص؛ فالقصدية تؤدّي مهمة رئيسة في قراءة النص وتأويله.

٢- الجانب التواصلية: فالخطاب له موقع في السياق التواصلية، وبحسب هذا الموقع يحدث التأويل، وكذا المثل فإنّه جزء من سياق تواصلية، ووضعه في موضعه من هذا السياق يعيننا في التأويل.

٣- البنية العليا للنص / أو جنس النص: إنّ النص هو مثل، وبمجرد هذا الوصف ينصرف الذهن إلى نوع معين من آليات التأويل تختلف عن بقية النصوص، والبنية العليا تشكل أداة مهمة للقيام بتحليل تنازلي للخطاب.

٤- سياق الحال أو المقام: فالخطاب محكوم بالقيود التي يحددها المقام، والاستدلال على دلالة الخطاب يحدث في جزء منه بالرجوع إلى السياق؛ وذلك لكونه المؤسس للفرضيات

١- ينظر: ربيعة العربي، في تصوّر الخطاب، ج ١، ص ١٠٥.

٢- عبد الناصر كعدان، الأمثال الشعبية المتعلقة بالطب والصحة في بلاد الشام، بحث منشور ضمن مؤتمر تاريخ العلوم عند العرب، ص ٨.

التي يقيمها المخاطب حول المعنى، إنَّ أهميَّة السياق تكمن في أنَّه يُمكن (كما أشار إلى ذلك إمرل ١٩٩٥) من أن يسدَّ الثغرات التصوريَّة التي قد يتضمَّنها الخطاب^(١). ووفقاً لمقولات (ديك) حول السياق^(٢) فإنَّ التمثيل الذهني الذي يبنيه المشاركون في الحدث الكلامي لتوجيه الأحداث التواصلية، يمثِّل النوايا والمقاصد ووجهات النظر والتوقعات والآراء، وما يعتقدونه المشاركون بخصوص بعضهم، وبخصوص التفاعل الحاصل أو بخصوص النص المكتوب أو المقروء.

ووفقاً لنموذج (ديك) فإنَّ المتلقِّي يقوم بإعادة تكييف الخطاب حسب الواقعة وحسب السياقات المتجدِّدة، وهو يتطلَّب مهارة من المخاطب.

وتحت مفهوم «الملاءمة» يصف (ديك) جهد المشاركين في الحدث الكلامي في انتقاء خصائص ملائمة من السياق تساعدهم على الوصول إلى تأويلات مناسبة للحدث الكلامي، وهي تأويلات متغيِّرة حسب الأشخاص؛ فهم يتقنون الخصائص الملائمة من السياق للتأويل، وهذا مهم في فهم المثل.

٥- التلاحم الإحالي، وقوامه إيجاد تلاحم بين النص وبين البنى المعرفية التي يملكها المتلقِّي. وهذه المعارف عبارة عن مجموعة من «التصورات والتمثيلات المستمدَّة من المحيط والذاكرة والثقافة والتفاعلات التي ينظمها البعد اللغوي ويتم استثمارها في الخطاب»^(٣).

٦- التأويل يتصل بإحدى خصائص النصية وهي «الإعلامية»، وتتعلَّق بالحكم الذي يشتمل عليه النص، والأخبار والمعلومات وكذلك مدى التوقع الذي يبنيه المتلقِّي، والجدَّة في المعلومات التي اشتمل عليها النص.

وكلُّ هذا مرتبط بثقافة المتلقي وبداهته وقدرته على استمرار الاتصال؛ لأنَّ المتلقِّي عندما يتلقَّى النص لا يتلقَّاه خلواً من أيِّ سابقة دلالية، بل يتلقَّاه مزوداً بالأعراف والتقاليد القرائية والثقافية التي يوفرها له مجتمعه ليصبح لفهم النص عنده أفقان متقابلان: أفق النص، وأفق المتلقِّي، وهما ينصهران ليولِّداً عملية القراءة أو التلقِّي أو التأويل التي تسهم في صنع الخطاب النصي.

١ - ينظر: ربيعة العربي، في تصوّر الخطاب، ج ١، ص ١٠٦.

٢ - ينظر: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٧.

٣ - ينظر: نفسه، ج ١، ص ١١٢.

إنَّ شدة اختزال المثل منحه مفاتيح كينونته الإشاريّة، وجعلته يفتح واسعاً على باحة التأويل.

وإنَّ سيورته وتداوله بين الخاصّة والعامة من المفاتيح الإضافيّة، كما أنَّ سياق التواصل بكلّ تفاصيله يعدّ مفتاحاً كبيراً في التأويل.

وكلّ هذا يحدث بتناغم وتضافر كبيرين، وأيّ ضعف في أيّ من المعطيات السابقة قد يضعف عمليّة التواصل، وقد يضعف عمليّة التأويل، وقد يؤدي إلى ما يسمّيه علماء الاتصال «انهيار الاتصال»، وهذا يحدث أحياناً إذا بُتر المثل من سياقه النصّي الكامل كما أشار إلى ذلك الأزهري في تعليقه على المثل «إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ»^(١) قال: «إنّ هذا الخبر -يعني إنّ ممّا ينبت الربيع...- إذا بُتر لم يكد يفهم»^(٢).

وهنا تتفاوت الأمثال في سيورتها وتناولها وقدرة المتلقّين على التقاط بنيتها الكبرى.

خلاصة:

درس هذا الفصل نحو النص ذي الجملة الواحدة، في مجمع الأمثال للميداني، من مستويات ستة، هي: النص ذو الجملة الواحدة ومقولات التماسك النصّي، والبنى النصيّة النص ذي الجملة الواحدة، وإعادة بناء النص، والحذف في النص ذي الجملة الواحدة، والبنية الإحاليّة في النص ذي الجملة الواحدة، وآليات التأويل في المثل.

وسعت هذه المستويات لاستقراء نحو النص ذي الجملة الواحدة، وأن تصف كيف استطاعت جملة واحدة أن تتمثّل سمات النص - من اكتمال وإغلاق وتماسك وغيرها- وأن تحتزن بنيتها الكبرى بجلاء، بل وكيف تفاعلت مع المتلقّي ليلتقط مفاتيح النص بأبعاده المختلفة.

وتضمّن هذا الفصل إحصاءات دقيقة للأشكال التركيبيّة التي ظهر عليها المثل ذو الجملة الواحدة في مجمع الأمثال للميداني، متبوعة بملحوظات وافية لدلالة تردّد كل شكل تركيبى منها.

كما تناول مجموعة من النماذج الدالّة المعبرة من الأمثال ذات الجملة الواحدة بالدراسة والتحليل، في سائر مستوياته الستة.

١ - الميداني، مجمع الأمثال، رقم المثل (٣) ج ١، ص ١٤-١٥.

٢ - المرجع السابق، ج ١، ص ١٤.

ويمكن القول: إنّ النص نظام كلي ينطوي على أبعاد دلاليّة ومحمولات معرفيّة تشكّل وحدة تواصلية في فضاء نصي مركب من مجموعة من العلاقات المتبادلة بين مجريات لغويّة ومعطيات إنجازيّة، فهو يخضع للدلالة العميقة المنتجة له، وإطار التلقي المفترض لمرحلة الإنتاج؛ فالتكوين النصي لا يقوم على مكوّنات التركيب وحدها، بل على نسق متكامل من اللغة والواقع؛ يمثل هذا النسق مزيجاً من مستويات التحقق اللساني والتصورات التي تنظم العالم النصي فتصهر البنية والدلالة حول موضوع الكلام.

وهذا التجانس والتماسك لا يقوم في النص إلا إذا ربطت بين وحداته علاقات اتساق داخلية مرتبطة بسياق تواصلية معيّنة ذي موضوع ما، وغرض محدّد، وهذه العلاقات تخضع للمعارف التي يستلزمها إنتاج النص وللدوال المعبرة عنه، ولمخزون المتكلم المعرفي، وما يفترضه هذا المتكلم حول مخزون المتلقي المعلوماتي.



الخاتمة

انطلقت هذه الدراسة من فكرة مفادها: أنّ النص قد يتألف من مجموعة من الجمل، كما قد يكون جملة واحدة.

في ضوء هذه الرؤية انتظمت أطروحة هذا البحث، وسارت فكرة «نحو النص» في وصف العلاقات الرابطة بين مكونات نص المثل ذي الجملة الواحدة وإحالاتها، وأخذت في الكشف عمّا يوحد بين مكونات النص الداخليّة وفضاءه الخارجي، وانتهت إلى النتائج الآتية:

١- أظهرت الدراسة وجود تباين بين اللسانيين في إمكانية توافر نص من جملة واحدة؛ وذهبوا في هذا مذهبين؛ الأول ينفي إمكانية أن يتألف النص من جملة واحدة، والثاني يرى أنّ النص قد يكون ذا جملة واحدة، وقد يتألف من متوالية من الجمل.

٢- النص هو وحدة دلالية، أو هو اللغة التي تؤدي وظيفة في بعض السياقات، وهذه الوحدة ليست شكلاً لكنّها معنى؛ لأنّ النص يتصل بالجملة أو بالعبارة بالإدراك لا بالحجم. وليس شرطاً لتصبح الكلمة أو الكلام نصّاً، أن يكون طويلاً أو قصيراً؛ فالكلمة أو الكلام إن تحققت فيه شروط النص أو بعض شروطه، ولاسيّما التماسك أو الترابط النصّي، صار نصّاً، ما دام هذا النص -مهما صغر- قد حمل دلالة مقصودة من المتكلّم في سياق ما، وأدّى وظيفته في التّواصل بين المتكلّم والمستقبل.

٣- تمثّل فكرة (جملة النص) التي جاء بها (جون لاينز)، خطوة متقدّمة في الربط بين مفهوم الجملة ومفهوم النص، ومن ثمّ نحو الجملة ونحو النص؛ ذلك أنّ بعض الجمل كالأمثال تمثّل نصّاً كاملاً، وأنّ دراسة الجمل مقترنة بسياقاتها، وهو ما تمثله جملة النص، يعدّ من أهمّ دعائم نحو النص.

٤- تتوافر في النصّ الجملة كلّ خصائص النصوص ذوات الجمل المتعدّدة، ومن ثمّ فخصائصه هي نفسها خصائص أيّ نص آخر.

٥- يقترب علماء لغة النصّ المُحدَثون من النقاد والبلاغيين العرب القدامى؛ فالمُحدَثون يربطون بين النصّ أو الخطاب وسياقه الخارجي من أجل التوصل إلى فهم أفضل للمعنى، أمّا النقاد والبلاغيون العرب القدامى فإنّهم ينظرون في المقال، فإن كان مطابقاً للمقام أو الحال مع فصاحته، فعندئذ يحكمون عليه بالبلاغة، وإلا فلا، ومعلوم أنّ البلاغة تعني إنهاء المعنى إلى السامع في أفضل صورة.

٦- لا يتناسب الفصل الحاد بين نحو الجملة ونحو النصّ مع الواقع الفعلي اللغوي؛ لأنّهما متكاملان؛ وذلك لأنّ النصّ ما هو إلاّ متتالية من الجمل، فكما أنّ الفونيم وحدة الكلمة، والكلمة وحدة الجملة، فإنّ الجملة وحدة النصّ، وذلك يؤكّد أنّ توسع مجال علم اللغة ليشمل النصوص وتوظيفها في الاتصال، لا يشكك مطلقاً بأهمية الوحدات اللغوية المعزولة (الفونيمات، والمورفيمات، واللكسيمات، والمركبات الاسميّة، والجمل).

٧- يمتاز التراث العربي بوجود نماذج واضحة ومؤثّرة من النصوص ذوات الجملة الواحدة، نحو نصوص الحديث النبويّ الشريف، وأقوال الصحابة والمشاهير، والتوقيعات، والأمثال.

٨- يمتاز التراث العربي بوجود نماذج واضحة ومؤثّرة من النصوص ذوات الجملة الواحدة، نحو نصوص الحديث النبويّ الشريف، وأقوال الصحابة والمشاهير، والتوقيعات، والأمثال.

٩- عُنِيَ علماء الأدب واللغة والتفسير عند العرب منذ وقت مبكر بجمع الأمثال وتصنيفها وتبويبها وشرحها، وجعلوا منها مادة تآديبيّة وتعليميّة وتربويّة، وزيّنوا بها آدابهم ودعموا أقوالهم، وعلّلوا أفعالهم، بحيث بقيت تلك الأمثال والحكم حيّة في تراثهم الكتابي والشفاهي إلى يومنا هذا، فلم تقتصر عنايتهم على الأمثال القديمة وحسب، بل قاموا في الفترات اللاحقة بتدوين الأمثال المولدة، وإضافتها في مواضعها من كتب الأمثال والأدب كما فعل الميداني (ت ٥١٨ هـ)، ممّا يعكس مدى وعيهم بأهمية هذا الجنس الأدبي.

١٠- تكاد الدراسات النحويّة لاسيما القديمة تتناسى تمامًا ما في المثل العربي من مسائل نحويّة مختلفة إلا الأمثال التي تدور في بعض مظان النحو القديمة.

١١- إنّ مستعملي اللغة، الذين سمعوا نص المثل، ووجدوا فيه ما يعبرّ تعبيرًا مكثفًا عن مراد «ما» في حوادث مشابهة، ووجد عندهم القبول؛ أي ترك أثرًا بليغًا ارتضوه أيقونة للتعبير عن السياقات المشابهة، هم المسؤولون عن تحوّل ذلك التعبير أو التركيب أو الجملة إلى مثل أو نص.

١٢- يمثّل نصّ «المثل» في صورته النصيّة المتداوِلة نصًّا موجزًا مكثفًا دالًّا على الحالة التواصلية القائمة بين المرسل والمتلقّي، بل إنّ قائل المثل يستحضره وهو يعتقد أنّه أنسب البنى اللغويّة أو الصياغيّة لتحقيق تصوّر والمقصود الذي يروم، أو هو الإصابة في التعبير عن المعنى المتضمّن في الموقف التواصلية بإيجاز وتكثيف واقتدار.

١٣- يعمد المرسل إلى اختيار نص المثل دون غيره من البدائل الصيغيّة أو الأبنية اللغويّة القادرة على أداء المعنى؛ لا اعتقاده أنّ نصّ المثل قادر على احتواء المعنى بكلّ تفاصيله وأبعاده وبأوجز عبارة؛ فالمثل له قدرة ليس على إيصال المعنى وحسب، بل على طبعه صورة في الذهن، أو الوصول به إلى غاية المدى.

١٤- ثمة عنصر تداولي مهم في اختيار هذا البديل الصياغي (المثل) دون غيره من الخيارات، هو اعتقاد المرسل أنّ المتلقّي سيتقبّل هذه الصيغة أكثر من غيرها، وأنها ستجد عنده رضى وقبولًا ولربّما تطمئنّ به نفسه، ولربّما تحقّق بعد هذه الأبعاد النفسية شيء من الاقتناع، ولعلّ واحدًا من أسباب وقوع المثل موقعًا حسنًا لطيفًا في النفس اعتماده على الإيحاء دون الإفصاح، وجودة الكناية فيه، والنفس بطبعها لا تحب المباشرة عادة في كثير من الأمور.

١٥- إنّ معرفة المرسل بالحادثة التاريخية أو السياق التواصلية الأوّل لإنتاج المثل، يزيده اقتدارًا على توظيفه في المقامات المتجدّدة، ويمنحه سعة في التوظيف والتنغيم، ويعطيه مزايا إضافية كمرسل بارع قادر على الإقناع، لكنّ هذا لا يعني أنّ عدم معرفة الحادثة التاريخية أو السياق التواصلية الأوّل لإنتاج المثل يمنعنا من ضرب تلك الأمثال، بدليل أنّ ثمة أمثالا وصلتنا ولم نعرف الحادثة التي قيلت فيها، وعرفنا المثل فقط، وثيمته التي يُضرب فيها، وهناك أمثال لها أكثر من رواية تاريخيّة ومع ذلك فنحن نستخدمها دون إشكال ممّا لا يجعل للسياق التاريخي الذي أنتجها القول الفصل في توظيفها.

١٦- إنَّ احتواء المثل على ميزة الإيجاز يدلُّ على شعريَّة المثل، وجماليتُه الفريدة التي جعلته في المصاف العُلَى من الأجناس الأدبيَّة، وجعلته حقيقاً بأن تتوارثه الأجيال وتناقله الألسن، وتؤلَّف فيه المجامع.

١٧- لا يعبر المثل عن الواقع مباشرة، وإنَّما يمثِّل له تمثيلاً عبر صورة أو قصَّة ما، لذلك كان كلُّ مثل في جملة (إشارة) تحيل إلى معنى أبعد؛ بمعنى أنَّ المثل يَحْتَزِل في عبارة موجزة ومكثَّفة تجارب إنسانيَّة تتسم بالتفصيل والامتداد؛ أي إنَّ المثل يحمل ويكثِّف ما هو مبسوط ومفصَّل على مستوى التجربة الفعلية، حيث يصبح الانتقال من الحدث الخارجي إلى بنية المثل مبنياً على التدرج من جزئيات إلى كليّات. ويخضع هذا المسار لمنطق تعليمي مبدؤه الكشف عن حقيقة كليَّة تتحوَّل إلى رمز يكتسي صبغة التعميم والحياد.

١٨- تؤدِّي ذاكرة اللفظ مهمة لافتة في تميّز المثل العربي؛ إذ أسهمت في تأدية المثل وظيفته التواصلية التفاعلية مع الأحداث والقصص والشخصيات من جانب، ومع المتلقّي من جانب آخر؛ إذ ينبنى المثل في خصيصة التكثيف على عملية تفاعلية يقوم بها بالتماس مع معطيات الثقافة، مع براعة المتلقّي في التقاط تلك الرموز التي يأتي بها المثل تاركاً للمتلقّي إسقاطها على مظانّها من الثقافة.

١٩- من أهم ما يميّز المثل العربي اقترانه بالحقائق المشتركة، وانفتاحه على التجربة العامة التي لا تتقيّد بتجربة قائل المثل الأوّل الذاتيّة، ولا تختص بالسياق الخاص الذي نشأت فيه، وإنَّما تنزع إلى ملاسة جميع الأحوال المماثلة لمضمونها، وقد يسر لها هذا الأمر الالتحام بتجارب الآخرين في ظروف تاريخيّة مغايرة، ممّا جعلها تكتسب صفة الصورة النموذجية التي تميّز بطابعها اللامكاني واللازماني.

٢٠- يمتاز نص المثل بخصائص تركيبيّة ودلاليّة وتداوليّة جعلته مؤثراً فيمن يسمعه، وينماز عن غيره من العبارات بصورة جليّة واضحة، فغداً جنساً أدبيّاً مهاجراً؛ بإمكانه أن يسافر إلى بيئات ثقافيّة مختلفة ومتعدّدة، ويُتداول في فضاء أكبر، ولعلّ هذه الخصائص -الدلاليّة والتداوليّة والتركيبية- هي ما أكسب المثل صفة الاستمراريّة والتفاعل مع المتلقّين للتعبير عن حالات وسياقات قابلة للتجدّد والإعادة في بيئات اجتماعيّة مختلفة لمدة زمنيّة طويلة حتى بعد تلاشي السياقات التاريخيّة التي نشأ فيها.

٢١- للتمثيل وضرب الأمثال قيمة بيانيّة سنّية؛ فالمثل يخاطب النفس من حيث تألف، وهو بذلك يجمع بين خبرة التذكّر والحسّ المباشر، الأمر الذي يجعله يتسلط على الحواس فيشغلها

بما هو من شأنها وطبيعتها. ولذلك فلا غنى للناس عن الأمثال، وهم يلجؤون إليها للتنفيس عما يلمّ بهم من ضيق أو كرب، ويعبرون بها لما يجدون بها في أنفسهم من سكينه، وفي قلوبهم من سلوى وطمأنينة، وهي أهم ما تحرص عليه الشعوب والأمم؛ لامتلائها بالتجارب الحيويّة الخاصة، التي عاشها الشعب عبر الماضي البعيد، إلى الحاضر القريب، وفيها إيجاز لهذه التجارب بشكل مثير للدهشة؛ فهي تلخّص الحياة في كلمات قليلة، تُحفظ عن ظهر قلب، لتؤدّي إلى الأجيال القادمة، وتُرَدّد بنصّها حتى لا تُصاب بالتحريف أو التغير، فتظل حكمة سائرة، تحمل نواميس الحياة وكنه أسرارها، وحلّ مشاكلها، إلى الأجيال الجديدة التي تجد في هذه الأمثال الكنز الذي تركه الأجداد لأبنائهم؛ حرصاً على مستقبلهم، وتوجيهاً لمسار حياتهم.

٢٢- ورد المثل ذو الجملة الواحدة في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٩٧٪)، وهي نسبة كبيرة ولافتة يجدر التوقّف عندها بالدرس والتحليل، على حين ورد المثل ذو الجمل المتعدّدة في الكتاب نفسه بنسبة (٣٪)، ممّا يجعل الجملة الواحدة هي الوعاء التركيبي الأمثل للمثل بسبب خصائص التكثيف والاختزال فيه.

٢٣- وردت الجملة الاسميّة الواحدة في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٥٧٪)، على حين وردت الجملة الفعلية بنسبة (٤٣٪)، وبذا يلحظ تفضيل المثل للجملة الاسميّة وعاءاً تركيبياً لبنيته.

٢٤- وردت الجملة الاسميّة مكتملة العناصر (بنية الإسناد) في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٣٦٪)، على حين وردت الجملة الاسميّة بحذف أحد ركنيّها (المبتدأ أو الخبر) بنسبة (٢٦٪)، وبذا يظهر تفضيل المثل للجملة الاسميّة مكتملة العناصر وعاءاً تركيبياً لبنيته.

٢٥- وردت الجملة الفعلية مكتملة العناصر (بنية الإسناد) في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٣٣٪)، على حين وردت الجملة الفعلية بحذف أحد ركنيّها (الفعل أو الفاعل) بنسبة (١٦٪)، وبذا يظهر تفضيل المثل للجملة الفعلية مكتملة العناصر وعاءاً تركيبياً لبنيته.

٢٦- وردت الجملة الاسميّة البسيطة في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٥٢٪)، على حين وردت الجملة الاسميّة موسّعة بنسبة (١٠٪)، وبذا يظهر تفضيل المثل للجملة الاسميّة البسيطة وعاءاً تركيبياً لبنيته.

٢٧- وردت الجملة الفعلية البسيطة في مجمع الأمثال للميداني بنسبة (٣٢٪)، على حين وردت الجملة الفعلية الموسّعة بنسبة (١٣٪)، وبذا يظهر تفضيل المثل للجملة الفعلية البسيطة وعاءاً تركيبياً لبنيته.

٢٨- أنسب الأوعية التركيبية للمثل ذي الجملة الواحدة هو الجملة الاسمية البسيطة؛ لما تميز به هذا النوع من اختزال وتركيز وتكثيف في المعنى، أكثر من غيره، وهو ما يميل إليه المثل في صياغة بنيته النحوية، بل هو ما تميل إليه العربية قصداً الخفة والسلاسة في إيقاع الكلام؛ إذ إن ذلك يكسب النص المثلي السعة في الاستعمال، والشيوع بين الناس؛ إذ ترددت الجملة الاسمية البسيطة في ٢٤١٧ مثلاً، والجملة الاسمية الموسعة^(١) في ٤٨٢ مثلاً، وبناء على هذا فالظاهرة المطردة في الأمثال هو الجملة الاسمية البسيطة.

٢٩- كان الإسناد الخبري العنصر الأساس الذي استندت إليه الجملة المثلية، وهو العنصر الذي ينشأ من التعالق التركيبي بين مكونات جملة المثل، فبرز في هذا التعالق التركيبي تلاحم العناصر الرئيسة لجملة المثل، وقوة الإسناد الرابط بينها؛ إذ كانت البنية النحوية للجملة المثلية «تابعة للمعاني تتكيف بشكلها، فإذا تزاوجت المعاني تزاوجت التراكيب مثلها، وإذا استرسلت استرسلت مثلها»^(٢).

٣٠- كان للجملة الفعلية حيز واسع في أمثال الدراسة، وإن كان بنسبة أقل من الحيز الذي أخذته الجملة الاسمية، وربما يُعزى ذلك إلى الفوارق التركيبية والدلالية، بين الجملة الاسمية والفعلية، فقد وردت الجملة الفعلية في ١٩٨٠ مثلاً، على حين وردت الجملة الاسمية في ٢٦٤٢ مثلاً.

٣١- شكّل إضمار الفاعل في الجملة الفعلية ظاهرة تركيبية بارزة في نصوص الأمثال؛ وربما يعود سبب وجود هذه الظاهرة في التركيب المثلي إلى أن أغلب الأمثال تتعلق دلالتها بالعوام دون الخواص؛ فهي لا تخص أحداً بذاته، بقدر ما تخص الحالة أو الموقف الذي ينسجم مع دلالتها ومضمونها.

٣٢- يتضح من استقراء الأمثال ذات الجملة الواحدة شيوع أسلوب الحذف في الأمثال المدروسة في الاسم بالدرجة الأولى يليه الفعل، والأسماء كما هو معلوم تدل على الثبات والديمومة، وهو ما كان له أبلغ الأثر في ثبات الأمثال في الأذهان وديمومتها حتى يومنا هذا، وهذا ما يمكن تفسيره بكثرة تداول الأمثال من جهة، وحث السامع على إعمال ذاكرته

١- الجملة الاسمية الموسعة هي الجملة التي تُصدّر بالنفي أو التوكيد، أو استخدام الأفعال الناقصة، والحروف الناسخة.

٢- ينظر: محمود المسعدي، الإيقاع في السجع العربي: محاولة تحليل ونقد، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٩٦، ص ١٧٧.

لمعرفة الفاعل أو تذكر قصة المثل من جهة أخرى، ويمكن تفسير ذلك أيضًا بحرص العرب على عدم التشهير بالآخرين، ولا سيما أن معظم الأمثال قيلت في مواقف ساخرة، ومنها ما قيل في الصفات والأخلاق لشخصيات معروفة بين العرب.

٣٣- لعلّ البيانات التي يذلل بها جامعو الأمثال نصوصهم من أهم ما يسهم في منح نصوص الأمثال خصوصيتها بالنظر إلى أهميتها موقعها بين جوانب نص المثل، ولا تكتفي دراسة تركيب قصة المثل واستكشاف طبيعتها بأن تضيء أمامنا حدود النص الداخلية، وإنما تسهم أيضًا في تحقيق نوع من الحضور للتجربة التي لا تنبثق صيغة المثل ولا يتأكد حضورها في وعي مجموعة لغوية من دونها.

٣٤- إن انسجام النص أو اتساقه يوجهها دائمًا قصد المرسل لهدف معين، وهو التأثير في متلق بعينه في ظروف معينة، وهذا القصد المعين، هو الذي يجعل المتلقي يتلافى الخلل في البنية الظاهرة للنص، ووجود القصدية يؤدي إلى التقبلية حتى مع وجود ذلك الخلل.

٣٥- إن المقام الذي حدث فيه النص في إنتاجه الجديد، والمقصد والمتلقي، وكفاءة المرسل في اختيار النص الموافق لذلك المقام، هي أهم عوامل تحقق الكفاءة النصية، أو هي مفاتيح التماسك النصي بمعناه الكلي والمفصل.

٣٦- يلاحظ أن الميداني كثيرًا ما يغفل ما يضرب فيه المثل خصوصًا عندما يذكر القصة، وكأنه يفترض أن السياق اللغوي الأول الذي وردت فيه، والمقام الذي قيل فيه كافيان لكي يستخرج القارئ ومستعمل المثل ثيمته بسهولة بالغة.

٣٧- تعد «الكفاءة النصية»، أي القدرة على جعل توالي النص خاضعًا لقصد المتكلم ومتوافقًا مع استعداد المتلقي لقبوله، عاملاً رئيسًا في إنشاء نص قادر على تحقيق الغرض المقصود منه دون أن يبقى على حلقات مفقودة عند المتلقي.

٣٨- تتعرض الكفاءة النصية لضرر كبير في حال اختار المرسل المثل غير الملائم للسياق التواصل الذي يكون فيه، أو إن لم يتمكن المتلقي من التقاط الرسالة، أو أخفق في تبين الجسور الواصلة بين الدال «البنية اللغوية» وما تحيل إليه في السياق التواصل، أو ما تحيل إليه من غرض.

٣٩- من أهم نتائج تحقق الكفاءة النصية حصول «الانسجام» بين أبنية النص المختلفة في ذهن المتلقي، وتصبح كل بنية منها زاوية مختلفة لفهم النص وقبوله بتشكيلاته المختلفة، وفي ضوء المقام الذي ورد فيه.

٤٠- يمكن تطبيق قواعد (شان ديك) في استخراج البنية النصية الكبرى الكلية على النصوص ذات الجملة الواحدة شريطة إعادة بنائها باستكمال ما حذف منها أولاً، لتكون جملة مكتملة نحويًا أولاً، ثم إعادة استخراج ما فيها من جمل مضمّنة.

٤١- يعد الإمساك بالبنية الدلالية الكبرى السبيل الأمكن إلى الوقوف على تماسك النص، كما أنّه السبيل إلى فهم النص وإعادة إنتاجه في مقامات مشابهة.

٤٢- إنّ التعقيب الذي كان الميداني يورده بعد المثل، وهو يشتمل على ما يُضرب فيه المثل، هو خليط من غرض النص ومقامه الذي يقال فيه، وبنية الكلية الكبرى، ومن الطبيعي أن تتداخل هذه العناصر الثلاثة بسبب الاختزال والتكثيف اللذين يتّسم بهما نص المثل أو النص ذو الجملة الواحدة.

٤٣- إنّ لنص المثل -الجملة الماثلة على السطح- معنى مباشرًا، لكنّ المعنى الكلي للنص أو الدلالة الكلية للنص لا تنجم عنه إلا بوصفه بنية كبرى.

٤٤- إنّ الانتقال من الدلالة الجزئية الماثلة في سطح الجملة إلى الدلالة الكلية، ليس انتقالًا معهودًا ومنظمًا من الجزء إلى الكل، بل هو مبني على مقتضيات الموقف التواصل في النص ذي الجملة الواحدة.

٤٥- إنّ بنية النص العليا أو جنسه يزوّد القارئ بالأعراف والتقاليد القرائية والثقافية التي يوفرها له مجتمعه في التعامل مع مثل هذا النص، ولا ريب أنّ المثل تُحيط به هالة من الأعراف القرائية والفهم لكثرة تداوله وسيرورته في المجتمعات.

٤٦- إنّ البنية العليا للنص مهمة في عملية القراءة والتأويل، وهي تساعد في إيجاد ترابطات دالة بين القضايا الماثلة على السطح، كما أنّها تشكّل أداة للقيام بتحليل تنازلي للخطاب.

٤٧- يحوي نص المثل على وجه التعيين فراغًا بنيويًا يهندي إليه القارئ بواسطة جنس النص (المثل)، وبوساطة التفاصيل التي يتيحها سياق الحال أو موقف التخاطب.

٤٨- يعد الإسناد الخبري العنصر الأساس الذي استندت إليه الجملة المثلية، وهو العنصر الذي ينشأ من التعالق التركيبي بين مكّونات الجملة المثلية، وبرز في هذا التعالق التركيبي تلاحم العناصر الرئيسة للجملة المثلية، وقوة الإسناد الرابط بينها؛ إذ كانت البنية النحوية للجملة المثلية تابعة للمعاني تتكيّف بشكلها، فإذا تزاوجت المعاني تزاوجت التراكيب مثلها، وإذا استرسلت استرسلت مثلها.

٤٩- شكّل المثل المكوّن من جملة واحدة، تشارك في تكوينها عناصر نحوية بسيطة، ومعدودة

في الوقت نفسه، النمط الأكثر شيوعاً ووروداً في الموروث المثلي؛ لما تميّز به هذا النوع من اختزال وتركيز وتكثيف في المعنى، أكثر من غيره، وهو ما يميل إليه المثل في صياغة بنيته النحويّة، بل هو ما تميل إليه العربيّة قصّد الخفة والسلاسة في إيقاع الكلام؛ إذ إنّ ذلك يكسب نص المثل السعة في الاستعمال، والشيوخ في سيره بين الناس.

٥٠- تندرج آليّة الإحالة في نص المثل تحت ما يسمّى بـ «التأويل»؛ وذلك لعدم وجود المحال إليه مباشرة داخل النص، ويجري تأويل مفاهيم النص وترجمة الإحالة عبر المقام ومقتضيات الموقف التواصلّي، والعلاقة بين المحيل والمحال إليه هي علاقة دلاليّة، وتتسم بالتوافق والانسجام.

٥١- إنّ الإحالة في نص المثل هي إحالة إلى خارج النص، وهذا الضرب من الإحالة يدلّ على وجود علاقات متشابكة ومتفاعلة بين اللغة والمواقف الاجتماعيّة والثقافيّة العامة؛ لأنّ الإحالة تقوم على مبدأ التفاعل بين المتلقّي والنص والمواقف التواصلّيّة خارج النص، ومن غير هذا التفاعل يصير الانتفاع بقراءة النص شيئاً غير مؤكد، وربّما غير موجود.

٥٢- يمسك المتلقّي في حالة نص المثل بخيوط الإحالة بتجاوز النظر في الوحدات اللغويّة منعزلة إلى النظر فيها منجزة مجرّاة في السياق؛ فالعناصر المحيلة لا تكتفي بذاتها، وهي محتاجة إلى استكمالها وذلك بواسطة العلاقات التي تنشأ مع البنى النصيّة، وما تثيره في ذهن المتلقّي نظاماً إشارياً متعدّد المدلولات يستخدم لإحداث التواصل.



المصادر والمراجع

- إبراهيم، عبد الله، (٢٠٠٠). التلقّي والسياقات الثقافية: بحث في تأويل الظاهرة الأدبية. (ط١)، بيروت: دار الكتاب الجديد.
- (٢٠٠٠). السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي. (ط٢)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم، (ت: ٦٣٧هـ). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. (ط٢). (تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة)، دار الرفاعي، الرياض، ١٤٠٣هـ.
- أبو أحمد، حامد، (٢٠٠٣). الخطاب والقارئ: نظريات التلقّي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة. (ط٢)، القاهرة: مركز الحضارة العربية.
- إديث، كيرزويل، (١٩٨٥). عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو. (ترجمة: جابر عصفور)، (ط١)، بغداد: دار آفاق عربية للصحافة والنشر.
- أرمينكو، فرانسواز، (١٩٨٦). المقاربة التداولية. (ترجمة: سعيد علوش)، (ط١)، بيروت: مركز الإنماء القومي.

- الأزهرى، محمد بن أحمد (ت ٣٧٠هـ). تهذيب اللغة. (ط ١). (تحقيق: رياض زكي قاسم)، دار المعرفة، بيروت.
- إسماعيل، عز الدين، (١٩٨٦). المكوّنات الأولى للثقافة العربيّة. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- الأشموني، علي بن محمد (ت ٩٠٠هـ). شرح الأشموني على ألفية ابن مالك. (ط ٢). (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد)، مكتبة النهضة المصرية.
- الأصفهاني، حمزة بن الحسن (ت ٣٥١هـ) الدرّة الفاخرة في الأمثال، مكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٣.
- الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤.
- الأصمعي، عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦هـ)، الأضداد، نشر أوغست هفner، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢.
- أمين، أحمد، (١٩٦٦). فجر الإسلام، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- - (١٩٥٣). قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصريّة، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والنشر.
- الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم (ت ٣٢٧هـ)، الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة التراث العربي، الكويت، ١٩٦٠ م.
- أنيس، إبراهيم، (١٩٨٥). من أسرار اللغة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- أنيس، تامر عبد الحميد، (٢٠٠٨). الإحالة في القرآن الكريم، (ط ١)، القاهرة: مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة.
- الأوسي، قيس إسماعيل، (١٩٨٨). أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، جامعة بغداد.
- بارت، رولان، (١٩٩٣). مدخل إلى التحليل البنيوي للقصوص. (ترجمة: منذر عياشي)، (ط ١)، الدار البيضاء: مركز الإنماء الحضاري.

- (١٩٨٦). درس السيميولوجيا. (ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي)، (ط ١)، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- (١٩٨٨). نظرية النص. (ترجمة: محمد خير البقاعي). مجلة العرب والفكر العالمي. (٣).
- بحيري، سعيد حسن، (٢٠٠٠). اتجاهات لغوية معاصرة في تحليل النص. علامات في النقد. ١٠ (٣٨)، ١٣٣-٢٢٢.
- (١٩٩٩). دراسات لغوية تطبيقية في البنية والدلالة. (ط ١)، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- (١٩٩٥). ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي. (ط ١)، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- (١٩٩٧). علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات. (ط ١)، مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان.
- البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري. ترقيم وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي، تقديم: أحمد محمد شاكر، (ط ١)، دار ابن الهيثم - القاهرة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- براون، ج. ب. ويول، ج. (١٩٩٧). تحليل الخطاب. (ترجمة: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي)، (ط ١)، الرياض: منشورات جامعة الملك سعود.
- برجستراسر. (١٩٨٢). التطور النحوي للغة العربية. (أخرجه وصحّحه وعلّق عليه رمضان عبد التواب)، (ط ٣)، القاهرة والرياض: مكتبة الخانجي، ودار الرفاعي.
- بروكلمان، كارل. تاريخ الأدب العربي. (نقله إلى العربية رمضان عبد التواب)، (ط ٣)، القاهرة: دار المعارف.
- البستاني، بطرس، (١٩٧٧). محيط المحيط. بيروت: مكتبة لبنان.
- بشر، كمال، (١٩٦٩). دراسات في علم اللغة. مصر: دار المعارف.
- بلاشير، ريجيس. (١٩٧٣). تاريخ الأدب العربي. (ترجمة إبراهيم الكيلاني)، دمشق: وزارة الثقافة.

- بنكراد، سعيد، (١٩٩٩). المؤول والعلاقة والتأويل. فكر ونقد. ١٦، ٤٤-٧٢.
- بنيس، محمد، (١٩٨٥). ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب: مقارنة بنيوية تكوينية، (ط٢)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- بوقرة، نعمان، (٢٠٠٩). المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، (ط١)، إربد: عالم الكتب الحديث.
- بومعزة، رابع، (٢٠٠٨). الجملة والوحدة الإسنادية الوظيفية في النحو، (ط١)، دمشق: مؤسسة رسلان.
- البيضاوي، عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (٤٥٨ هـ)، الجامع لشعب الإيمان، تحقيق مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٣.
- تحريشي، محمد. (٢٠٠٠). أدوات النص، (د. ط)، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- الترمذي، أبو عبد الله محمد بن علي، (ت: ٣٢٠ هـ). الأمثال من الكتاب والسنة. (تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا)، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٥.
- التهانوي، محمد علي الفاروقي. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. (تحقيق: علي دحروج)، مكتبة، بيروت، ١٩٩٦.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩ هـ)، تحفة الوزراء، تحقيق حبيب الراوي وابتسام الصفار، بغداد، ١٩٧٧.
- - التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت: ٢٥٥ هـ). البيان والتبيين، (تحقيق: عبد السلام هارون)، دار الجميل، بيروت، د.ت.
- جرار، صلاح، ومحمد الدروبي، (٢٠٠١). جمهرة توقيعات العرب، العين: مركز زايد للتراث.

- الجرجاني، عبد القاهر، (ت: ٤٧١هـ). أسرار البلاغة. (ط ١)، (قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر)، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني، جدة، ١٩٩١.
- الجمل في النحو، شرح يسرى عبد الغني، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٠.
- دلائل الإعجاز، (ط ٣)، (قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر)، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني، جدة، ١٩٩٢.
- المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٢.
- جرير بن عطية الخطفي (ت ١١٤هـ)، الديوان، شرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.
- جمعة، حسين، (٢٠٠٢). في جماليّة الكلمة: دراسة جماليّة نقدية. (ط ١)، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- جمعة، خالد، (٢٠٠٣). نظريّة النص: بين التنظير والإنجاز. علامات في النقد، ١٣ (٤٩)، ٥٥٨-٥٠٥.
- جمعي، الأخضر، ائتلاف اللفظ والمعنى في النقد العربي القديم، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة الجزائر، الجزائر، ١٩٨٨.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني، (ت: ٣٩٢هـ). الخصائص، (تحقيق: محمد علي النجار)، الهيئة المصريّة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.
- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، (تحقيق: مصطفى الحلبي)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٤.
- جينيت، جيرار، (١٩٨٦). مدخل إلى النص الجامع. (ترجمة: عبد الرحمن أيوب). (ط ٢)، الدار البيضاء: سلسلة المعرفة الأدبية.
- ابن الحاجب، أبو عمرو عثمان بن الحاجب (٦٤٦هـ)، الإيضاح في شرح المفصل، تحقيق موسى العليلي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٢.
- حجازي، محمود فهمي، (١٩٩٨). مدخل إلى علم اللغة. (ط ١)، القاهرة: دار قباء.

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (ط ١)، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، وتصحيح محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٨٩.
- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، (ت: ٦٥٦هـ). الفلك الدائر على المثل السائر، (تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة)، دار الرفاعي، الرياض، ط ٢، ٢٠٠٠.
- الحذيري، أحمد، التمييز بين المثل والحكمة في كتب الأمثال القديمة عند العرب، (١٩٩٠). حوليات الجامعة التونسية، ع ٣٢.
- من النص إلى الجنس الأدبي، (١٩٨٨). مجلة الفكر العربي المعاصر، ع ١٠٠-١٠١.
- الحريري، أبو محمد القاسم بن علي البصري (٥١٦هـ)، شرح ملحّة الإعراب، تحقيق فائز فارس، دار الأمل، إربد، ١٩٩١.
- حسان، تمام، (١٩٧٣). اللغة العربيّة: معناها ومبناها. (ط ١)، الدار البيضاء: دار الثقافة.
- حسن، عباس، (١٩٩٩). النحو الوافي. القاهرة: دار المعارف.
- حسنين، صلاح الدين، (٢٠٠٥). الدلالة والنحو. (ط ١)، القاهرة: مكتبة الآداب.
- حسين، جميل عبد المجيد، (٢٠٠٣). علم النص: أسسه المعرفيّة وتحليلاته النقديّة. عالم الفكر، ٣٢(٢)، ١٤١-١٧٨.
- حسين، طه، (١٩٣٣). في الأدب الجاهلي. (ط ٣)، القاهرة: لجنة التأليف والنشر.
- الحصري، أبو إسحق (ت: ٤٥٣هـ)، جمع الجواهر في المُلح والنوادر، بيروت، دار الجليل، ١٩٨٧.
- حلبي، أحمد طعمة، (٢٠٠٧). التناص بين النظرية والتطبيق: شعر البياتي نموذجاً، دمشق: الهيئة السورية العامة للكتاب.
- الحلواني، محمد، (١٩٨٣). مفهوم الجملة في اللسانيات والنحو، مجلة المناهل، ع ٢٦، الرباط.

- الحمزاوي، علاء إسماعيل. الجملة الدنيا والجملة الموسّعة في كتاب سيبويه: دراسة وصفية تحليلية دلالية. نسخة إلكترونية.
- حمودة، طاهر سليمان، (١٩٨٢). ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي. (ط١)، الإسكندرية: الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع.
- حمودة، عبد العزيز، (١٩٨٨). المرايا المحدبة: من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع ٢٣٢، ١٩٩٨.
- الحموز، عبد الفتاح (١٩٨٤). الحذف في المثل العربي. (ط١)، عمان: دار عمّار للنشر والتوزيع.
- الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت: ٦٢٦هـ). معجم الأدباء، (ط١)، دار المستشرق، بيروت، لبنان، ١٩٢٢.
- حميدة، مصطفى، (١٩٩٧). نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية. (ط١). مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان.
- الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن عماد، (ت: ١٠٨٩هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (ط١)، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩.
- الحنود، إبراهيم، (٢٠٠٤). الجمل المختلف في إعرابها، مجلة الدراسات اللغوية، المجلد السادس، ع ١.
- أبو حيان الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف (٧٤٥هـ)، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق رجب عثمان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨.
- البحر المحيط، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٨هـ.
- ابن الخشاب، عبد الله بن أحمد (٥٦٧هـ)، المرتجل، تحقيق علي حيدر، دار الحكمة، دمشق، ١٩٧٢.
- خطابي، محمد، (١٩٩١). لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب. (ط١)، بيروت والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- الخفاجي، ابن سنان، عبد الله بن محمد بن سعيد، (ت: ٤٦٦هـ). سر الفصاحة،

- (ط ١)، (تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان)، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٣.
- خلاف، عبد الوهاب، (١٩٧٨). علم أصول الفقه، (ط ١٢)، القاهرة: دار القلم.
 - ابن خلدون، عبد الرحمن، ت: ٨٠٨هـ. المقدمة. (ط ١)، تحقيق: عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
 - ابن خلكان، أحمد بن محمد، (ت: ٦٨١هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. (ط ١)، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨.
 - خلوصي، صفاء، (١٩٦٧). دراسة في الأمثال العربية القديمة. مجلة الأستاذ، مجلد ٤، عدد (١، ٢).
 - خليفة، حاجي، مصطفى بن عبد الله، (ت: ١٠٦٧هـ). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (ط ١)، (تحقيق: أحمد فريد الرفاعي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.
 - خليل، إبراهيم، (١٩٩٧). الأسلوبية ونظرية النص، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
 - الخوالدة، فتحي، (٢٠٠٦). تحليل الخطاب الشعري: ثنائية الاتساق والانسجام، (ط ١)، عمان: أزمنة للنشر والتوزيع.
 - الخولي، أمين، (١٩٤٧). فن القول، (ط ١)، القاهرة: دار الفكر العربي.
 - - (١٩٦١). مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، (ط ١)، القاهرة: دار المعرفة.
 - الخولي، محمد علي، (١٩٨١). قواعد تحويلية للغة العربية، (ط ١)، الرياض: دار المريخ.
 - الخويسكي، زين كامل، (١٩٨٦). الجملة الفعلية بسيطة وموسعة: دراسة تطبيقية على شعر المتنبي، (ط ١)، مصر: مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية.
 - الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر (٣٨٥هـ)، سنن الدارقطني، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٠.

- داود، أماني سليمان، (٢٠٠٩). الأمثال العربية القديمة: دراسة أسلوبية سردية حضارية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- أبو داود السجستاني (٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- دواي، عبد الرزاق. التخيل والتمثيل في الخطاب الفلسفي، ضمن كتاب: تكون المعارف. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
- دي بيوجراند، روبرت. (١٩٩٨). النص والخطاب والإجراء. (ترجمة تمام حسان)، (ط١)، القاهرة: عالم الكتب.
- دي سوسير، فرديناند، (١٩٨٥). علم اللغة العام. (تعريب صالح القرميدي وزميله)، (ط١)، تونس: الدار العربية للكتاب.
- ديشن، جاك، (١٩٩١). استيعاب النصوص وتأليفها. (ترجمة: هيثم لمع). (ط١)، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- ديك، ثنان، (٢٠٠١). علم النص: مدخل متداخل الاختصاصات. (ترجمة: سعيد حسين بحيري)، (ط١)، القاهرة: دار القاهرة للكتاب.
- - (١٩٩٧). النص بنياته ووظائفه. ضمن كتاب في نظرية الأدب: مقالات ودراسات (ترجمة: محمد العمري)، (ط١)، الرياض: سلسلة كتاب الرياض.
- - (٢٠٠٠). النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي. (ترجمة: عبد القادر قنيني)، (ط١)، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
- ديكرو، أوزوالد، وجان ماري سشفاير، (٢٠٠٣). القاموس الموسوعي لعلوم اللسان. (ترجمة: منذر عياشي)، (ط١)، البحرين: منشورات جامعة البحرين.
- الدينوري، أبو بكر أحمد بن مروان (ت ٣٣٣هـ)، المجالسة وجواهر العلم، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٨.
- الذهبي، شمس الدين أو عبد الله محمد بن أحمد (٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، (ط١)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠.

- الراجحي، عبده، (١٩٨٤). التطبيق الصرفي. (ط ١)، بيروت: دار النهضة العربية.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٥.
- ابن رجب، أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد البغدادي (٧٩٥هـ)، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٩٩١.
- رضا، محمد رشيد، (١٩٩٠). تفسير المنار. (ط ١)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الرضي، محمد بن الحسن الرضي الأستراباذي (٦٨٦هـ)، شرح الرضي على الكافية، تحقيق يوسف حسن عمر، (ط ٢)، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٦.
- شرح الرضي على الكافية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦.
- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (٣٨٤هـ)، رسالتان في اللغة: منازل الحروف، الحدود، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، ١٩٨٤.
- النكت في إعجاز القرآن، من كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، (ط ٣)، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦.
- روبول، آن، وموشلار، جاك، (٢٠٠٣). التداولية اليوم: علم جديد في التواصل. (ترجمة: سيف الدين ودغفوس ومحمد الشيباني)، (ط ١)، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- زتسيسلاف وأورزيناك، (٢٠٠٣). مدخل إلى علم النص: مشكلات بناء النص. (ترجمة: سعيد حسين بحيري)، (ط ١). القاهرة: مؤسسة المختار للنشر.
- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق النهاوندي، (ت: ٣٣٧هـ). الجمل في النحو، (ط ١)، (تحقيق: علي توفيق الحمد)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق

- محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.
- الزركلي، الأعلام، (ط ١٦)، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٥.
 - زلهام، رودلف، (١٩٨٤). الأمثال العربية القديمة مع اعتناء خاص بكتاب الأمثال لأبي عبيد. (ترجمة: رمضان عبد التواب)، (ط ٢). بيروت: مؤسسة الرسالة.
 - الزنجشيري، محمود بن عمر، (ت: ٥٣٨هـ). الكشف، (ط ١)، (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود)، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨.
 - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٢.
 - المستقصى في أمثال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.
 - المفصل في علم العربيّة، (ط ١)، (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود)، دار الجليل، بيروت.
 - الزمر، أحمد، معالم أسلوبية عند ابن الأثير من كتابه (المثل السائر)، مجلة المورد، ٣٠(٢).
 - الزناد، الأزهر، (١٩٩٣). نسيج النص: بحث في ما يكون به الملفوظ نصًا. (ط ١)، بيروت والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
 - أبو زنيد، عثمان، (٢٠١٠). نحو النص: إطار نظري ودراسات تطبيقية. (ط ١)، إربد: عالم الكتب الحديث.
 - الزهراني، إبراهيم (٢٠١٢)، الأنساق الثقافية في مجمع الأمثال للميداني: دراسة تحليلية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
 - أبو زيد، نصر حامد، (١٩٩٥). النص: السلطة الحقيقية، الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي.
 - السامرائي، إبراهيم، (١٩٧٠). في الأمثال العربية، الكويت: مطبعة حكومة الكويت.

- السامرائي، فاضل، (١٩٩٨). الجملة العربية: تأليفها وأقسامها، العراق: منشورات المجمع العلمي العراقي.
- السّد، نور الدين، (١٩٩٧). الأسلوبية وتحليل الخطاب، الجزائر: دار هومة.
- - (١٩٩٨). مفارقة الخطاب الأدبي للمرجع، المؤتمر العلمي الثالث (تحليل الخطاب العربي)، جامعة فيلادلفيا، جرش، (١٠-١٢ أيار ١٩٩٧).
- السدوسي، أبو فيد مؤرج بن عمرو، (ت: ١٩٥هـ). الأمثال، (ط ١)، (حققه وقدم له ووضع فهارسه رمضان عبد التواب)، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣.
- ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل النحوي البغدادي (٣١٦هـ). الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٨.
- سشايفر، جون ماري (٢٠٠٤). النص ضمن كتاب العلاماتية وعلم النص، (ترجمة: منذر عياشي)، (ط ١)، بيروت: المركز الثقافي العربي، المغرب: الدار البيضاء.
- السكاكي، أبو يعقوب محمد بن علي (ت ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وعلّق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.
- ابن سلام، أبو عبيد القاسم، (ت: ٢٢٤هـ). كتاب الأمثال، (ط ١)، (تحقيق: عبد المجيد قطامش)، دار المأمون للتراث، بيروت، ١٩٨٠.
- سليمان، محمد سليمان، (٢٠٠١). دراسات أدبيّة في الخطب والأمثال الجاهليّة، الإسكندرية: دار الوفاء.
- سبيويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، (ت: ١٨٠هـ). الكتاب، (ط ١)، (تحقيق: عبد السلام محمد هارون)، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٦.
- - الكتاب، (ط ١)، (تحقيق: عبد السلام محمد هارون)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٦.
- السيد، صبري إبراهيم، (١٩٩٤). لغة القرآن الكريم في سورة النور دراسة في التركيب النحوي، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- السيد، عبد الحميد، (٢٠٠٣). دراسات في اللسانيات العربية، عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع.
- سيرفوني، جان، (١٩٩٨). الملفوظية. (ترجمة: قاسم المقداد)، (ط ١)، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- سيلدن، رامن، (٢٠٠٢). رفض البنى النصية. (ترجمة: عزيز المطلبي)، مجلة نوافذ، عدد (٢٢).
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ). الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٩٩٧.
- الأشباه والنظائر في النحو. (ط ١)، (راجع و قدم له فائز ترحيني)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، (ط ٢)، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩.
- المزهري في علوم اللغة وأنواعها. (ط ١)، (تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرين)، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- همع الهوامع، تحقيق عبد العال سالم، دار البحوث العلمية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- الشاوش، محمد، (٢٠٠١). أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس نحو النص. (ط ١)، تونس: كلية الآداب بمنوبة، وبيروت: المؤسسة العربية للتوزيع.
- (١٩٨٢). ملاحظات بشأن دراسة تركيب الجملة العربية، مجلة الموقف الأدبي، ع ١٣٥٤-١٣٦.
- الشايب، أحمد، (١٩٥٦). الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية. (ط ١)، القاهرة: مكتبة نهضة مصر.
- شبل، عزة، (٢٠٠٩). علم لغة النص: النظرية والتطبيق. (ط ٢)، القاهرة: مكتبة الآداب.

- شبلنر، برند، (١٩٨٧). علم اللغة والدراسات الأدبية: دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النصّي. (ترجمة: محمود جاد الرب)، (ط١)، القاهرة: الدار الفنيّة للنشر والتوزيع.
- الشلوّيين، أبو علي محمد بن عمر (ت: ٦٤٥هـ). التوطئة، تحقيق يوسف أحمد المطوع، دار التراث العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٣ م.
- الشمسان، إبراهيم سليمان، (١٩٨١). الجملة الشرطيّة عند النحاة العرب. (ط١)، القاهرة: مطبعة الدجوى.
- الصاوي، أحمد عبد السيد، (١٩٧٩)، مفهوم الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين، الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الصّبّاغ، محمد، (١٩٧٢)، الحديث النبوي: مصطلحه، بلاغته، كتبه، دمشق: المكتب الإسلامي.
- الصبّان، محمد بن علي (١٢٠٦هـ). حاشية الصبان. (ط١)، (تحقيق طه عبد الرؤوف سعيد)، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- حاشية الصبان على شرح الأشموني، ومعه شرح الشواهد للعيني، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- الصبيحي، محمد الأخضر، (٢٠٠٨). مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه. (ط١)، بيروت والجزائر: الدار العربيّة للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف.
- صحراوي، مسعود، (٢٠٠٥) التداولية عند العلماء العرب، بيروت: دار الطليعة.
- صدقني، جورج، (١٩٨٠). في سيكولوجيا الأمثال العربيّة. المعرفة السوريّة، ٢١٩، ٣٣-٥.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤هـ). الوافي بالوفيات. (ط١)، (باعتناء مجموعة محققين)، فرانزشتاين، فيسبادن، ١٩٨١.
- أبو صيني، صالح (٢٠٠٧). نظام الإسناد في الجملة العربية، أطلس للدراسات، عمان - الأردن، مجلد ٢، عدد ١.

- ضيف، شوقي، (د.ت). العصر الجاهلي، (ط ١١)، مصر: دار المعارف.
- (د.ت). الفن ومذاهبه في النثر العربي. (ط ٨)، مصر: دار المعارف.
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي (٣٢٢هـ)، عيار الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الشامي (٣٦٠ هـ)، المعجم الأوسط في الحديث النبوي الشريف، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، د.ت.
- الطعان، صبحي، (١٩٩٤). بنية النص الكبرى، مجلة عالم الفكر، مجلد ٢٣، ع ١.
- طلحة، محمود، التداولية وتحليل الخطاب: نحو تحليل جديد لجنس المقامة في الأدب العربي، بحث منشور ضمن كتاب «التداوليات وتحليل الخطاب»، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٤، ص ٢٠٥-٢٣٠.
- عابدين، عبد المجيد، (١٩٨٦). الأمثال في النثر العربي القديم. القاهرة: دار مصر للطباعة.
- عاشور، المنصف، (١٩٩١). بنية الجملة العربية، منوبة - تونس: منشورات كلية الآداب.
- عاصي، ميشال، (١٩٨١). مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، (ط ٢)، بيروت: مؤسسة نوفل.
- عبادة، محمد إبراهيم، (١٩٨٤). الجملة العربية: دراسة لغوية نحوية، الإسكندرية: دار المعارف.
- عباس، فضل، (٢٠٠٠)، البلاغة: فنونها وأفنانها: علم البيان والبديع، عمان: دار الفرقان، ط ٧.
- عباس، لؤي حمزة، (٢٠٠٣). سرد الأمثال: دراسة في البنية السردية لكتب الأمثال العربية مع عناية خاصة بكتاب المفضل بن محمد الضبي. (ط ١)، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- عبد البديع، لطفي، (١٩٩٧). التركيب اللغوي للأدب (بحث في فلسفة اللغة

والأستطيقا)، (ط ١)، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، ومكتبة لبنان، القاهرة/بيروت، ١٩٩٧.

■ ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي (ت: ٤٦٣ هـ)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق أسامة إبراهيم، مكتبة الفاروق الحديثة، القاهرة، ٢٠٠١.

■ عبد الجليل، منقور، (٢٠٠١). علم الدلالة: أصوله ومباحثه في التراث العربي. (ط ١)، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

■ ابن عبد ربه، أبو شهاب الدين أحمد بن محمد، (ت: ٣٢٧ هـ). العقد الفريد. (ط ٣). (تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦.

■ عبد الرحمن، عفيف، الأمثال العربية على صيغة أفعل التفضيل، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، ع ٢١، ١٩٨٦. ص ٤٠-٨٦.
- الأمثال العربية القديمة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، ع ١٠، ١٩٨٣.

■ عبد العال، محمد يونس، (١٩٩٦). في الشتر العربي: قضايا وفنون ونصوص، (ط ١)، مصر: الشركة العالمية للنشر، لونجمان.

■ عبد الكريم، جمعان، التأريخ الصحيح للسانيات النص في اللغة العربية، منتدى اللسانيات، على الرابط الآتي: <http://www.lissaniat.net/viewtopic.php>

■ عبد اللطيف، محمد حماسة، (٢٠٠١). الإبداع الموازي: التحليل النصي للشعر، القاهرة: دار غريب.

- (١٩٩٦). بناء الجملة العربية، القاهرة: دار الشروق.

■ العبد، محمد، (٢٠٠٢). حيك النص: منظورات من التراث العربي، مجلة فصول، ع ٥٩.

- اللغة والإبداع الأدبي. (ط ١)، القاهرة: دار الفكر للنشر والتوزيع.

- (٢٠٠٥). النص والخطاب والاتصال. (ط ١)، القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.

■ عبد المجيد، جميل، (١٩٩٨). البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية. (ط ١)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- (١٩٩٩). بلاغة النص: مدخل نظري ودراسة تطبيقية. (ط ١)، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

■ عبد الواحد، عمر، (٢٠٠٣). التعالق النصي. (ط ١)، مصر: دار الهدى للنشر.

■ أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت: ٢١٠هـ)، مجاز القرآن، علّق عليه فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨ م.

■ العربي، ربيعة، في تصوّر الخطاب: آليات الإنتاج والتأويل، بحث منشور ضمن كتاب «لسانيات النص وتحليل الخطاب»، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٢ م، ج ١، ص ٩٥-١١٣.

■ عتيق، عبد العزيز، (١٩٧٤)، المدخل إلى علم النحو والصرف، (ط ٢)، بيروت: دار النهضة العربية.

■ عروس، بسمة، (٢٠١٠)، التفاعل في الأجناس الأدبية، بيروت: دار الانتشار العربي.

■ العزاوي، نعمة رحيم، (١٩٨٢). الجملة العربية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة. المورد، ١٠ (٣، ٤)، ١٠٩-١٢٧.

■ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، (ت: ٣٩٥هـ). جمهرة الأمثال. (ط ١)، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش)، المؤسسة العربية الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤.

- كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. (ط ١)، (تحقيق: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم)، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٧١.

■ ابن عصفور، أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي (ت: ٦٦٩هـ). المقرب ومعه مثل المقرب. (ط ٣). (تحقيق ودراسة عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض)،

- دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٦٩.
- شرح جمل الزجاجي. (تحقيق صاحب أبو جناح)، وزارة الأوقاف والشؤون الدينيّة، الجمهوريّة العراقيّة، ١٩٨٠.
- عفيفي، أحمد، (٢٠٠٣). الإحالة في نحو النص. نسخة إلكترونيّة.
- (٢٠٠١). نحو النص: اتجاه جديد في الدرس النحوي. (ط ١)، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (٦١٦هـ)، مسائل خلافية في النحو، تحقيق محمد خير الحلواني، دار الشرق العربي، بيروت، ١٩٩٢.
- عليان، يوسف، التماسك النصي في اللغتين «العربية والإنجليزية»: دراسة تقابلية في الربط النحوي، أطروحة دكتوراة غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ٢٠٠٢.
- علي، جواد، (١٩٨٩). المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. (ط ٢)، بيروت: دار العلم للملايين.
- أبو علي، محمد توفيق، (١٩٨٨). الأمثال العربية والعصر الجاهلي. (ط ١)، بيروت: دار النفائس.
- عمارة، خليل، (١٩٨٤). في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق. (ط ١)، جدة: عالم المعرفة.
- عمر، أحمد مختار، (١٤٠٢). علم الدلالة، (ط ١)، الكويت: دار العروبة للنشر والتوزيع.
- العمري، محمد، (٢٠٠٥). نظريّة الأدب في القرن العشرين، (ط ١)، المغرب: أفريقيا الشرق.
- العموش، خلود إبراهيم، (٢٠٠٥)، الخطاب القرآني: دراسة في العلاقة بين النص والسياق، إربد: عالم الكتب الحديث.
- (٢٠٠٨). الملامح الكبرى لنظام النص: سورة الزلزلة نموذجاً، المجلة الأردنية في

- اللغة العربيّة وآدابها، مجلد (٤) عدد (٢).
- عوض، يوسف نور، (١٩٩٤). نظريّة النقد الأدبي الحديث. (ط١)، القاهرة: دار الأمين.
- عياشي، منذر، (١٩٩٨). الكتابة الثانية: فاتحة المتعة. (ط١)، بيروت والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- أبو غزالة، إلهام، وعلي خليل حمد، (١٩٩٩). مدخل إلى علم لغة النص: تطبيقات لنظريّة روبرت دي بيوجراند وولفجانج دريسلر. (ط٢)، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (٥٠٥ هـ)، إحياء علوم الدين، اعتنى به محمد محمد تامر، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، ٢٠٠٤.
- الفارابي، أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم، (ت٣٥٠ هـ). ديوان الأدب، تحقيق أحمد مختار عمر، (ط١)، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٧٦.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، (ت٣٩٥ هـ). الصحاح في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: عمر فاروق الطباع، (ط١)، بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٩٣.
- مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٩٤٩.
- الفارسي، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (٣٧٧ هـ)، المسائل العسكريّات، تحقيق علي المنصوري، مطابع جامعة بغداد، ط١، ١٩٨٢.
- المسائل العسكريّات، تحقيق: علي المنصوري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٢.
- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (٢٠٧ هـ). معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار، محمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٣.

- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٧٥هـ). الجمل في النحو، تحقيق فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥.
- العين. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، (ط١)، بيروت: منشورات الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٨.
- فرج، حسام أحمد، (٢٠٠٧)، نظرية علم النص: رؤية منهجية في بناء النص التراثي، القاهرة: مكتبة الآداب.
- الفرخان، كمال الدين أبو سعيد بن علي بن مسعود بن محمود بن الحكم، المستوفي في النحو، تحقيق محمد بدوي، (ط١)، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٧.
- فضل، صلاح، (١٩٩٦). بلاغة الخطاب وعلم النص. (ط١)، مصر: الشركة المصريّة العالميّة للنشر - لونجمان.
- (١٩٨٥). علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته. (ط٢)، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
- (١٩٩٧). مناهج النقد المعاصر. (ط٢)، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
- الفقهي، صبحي، (٢٠٠٠). علم اللغة النصّي بين النظريّة والتطبيق. (ط١)، القاهرة: دار قباء للنشر.
- الفياض، محمد جابر، (١٩٨٨). الأمثال في القرآن الكريم، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب (٨٢٣هـ)، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٢٧٦هـ)، أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، ١٩٦٣ م.
- الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤.
- عيون الأخبار، تحقيق محمد الإسكندراني، ط٥، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٢.

- القرطاجني، حازم، أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن، (ت: ٦٨٤هـ). منهاج البلغاء وسراج الأدباء، (تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة)، دار الكتب الشارقة، تونس، ١٩٦٦.
- القزويني، الخطيب، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (ت: ٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، (ط ٢)، بيروت: مكتبة الهلال.
- القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (ت: ٤٦٥هـ)، الرسالة القشيرية، (تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي)، بيروت: دار إحياء التراث، ١٩٨٨.
- قطامش، عبد المجيد، (١٩٨٨). الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية. (ط ١)، دمشق: دار الفكر.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، (ت: ٦٤٦هـ). إنباه الرواة على أنباه النحاة، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، (ط ١)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦.
- القلقشندي، أبو العباس، (ت: ٨٢١هـ). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥.
- قياس، ليندة، (٢٠٠٩). لسانيات النص بين النظرية والتطبيق: مقامات الهمداني أنموذجاً. (ط ١)، القاهرة: مكتبة الآداب.
- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، (ت: ٤٥٦هـ). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي أيوب، أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، القاهرة، ١٩٦٩.
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تحقيق عصام فارس الحارستاني، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨.
- كريستيفا، جوليا، (١٩٩٧). علم النص. (ترجمة: فريد الزاهي)، (ط ٢)، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

- كعدان، عبد الناصر، الأمثال الشعبية المتعلقة بالطب والصحة في بلاد الشام، بحث منشور ضمن مؤتمر تاريخ العلوم عند العرب. نسخة إلكترونية.
- الكفوي، أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني، الكليات، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٢.
- الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور، (٥٥٠هـ)، إحكام صناعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.
- كوين، جون، بناء لغة الشعر، (١٩٩٣). ترجمة أحمد درويش، مصر: دار المعارف.
- لاينز، جون، (١٩٨٧). اللغة والمعنى والسياق. (ترجمة: عباس صادق الوهاب)، (ط ١)، بغداد: دار الشؤون الثقافية.
- لحمداني، حميد، (٢٠٠٣). القراءة وتوليد الدلالة: تغيير عادتنا في قراءة النص الأدبي. (ط ١)، الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي.
- لوهافر، سوزان، (١٩٩٠). الاعتراف بالقصة القصيرة. (ط ١)، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- مارتينييه، أندري، (١٩٨٤). مبادئ اللسانيات، ترجمة أحمد الحلو، دمشق: المطبعة الجديدة.
- - (١٩٩٠). مبادئ ألسنية عامة، ترجمة ريمون رزق الله، بيروت: دار الحداثة.
- ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله، (ت: ٦٧٢هـ). تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، (تحقيق: محمد كامل بركات)، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.
- - شرح التسهيل، تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد المختون، هجر للطباعة والنشر، مصر، ١٩٩٠.
- المبارك، مازن، (١٩٩٥). الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، (ط ٣)، دمشق: دار الفكر.

- ابن المبرد، جمال الدين يوسف بن حسن بن أحمد الدمشقي (٩٠٩ هـ)، محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق عبد العزيز الفريح، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ٢٠٠٠.
- المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد، (ت: ٢٨٥ هـ). المقتضب، (تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٤.
- المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٨ هـ.
- المتنبي، أحمد بن الحسين، (ت: ٣٥٤ هـ). الديوان، (شرح: عبد الرحمن البرقوقي)، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٦.
- المتوكل، أحمد، (١٩٨٧). الجملة المركبة في اللغة العربية، الرباط: منشورات عكاظ.
- (٢٠٠١). قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص. (ط ١)، الرباط: دار الأمان للنشر والتوزيع.
- مجاهد، عبد الكريم، (١٩٨٣). الدلالة عند ابن جني، مجلة الدارة، السعودية، ٩ (١).
- محمد، عشتار داود (٢٠٠٥)، الإشارة الجمالية في المثل القرآني، (ط ١)، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- المخزومي، مهدي، خليل بن أحمد الفراهيدي: أعماله ومنهجه. (ط ٢)، بغداد: مطبعة الزهراء.
- (١٩٦٤). في النحو العربي: نقد وتوجيه، بيروت: المكتبة العصرية.
- مداس، أحمد، (٢٠٠٧)، لسانيات النص: نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، (ط ١)، عمان، الأردن: جدارا للكتاب العالمي، إربد- الأردن: عالم الكتب الحديث.
- المرادي، الحسن بن قاسم (٧٤٩ هـ)، رسالة في جمل الإعراب، تحقيق: سهير محمد خليفة، حقوق الطبع محفوظة للمحققة، ١٩٨٧.
- المسدي، عبد السلام، (١٩٨٣). النقد والحداثة. (ط ١)، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

- المسعدي، محمود، (١٩٩٦). الإيقاع في السجع العربي: محاولة تحليل ونقد. تونس: مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ)، صحيح مسلم، (ط٢)، ترتيب وترقيم الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة عباد الرحمن، مصر، ٢٠٠٨.
- مصطفى، إبراهيم وآخرون، (د.ت). المعجم الوسيط، القاهرة: مجمع اللغة العربية.
- مصلوح، سعد، (١٩٩٠). العربية من نحو الجملة إلى نحو النص. في «دراسات مهداة إلى ذكرى عبد السلام هارون»، الكويت: جامعة الكويت.
- (٢٠٠٣). في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: آفاق جديدة، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت.
- (١٩٩٢). مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، بحث منشور ضمن ندوة: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، نادي جدة الأدبي الثقافي.
- (١٩٩١). نحو أجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية. فصول، ١٠ (١، ٢).
- مطلوب، أحمد، وكامل البصير، (١٩٩٠). البلاغة والتطبيق، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد.
- بو معزة، رابع (٢٠٠٨). الجملة والوحدة الإسنادية في النحو العربي، دمشق: مؤسسة رسلان.
- مفتاح، محمد، (١٩٩٢). تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص. (ط٣)، الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي.
- (١٩٩٦). التشابه والاختلاف: نحو منهجية شمولية. (ط١)، الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي.
- (١٩٩٠). دينامية النص: تنظير وإنجاز. (ط٢)، بيروت والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- (١٩٩٩). المفاهيم معالم: نحو تأويل واقعي. (ط١)، الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافي العربي.

- ابن المقفع، أبو محمد عبد الله، (ت: ١٤٢هـ). الأدب الصغير والأدب الكبير، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠.
- أبو المكارم، علي، (٢٠٠٧). مقومات الجملة العربية، القاهرة: دار غريب.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن جلال الدين، (ت: ٧١١هـ). لسان العرب. (ط ١)، (تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
- منير، وليد، (١٩٩٧). النص القرآني من الجملة الى العالم، (ط ١)، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- المهدي، يمان منور، مبحث «إعراب الجمل» ودوره في وصف الترابط النصي سورة الجاثية نموذجاً، رسالة ماجستير، الجامعة الهاشمية، الزرقاء، الأردن، ٢٠٠٩.
- موسى، عطا محمد، (٢٠٠٢). مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين. (ط ١)، عمان: دار الإسرائ.
- الموسى، نهاد، (١٩٨٧). نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث. (ط ٢)، عمان: دار البشير للنشر والتوزيع.
- المومني، قاسم، (١٩٩٧). علاقة النص بصاحبه: دراسة في نقود عبد القاهر الجرجاني الشعرية، عالم الفكر، ٢٥ (٣).
- الميداني، أحمد بن محمد (ت: ٥١٨هـ). مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٩.
- ميشال، جوزيف، (١٩٨٤). دليل الدراسات الأسلوبية، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- ناصف، مصطفى، (١٩٩٥). اللغة والتفسير والتواصل. سلسلة عالم المعرفة، (١٩٣). الكويت.
- ابن الناظم، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن جمال الدين بن مالك، (ت ٦٨٦هـ)، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد باسل عيون السود، (ط ١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠ م.

- النحاس، مصطفى، (٢٠٠١). نحو النصّ في ضوء التحليل اللساني للخطاب. (ط٢)، الكويت: ذات السلاسل.
- نحلة، محمود، (٢٠٠٢). آفاق جديدة في البحث اللغوي. (ط١)، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- - (١٩٨٨). مدخل إلى دراسة الجملة العربية. (ط١)، بيروت: دار النهضة العربية.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحق (ت ٣٨٥هـ)، الفهرست، تحقيق رضا المازنداني، طهران، ١٩٧١.
- نزار، ميلود، نحو نظرية عربية للإحالة. نسخة إلكترونية.
- نهر، هادي، (٢٠٠٨). علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، إربد: عالم الكتب الحديث.
- نوفل، يوسف، (١٩٩٧). نقاد النص الشعري. (ط١)، القاهرة وبيروت: الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ومكتبة لبنان.
- هاينه من، فولفجانج وفيهفيجر، ديتر، (١٩٩٩). مدخل إلى علم اللغة النصي. (ترجمة: فالح بن شبيب العجمي)، (ط١)، الرياض: منشورات جامعة الملك سعود.
- ابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام، (ت: ٧٦١هـ). أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. (ط١)، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠.
- - شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ٢٠٠٤.
- - شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٨.
- - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ٢٠٠٥.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، مراجعة سعيد الأفغاني، (ط ٥)، بيروت: دار الفكر.
- الوعر، مازن، (١٩٩٤). الاتجاهات اللسانية المعاصرة ودورها في الدراسات الأسلوبية. مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٢، العدد الثالث والرابع.
- (١٩٩٠). تقنيات الفك والربط في الخطاب المنطوق والخطاب المكتوب: دراسة لسانية نقدية أدبية. مجلة المعرفة، العدد (٣٢٤، ٣٢٥).
- ابن وهب الكاتب، أبو الحسين إسحق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٧.
- ابن يعيش، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي الموصل (٦٤٣هـ)، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، ٢٠٠٢.
- شرح المفصل، إدارة المطابع المنيرية، القاهرة، ١٩٦٤.
- يقطين، سعيد، (١٩٩٨). انفتاح النص الروائي. (ط ١)، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- (١٩٩٧). الكلام والخبر. (ط ١)، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- اليوسي، نور الدين أبو علي الحسن بن مسعود، (ت: ١١٠٢هـ). زهر الأكم في الأمثال والحكم. (ط ١)، (تحقيق قصي الحسين)، دار الهلال، بيروت، ٢٠٠٣.
- (ت: ١١٠٢هـ). المحاضرات في اللغة والأدب. (ط ٢)، (تحقيق محمد حجي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢.
- يول، جورج، (٢٠٠٠). معرفة اللغة. (ترجمة: محمود فراج عبد الحافظ)، (ط ١)، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.

المراجع الأجنبية:

- Beaugrand (Ropert De) & Dressler (Wolfgang), An Introduction of Text linguistics, 4th edition, London & New York, Longman. Linguistic Library, 1988.

- Brown (Gillian) & Youl (George), Discours Analysis, 7th edition, London, Cambridge, 1988.
- Chomsky (Noam), Syntactic Structures, Paris, Mouton, 1981.
- Contribution à l'étude de la littérature proverbiale des Arabes A l'époque archaïque) Arbica, I. 1954.)
- Encyclopedic Dictionary of semiotics, Tom 2.
- Halliday (M.A.K) Ruqaiya Hassan, Cohesion in English Language, longman, London, 1976.
- Halliday (M.A.K) & R. Hassan– Language, Context and Text: Aspects of Language in a Social–semiotic perspective, 2nd ed, Oxford University Press, London, 1989.
- Lozano George, Discourse Analyssis, London, 1987.
- Van Dijk, Text & context, Longman, London, 1977.



هذا الكتاب

يعد نحو النص - مصطلحا ومنهجًا - حقلاً جديداً من حقول المعرفة في الدرس اللغوي الذي اصطلح على تسميته (لسانيات النص)، والغرض منه توسيع دائرة النحو المعرفية والانتقال به إلى ما فوق الجملة من مقطع وفقرة، وصولاً إلى نظرة شاملة للنص، وتطويره بما يناسب اللسانيات الحديثة وتحليل الخطاب.

وفي هذا العلم، تحوّل اللسانيون من التعامل مع الجملة على أنها بنية مستقلة إلى معالجة الكيان اللغوي الأوسع وهو النص، والتجهوا نحو الاهتمام به واتخاذ موضوعاً للدراسة؛ فتناولوه بالوصف والتحليل، وبحثوا علاقته بالاتصال اللغوي، وأثره في علاقات النص الداخلية والخارجية.

وكان الهدف من ذلك أن تصاغ نظرية نصية عامة تشكل أساساً لوصف الأشكال النصية المتباينة وعلاقاتها المتبادلة، تنظر إلى النص كله، فلا تقف عند بنائه التركيبي إلا بقدر ما يؤثر هذا الركن البنائي في حركة النص الكلية. وإذا كان إنتاج النص وتلقيه يُعدّان من المناشط المعقدة للغة فقد مضى علماء لغة النص يجربون نماذج مختلفة لوصف النصوص وتحليلها، برصد السمات القارة في النصوص كلها، التي تجعل هذا التركيب اللغوي يسمى "نصاً"، ورأوا أن النص قد يأتلف من جملة واحدة، وقد يأتلف من عدد كبير من الجمل؛ فالحجم أو الطول عندهم ليسا من السمات التي تصنع "نصية" النص.

وركّز "نحو النص" في بحثه لنصية النص على التماسك النصي، وهو قائم على علاقات اساق بين الوسائل اللغوية التي تصل بين العناصر المكونة للنص، وعلى علاقات انسجام تشمل العلاقات المعنوية الظاهرة والمخفية والمعطيات المشكلة لإطار تلقي النص.

